



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عشر
عليه
ص

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

جلال الدين السيوطي
عصره و حياته و آثاره و جهود
في الدرس اللغوي

طاهر سليمان حموده

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى

كاتب:

طاهر سليمان حموده

نشرت فى الطباعة:

المكتب الاسلامى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٣	جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرر اللغوى
١٣	اشارة
١٣	هوية الكتاب
١٣	تصدير
١٤	مقدمة
١٩	الباب الأول عصر السيوطى و حياته، و آثاره
١٩	الفصل الأول
١٩	الحياة السياسية و الاجتماعية
١٩	اشارة
٢٥	الخلافة:
٢٧	نظم الحكم:
٢٧	القضاء:
٢٨	الحياة الاجتماعية
٢٨	اشارة
٢٩	بناء المجتمع:
٣٠	أرباب القلم:
٣١	التجار:
٣١	الصناع و أرباب الحرف:
٣١	العوام «٤»:
٣٢	أهل الذمة: «٣»
٣٢	الفلاحون:
٣٢	الأعراب:

- ٣٣ الأقلبات الأجنبية:
- ٣٤ الحياة فى المدن:
- ٣٥ القلق الاقصادى:
- ٣٦ المجاعات و الأوبئة:
- ٣٨ التصوف و المجتمع:
- ٤٠ الفصل الثانى
- ٤٠ الحياة الثقافىة
- ٤٠ اشارة
- ٤٢ دور العلم:
- ٤٢ اشارة
- ٤٣ ١- المدارس:
- ٤٣ اشارة
- ٤٣ المدرسة الصلاحىة «١»:
- ٤٣ مدرسة السلطان حسن «٢»:
- ٤٣ مدرسة صرغنمش:
- ٤٣ خزائن الكتب:
- ٤٤ ٢- الخوانق و الربط و الزوايا:
- ٤٤ اشارة
- ٤٤ خانقاه سعيد السعداء «٣»:
- ٤٥ خانقاه شىخو «٣»:
- ٤٦ خانقاه البيبرسىة «١»:
- ٤٦ ٣- الجوامع:
- ٤٦ اشارة
- ٤٧ جامع عمرو «٢»:

- ٤٨ جامع ابن طولون «١»:
- ٤٨ الجامع الأزهر:
- ٥٠ [نتائج نشاط الحركة العلمية]
- ٥٠ ١- وفود الطلاب إلى معاهد العلم:
- ٥١ ٢- كثرة العلماء و الأديباء:
- ٥١ ٣- نشاط الحركة التأليفية:
- ٥٢ [منهج التأليف في العصر]
- ٥٢ ١- الاتجاه الموسوعي:
- ٥٣ ٢- ظاهرة التقليد:
- ٥٣ ٣- ظاهرة المتون و الشروح:
- ٥٤ ٤- الاكتمالات و التذييلات:
- ٥٥ ٥- تنظيم العلوم و استقرار المصطلحات:
- ٥٦ ٦- العناية بتاريخ مصر:
- ٥٦ الحياة الأدبية
- ٥٦ اشارة
- ٥٨ الخطبة:
- ٥٩ الرسائل «٢»:
- ٥٩ المقامة:
- ٥٩ الفصل الثالث
- ٥٩ حياته و ثقافته و آثاره
- ٦٠ مولده و نسبه:
- ٦٠ والده:
- ٦١ نشأته و حياته العلمية و العملية
- ٦١ نشأته:

- ٦٢ دراسته:
- ٦٣ شيوخه:
- ٦٣ اشارة
- ٦٤ ١- ابن حجر العسقلاني:
- ٦٤ ٢- علم الدين البلقيني:
- ٦٥ ٣- شرف الدين يحيى المناوي:
- ٦٥ ٤- تقى الدين الشمني الحنفي:
- ٦٦ ٥- محيي الدين الكافيحي:
- ٦٧ ٦- سيف الدين الحنفي:
- ٦٧ مراحل حياته
- ٦٧ اشارة
- ٧٤ العزلة الأخيرة:
- ٧٦ وفاته:
- ٧٦ قبر السيوطي:
- ٧٧ صفة المقام:
- ٧٧ مكانه في المجتمع
- ٧٧ اشارة
- ٨٠ السيوطي بين أنصاره و خصومه:
- ٨٤ دعوى الاجتهاد:
- ٨٦ خلقه و شخصيته:
- ٨٨ منهجه في التفكير و أصول هذا المنهج
- ٨٩ اشارة
- ٩٠ فكرة المبعوثية:
- ٩٢ السيوطي و علوم الحديث

- ٩٤ السيوطى و التصوف:
- ٩٤ السيوطى الفقيه:
- ٩٧ السيوطى و الأدب:
- ٩٩ السيوطى الشاعر:
- ١٠١ آثار السيوطى
- ١٠٤ الباب الثانى جهوده اللغوية
- ١٠٤ تقديم:
- ١٠٥ الفصل الأول
- ١٠٥ فقه اللغة أو: «الدراسات اللغوية غير النحو و الصرف»
- ١٠٥ تقديم:
- ١١١ آثاره اللغوية و مكانها من حياة الدرس اللغوى
- ١١١ اشارة
- ١١١ ١- المتوكلى فيما ورد فى القرآن باللغة
- ١١٦ ٢- المهذب فيما ورد فى القرآن من المعرب:
- ١١٨ ٣- بعض الأبحاث اللغوية المتصلة بالقرآن الكريم:
- ١١٩ ٤- رسالة فى أصول الكلمات:
- ١٢٠ ٥- التبرى من معزة المعرى:
- ١٢٢ ٦- التهذيب فى أسماء الذيب:
- ١٢٣ ٧- فطام اللسد فى أسماء الأسد:
- ١٢٣ ٨- الافصاح فى أسماء النكاح:
- ١٢٣ ٩- الافصاح فى زوائد القاموس على الصحاح:
- ١٢٣ ١٠- الالماع فى الاتباع كحسن بسن فى اللغة:
- ١٢٤ ١١- حسن السير فيما فى الفرس من أسماء الطير:
- ١٢٥ ١٢- غاية الاحسان فى خلق الانسان:

- ١٢٦ شرح قصيدة بانث سعاد: ١٣-١٢٦
- ١٢٧ الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليفة: ١٤-١٢٧
- ١٢٨ الشماريخ في علم التاريخ: ١٥-١٢٨
- ١٢٩ المزهر في علوم اللغة و أنواعها: ١٦-١٢٩
- ١٢٩ اشارة ١٢٩
- ١٣٠ منهج السيوطى فى المزهر: ٣٠-١٣٠
- ١٣٥ وضع أصول لنقد الرواية اللغوية ٣٥-١٣٥
- ١٣٥ اشارة ٣٥-١٣٥
- ١٣٩ المرحلة الأولى: النقد الخارجى: ٣٩-١٣٩
- ١٣٩ أ- رواة اللغة: ٣٩-١٣٩
- ١٤٥ ب- الأسانيد: ٤٥-١٤٥
- ١٥٢ المرحلة الثانية: النقد الداخلى أو نقد المتن: ٥٢-١٥٢
- ١٥٣ مفهوم اللغة عند السيوطى ٥٣-١٥٣
- ١٥٥ الألفاظ ٥٥-١٥٥
- ١٦١ المعنى أو الدلالة اللغوية ٦١-١٦١
- ١٦١ اشارة ٦١-١٦١
- ١٦٦ الأضداد: ٦٦-١٦٦
- ١٦٦ ضبط اللغة ٦٦-١٦٦
- ١٦٧ نشأة اللغة ٦٧-١٦٧
- ١٦٩ الصلة بين اللفظ و المعنى ٦٩-١٦٩
- ١٧١ الوضع اللغوى ٧١-١٧١
- ١٧٣ المعاجم اللغوية ٧٣-١٧٣
- ١٧٤ اثبات الأسماء بالقياس ٧٤-١٧٤
- ١٧٥ الفصل الثانى ٧٥-١٧٥

- ١٧٥ النحو
- ١٧٥ اشارة
- ١٧٦ آثاره النحوية
- ١٧٦ اشارة
- ١٧٦ ١- الأخبار المروية فى سبب وضع علم العربية:
- ١٧٧ ٢- الأشباه و النظائر فى النحو:
- ١٧٨ ٣- الاقتراح فى علم أصول النحو:
- ١٧٨ ٤- الفريدة:
- ١٧٩ ٥- المطالع السعيدة فى شرح الفريدة:
- ١٨١ ٦- شرح ألفية ابن مالك،
- ١٨٢ ٧- جمع الجوامع و شرحه همع الهوامع:
- ١٨٣ ٨- النكت على الألفية لابن مالك، و الكافية و الشافية لابن الحاجب، و شذور الذهب و نزهة الطرف لابن هشام:
- ١٨٤ ٩- الفتح القريب على مغنى اللبيب:
- ١٨٤ ١٠- شرح شواهد المغنى:
- ١٨٥ ١١- الشمعة المضية فى علم العربية:
- ١٨٥ ١٢- الموشح فى علم النحو:
- ١٨٦ الفتاوى النحوية:
- ١٨٧ رسائل الحاوى:
- ١٨٧ اشارة
- ١٨٨ ١- فجر الثمد فى إعراب أكمل الحمد «٢»:
- ١٨٨ ٢- ألوية النصر فى «خصيصى» بالقصر «١»:
- ١٨٩ ٣- الرّند الورى فى الجوانب عن السؤال السكندرى «١»:
- ١٨٩ ٤- رفع السنه فى نصب الرّنه «٢»:
- ١٩٠ بقيه الآثار:

١٩١	السيوطى و علم أصول النحو
٢٠٠	مذهبه النحوى
٢٠٧	خاتمة
٢١٢	ثبت المصادر و المراجع
٢١٢	أولا- أسماء مؤلفات السيوطى
٢٣٣	ثانيا: المصادر العربية و المترجمة (لغير السيوطى)
٢٣٨	ثالثا: المصادر الأجنبية
٢٣٩	مسرد محتويات البحث
٢٤١	تعريف مركز القائمة باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي

إشارة

سرشناسه : حموده طاهر سليمان
عنوان و نام پديد آور : جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي تاليف طاهر سليمان حموده
مشخصات نشر : بيروت المكتب الاسلامي ١٤١٠ق = ١٩٨٩ م = ١٣٦٨ .
مشخصات ظاهري : ٤٣٦ص وضعت فهرست نويسي : old catalog
يادداشت : كتابنامه ص ٤٢٦-٣٨١؛ همچنين به صورت زيرونويس
موضوع : سيوطي عبدالرحمن بن ابى بكر، ٨٤٩ - ٩١١ ق -- سرگذشتنامه
موضوع : سيوطي عبدالرحمن بن ابى بكر، ٨٤٩ - ٩١١ ق -- كتابشناسي
موضوع : محدثان اهل سنت -- سرگذشتنامه
رده بندي كنگره : BP٥٤٤/١/س٩ ح ٨ ١٣٦٩
شماره كتابشناسي ملي : م ٥٥١

هوية الكتاب

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي تأليف د. طاهر سليمان حموده أستاذ العلوم اللغوية بجامعة الاسكندرية و جامعة الملك سعود بالرياض المكتب الاسلامي
جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢
جميع الحقوق محفوظة الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م المكتب الإسلامي بيروت: ص. ب ٣٧٧١ / ١١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقا: إسلاميا
جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٣

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم كان هذا البحث الذي أقدمه للنشر اليوم عملا تقدمت به للحصول على درجة الدكتوراه من قسم اللغة العربية بجامعة الإسكندرية بعنوان «السيوطي اللغوي»، و كنت قد أتممت كتابته في شهر المحرم من عام ١٣٩١ هـ الموافق مارس ١٩٧١ م، و قد تمت المناقشة في مايو من العام نفسه.
و كانت هذه أول دراسة علمية عن السيوطي تقدم في جامعة من الجامعات العربية، و كان من الواجب عليّ، أو من الأنسب لهذه الدراسة أن أبادر بنشرها صونا و إبرازا لما أتصوره من جهود مضيئة بذلتها في البحث و الدراسة عاكفا على التفتيش في المخطوط و المطبوع من آثار السيوطي و آثار الأقدمين.
و لقد ظهرت بعدها دراسات تناولت بعض جوانب السيوطي لا- أشك في اعتمادها أو اعتماد بعضها على هذه الدراسة مع إغفال الإشارة إليها.
و قد عاودت النظر قبيل النشر فيما كتبت من قبل، فرأيت أنني قد قمت في هذا البحث بدراسة وافية لعصر السيوطي و حياته و آثاره، و

هى فى نظرى دراسة ضرورية لا تعدّ مقدّمة للدراسة اللغوية فحسب و إنما تزيد على ذلك إذ توفّى معظم جوانب عصر السيوطى و حياته و ثقافته و منهجه العلمى حقّها من الدّراسة، و لذلك رأيت أن أجعل عنوان الكتاب «جلال الدّين السيوطى: عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى».

و قد قمت بإجراء بعض التصويبات أو التعديلات التى رأيت من الأفضل القيام بها عند المراجعة، و هى قليلة نسبياً، و لم أحاول إجراء تعديلات تتصل بالمنهج أو التصنيف لاقتناعى بسلامتهما و مناسبتها لموضوع البحث.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤
و الله أسأل أن يوفقنا لما فيه الصواب فى العمل و السداد فى القول.

ربيع الأول ١٤٠٩ هـ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٨ م طاهر سليمان حمورة

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٥

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه و على آله و أصحابه و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، و بعد فهذا البحث الذى قصدت به دراسة «السيوطى اللغوى» يتناول شخصيه هامه فى تاريخ الفكر الاسلامى بعامة، و الدرس اللغوى بخاصه، و قد أردت بهذا البحث الذى يتناول شخصيه قدر لها أن تحيا فى عصر متأخر، و فى بيئه متميزه ورثت البيئات الاسلاميه المتقدمه أن أعرض صورة لما آل إليه أمر الدرس اللغوى بعد تدرج طويل مرّ به فى أحقاب متتاليه، و الدرس اللغوى متصل أشد الاتصال بسائر فروع المعرفة الانسانيه، لأن اللغه هى أداة التعبير فى سائر العلوم، و لأن العلوم الاسلاميه من فقه و أصول و حديث و تفسير و غير ذلك تعتمد أشد الاعتماد على اللغه و يهملها ما يصل إليه البحث اللغوى من نتائج، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن جميع هذه الفروع بما فيها البحث اللغوى قد امتزجت أمشاجها عند أولئك القوم و تأثر بعضها ببعض، و لا- يعنى ذلك اختلاطها عليهم و لكن يعنى إفاده كل فرع من الآخر بالقدر الذى تقتضيه طبيعته.

و السيوطى عالم متعدد الجوانب لم يدع فرعاً من فروع المعرفة دون أن يطرقه و يترك لنا فيه آثاراً تزيد أو تنقص بمقدار عنايته بذلك الفرع، و قد ترك اهتمامه المتعدد بشتى ألوان البحث أثراً بالغاً فى تفكيره و طبع عقليته بطابع متميز، كما أن حياته فى عصر متأخر و فى البيئه المصريه التى تميزت فى عهد المماليك بمميزات خاصه حضاريه و ثقافيه، كل أولئك قد ظهر أثره فى إنتاجه و آثاره، لذلك رأيت لزاماً على لكى أستجلى معالم شخصيته و فكره و طابعه العقلى أن أبدأ أولاً

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٦

باستجلاء الصورة العامه لذلك العصر، فمن الخطأ البين أن نحكم على السيوطى بموازين عصرنا اللاحق له و مفاهيمه، كما أنه من الخطأ أيضاً أن نقيمه من منظور العصور السابقه، ذلك أن صورة العصر تفسر لنا كثيراً مما نجده عنده.

و السيوطى- فى حقيقه الأمر- يعطى أصدق صورة للعلوم الإسلاميه بصفه عامه فى نهاية تدرجها، كما أننا نلاحظ فى كتاباته العديده صورة حيه للمجتمع الذى يعيش فيه و يتفاعل معه، و كون الرجل فقيهاً يحيا فى مجتمع مسلم و يرى نفسه من مجتهدى مذهب أو من المجتهدين على الاطلاق قد حتم عليه أن يكون على صله وثيقه بالمجتمع و حاجاته العلميه و ما ينتابه من أحداث يحتاج فيها الناس إلى حكم الله فيلجئون إليه، و قد طبقت فتاواه البلاد الاسلاميه جميعاً، و كان لها أثر فى حياة المجتمع على عهده.

و يتصل بما قدمنا من تحديد جوانبه العقليه ما نلاحظه فى رسائله و كتاباته العديده التى لم يدع فيها خاطراً يمر به إلا دونه و نبه عليه أو وضع فيه مؤلفاً، و كثير من الموضوعات التى قد نعتبرها تافهه ترك فيها آثاراً.

على أن فحص هذه الكثرة الكاثرة من الآثار يبين لنا إلى حد بعيد غلبة الطابع النقلى على منهج الرجل فى جميع دراساته، و لكن ذلك لا- ينفى الجهود التى بذلها فى الترتيب و التنسيق و الجمع، و لا- ينفى بعض ابتكاراته الهامة، كما أنه يصور فى أحيان كثيرة عقلية الواعية و درايته بما يتعرض له من موضوعات.

و أهم الصعاب التى واجهتها فى هذا البحث ما يتصل بآثاره التى لم يطبع جانب كبير منها و لم يصلنا جانب آخر، كما أن هذه الآثار ما بين مختصر و مطول و متن و شرح و منظوم و موشح و مقامه، فضلا عن تعدد ما يتناول منها موضوعا واحدا بحيث يخشى المرء من التباس الأمر عليه، كما أن بعض رسائله الصغيرة قد ضمنها فى ثنايا كتبه الكبيرة إما تضمينا متميزا أو ممزوجا. و النقطة الثانية أن الرجل قد غلب عليه الطابع النقلى الذى استلزم منى أن أبحث فى دوافع سلوكه هذا المنهج، و أن أنظر فى جملة من المصادر التى نقل عنها لكى أحدد منهجه فى النقل و أصف أمانته.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٧

كل أولئك قد جعلنى أسير فى البحث على النسق الذى رأيت موفيا بما قصدت إليه من أغراض فجعلته فى باين يحوى أولهما ثلاثة فصول يتناول كل فصل جملة من الموضوعات المتربطة و يحوى الثانى فصلين أحدهما فى فقه اللغة و الثانى فى النحو.

أردت فى الباب الأول «عصره و حياته و آثاره» أن أخلص إلى الحديث عن منهجه فى التفكير موضحا أصول هذا المنهج، و أن أدرس آثاره بصفة عامة، و قد اقتضى ذلك أن أبدأ بالحديث عن عصره، و الحديث عن العصر يستلزم من الدارس أن يوضح إطاره السياسى و الاجتماعى، فالحياة العقلية ترتبط بالاطارين السياسى و الاجتماعى ارتباطا وثيقا، تتأثر بهما و تؤثر فيهما، و لا يمكننا تفسير بعض الظواهر الثقافية إلا إذا رددناها إلى المؤثرات السياسية و الاجتماعية الملازمة لها.

لذلك خصصت الفصل الأول لتحديد الاطارين السياسى و الاجتماعى لهذه الفترة، فبدأت بالحديث عن الحياة السياسية و اقتضى ذلك الرجوع قليلا عبر السنين للتنبه على حادثه هزت كيان العالم الإسلامى كله، و هى سقوط بغداد و انتقال الخلافة إلى القاهرة، و هذه الحوادث كان لها أثر بعيد فى توجيه الحياة فى البيئه المصرية طيلة عصر المماليك.

ثم انتقلت إلى الحديث عن السلاطين الذين عاصروهم السيوطى لما كان بينه و بينهم من صلوات أثرت فى توجيه حياته و فيما ترك من آثار، و انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن خلفاء بنى العباس بمصر حياة السيوطى، لما كان له و لأبيه من قبل من حظوة عندهم جعلتهم لا يبخلون عليه بالعون و المؤازرة.

ثم أردت تحديد الاطار الاجتماعى لأتبين المكان الذى تنزله طبقه العلماء أمثال السيوطى من المجتمع، و لم تكن تتضح هذه المكانة إلا- بمقارنه هذه الفئة بغيرها من فئات المجتمع و من ثم فقد عرضت لأنواع هذه الفئات مينا درجتها فى المجتمع و فعلها فيه، كما أوضحت صورة الحياة فى المدن و خصصت القاهرة بيئه السيوطى بالتفصيل الكبير، و عرضت لبعض الظواهر الاجتماعيه و الحيويه الهامة التى تميز بها المجتمع آنذاك و أهمها ظاهرة التصوف، و كل ذلك إنما تناولته لما للسيوطى و آثاره من صلة وثيقة به، فالرجل كما قلت صورة حيه لمجتمعه

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٨

تمتله أصدق تمثيل، و قد نبهت أحيانا على تفاعل السيوطى مع ما عرضت من أحداث و صور سياسيه و اجتماعيه. و فى الفصل الثانى تناولت الحياة الثقافية و قد أردت أن أوضح الظواهر التى تميز بها التأليف فى ذلك العصر، و العرف الذى اتبع فى التلقى و التدريس و التأليف حتى يسهل علينا مقارنه آثار السيوطى بما وضع فى عصره، و حتى يمكننا رد كثير من الظواهر التى نلاحظها فى منهجه إلى أصولها، و قد دفعنى ذلك إلى بيان نشاط الحركة العقلية و مظاهر هذا النشاط المتمثلة فى مراكز العلم بأنواعها المختلفة و فى الكثرة الكاثرة من مؤلفات العصر، و فى كثرة الطلبة و الشيوخ، و قد مثلت لكل من هذه المظاهر بمثال أو ببعض الأمثلة و تفصيت عوامل نشاط الحياة الثقافية ثم صببت اهتماما أكثر فى الحديث عن الملاحظات التى أمكن لى الوقوف عليها فيما يتصل

بمؤلفات العصر بصفه عامه ليساعدنى ذلك فى الحكم على مؤلفات السيوطى التى طبعت فى الغالب بما طبعت به مؤلفات العصر، و قد نهبت على تأثر السيوطى بعصره و روحه بين حين و آخر، و لما كانت الحياة الأدبية جزء لا يتجزأ من الحياة الفكرية بعامه فقد رأيت أن أختتم هذا الفصل بالحديث عن هذه الحياة و مميزاتها، لما ذلك من أثر لاحظته على كتابات السيوطى بصفه عامه و على إنتاجه الأدبى بصفه خاصه، فأسلوبه متأثر بروح العصر فى الكتابة و التى من أهم خصائصها الحرص على ضروب البديع، كما أن إنتاجه يمثل الأنواع الأدبية المتنوعه التى عرفها العصر، و يدل على حرص السيوطى على أن يسهم فى جميعها.

و فى الفصل الثالث تناول البحث «حياة السيوطى و ثقافته و آثاره» و قد اتضح فيه أهميه الارتكاز على الفصلين السابقين فى سبيل استجلاء كثير من جوانب الموضوع، و قد بدأت ببيان مولده و نسبه و نسبه و تحدثت عن والده، ثم عرضت بعد ذلك لنشأته و دراسته و قد اقتضى ذلك أن أترجم باختصار لأهم الأساتذة الذين أخذ عنهم و كان لهم فعل و أثر فى عقله و حياته، ثم خلصت بعد ذلك إلى الحديث عن مراحل حياته، و قد أردت بهذا الموضوع أن أبين المراحل التى مرت بها حياة السيوطى العمليه، و أهم البواعث و المؤثرات التى وجهت هذه الحياة

جلال الدين السيوطى عصره و ميّاته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٩

و لذلك فقد تحدثت فى ختام هذا الموضوع عن وفاته باعتبارها نهاية هذه المراحل التى مر بها. و أردت بعد ذلك أن ألقى الضوء على بعض الموضوعات، فتناولت مكاتته فى المجتمع و قد آخرتها بعد عرض مراحل حياته و بعد الحديث عن وفاته لأننى حينئذ أتناول بالدراسة تجربة قد انتهت، و اكتملت و أصبح من الواضح البين إمكان الحكم على جوانبها المختلفه مع الاستعانة بالحوادث التى مرت فى خلال فترة الحياة، و قد بينت فى حديثى منزلته الاجتماعيه و صلته بالمجتمع و أهم الأحداث العامه التى خاضها و أثره فى مجتمعه. و بعد أن بينت هذا الجانب كان لزاما على أن أتبعها بالحديث عن خصومات السيوطى التى تعرض لها و التى فرضها عليه مكانه من المجتمع و تبوؤه درجة لها قدرها، و قد عرضت بعض النماذج القولية التى هاجم بها خصومه، كما عرضت نماذج لهجومهم عليه، و حاولت استجلاء طبيعه هذه الخصومات و تلمست القول المنصف فيها، و أهم الموضوعات التى كانت مجالاً لهذه الخصومات. و كان لزاما على بعد عرض الخصومات و ما تعرض له السيوطى من قدح و هجوم و ما تناول به خصومه من قدح. و ما قمت به من استجلاء للحقائق أن أعرض لخلقته و شخصيته نظراً لأن الخلق العلمى و الأمانة إنما هما جزء لا يتجزأ من سلوك المرء العام فى حياته العمليه، و قد عرضت من الحوادث التى مرت به و من أقواله و أفعاله ما يعين على وصف شخصه و خلقه و صفه دقيقاً، و من هنا خلصت إلى ما أريده من بحث منهجه فى التفكير و تحديد أصول هذا المنهج معتمداً على ما سبق أن قدمته، و قد اقتضى بحث أصول منهجه فى التفكير أن أتناول ثقافته، و لما كان السيوطى عالماً متعدد الجوانب فقد لاحظت أن بعض العلوم قد استحوذ على الجانب الأكبر من اهتمامه و ترك بذلك أثراً واضحاً فى عقله و فكره و منهجه، و رأيت أن أعرض لصله السيوطى بعلوم ثلاثه تركت أبلغ الأثر فى نفسه و منهجه، و هى الحديث لما له من أثر فى طبع منهجه بالطابع النقلى و حرصه على الأمانة و شدة تحرجه فى سائر دراساته، و التصوف الذى سلك فيه مسلماً علمياً و عملياً لأنه يفسر لنا تساهل السيوطى فى جانب كبير من المرويات التى يقبلها و لا- يتعرض لها بالنقد، ثم الفقه لما يطبع به صاحبه من اتصال بالحياة و تعرف على مشكلاتها و دراسة للنص من جميع الوجوه فى سبيل الاستنباط و النظر فى

جلال الدين السيوطى عصره و ميّاته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٠

النقول نظرة عقلية واعية، و رأيت أن أختتم صله السيوطى بهذه العلوم التى أثرت فى فكره بالحديث من صلته بالأدب لما له من صله ببيان أسلوبه التعبيرى و ذوقه، و لما يعكسه من تأثره بالعصر الذى يعيش فيه، ثم عرضت لصلته بالشعر و قد ابتغيت من ذلك أن أتناول موضوعاً يهم البحث و هو المنظومات العلميه التى نظمها السيوطى فى جميع الفنون التى تناولها بالتصنيف، و منها منظومات لغويه و نحوية كثيرة و قد أشرت إلى بعض هذه المنظومات، و لقد دهشت من كثرة هذه المنظومات و من قوة عارضى الرجل و قدرته العارمة

على نظم أدق المسائل و أكثرها جفافاً.

و كان أمامى بعد ذلك الحديث عن آثاره، و رأيت أن أعرض لها بصفة عامة، و قد أبديت خلال هذا العرض الملاحظات التى لاحظتها من حيث عددها و المدد التى كان يستغرقها المؤلف، و أوقات صدورها عنه، و من ناحية أحجامها و وثاقه نسبتها إليه، و لما كان حصر هذه المصنفات من الكثرة بمكان و قد اختلفت فى تقديرها المصادر القديمة و الحديثة فقد قمت بتصنيف هذه الآثار و ترتيبها، و رأيت أن أجعل هذه القائمة فى آخر البحث حيث إن كثيرا منها قد اعتمدت عليه و قد نبهت على ما رجعت إليه و ما كتبه و لم أتمكن من الوقوف عليه، و قد تجنبت بذلك التكرار فى سرد هذه الآثار.

و قد نتج عما قمت به أن استطلال البحث بالباب الأول بالرغم من أن قصدى كان الايجاز أكثر من هذا، و لكن ذلك نتج عما سبق بيانه من أهمية دراسة العصر بنواحيه المختلفة و أحداثه لما لها من صلة عميقة و موجهة لحياء السيوطى، كما أننى لم أجد من الدارسين من خص هذه الفترة بدراسة وصل فيها حياة السيوطى بعصره باستثناء دراسة الأستاذ عبد الوهاب حمودة و قد عرضت لكثير من الجوانب التى أغفلها، كما أننى أردت أن أستوضح عقل الرجل و فكره فى صنوف إنتاجه المتنوع، و أن أعرض لحياته و أستجلى بعض جوانب الغموض التى اكتنفتها و أنه على بعض الأوهام التى وقع فيها المترجمون له، و نظرا لكثرة إنتاج السيوطى و كثرة مؤلفاته فقد استطلال الحديث فى الباب الأول و لم يكن هناك مندوحة عن ذلك فى نظرى.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١١

و قد خصصت الباب الثانى لجهوده اللغوية و النحوية، و قد قسمته إلى فصلين أولهما: عنوانته بفقته اللغوة و عنيت به جميع ما له من دراسات لغوية لا تدخل فى المستوى النحوى بمعناه العام الذى يشمل الصرف، أى ما يتصل بمستويات الدرس اللغوى الصوتية و المعجمية و الدلالية و الأبحاث العامة المتصلة باللغوة، و الثانى: للنحو، و فى الفصل الذى عقدته لفقته اللغوة كان هدفى تحديد دور السيوطى فى هذا الميدان و فى تاريخ هذه الدراسات، و كان لزاما أن أقارنه بأسلافه من اللغويين الذى اعتمد عليهم، و من ثم فقد بدأت باجمال تاريخ الدرس اللغوى و تدرجه قبل السيوطى، و بينت أنواع الدراسات اللغوية التى سبقته و أوضحت أنه لم يظهر فى فقه اللغوة بمعناه الحديث كتاب قبل كتاب السيوطى «المزهر» أجمع و أوفى منه.

و لما كان للسيوطى عدد من الآثار اللغوية غير المزهر فقد بدأت بدراسة هذه الآثار، و قد آثرت ترتيبها ترتيبا موضوعيا حيث إننى قد وجدت من العسير أن أرتبها ترتيبا تاريخيا دقيقا لأننى و إن تمكنت من معرفة الأوقات التى صرح السيوطى بصدور بعضها فيها فإن هذه المعرفة لا تيسر فى سائرها، كما أن الترتيب الموضوعى يسهل على تناول هذه الآثار بالدراسة دون تكرار ما يمكن تجنبه، و قد عرضت ضمن هذه الآثار اللغوية لبعض مباحث السيوطى اللغوية فى كتابه الاتقان، كما أوردت كتابين أحدهما يشرح الأسماء النبوية و الآخر يشرح قصيدة كعب بن زهير ليكونا مثالين لشروحه التى توضح مدى إفادته العملية من الدرس اللغوى، كما عرضت لكتاب فى علم التاريخ ليكون مثالا لثقافته اللغوية التى تخللت ضروب إنتاجه المتنوع، و قد بلغ عدد الرسائل و الكتب التى سقت الحديث عنها ستة عشر، منها سبعة آثار لم أقف عليها، و قد استطعت بتتبع آثار السيوطى الحديث عن بعضها، و بعضها أمكن لى أن أتكهن بمضمون مبحثه، و لما كان كتاب المزهر أهم هذه الآثار و أكثرها بسطا فقد اقتضى أن يكون الحديث عنه متناسبا مع أهميته، و قد بدأت ببيان أهميته بالنسبة للدرس اللغوى بعامة، و ما تميز به عن غيره من الكتب، ثم تناولت منهج السيوطى فى مؤلفه من خلال موضوعات ثلاثة: هى مصادر الكتاب، و طريقة صاحبه فى النقل و العرض، و كيفية تقسيمه، و قد وجدت من دراستى للكتاب أن أهم ما انفرد به

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٢

السيوطى و أعانه عليه ثقافته الاسلامية الواسعة بعامة و الحديثية بخاصة هو تطبيقه منهج المحدثين فى دراسة اللغوة، و قد وضع السيوطى بذلك مهجا لنقد الرواية اللغوية حاول به مضاهاة منهج المحدثين فى نقد الحديث، و هذه محاولة مبتكرة فى ميدان اللغوة سبق إليها

السيوطى محاولاً أن يستدرك بعمله نقصاً فى حقل الدراسة اللغوية، و قد حاولت أن أستوضح هذه المحاولة مقارنة ما قام به السيوطى بما عرف عند المحدثين من أصول و قواعد و مصطلحات وضعت و تقررت لدراسة الحديث و نقده سندا و متنا و الواقع أن أصول نقد الرواية اللغوية لم تحظ قبل السيوطى ببحث نظرى وافر، و لم تكن سوى عرف غير مكتوب تشير إليه مناهج اللغويين العملية و شذرات مقتضبة و متناثرة فى كتب اللغويين و تراجمهم، و للسيوطى فضل إقامة هذه الأصول فى إطار نظرى منظم واضح المعالم، و نقد الرواية يتمثل فى مرحلتين. أولاهما: النقد الخارجى و هى تبحث الرواء و الأسانيد، و الأخرى تتصل بالنقد الداخلى و قد رأيت أن أنفذ إلى عمل السيوطى من خلال هذا التقسيم فبدأت بالمرحلة الأولى و نظرت فى دراسته لرواء اللغة ثم دراسته للأسانيد، ثم تناولت المرحلة الثانية و بحثت فيها ما قام به فيما يتصل بالنقد الداخلى، و قد قارنت صنيعه بصنيع أصحاب أصول الحديث. و كان على بعد ذلك أن أنظر فى الموضوعات اللغوية التى ساقها السيوطى فى كتابه و أن أحاول التعرف على آرائه تجاه بعض القضايا اللغوية، و فى أحيان غير قليلة كنت أراه يسوق الحديث دون أن يدلى فيه برأى من عنده، و فى أحيان أخرى يقتضب رأيه أو يعلق بتعليقات موجزة، و لكننى كنت أحاول من خلال هذه النقول و طريقة عرضها و موضوعها أن أستوضح وجهه نظره إذا لم أجد له تصريحاً بذلك، و قد عرضت لمفهومه للغة و هو يتابع فيه مفهوم ابن جنى و معظم اللغويين العرب، و أردت أن أعطى ما تبقى من مباحث الكتاب لأبين دور السيوطى فيها و آراءه، و قد رأيت أنه من العسير أن أتناول الأنواع التى عرضها فى كتابه مفرداً كلاً منها بالدراسة فذلك ما لا يسمح به المكان فضلاً عما به من تكرار لما سبق لى تناوله فى بحث آثاره، و لذلك حاولت أن أجمل الحديث بقدر الامكان، و رأيت أن أتناول بقیة هذه المباحث تحت ثلاثة أقسام أعرض فيها لمعظم الكتاب، فالقسم الأول للألفاظ و قد عرضت فيه لثلاثة عشر نوعاً

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٣

ذكر السيوطى أنها تبحث اللغة من حيث ألفاظها، و الثانى للدلالة اللغوية أو المعنى و قد جمعت فيه ثلاثة عشر نوعاً ذكر أنها تبحث اللغة من حيث المعنى، و الثالث يتصل بضبط اللغة و أبنيتها، و قد بينت أن التقسيم الذى وضعه السيوطى لم يكن دقيقاً حيث إن بعض المباحث التى وضعها تحت قسم المعانى كان من الأفضل أن توضع فى مباحث الألفاظ، ثم رأيت بعد ذلك أننى لم أستوف القضايا اللغوية التى بحثها الكتاب و من هنا رأيت أن أتناول بعض هذه القضايا محاولاً تبين موقف السيوطى منها، فبحثت نشأة اللغة، و قد أخرجت البحث فى نشأة اللغة إلى هذا المكان على خلاف المعهود لدى الدارسين لأنه فى الحقيقة بحث غير عملى بالنسبة للدرس اللغوى الحديث، بل إن بعض القدماء قد تنبه إلى عدم جدوى هذا البحث و قالوا إن ذكر هذه المسألة فى الأصول فضول، كما بحثت الوضع اللغوى، و إثبات الأسماء بالقياس، و المعاجم اللغوية، و الصلة بين اللفظ و المعنى، و قد قدر اللغويون العرب هذه الصلة و قد وصلت بحوثهم فيها ببحوث المحدثين، و السيوطى من مثبتي هذه الصلة و قد حاول أن يدلل عليها بعدد كبير من الأمثلة.

و فى جميع ما عرضت له حاولت الاستفادة من الدراسات السابقة التى اعتمد عليها السيوطى، و من الدراسات الحديثة التى تناولت بعض هذه الموضوعات بيد أننى كنت أقدر أن هدف البحث هو بيان دور السيوطى من هذه الدراسات و موقفه من هذه القضايا لذلك لم أندفع وراء تفصلى هذه المباحث و إنما حاولت أن أجعل السيوطى دائماً محور الحديث كما هو مقصود البحث.

و فى الفصل الثانى أردت أن أكمل الحديث عن لغوية السيوطى، و رأيت لزاماً على أن أبحث الشق الآخر من البحث اللغوى المتمثل فى النحو، و رأيت أن أبدأ ببيان الدور الذى قام به فى تاريخ الدرس النحوى فعرضت لآثاره النحوية و قيمتها و مكانها من الدرس النحوى، و لما كان للسيوطى عدد كبير من الآثار النحوية فقد قصدت إلى استقصائها و عرضت بدراسة موجزة ألقى فيها الضوء على نحو ستة عشر نوعاً من هذه الآثار ما بين مطول و مختصر و منظوم و موشح و مقالة، و سردت بقیة الآثار التى ذكرت له و لم أتمكن من الوقوف عليها،

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٤

و معظمها رسائل صغيرة، و ما عرضت له و وقفت عليه يمثل معظم جهود السيوطى النحوية.

ثم رأيت بعد ذلك أن أطرق موضوعا يعدّ من مبتكرات السيوطى فى الدرس النحوى و هو علم أصول النحو، و قد حاولت بيان الدور الذى قام به السيوطى فى سبيل إرساء قواعد هذا العلم فعرضت لتدرج أصول النحو و ما كتب فيه قبل السيوطى، ثم عرضت لجهود السيوطى و قارنته بما قام به ابن جنى و ابن الأنبارى، و هما أهم من كتب فى الأصول النحوية قبله، و بينت تفرد السيوطى بكثير من المباحث و دوره العظيم الذى قام به و الذى يصوره كتابه «الاقتراح» الذى يعدّ أهم كتاب و أجمعه فى علم أصول النحو، و لم أنس أن أنتقد صنيع أصولى النحاة بما فيهم السيوطى، و ما شاب أصولهم- فى بعض الأحيان- نتيجة لحملها على أصول الفقه.

ثم اختتمت دراسة السيوطى نحويا بحديثى عن مذهبه فى النحو، و لما كان السيوطى نحويا مصرياً متأخراً، فقد عرضت للمدارس النحوية قبله و للمدرسة المصرية و أهم نحاتها و أهم مميزاتها، ثم بينت منهج السيوطى فى النحو، و مثلت ببعض الأمثلة لاختياراته و آرائه الخاصة، و تعليقاته النحوية.

و هذه محاولة قمت بها أرجو أن أكون قد وفقت فيها، و الكمال لله وحده، و منه نستلهم الرشاد و التوفيق.

ظاهر سليمان حمورة

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٥

الباب الأول عصر السيوطى و حياته، و آثاره

الفصل الأول

الحياة السياسية و الاجتماعية

إشارة

لا بد لنا قبل البدء فى الحديث عن حياة السيوطى و آثاره أن نتناول بالحديث البيئة التى عاش فيها و نبت بين ربوعها و التى انعكست آثارها و مقوماتها- بلا شك- فيها أنتجه من دراسات متنوعة لغوية كانت أو غير لغوية.

و الحديث عن البيئة أعنى به إعطاء صورة واضحة لجوانب الحياة المختلفة، فهذه الجوانب مرتبطة متصلةً الأمشاج يؤثر بعضها فى بعض.

و لئن حاولنا أن نبدأ بأحد هذه الجوانب فإن الأمل فى تصورى أن يكون بالجانب السياسى لهذه البيئة لأنه يمثل الإطار الخارجى لجميع جوانب الحياة الأخرى، و تناول الجانب السياسى يقتضى منا أن نرجع قليلاً عبر الزمان لنرى بداية هذا النظام الذى ساد البيئة المصرية و بيئة الشام قرابة ثلاثة قرون من الزمان.

و ليست محاولة الرجوع للتعرف على هذه النشأة رغبة فى الإطالة فيما قد يبدو بعيد الأثر عن بحث يتناول الجانب اللغوى عند عالم من العلماء و يصب عنايته الجلى على هذه الناحية، و لكنها فى حقيقة الأمر وقفه على حقيقة معينة كانت ذات أثر بالغ فى هذا العصر كله، و لا يمكن لمن يتصدى لدراسة أى ناحية فيه أن يغفل هذه الحقيقة.

تلك الحقيقة التى نريد التنبية إليها هى سقوط بغداد على أيدى التتار الذين اجتاحت غزاهم العالم الاسلامى فى القرن السابع الهجرى، و لقد اتخذت الغزوات المغولية طابعا وحشيا عنيفا يدمر كل ما يجد من حضارات، و يهدم ما يلقى من بناء.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٨

و لقد استطاع التتار قبل وصولهم إلى بغداد أن يقضوا على الدولة الخوارزمية و أن يسيطروا على إيران، و بذلك جاء دور بغداد.

وقد تعرضت بغداد لهجوم التتار فى عام ٦٣٥ هـ و بعث الخليفة بجيش منى بالهزيمة و قتل أكثر جنوده و فر الباقون من وجه المهاجمين «١»، و لم يلبث التتار أن عاودوا هجومهم على بغداد فى سنة ٦٥٦ هـ بقيادة هولوكو الذى استولى على بغداد و قتل الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين ببغداد. «٢»

و تفيض المراجع العربية بذكر الفظائع التى ارتكبتها المغول بسائر الأقاليم التى تعرضت لغزوهم فقد تعرضت بغداد للتخريب فى شتى مرافقها، و جرت الدماء فى الطرقات و استمرت إباحة المدينة للغزاة أربعين يوما حتى أمر هولوكو بعد القتلى فبلغت الألفى ألف قتيل «٣» (أى مليونين من القتلى)، و مهما يكن من أمر هذا العدد و مدى صحته فإنه يعطى صورة لكثرة القتلى و ما أقامه المهاجمون من مذابح بشرية.

و هكذا سقطت الخلافة العباسية فى بغداد، و لم يكن سقوطها فى حقيقة الأمر يعنى نهاية حكم العباسيين و حسب بقدر ما كان يعنى حدثا خطيرا هز كيان العالم الاسلامى كله، ذلك أن الخلافة الاسلامية التى آل أمرها إلى المستعصم آخر خلفاء بغداد كانت تمثل رمزا دينيا لوحدة المسلمين، على الرغم مما كان عليه هؤلاء الخلفاء من ضعف جعل غيرهم ينفرد بالسلطة الفعلية دونهم، و بالرغم من انقسام الأقاليم الاسلامية إلى دويلات متعددة تخضع لحكام متفرقين متناحرين فيما بينهم على ازدياد النفوذ فى كثير من الأحيان.

و لقد شعر المسلمون بمدى الخسارة التى لحقتهم بسقوط بغداد على أيدي التتار الذين دمروا كل ما كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه خلال خمسة قرون «٤»، (١) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٢٧٣.

(٢) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٠٩، تاريخ الخلفاء ص ٣١٣.

(٣) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٠.

(٤) أبو الفداء: مختصر تاريخ البشر: حوادث عام ٦٥٦ هـ، ج ٣ ص ٢٠٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٩

و لم يقف الغزو المغولى عند هذا الحد بل تعداه إلى بلاد الشام حيث أخذت مدن الشام تتساقط فى أيديهم و يحدث بها من الفظائع و التخريب و سفك الدماء مثلما حدث ببغداد «١».

و لقد كانت هذه الغزوات تسبق بموجات من الفرع تعتري سكان البلاد مثلما حدث بدمشق بعد سقوط حلب حيث ارتحل أغلب سكانها، و ارتحل كثيرون من غيرها إلى مصر، و تفيض الكتب العربية بوصف المآسى التى حدثت للناس فى هذه الظروف السيئة «٢».

و وصل الغزو المغولى إلى غزوة و جاء دور مصر التى كان يحكمها المماليك الذين استطاعوا أن يستأثروا بالسلطة دون البيت الأيوبي، و فى هذه الظروف الحرجة استطاع سيف الدين قطز أن يتملك زمام الأمور و أن ينحى سلفه مستندا إلى أن المسلمين فى حاجة إلى

زعيم قوى يوحد صفوفهم ضد الغزو المغولى «٣»، الذى كان يهدد المسلمين فضلا عن مساندته للصليبيين و تقويته جانبهم «٤».

و حضر رسل هولوكو يطلبون من السلطان التسليم بكتاب يتهددون فيه و يتوعدون و يطلبون إليه تسليم مصر لهم «٥»، و كان أن قبض السلطان على الرسل و قتلهم و أبدى كثيرا من الشجاعة و رباطة الجأش فى جمع الصفوف و الدعوة إلى الجهاد على الرغم مما كان يحاوله بعض الأمراء من النكوص عن الجهاد و التخاذل «٦».

و لم يكن ثمة مناص من حدوث الصدام المسلح بين التتار و المماليك، و قد أظهر الأخيرون تماسكا فى وجه عدوهم و تناسوا فى تلك المرحلة الحرجة ما كان بينهم من خلافات، و بدءوا فى الزحف لملاقاة عدوهم حتى انتهى بهم المسير إلى (١) المقريزى:

السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٨، ٤١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١٥، ٤١٦، السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٣) المقريزى: السلوك ج ١ ص ٤١٨، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٥.

(٤) السلوك: ص ٤٢٥ و سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ٢٩.

(٥) نص الكتاب بالسلوك ص ٤٢٧-٤٢٨.

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ٤٢٩.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٠

عين جالوت بين بيسان و نابلس حيث حدثت الموقعة التي تعد من أهم معارك المسلمين في تاريخهم بوجه عام، و قد استطاع المسلمون بقيادة السلطان قطز، و بحسن بلاء بيبرس أن يحرزوا انتصارا ساحقا على عدوهم و أن يتابعوا عدوهم قتلا و أسرا و يلحقوا به هزيمة ثانية قاضية عند بيسان. «١»

و قد يبدو أنني قد فصلت إلى حد ما القول في معركة عين جالوت بالرغم من بعدها نسبيًا عن العصر الذي نود لو نرسم صورة واضحة لمعالمة و لكن حقيقة الأمور تستدعي أن نلقى الضوء على هذا الحدث لما كان له من أثر في العصر المملوكي بصفة عامة، فلقد ترتب على هذه الموقعة آثار خطيرة منها أن المماليك قد بسطوا نفوذهم على مصر و الشام كما أنهم بفضل هذا الانتصار أكسبوا حكمهم صفة الشرعية التي كانوا يفتقرون إليها في نظر الشعب لأنهم مغتصبون للبيت الأيوبي من جهة، و أنهم من أصل غير حر من جهة أخرى، و لقد كانت النقطة الأخيرة سببا في ثورة الأعراب عليهم قبل هذه الموقعة بقليل «٢».

و إذا كان أثر هذه المعركة هو استتباب الأمر للمماليك حكاما للبلاد فإن لها آثارا أخرى سياسية و حضارية في البيئته المصرية بوجه عام و في القاهرة بوجه خاص.

و إذا كانت القاهرة هي المدينة التي نشأ فيها السيوطي و تلقى علمه و تأثر بها و أثر فيها، فإن هذه المدينة قد اكتسبت كثيرا من المميزات على أثر هذا الانتصار، و ظلت تتمتع بهذه المميزات طيلة عصر المماليك، فقد احتفظت القاهرة بما لها من حضارة و حيوية حيث لم تمتد إليها معاول التدمير المغولي التي شملت غيرها من مدن الشرق الاسلامي، و أصبحت ملجأ و ملاذا للعلماء و المفكرين و سائر الناس الفارين من وجه الغزاة، و بحكم الحالة السياسية فقد أصبحت مصر و الشام دولة واحدة قوية تعقد عليها آمال المسلمين في الشرق (١) نفس المصدر ج ١ ص ٤٣١، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٩، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣١٦.

(٢) المقريزي: السلوك ج ١ ص ٣٨٦-٣٨٨.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢١

و الغرب حيث لم يكن للمسلمين دولة ذات شوكة غيرها، فالعراق في الشرق تحت حوزة المغول و كذلك سائر الممالك الاسلامية الشرقية، و الأندلس في الغرب تعاني من التفكك و تلفظ أنفاسها الأخيرة، و هكذا فإن الثقل السياسي و الحضاري للمسلمين بصفة عامة قد انتقل إلى القاهرة حيث عاصمة البلاد القادرة على حماية المسلمين.

و حلت القاهرة محل بغداد في كل شيء و أصبحت وارثه لها في تركتها سياسيا و حضاريا و ثقافيا، و إكمالا لهذه الصورة فلقد انتقلت الخلافة العباسية كذلك من بغداد إلى القاهرة، و حرص المسلمون على الخلافة التي تمثل وحدتهم جميعا يتضح من حديثهم عن سقوط خلافة بغداد و كيف «أقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين و نصف سنة» «١» حتى تولى الخلافة أحد أبناء الخلفاء السابقين ببغداد حيث قصد إلى القاهرة و تلقاه سلطانها الظاهر بيبرس و استقبله العلماء و الجند و سائر طوائف الشعب أروع استقبال فرحا بإحياء الخلافة «٢». و هكذا انتقلت الخلافة الإسلامية التي كانت في هذا الحين رمزا دينيا سياسيا و حسب إلى القاهرة منذ عهد بيبرس سنة ٦٥٩ هـ و أصبح أحد مناصب الدولة الرئيسية، و ظل الحال على ذلك حتى آخر هذا العصر إلى حين قدوم السلطان سليم العثماني في سنة ٩٢٣ هـ. و إذا كان الخليفة في العصور الإسلامية المبكرة هو صاحب السلطة الحقيقية في تدبير شؤون البلاد التي تتبعه و توليه و لواء الأقاليم و عزلهم و تسيير الجيوش و الغزوات فإن ضعف الخلفاء في بغداد أواخر عهدهم قد أفقدهم هذه السلطة كما أن الخلافة الجديدة بمصر لم تكن لديها هذه القوة، و على الرغم من ذلك فإن هذه الحقوق كانت لا تزال مكفولة للخلفاء من الناحية الشكلية النظرية، فالخليفة هو الذي يولى السلطان و لا يكون تولى السلطان شرعا إلا باقرار الخليفة.

وقد روعى ذلك منذ تولى أول خليفة فبعد مبايعة السلطان و العلماء و الأمراء للخليفة قام هو بدوره فألبس «السلطان بيده خلعة سوداء و عمامة سوداء و طوقا (١) السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٧.

(٢) السلوك: ج ١ ص ٤٩٩، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٨، تاريخ الخلفاء ص ٣١٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٢

فى عنقه من ذهب و قيدا من ذهب فى رجليه، و فوض إليه الأمور فى البلاد الاسلاميه، و ما سيفتحة من بلاد الكفر و سماه بقسيم أمير المؤمنين» (١)، و ظل هذا التقليد ساريا منذ تولى الظاهر بيبرس و حتى آخر سلاطين المماليك و هو السلطان الغورى. (٢) و هكذا استقرت الخلافة الاسلاميه بالقاهرة بالاضافة إلى ما تمتعت به البلاد من قوة سياسيه و عسكريه و كان ذلك يعنى ما أشرنا إليه من ازدهارها و اتجاه المسلمين إليها و هو ما أدركه المؤرخون السابقون المعاصرون لهذه الأحداث الذين ذكروا «أن مصر حين صارت دار الخلافة عظم أمرها و كثرت شعائر الاسلام فيها، و علت فيها السنه، و عفت منها البدعة و صارت محل سكن العلماء، و محط رحال الفضلاء» (٣).

و إذ كنا قد أوضحنا جانب الخلافة و بداية هذه الدولة فلا يضيرنا هنا أن نشير إلى سلاطينها و خلفائها و أن نتناول توضيح المعالم السياسيه لهذه الدولة لا سيما فى آخر عهدها لنخص بالحديث الفترة التى عاصرها السيوطى.

وقد تميز هذا العصر بصفه عامه بالعصبيات بين طوائف المماليك المختلفه و التناحر من أجل الوصول إلى السلطه، و أهم هذه العصبيات ما كان بين طوائف المماليك الترك و طائفة المماليك الجراكسه و ما لقيه الأخيرون من اضطهاد فى أيام حكم أبناء قلاوون (٤). على أن هذا الاضطراب الداخلى قد استمر أيضا بعد تولى برقوق أول المماليك الجراكسه، فقد كان الوصول إلى العرش يتم دائما عن طريق العصبيات و ازدياد النفوذ بين أمراء المماليك، و لذلك فإن الفتن السياسيه الداخليه لم تنقطع خلال هذه المرحله (٥)، فالأمير القوى الذى يستطيع (١) السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٨.

(٢) السيوطى: المصدر السابق ج ٢ ص ٨٧.

(٣) المصدر السابق: ج ٢ ص ٨٦.

(٤) سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ١٣٧-١٤٥.

(٥) عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ص ٣-٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٣

أن يؤلب طوائف المماليك على غيره و أن يجمع غالبيتهم حوله هو الذى يستطيع الوصول إلى دست السلطنه بعد وفاة السلطان أو بتنحيته عن الحكم.

و هكذا فلقد كانت الفتن الداخليه و المنازعات بين أمراء المماليك من أجل الوصول إلى دست السلطنه هى طابع ذلك العصر (١)، و لم تكن تخمد هذه الفتن إلا فى خلال حكم سلطان قوى يستطيع بدائه و قوته مواجهه هذه الصعاب و التغلب عليها. و فضلا عن هذه الفتن الداخليه فلقد طبع هذا العصر ببعض الاضطرابات الخارجيه التى تعود سلاطين المماليك مواجهتها و هى خروج أمراء الشام على طاعتهم، و كذلك تعرض البلاد لغزوات المغول، و لغارات الأعراب المتكرره (٢)، ثم ظهرت منافسه سلاطين آل عثمان الذين قويت شوكتهم و اتجهوا للغزو توسيعا لرقعه دولتهم و أصبح سلاطين المماليك يجدون فيهم منافسا خطيرا لهم.

وقد عاصر السيوطى فى طفولته مجموعه من السلاطين الذين كان لهم حكم البلاد (٣)، و قد شهدت هذه الفترة توليه عدد كبير منهم لم يكن يستقر بهم المقام فى دست السلطنه طويلا، حتى أقيم «سلطان العصر الملك الأشرف قايتباى المحمودى» (٤)، و الحقيقه أن أهم السلاطين الذين عاصرهم السيوطى هو قايتباى (٨٧٢-٩٠١هـ)، و هو أطول ملوك هذه الفترة حكما، و أصله من مماليك الأشرف برسباى، و غريب ألا نجد لقايتباى ترجمه فى كتاب السيوطى الذى ترجم فيه لأعيان القرن التاسع (٥)، بالرغم من أنه لم يغفل

كثيرا من معاصريه و من سلاطين عصره من الأتراك و المغول و المماليك و يبدو أنه قد أفرد بترجمة.

و قد امتدحه كثير من المؤرخين فأشاد بحسن تدينه و حبه للخير و تعففه عن (١) د. سعيد عاشور: العصر الممالىكى ص ٣٢٣.

(٢) المصدر السابق ص ٤.

(٣) تحدث عنهم فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠٦، و هؤلاء السلاطين ذكرهم ابن إياس فى حوادث تلك الأعوام، راجع: تاريخ مصر ج ٢ ص ٢٩ - ٧٠.

(٤) السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠٦، العصر الممالىكى ص ١٧٢.

(٥) كتاب نظم العقيان فى أعيان الأعيان.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٤

الشهوات و كثرة حسناته فضلا عما لا ينكره أحد من كثرة ما أقام من إنشاءات و إصلاحات «١»، و يعتبر أبرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة، فقد امتد حكمه طيلة تسعة و عشرين عاما، و من الجانب السياسى فقد كان ماهرا و موصوفا بأنه كان «كفوًا للسلطنة وافر العقل، سديد الرأى عارفا بأحوال المملكة، يضع الأشياء فى محلها ... موصوفا بالشجاعة عارفا بأنواع الفروسيه» (٢) و قد اضطرت حروبه الكثيرة إلى زيادة الضرائب فى كثير من الأحيان، و كان ازدياد قوة آل عثمان سببا فى حدوث بعض المنازعات بينهم و بين قايتباى و قد انتهت بمهادنة الطرفين فى سنة ٨٩٦ هـ (٣).

و فى أيام هذا السلطان فى سنة ٨٩٧ هـ أصاب البلاد وباء شديد و قد عاصر السيوطى هذا الوباء و ذكر أنه «جمع فى الموت بين كل ألفين، و بلغ عدد الموتى فى كل يوم أزيد من ألفين، و قيل أكثر من ذلك ..» (٤).

و يفيض السيوطى فى وصف هذا الطاعون و ما أحدثه بالبلاد من خراب حتى أن نصف سكان القاهرة قد قضوا نحبهم بسببه، كما أن القرى و الأقاليم لم تسلم منه ثم كان للاسكندرية نصيب فى العام التالى من هذا الطاعون «٥»، و كان الوباء المشار إليه ثالث الأوبئة الجارفة التى أصابت البلاد فى حكم قايتباى فقد كان أولها فى عام ٨٧٣ هـ، و حدث الثانى فى عام ٨٨١ هـ، و يبدو أن هذه الأوبئة كانت سمة بارزة فى هذا العصر و كانت تعترى الناس فى فترات غير متباعدة حتى أن مدة خمس عشرة سنة بين وباءين تعتبر فى نظرهم مدة طويلة «٦». (١) الشوكانى: البدر الطالع ج ٢ ص ٥٥ - ٥٦ ترجمة السلطان قايتباى.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٩٨، د. سعيد عاشور، العصر الممالىكى ص ١٧٤.

(٣) عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ص ٦.

(٤) السيوطى: المقامة الطاعونية ضمن مقامات السيوطى ص ٦٩.

(٥) المصدر السابق ص ٧٠ - ٧١.

(٦) المصدر السابق ص ٦٩ حيث يقول «و كان للطاعون نحو خمس عشرة سنة لم يطرق هذين المصرين»، انظر ابن إياس ج ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٥

و إن يكن السيوطى قد أغفل ترجمة السلطان قايتباى على ما يبدو فإنه لم يفته أن ينوه بذكره و أن يمتدحه فى كتابه الذى ألفه بعد وفاته فذكر عنه أنه «سار فى المملكة بشهامه و صرامه ما سار بها قبله ملك من الملوك من عهد الناصر محمد بن قلاوون .. و من سيرته الجميلة أنه لم يولِّ بمصر صاحب وظيفه دينية كالقضاء و المشايخ و المدرسين إلا أصلح الموجودين لها بعد طول ترويه و تمهله بحيث تستمر الوظيفة شاغرة الأشهر العديدة و لم يولِّ قاضيا و لا شيخا بمال قط» (١).

و جدير بالذكر هنا أن السخاوى معاصر السيوطى قد أثنى غاية الثناء على قايتباى فى ترجمته له التى يبدو أنه كتبها فى حياته فنوه بقوته و حسن تصرفه كما أشاد بحسن تدينه و اعتقاده، و سيرته الحسنة فى الرعية، و كثرة ما أقام من إصلاحات و انشاءات حتى قال

فيه: «و بالجمله فلم يجتمع لملك ممن أدركناه ما اجتمع له، و لا حوى من الحذق و الذكاء و المحاسن مجمل ما اشتمل عليه و لا مفصله» (٢)، أما ابن اياس الذى كتب تاريخ هذه الحقبة و كان معاصرا لها و الذى كتب عن السلطان قايتباى بعيد وفاته فإنه يبدو فى تاريخه أكثر اعتدالا و موضوعية حيث يشيد بحسناته و لا يغفل ذكر بعض مساويه ثم يقول: «و كانت محاسنه أكثر من مساويه» (٣).

و بالاضافة إلى ما ذكرنا من مميزات الفترة التى حكمها قايتباى من منافسة العثمانيين إلى انتشار الطواعين، فقد تميزت هذه الفترة بكثرة الضرائب و جمع الأموال للحروب و هذا ما جعل مؤرخا كابن اياس يذكر عنه أنه «كان محبا لجمع الأموال ناظرا لما فى أيدي الناس و لو لا ذلك لكان يعد من خيار الملوك» (٤).

كما أن هذه الفترة قد تميزت نسبيا باستقرار الأوضاع السياسية الداخلية و ذلك إذا ما قورنت بالفترات السابقة و اللاحقة، أو بعبارة أخرى إذا ما قورنت بطابع ذلك العصر الذى اصطبغ بالفتن و المؤامرات و الحروب الداخلية بين أمراء (١) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢.

(٢) السخاوى: الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٠١-٢١٠.

(٣) ابن اياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٩٨.

(٤) المصدر السابق: ج ٢ ص ٢٩٨.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٦

المماليك الطامعين فى السلطنة. و حين طعن السلطان السابق فى السن اتفق كبار أمراء المماليك على خلعه و تولية ابنه محمد الذى لقب بالناصر (١)، و قد حاول أحد أمراء المماليك و يدعى قانصوه خمسمائة أن يتولى السلطنة و كاد يتم له الأمر و جمع الخليفة و القضاة الأربعة و الأمراء و تمت له البيعة لو لا أن تعصب بعض المماليك الجلبان بزعامه قانصوه خال السلطان الناصر و استطاعوا هزيمة خصومهم و بذلك عاد الناصر إلى سلطنته (٢)، و لم تطل بالرغم من ذلك سلطنة محمد بن قايتباى فقد تعرض لمؤامرة دبرها له ممالিকে أودت بحياته (٣).

و يعطى ابن اياس صورة عن حالة الفوضى التى تعرضت لها البلاد فيذكر عن السلطان السابق أنه «كانت مدة سلطنته بالديار المصرية نحو من سنتين و ثلاثة أشهر و تسعة عشر يوما و كانت أيامه كلها فتنا و شرورا و حروبا قائمة» (٤)، و تولى بعده خاله قانصوه الأشرفى فى ربيع الأول سنة ٩٠٤ هـ (٥)، و قد كانت مدة حكمه سنة و ثمانية أشهر، و قد صلحت أحوال البلاد فى أيامه إذا ما قورنت بأيام.

سلفه، و قد كان ملكا لين الجانب (٦). و قد دفع الطمع فى السلطنة أحد كبار الأمراء و هو طومان باى إلى أن يثور فى وجه السلطان السابق بعد أن جمع حوله المماليك، و حاول السلطان ترضيته و لكنه لم يفلح و استطاع طومان باى و من معه من الجند أن ينزلوا الهزيمة بمن بقى بالقلعة من الجند عند السلطان بعد حصارها ثلاثة أيام، و كان طومان باى يطمع فى السلطنة لو لا وجود من هو أحق منه و هو جان بلاط، و هنا تعصب له طومان باى و ولاء السلطنة (٧)، غير أنه لم يكن يكتفئ له الولاء التام إذ لم يلبث أن ثار عليه و خلعه ليتولى مكانه حين آنس من نفسه قوة بمن معه من الجند الذين كان ذاهبا بهم لآخمد ثورة الشام، و لكنه اتفق مع (١) ابن اياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٣، العصر المماليكى ص ١٧٦.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٩-٣١١.

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٨.

(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٤٩.

(٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٥٠.

(٦) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٦٩.

(٧) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٦٨، ٣٦٩.

جلال الدين السيوطى عصره و ميّاته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٧

أمراء الشام على خلع السلطان و بويج له هناك بالسلطنة و لم يلبث أن جاء بعسكره إلى مصر و استطاع الاستيلاء على مقاليد الأمور (١).

و لم تطل أيام طومان باى فى السلطنة إذ مكث ثلاثة أشهر «و كانت مدة سلطنته كلها شرور و فتن مع قصرها و آخر الأمر هرب و اختفى و استمر مختفيا حتى ظهر و قبض عليه و قطعت رأسه» (٢)، و قد ثار عليه أمراء المماليك لما رأوا نيته السيئة حيالهم، و آل الأمر إلى أن تولى قانصوه الغورى السلطنة بعد تمنع و إباء خوفا على نفسه أن يحدث له ما حدث لأسلافه (٣)، و ذلك فى مستهل شوال سنة ٩٠٦ هـ.

و جميع هؤلاء فيما عدا الغورى قد تولوا فترات قصيرة كما بينا مما يصور حالة الفوضى التى عمت الدولة فى هذه الحقبة، و يفيض ابن اياس مؤرخ هذه الفترة فى شتى المواضع فى وصف الفتن و المؤامرات التى كانت لا تلبث تتحرك بين حين و آخر و الحروب التى اشتعلت نيرانها أكثر من مرة بين الأمراء الطامعين فى السلطنة.

و قد عمل الغورى على إعادة الاستقرار إلى البلاد، و وطّد أركان ملكه و ما زال يحتال بمنافسيه حتى أفناهم (٤)، و قد حاول أن يملأ خزانة الدولة التى كانت فارغة و اتبع فى ذلك صنوف المظالم و انتهب أموال الناس و انقطعت بسببه الموارد، فضح أهل مصر و من تحت طاعته من أخذه لأموالهم (٥).

و لم تحدث قلاقل داخلية فى الفترة الأولى من حكم الغورى باستثناء بعض ثورات المماليك الجلبان، و لكن الخطر الحقيقى الذى هدد الدولة كان آتيا من ناحية البحر حيث اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح. و تحول مرور التجارة عن مصر و فقدت الدولة بذلك أعظم مورد لها، و لم يكتف البرتغاليون (١) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٨٣، ٣٨٤.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٩٥-٣٩٦.

(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ٢-٤.

(٤) الشوكانى: البدر الطالع ج ٢ ص ٥٤.

(٥) المصدر السابق ص ٥٥.

جلال الدين السيوطى عصره و ميّاته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٨

بذلك بل هاجموا السفن المصرية فى البحر، و انتصر المماليك فى أول الأمر بأسطولهم و لم يلبث البرتغاليون أن ثأروا لأنفسهم فى موقعه ديو البحرية و هكذا ضاعت مكانة مصر فى الوساطة التجارية بين الشرق و الغرب (١)، و لم يكن هذا الخطر بأكبر من خطر بنى عثمان الذين قويت دولتهم و علا شأنهم منذ استولوا على القسطنطينية، و قد حدثت منازعات بينهم و بين السلطان قايتباى، و لم تكن هذه الأحداث ذات نتيجة حاسمة حتى كانت أيام السلطان سليم العثمانى الذى كان معاصرا للغورى و انتهى النزاع بينهما إلى انتصار الأتراك فى «مرج دابق» سنة ٩٢٢ هـ، ثم دخولهم مصر فى سنة ٩٢٣ هـ، و ذلك بعد وفاة السيوطى التى كانت سنة ٩١١ هـ، و منذ ذلك الحين فقدت البلاد استقلالها و أضحت تابعة للدولة العثمانية و انتهت بذلك سلسلة السلاطين الشراكسة.

الخلافة:

و إذا ما استعرضنا خلفاء الحقبة الأخيرة من هذا العصر و التى شهدها السيوطى فإن أولهم هو المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن المتوكل المتوفى سنة ٨٥٥ هـ على ما يذكر ابن اياس فى الثانى من المحرم (٢)، أو فى أواخر عام ٨٥٤ هـ على ما يذكر السيوطى (٣)، و لعل السيوطى قد أدرك هذا الخليفة فى طفولته حيث كان أبوه مقربا منه، و هو الذى كتب له نسخة عهد الخلافة الذى عهد له به أخوه داود (٤)، و قد ذكر السيوطى عنه أنه كان من صلحاء الخلفاء، كما أشار إلى العلاقة التى كانت بين أبيه كمال الدين و بين هذا

الخليفة حيث كان «إماما له و كان عنده بمكان رفيع خصيصا به محترما عنده جدا، و أما نحن فلم نشأ إلا فى بيته و فضله، و آله خير آل دينا و عبادة و خيرا و لم يعش والدى بعده إلا أربعين يوما و مشى السلطان فى جنازته إلى تربته و حمل نعشه بنفسه» (٥)، (١) د. سعيد عاشور: العصر الممالىكى ص ١٧٨ - ١٨٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٣.

(٣) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٣٤١.

(٤) المصدر السابق ص ٣٤٠، ٣٤١.

(٥) نفس المصدر ص ٣٤١، انظر حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤، ٨٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٩

و بايع السلطان بالخلافة بعده أخاه أبا البقاء حمزة و لقب بالقائم بأمر الله، و حدثت جفوة بينه و بين السلطان انتهت بخلع و تولية أخيه مكانه، و قد حكم بخلعه قاضى القضاء علم الدين البلقينى و ذلك فى سنة ٨٥٩ هـ «١». و بايع السلطان بعده أخاه يوسف و لقب بالمستنجد بالله و ساعده فى الوصول إلى منصب الخلافة القاضى البلقينى لكونه زوج ابنته «٢»، و قد ظل فى الخلافة إلى أن توفى فى عام ٨٨٤ هـ و قد بلغ التسعين أو جاوزها «٣»، و قد قلد خمسة من السلاطين آخرهم قايتباى «٤»، و قد عهد الخليفة السابق لابن أخيه عبد العزيز الذى تلقب بالمتوكل على الله و قد طالت أيامه فى الخلافة و كان كفؤا لذلك «٥»، و قد كان هذا الخليفة صديقا للسيوطى و هو آخر من ترجم لهم السيوطى فى تاريخ الخلفاء و قد أشاد بذكره فذكر أنه «نشأ معظما مشارا إليه محبوبا للخاصة و العامة بخصاله الجميلة و مناقبه الحميدة، و تواضعه و حسن سمته و بشاشته لكل أحد و كثرة أدبه، و له اشتغال بالعلم، قرأ على والدى و غيره» «٦». و كانت وفاة المتوكل فى المحرم سنة ٩٠٣ هـ، و قد أشاد بذكره ابن إياس و ذكر عنه أنه كان من خيار بنى العباس و كانت خلافته تسع عشرة سنة و أياما «٧»، و قد عهد المتوكل لابنه يعقوب بالخلافة، و قد تولى بعد وفاة أبيه و لقب بالمستمسك بالله و يقال إن الذى كناه و لقبه هو الجلال السيوطى «٨»، و قد ذكره السيوطى فى تاريخ الخلفاء غير أنه لم يترجم له إذ إن السيوطى قد توفى فى حياة هذا الخليفة «٩»، و قد شهد الخليفة الأخير مبايعة عدد من السلاطين و امتدت به الحياة إلى أن رأى احتلال العثمانيين للبلاد، و كان ابنه هو آخر الخلفاء العباسيين بمصر. (١) تاريخ الخلفاء ص ٣٤١، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٥، ابن إياس ج ٢ ص ٥٢.

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٥، ابن إياس ج ٢ ص ٥٢.

(٣) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٥، ١٨٦.

(٥) المصدر السابق ج ٢ ص ١٨٦.

(٦) تاريخ الخلفاء ص ٣٤١.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٣٣.

(٨) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٣٣، ٣٣٤.

(٩) تاريخ الخلفاء ص ٣٤٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٠

و الملاحظ أنه لم يكن للخليفة سلطة تذكر بجانب السلطان، و قد كان فى مقدور السلطان أن يخلع الخليفة و أن يولى غيره، و كانت مبايعة الخليفة للسلطان تقليدا شكليا و اعترافا من قبل الخليفة بالأمر الواقع الذى لم يكن له فيه خيرة، و بالرغم من ذلك فقد كان منصب الخلافة من المناصب الجليلة بالدولة، كما أن السلاطين راعوا حرمة الخليفة و توقيره فى كثير من الأحيان.

و إكمالا- للحديث عن الحياة السياسية لا- نرى بأسا من أن نشير إلى نظم الحكم و القضاء بالدولة لارتباط هذه الأمور بالنواحي

السياسية:

نظم الحكم:

كانت دولة المماليك إقطاعية كما سبق أن أشرنا، و قد قسمت أراضي مصر إلى أربعة و عشرين قيراطا، اختص السلطان منها بأربعة قراريط و وزعت بقية الأرض على الأمراء و جندهم، و أجناد الحلقة و العربان و التركمان «١».

و كان الإقطاع شخصيا لا دخل لأحكام الوراثة أو الملكية فيه، و بموت المقطع أو إخلاله بشروط الإقطاع يمكن للسلطان أن يخرج عن إقطاعه و يمنح الإقطاع لغيره، و كان السلطان على رأس الهرم الإقطاعى بالبلاد و كذلك على رأس الهرم الإدارى، و وجد إلى جانبه مجلس للمشورة يضم أتابك العسكر و الخليفة العباسى و الوزير و قضاة المذاهب الأربعة و أمراء المائتين، و قد تعددت اختصاصات ذلك المجلس فى شئون الحرب و الصلح، و شغل المناصب الكبرى للدولة، على أن السلطان لم يكن ملزما بدعوة هذا المجلس أو الأخذ برأيه فهو صاحب الرأى الأخير بوصفه حاكما مطلقا «٢».

و كانت إقامة السلطان و الأمراء و أسرهم بقلعة الجبل، و قد كانت بمثابة مدينة صغيرة تضم طباق المماليك السلطانية فضلا عن عديد من دواوين الدولة و أجهزتها، و كان بها كثير من القصور و العمائر و المساجد. (١) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٣، ٤٥٤. (٢) د. سعيد عاشور: العصر الممالكي ص ٣٥٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣١

و قد بلغ النظام الادارى غاية الدقة، و تنوعت الدواوين التى تختص بمختلف الشئون «١»، و كان هناك نائب السلطنة و هو المنصب الثانى بعد السلطان، و بعده يأتى الأتابك و هو قائد جيش المماليك، ثم يليه الوزير الذى كان نفوذه أقل من سابقه. و كان هناك نواب السلطنة بالأقاليم الكبيرة أو التى لها أهمية خاصة، و قد ناب كل منهم عن السلطان فى وحدته الادارية، و كان عليهم الرجوع إلى السلطان فى المسائل التى لا يستطيعون الانفراد بالبت فيها «٢».

و يأتى بعد هؤلاء فئة الولاة و كان أفرادها يختارون من بين الأمراء ليقوموا بوظيفة كوظيفة المحافظ الآن أو أكبر شأنًا فى الأقسام الادارية، و كان أكبر هؤلاء شأنًا هو والى القاهرة الذى عهد إليه بالاشراف على العاصمة و صيانتها و حماية أهلها من عبث المفسدين و اللصوص و مثيرى الفتن، و كان عليه مكافحة الأمراض الاجتماعية كانتشار الخمر و تعاطى الحشيش و غيرها و كان يتخذ لذلك من الوسائل ما يراه كفيلا بتحقيق غرضه «٣».

القضاء:

حظى القضاء باهتمام رجال الدولة، كما تمتع القضاء بمكانة اجتماعية كبيرة بين الناس، و روعى فى اختيارهم شروط معينة، و كان هناك قضاة المذاهب الأربعة و ظل هذا النظام طيلة عصر المماليك، و كان على رأس كل فئة قاضى قضاء المذهب، و كان لقضاة القضاء مكانة عظيمة بالدولة فقد كانوا يحضرون مجالس السلطان، فضلا عن ضرورة حضورهم مبايعة السلطان الجديد، و كان للقاضى الشافعى مكانة ممتازة عن سائر القضاة و له اختصاصات تزيد على نظرائه من قضاة القضاء.

و كان هناك «قضاة العسكر» و هم الذين يختصون بشئون الجند كما كانوا (١) السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١١.

(٢) د. سعيد عاشور: العصر الممالكي ص ٣٥٤، ٣٥٥.

(٣) د. سعيد عاشور: العصر الممالكي ص ٣٥٦، ٣٥٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٢

يفصلون فى المنازعات القائمة بين العسكر والمدنيين «١».

وقد كان للقضاء دور هام فى المجتمع، باعتبار المسئوليات الكبيرة الملقاة على عواتقهم و نظرا لتنوع القضايا التى ينظرونها و يفصلون فيها، فضلا عن اضطلاعهم بشئون الوصايا و الأحباس و شئون اليتامى و التدريس بالمدارس «٢».

و كان لكل قاض عدد من النواب الذين يعينونه فى القضاء، كما كان لكل منهم عدد معين من الشهود الذين يتعرفون أحوال الناس و يشهدون فى القضايا و لهم حوانيت معلومة «٣»، و كثيرا ما تعرض النواب و الشهود لنقد مرير من الناس نتيجة لتصرفاتهم المشينة فى بعض الأحيان، بل إن النقد قد تجاوز هؤلاء إلى القضاء أنفسهم لإهمالهم فى شئون الأوقاف و المدارس التى يلون نظارتها «٤». و قد تعود السلاطين أنفسهم أن يعقدوا جلسات للنظر فى المظالم التى تعرض عليهم، و كان مجلس السلطان يحضره قضاء القضاء الأربعة و عدد كبير من كبار رجال الدولة و كانت هيئة جلوسهم تتم وفق «بروتوكول» معروف دقيق «٥»، و غالبا ما كانت هذه الجلسات تعقد يومين من كل أسبوع.

و قد اقتصر جلوس السلاطين على مدد قصيرة- بمرور الزمن- و يبدو أنه كان من حق أى إنسان أن يتقدم بشكايته إلى السلطان مهما كان موضوع الشكوى، حتى أبطل ذلك قايتباى و أمر بالأى يتقدم أحد إلى السلطان إلا بعد أن يرفع أمره إلى القضاء، فإذا لم ينصفوه فإن من حقه رفع الأمر إلى السلطان «٦».

على أنه كانت هناك وظيفة قريبة الصلة بالقضاء هى الحسبة، و كان يحدث أن تسند الحسبة و القضاء إلى شخص واحد، و كان عمل المحتسب يقوم على (١) المصدر السابق ص ٣٦٦.

(٢) نفس المصدر ص ٣٦٧.

(٣) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٥٨.

(٤) المصدر السابق ص ١٥٩.

(٥) السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠٩، ١١٠.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٣

سرعة البت فى المخالفات التى تتعلق بالآداب العامة و نظام الأسواق و مراعاة الأمانة فى المعاملات و كان يقوم بعقاب الخارجين على النظم الموضوعه «١» و قد حاول السيوطى أن يمد نفوذه إلى القضاء و أن يجعل من نفسه قاضيا كبيرا أو رئيسا له الحق فى عزل و تولية من يشاء، و استطاع أن يحصل على هذه الوظيفة التى لم تكن موجودة منذ زمن الأيوبيين عن طريق عهد من الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز و قد كان وثيق الصلة به، و قد ثار ثائر القضاء عليهما، و حاولوا الايقاع بين الخليفة و بين السلطان و انتهى الأمر بأن رجع الخليفة عن ذلك و اعتذر «٢» (١) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦، ٣٧.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٤

الحياة الاجتماعية

إشارة

نريد أن نلمس هنا بعض جوانب الحياة داخل البلاد و نتبين أهم العلامات التى تميز ذلك المجتمع عن غيره، و المعالم التى تحدد لنا صورة واضحة للبيئة التى عاش فيها السيوطى، و نستطيع استجلاء ذلك من خلال تعرضنا لبعض الجوانب الهامة فى حياة المجتمع.

بناء المجتمع:

و المجتمع فى عصر المماليك مجتمع طبقي تتضح فيه الفروق بين الطبقات، و تتزيل كل طبقة عن الأخرى بمجموعة من الخصائص و المظاهر.

و أكثر فئات المجتمع تميزا عن غيرها هى فئة المماليك التى كانت تمثل طبقة عسكرية ممتازة تستأثر بالحكم و بشئون الحرب، و لهم من أصلهم و نشأتهم و أسلوبهم فى الحياة و بعدهم عن أهل البلاد سياج يحيط بهم و يميزهم عن غيرهم. و لم يكن هؤلاء من أصل واحد، بل كانوا مجتليين من شتى البلاد، و قد بالغ كثير من السلاطين فى شراء المماليك و اعدادهم، و اهتموا بتربيتهم اهتماما كبيرا و لم يضمنوا عليهم بتوفير المعيشة الفاخرة، و عند ما يشب المملوك و يخرج من الطباقي يقرر له راتب شهرى «جامكية» و يتدرج فى الترقى و ربما أتيح له أن يصبح من أمراء المماليك و كبار رجال الدولة، و ربما يستطيع بعد ذلك الوصول إلى السلطنة.

و قد تمتع المماليك بحظ كبير من الثراء عن طريق الأموال و الاقطاعات الكبيرة التى تصلهم من الدولة «١»، و ظلت القاعدة فى الإقطاع أن يثول إلى السلطان (١) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٥

بانتهاى مدة الإقطاع أو بسبب وفاة المقطع أو عزله أو إخلاله ببعض الشروط، و قد كان لهذه الطائفة مكانة كبيرة فى المجتمع، و تمتع أمراؤهم بنفوذ عظيم فى البلاد، بل كثيرا ما كان بعضهم يطغى نفوذه على نفوذ السلطان و كثيرا ما نجد بعضهم يتصرفون فى حكم البلاد و جباية الأموال لأنفسهم فى حرية مطلقة كالسلطان سواء بسواء.

و لم يحاول المماليك الزواج من أهل البلاد و الاختلاط بهم بل غالبا ما كانوا يختارون أزواجهم و جواريتهم من بنات جنسهم اللاتى جلبن معهم «١»، و لم يحدث الخروج على هذا العرف إلا فى حالات قليلة.

على أن أسس تربية المماليك و اعدادهم التى روعى فيها اختيار السبل التى تضمن طاعتهم و ولاءهم و تخلقهم بالآداب الحسنة و تمسكهم بالدين لم تلبث أن تطرق إليها الخلل فى جوانب عديدة كان لها أثرها فى فقد المماليك روح النظام و الطاعة، و اتضح ذلك جليا فى الفترة التى نهتم بها و هى آخر عصر المماليك، ففضلا عن الثورات و الفتن السياسية و ما فيها نجد لهم حركات افسادية تهدف إلى النهب و السلب أو الحصول على نفقة من الدولة أو تعجلا لنفقة متأخرة أو ما شابه ذلك، و هناك عديد من الأمثلة التى ذكرها ابن اياس المؤرخ المعاصر لهذه الفترة، فمن ذلك ثورة المماليك الجلبان فى عام ٨٧٨ هـ حيث هاجموا بولاق و نهبوا ما فيها و قصدوا «شونة» الأمير شيبك الدوادر و نهبوا، و قد استمرت الفتنة أياما هرب خلالها بعض الأمراء خوفا على أنفسهم من النهب «٢»، و تكرر حادث مشابه فى العام التالى «٣»، ثم نجد فتنة ثور بين بعضهم و بين بعض حتى يقع القتال فى صفوفهم «٤»، و اضطراب آخر يحاول فيه المماليك قتل مقدمهم «٥» «٦»، (١) المصدر السابق ص ٢٣.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ١٤٩.

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٥١.

(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ١٨٣.

(٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٤.

(٦) نفس المصدر ج ٢ ص ٢١٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٦

و تتكرر هذه الاضطرابات التى يقصد بها المماليك النهب و السلب لا سيما طائفة المماليك الجلبان «١». و الحقيقة أن كثرة هذه

الاضطرابات تدل على فساد هذه المؤسسة العسكرية الحاكمة، و قد نشأ هذا الفساد لا سيما فى طائفة الجلبان بسبب اجتلابهم كبارا فى السنّ، و عدم أخذهم فى التربية الإسلامية مأخذ الجد و قلة تعودهم على الانضباط و الطاعة و الخلق القويم، و لذلك كثر شغبهم و فسادهم، و كان ذلك مؤذنا أو مرهضا بنهاية دولة المماليك بأسرها.

و قد تعود المماليك الثورة بسبب طلب نفقة البيعة و هى تعنى بيعتهم للسلطان الجديد، و يكاد الحديث عن هذه الثورة يكون أمرا معاد مألوفاً عند بداية عهد كل سلطان، فضلا عن الثورة بسبب تعجل نفقة متأخرة أو نفقة بسبب الخروج إلى القتال أو العودة بعد الانتصار (٢).

و لقد كانت هذه النفقات تكلف الدولة كثيرا من الأموال فكان السلاطين يصادرون بسببها كثيرا من أموال الأغنياء و الأمراء، و هكذا فلقد ظهرت هذه الطبقة فى هذه الفترة- فضلا عما تمتعت به من حظ لم يتح لغيرها- بمظهر الفئة الباغية المفسدة فى كثير من الأحيان.

أرباب القلم:

و إلى جانب طبقة المماليك- و هم حكام البلاد- وجدت جماعة المعتمين أو أرباب القلم، و هذه الطائفة كانت تضم أرباب الوظائف الديوانية و الفقهاء و العلماء و الأدباء و الكتاب، و قد امتازت هذه الفئة طيلة عصر المماليك بمميزات معينة على الرغم مما تعرض له بعض أفرادها من الامتهان أو الاضطهاد فى بعض الأحيان (٣).

و قد أظهر سلاطين المماليك احترامهم و تجيلهم لرجال الدين و للمتصوفين، (١) هنا أمثلة عديدة لحوادث النهب و السلب و الفساد التى أحدثها المماليك و يمكن مراجعتها أمثلة لها فى بدائع الزهور ج ٢ ص ٣١٨، ج ٢ ص ٢٣٠، ج ٢ ص ٣٩، ج ٢ ص ٢٤٠، ٢٤١، ج ٢ ص ٢٤٧.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٨، ٢٧٩، ج ٢ ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٥٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٧

و هناك عديد من الأمثلة تشهد لما نقول طيلة ذلك العصر، و قد تولى الفقهاء مناصب القضاء بالدولة، كما أسند إلى أبناء هذه الفئة بصفة عامة مناصب الوزارة و كاتب السر بالاضافة إلى وظائف التدريس بالمدارس.

و قد اعتد رجال هذه الطائفة بأنفسهم و عمدوا فى كثير من الأحيان إلى معارضة السلطان و الأمراء دفاعا عن الحق أو مطالبة برد بعض المظالم أو رفع بعض المكوس، كما تعود كثير منهم انتقاد السلطان و الأمراء فى المجالس العامة و من فوق منابر المساجد، و لعل أبرز المواقف فى الفترة التى شهدها السيوطى ذلك الموقف الذى وقفه شيخ الاسلام أمين الدين الأقصرائى فى وجه السلطان قايتباى حين حاول أن يمد يده إلى أموال الأوقاف و جمع القضاة ليفتوه بذلك فهاجمه الشيخ مهاجمة قوية أشاد بها معاصروه و المؤرخون له (١) كذلك مواقف الشيخ زكريا الأنصارى من السلطان قايتباى و مهاجمته له من فوق المنبر و السلطان جالس أمامه و لم يكن السلطان يزيد على أن يقبل يد الشيخ بعد الانتهاء من الصلاة، فضلا عن النصائح القوية التى كان الشيخ لا يفتأ يوجهها إلى السلطان (٢).

و كان للسيوطى مثل هذا الاعتداد بالنفس و كانت له مواقف جليئة سنشير إليها بعد، و لم تكن هذه الأوصاف- بطبيعة الحال- مطردة على الدوام، فلقد تعرض الفقهاء و أهل العلم فى بعض الأحيان للاضطهاد أو لحقد طبقة المماليك الذين رأوا فيهم منافسا لهم، و كثيرا ما وقعت المنافسات بين بعض الفقهاء و بين بعض أمراء المماليك.

على أنه ينبغى ألا نغفل بعض مواقف الضعف التى كان يقفها بعض رجال هذه الفئة ترضيه للسلطان أو لكبار الأمراء كما فعل أحدهم حين أفتى بحل ما قصد إليه السلطان من فرض الضرائب الجائرة على الناس لجمع أموال يرضى بها ممالিকে فتعرض الفقيه بذلك لغضب عامة الناس (٣) (١) المصدر السابق ج ٢ ص ٩٦، ٩٧.

(٢) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى (مخطوط بدار الكتب المصرية) ورقة ٢٣.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٥٨ (هو الشهاب الحنبلى).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٨

و على أية حال فإن المكانة الكبيرة التى ارتقتها هذه الطائفة قد جعلتهم المعبرين عن الشعب و المدافعين عن حقوقه لدى الحكام، كما جعلتهم شفعاء للناس فى قضاء حوائجهم لا سيما أن صلتهم بالناس أقوى بكثير من صلة المماليك الحاكمين.

التجار:

و هى الفئة الثالثة من فئات المجتمع، و لقد تمتع أبناؤها بثراء واسع و لا- سيما أن مصر قامت بنشاط كبير فى التجارة بين الشرق و الغرب قبل اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح «١» و قد عمد السلاطين إلى تقريب التجار منهم إذ إنهم المصدر الأساسى الذى يمد الدولة بالمال، على أن كثرة الثروة فى أيدي التجار قد جعلتهم فى كثير من الأحيان مطمع سلاطين المماليك فأكثروا من مصادرتهم بين حين و آخر إذا ما احتاجوا إلى الأموال بسبب إرسال تجريدة «٢»، أو إنفاق نفقة على الجند أو غير ذلك فضلا عن الرسوم و الضرائب الباهظة التى كانت تفرض عليهم.

الصناع و أرباب الحرف:

و وجد بالمدن المصرية فى ذلك العهد طائفة كبيرة من العمال و الصناع و أصحاب المهن الذين يتنمون لنظم معينة يدين بها أبناء الحرفة الواحدة، و لكل حرفة شيخ أو رئيس يرجعون إليه فيما يهمهم لا سيما فى الوساطة بينهم و بين الحكومة، و كان للدخول فى كل حرفة نظم خاصة فقد يقصر أبناء الحرفة حرفتهم على أنفسهم و على أبنائهم من بعدهم و لا يسمح لغيرهم بمزاولتها «٣».

العوام «٤»:

و قد اكتظت المدن المصرية فى ذلك العهد بجمهور كبير من الباعة و السقائين (١) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٣٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٥ حوادث سنة ٨٩٢هـ.

(٣) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٣٦.

(٤) المصدر السابق ص ٣٧٧، العصر المماليكى ص ٣١٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٩

و المكاريين و المعدمين الذين يعبر عنهم فى الكتب المعاصرة لهم بالعوام و الزعر و الحرافيش و المشاعلية، و قد لقي أبناء هذه الفئة ضيقا و عسرا فى الحياة إذا ما قورنوا بغيرهم من الطبقات المنعمة حتى لاحظ بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى ذلك الحين أن بالقاهرة عددا كبيرا يعيشون بلا مأوى فى الليل و النهار سوى الطرقات و أجسادهم شبه عارية، و تفاوتوا فى تقدير ذلك العدد بين خمسين ألفا و مائة ألف «١» و كان كثير من هؤلاء لا- يجدون إلا- ما يوجد لهم به بعض السلاطين و الأمراء و ذوى الأموال من الصدقات مما دفع بكثيرين منهم إلى أن يمدوا أيديهم بالسؤال و أن يجعلوا منه حرفة لهم، و قد دفعهم حالهم السيئ إلى احتراف السلب و النهب و تحين الفرص للحصول على أكبر قدر من الغنائم لا سيما فى أيام الفتن و الاضطرابات «٢».

أهل الذمة: «٣»

كان أهل الذمة يكونون أقلية كبيرة فى ذلك الحين، و قد قدر عددهم فى القاهرة وحدها بعشرين ألفا نصفهم من اليهود و النصف الآخر من النصارى.

و يبدو أن ثروة مصر و اتساع تجارتها فى ذلك العهد قد اجتذبت كثيرين منهم من البلاد الأجنبية فاستوطنوا المدن المصرية، و حظى كثيرون منهم بثراء واسع جعلهم أيضا مطمع السلاطين إذ كانوا يصادرون طوائفهم حين احتياجهم إلى الأموال «٤» و قد تعرضوا خلال هذه الفترة لبعض الاضطهادات بين حين و آخر، و تشير مراجع ذلك العصر إلى بعض ألوان الاضطهاد التى كانت تتناهم «٥»، و إن كنا لا نكاد نجد شيئا من ذلك فى الفترة التى عاشها السيوطى سوى مصادرة أموالهم (١) المجتمع المصرى ص ٣٨ (و قد رجع إلى أحد المصادر الفرنسية).

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٢.

(٣) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ٤٠.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٩، عام ٨٩٣هـ.

(٥) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ٤٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٠
فى بعض الأحيان شأنهم فى ذلك شأن الأثرياء من الأمراء و التجار و أرباب الوظائف من المسلمين.

الفلاحون:

و إكمالا لطبقات المجتمع يحسن أن نشير إلى طبقة الفلاحين بالرغم من كونها فئة بعيدة عن حياة المدينة. و يبدو أن نصيب هذه الفئة لم يكن سوى الإهمال و الاحتقار بالرغم من كونها أكبر فئات المجتمع و لعل وصف ابن خلدون لهذه الفئة كان يصدق عليها من قبله و من بعده حيث وصف مهنتهم بأنها معاش المستضعفين و أن أهلها يختصون بالمذلة «١»، و قد عاش الفلاحون فى مصر فى ذلك العصر مشدودين إلى أرضهم و ليس لهم من خيراتها إلا القليل لأدن الأرض ظلت نهبا موزعا بين السلاطين و الأمراء و ممالئهم و أوقافهم «٢» و كثيرا ما تعرض الفلاحون لنهب أمراء الممالئ الذين كانوا يجوبون القرى فضلا عما كان يفرض عليهم من الضرائب الباهظة، و كثيرا ما تعرضوا لظلم و لؤا أقاليمهم الذين كانوا يأخذون منهم «غير العادة أضعافا» «٣»، و لم تكفل الدولة لهم الأمن الكافى فكثيرا ما تعرضوا لغزوات الأعراب الذين كانوا ينهبون ضياعهم و مواشيهم و أمتعتهم، فضلا عما كانوا يفرضونه عليهم من إتاوات.

الأعراب:

و لا يسعنا- فى الحقيقة- إلا أن نتحدث عن هذه الطائفة من طوائف المجتمع لما كان لها من أثر كبير فى أحوال البلاد الداخلية. و قد شهدت الفترة التى ندرسها عديدا من القبائل التى انتشرت فى أرجاء البلاد لا سيما فى الشرقية و البحرية و المنوفية و الصعيد. (١) ابن خلدون: المقدمة ص ٣٩٤.

(٢) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ٤٩.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤١

وقد أحصى القلقشندى و المقريزى قبائلهم بمصر و أماكن كل منها مما يتضح منه أنهم بلغوا عددا عظيما فى ذلك العصر «١». وقد حاول الأعراب فى أول عصر المماليك أن يقيموا حاكما من بينهم و أن يتخلصوا من سيطرة المماليك و لكن هذه المحاولة قد باءت بالفشل أمام جيوش المماليك المدربة، و لكن ذلك لم يمنع حدوث الصدام بين المماليك و الأعراب على شكل أحداث متفرقة طوال العصر.

وقد ظل العربان عنوانا للاخلال بالأمن و الاضرار بالنظام و الاعتداء على أهل البلاد الآمنين فى المدن و القرى، و لم يسلم طريق الحاج من اعتداءاتهم المتكررة.

و المتتبع لحوادث هذه الفترة تأخذ الدهشة من كثرة حوادث الأعراب و شغبهم و هو ما تسميه المراجع المعاصرة لهم بفساد العربان، فبينما يثور الأعراب بالشرقية و يفسدون فى عام ٨٧٥ هـ و ترسل الدولة بحملة إليهم «٢»، لا يكاد يمضى وقت حتى يعاودوا الفساد و فى هذه المرة يهاجمون القاهرة نفسها و يعملون بها النهب و السلب و ينشرون الذعر «٣»، ثم يتجدد فسادهم فى عام ٨٧٩ هـ و يهاجم بعضهم الجزيرة فى نفس العام و ينهبون خيول المماليك و لا يستطيع السلطان الظفر بهم «٤»، و بينما يحدث اضطراب الأعراب حول القاهرة تأتى الأخبار باضطرابات عنيفة يقوم بها الأعراب فى الصعيد حيث ينزلون الهزيمة بكاشف الوجه القبلى «٥»، و تحاول الدولة فى كل ثورة أن ترسل إحدى الحملات لتأديب الأعراب و قد كان إعداد الحملات يكلف الدولة كثيرا من الأموال «٦»، و ربما تقاعس السلطان عن إرسال هذه الحملات مكثفيا بانصراف الأعراب (١) القلقشندى: صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٥ و ما بعدها، ج ٤ ص ٦٧، ج ٧ ص ١٦٠، انظر المقريزى: البيان و الاعراب عما بأرض مصر من الأعراب.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٧.

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٤، ١٣٥.

(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ١٥٦.

(٥) نفس المصدر ج ٢ ص ١٨٠ حوادث ذى القعدة ٨٨٢ هـ.

(٦) المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٥، ص ٢٣٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٢

و عودة الأمور إلى مجراها الطبيعى كراهة النفقات الباهظة التى تتكلفتها الدولة فى إعداد هذه الحملات.

و فى بعض الأحيان كانت تمنى حملات السلطان بالهزيمة أمام قوة الأعراب «١»، و لذلك فإن المماليك كانوا ينتقمون من الأعراب انتقاما شديدا بعد هزيمتهم، و كانوا يكثرون فيهم القتل و النهب و السلب كما كان سلاطينهم يبالغون فى التمثيل بمن يؤتى به منهم أسيرا «٢» و كثيرا ما اضطربت أحوال البلاد بسبب الأراجيف التى تنتشر بنية الأعراب محاولة الهجوم على القاهرة لا سيما فى أيام الأزمات أو وجود الجند خارج البلاد فى إحدى الحملات «٣».

و كثر قطع طريق الحجاج و الاغارة عليهم و انتهابهم و تعويق بعضهم فى الطريق «٤»، و هناك أمثلة أخرى كثيرة أشار إليها مؤرخو هذه الفترة تدل دلالة واضحة على الاضطراب و الفساد الذى كانت تحدثه تحركات الأعراب و مهاجمتهم للمدن و القرى، و تدل على مبلغ قوتهم فى هذه الآونة «٥»، فضلا عن اشتراكهم فى بعض الأحيان فى الفتن السياسية، و صراع قبائلهم فيما بينهم. و هكذا ظل الأعراب طوال هذه الفترة مصدرا هاما من مصادر القلق و الفساد و عدم الاستقرار بالبلاد.

الأقليات الأجنبية:

بالإضافة إلى الطوائف السابقة وجدت بالبلاد مجموعة كبيرة من الأقليات الأجنبية، و قد قدر عدد الأجانب فى بعض الأحيان بالاسكندرية بثلاثة آلاف تاجر مسيحي «٦»، و كان هناك عديد من الجاليات موزعة على المدن المختلفة، (١) ابن إياس: بدائع

الزهور ج ٢ ص ٢٣٨.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٠، ج ٢ ص ٢٤٣.

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٥٢.

(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٧٢ حوادث سنة ٨٩٦هـ، ج ٢ ص ٣٧٨.

(٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٢، ٣٤٦، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٦.

(٦) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ٥٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٣

و كان لأبناء كل جالية فنادق خاصة بهم يقيمون بها، و قد تمتع هؤلاء داخل فنادقهم بقسط وافر من الحرية و لكن المجتمع فرض عليهم نظاما معينه فى تصرفاتهم بالخارج فلم يسمح لهم مثلا بركوب الخيل شأن أهل الذممة كما فرض عليهم إغلاق أبواب فنادقهم مساء كل يوم و وقت صلاة الجمعة «١».

و قد اعتبر السلاطين أولئك الأجانب رهينة لدى الدولة فإذا ما حلّ اعتداء من الدولة الأجنبية ببعض الثغور الإسلامية و أسر من المسلمين أحد أو نهب منهم شىء فان الاقتصاص قد يكون من الفرنجة الموجودين بمصر، أو يكون تهديد الدول المعتدية بذلك و إن تكن هذه الوسيلة غير مجدية فى دفع الاعتداء «٢».

الحياة فى المدن:

و إكمالا لحديثنا عن الجانب الاجتماعى فإنه يحسن أن نشير إلى نظام الحياة فى المدن المصرية لا سيما القاهرة فى ذلك الوقت. و قد اتصفت المدن فى ذلك العصر بتلاصق منازلها و ضيق دروبها و اكتظاظ طرقاتها بالمارة و الدواب، و قد أشاد الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر بعظمة المدن المصرية إذا ما قورنت بمثيلاتها من دول أوروبا آنذاك «٣»، و قد فاقت القاهرة فى ذلك العصر جميع مدن العالم تقريبا من حيث السعة و النشاط الحيوى و كثرة السكان، و قد أشاد ابن بطوطة الذى زار مصر فى القرن الثامن الهجرى بعظمة القاهرة «٤».

و بالرغم من ضيق طرقات المدينة فقد زخرت بألوان النشاط الانسانى، يضاف إلى ذلك كثرة الدواب، فالخيول المطهمة يركبها المماليك و يركضون بها وسط الدروب و الأسواق و هم يضربون الناس يمنة و يسرة دون اكتراث بهم، و ليس مباحا لغيرهم من الفئات أن يمتطى الخيل إلا إذا كان من كبار أرباب (١) المصدر السابق ص ٥٦.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٦ حوادث ذى القعدة سنة ٨٩٢هـ، المجتمع المصرى ص ٥٦.

(٣) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ٨٢.

(٤) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٤

الوظائف بالدولة، و الجمال العديدة تحمل القرب و يطوف بها السقاءون على المنازل، و قد قدر عدد جمال القاهرة فى القرن الثامن الهجرى بمائتى ألف جمل أما الحمير فبلغت عددا كبيرا، و كان جانب كبير منها يستأجر لقضاء الحاجات، و قد قدر ابن بطوطة عدد المكاريين فى القاهرة بثلاثين ألف مكارى. «١»

و كان على المحتسب أن يتولى تنظيم الطرقات و أن يضمن سلامة السير فيها، و كانت هذه الطرقات تضاء فى الليل بالمصاييح، و قد ذكر بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى هذه الفترة أن بالقاهرة أربعة آلاف شارع و درب كل منها له بابان و حارسان، و فى بعض هذه الشوارع ما يقرب من خمسة عشر ألف مسكن، و لكل منها سوق كبير. «٢»

و كانت الحراسة تشدد ليلا على هذه الشوارع، و من سار فى الليل لغير سبب معقول قبض عليه. و قد لقيت المدينة حظا لا بأس به من العناية بنظافة دروبها و طرقاتها كما زحرت بالأسواق العديدة التى حوت مختلف أصناف البضائع، و كان كل سوق ينفرد بنوع معين من البضائع فسوق للشماخين و آخر للدجاجين ... و هكذا «٣»، أما الأسواق الخاصة بالمآكل و المشارب فقد كانت عديدة، و قد قدر عدد المطاعم و المطابخ فى القاهرة بما يزيد على اثنى عشر ألف مطعم عدا الباعة الجائلين الذين يقدمون بعض أنواع الطعام، و قد وضع هؤلاء تحت رقابة المحتسب حرصا على صحة الناس. «٤»

و قد اشتهرت الحياة فى المدن فى ذلك العصر بالحفلات الصاخبة منها ما هو خاص كحفلات الزواج و الختان و الولادة، و منها ما هو عام شعبى كالاحتفال بالمولد النبوى أو بموالد بعض كبار الأولياء أو غير ذلك من المناسبات الدينية و الدنيوية، و قد بالغ السلطان و الأمراء فى إحياء هذه الاحتفالات على اختلافها (١) المصدر السابق ج ١ ص ١٩.

(٢) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ٨٤.

(٣) المصدر السابق ص ٨٦.

(٤) نفس المصدر ص ٨٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٥

عامة كانت أو خاصة، و فى بعض الأحيان كان السلطان يحضر الاحتفال بالمولد بالقاهرة ثم يسافر لحضور الاحتفال بالاسكندرية «١». و حين قدوم السلطان من أسفاره كان يقابل بكثير من مظاهر الحفاوة و وجوه الاصلاح و الزينة فى الطرقات فضلا عن المواكب الكبيرة. «٢»

و قد عرفت هذه الفترة عديدا من أنواع الاحتفالات التى كانت لا تفتأ تقام بالمدينة بين حين و آخر كما عرفت صنوفا من المواكب التى كانت تشق القاهرة آنا بعد آن احتفالا بمناسبة دينية أو وطنية أو استقبالا للسلطان أو أحد الأمراء أو استقبالا لزائر أجنبي «٣»، أو فى حالات الزواج و الختان و الولادة أو لولاية و لاها السلطان أحدا من الناس. و كانت هناك مبالغت كبيرة فى إعداد هذه الحفلات التى كانت تكلف الدولة أو تكلف أصحابها نفقات باهظة، و كانت حفلات الزواج تلقى عناية خاصة و يكلفها أصحابها أموالا طائلة «٤».

القلق الاقتصادى:

على أن القاهرة و أسواقها لم تبق على حال ثابتة من الهدوء و السكينة فى ذلك العصر، بل كثيرا ما تأثرت المدينة و أسواقها بعوامل سياسية أو اقتصادية أو اعتبارات أمن أدت إلى اضطراب الأحوال فيها، فقد أدت كثرة المنازعات و الفتن بين أمراء المماليك و أحزابهم كما أدت ثوراتهم المستمرة فى وجه السلطان إلى اضطراب الأمن فى كثير من الأحيان، و تعرضت الأسواق لهجماتهم التى تقصد إلى السلب و النهب، و تكاد تكون جميع حوادث الفتن السياسية مصحوبة بمهاجمة الأسواق و نهب ما فيها الأمر الذى كان يترتب عليه أن تغلق المتاجر و تتوقف الحياة داخل الأسواق لعدة أيام حتى يعود الهدوء، و كان يكفى أن (١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ١٧٢، ١٧٣.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٧.

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٠٧.

(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٤٥ و انظر ج ٢ ص ٢٠٨، ص ١٨٧، ص ٣٦٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٦

يرجف بموت سلطان أو بهزيمة جنوده حتى يحل الفزع و الاضطراب فى جميع أرجاء المدينة.

و بالاضافة إلى عامل الفوضى الناتج عن الفتن السياسية نجد ثمة عاملا آخر هو اختلال الأمن نتيجة لهجوم العصابات المسلحة الكبيرة على المدينة بين حين و آخر، و بالرغم من الاحتياطات و التدابير التى كان يقوم بها المسئولون بالمدينة فإن أخبار هذه الحوادث و كثرتها يعطى صورة للقلق و عدم الاستقرار و عدم التمكن من السيطرة على المفسدين حتى عدّ القبض على بعضهم «من النوادر» (١). و قد كان لذلك أثره فى إشاعة القلق و الاضطراب.

و فضلا عن ذلك فهناك العوامل الاقتصادية المتصلة حيناً بانخفاض النيل و ما يترتب عليه من نقص الأقوات (٢)، و حيناً آخر بتلاعب السلاطين بالعملة، و التلاعب بالعملة مشهور فى ذلك العصر، فكان السلطان يعمد إلى ضرب نقود جديدة و يجعل قيمتها أكبر مما فى أيدي الناس فيخسرون بذلك أموالاً طائلة و يكون هو المستفيد بفروق القيمة (٣)، و يحدث الاضطراب و القلق بين التجار و فى الأسواق.

و حوادث تغيير العملة و إبطالها و التلاعب بها كثيرة فى ذلك العهد (٤)، و قد تناول السيوطى ذلك فى مبحث فقهي رائع عن أحكام الدين بعد تغيير العملة و هل يطالب من عليه الدين بقيمته يوم اللزوم أو يوم المطالبة؟ و هل يأخذ الدائن من الفلوس الجدد المتعامل بها عدداً بالوزن أو بالعدد؟ و قد تقصى بذلك إجابة على ما ورد عليه من الأسئلة فى ذلك الحين. (٥) (١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٩، ٤٠، و هناك عدد من الأمثلة التى أوردتها لهجوم العصابات على أسواق المدينة و أحيائها ج ٢ ص ٢٢٩، ص ٢٩٤.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٦، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٣٣٦.

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ١٥٧ ذو الحجة سنة ٨٧٩هـ.

(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٦، ص ٣١٠.

(٥) رسالة للجلال السيوطى بعنوان «قطع المجادلة عند تغيير المعاملة» و هى مطبوعة بكتاب الحاوى ج ١ ص ١٤٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٧

المجاعات و الأوبئة:

و يتصل بالقلق الاقتصادى ما كان يحدث بالبلاد من مجاعات نتيجة لانخفاض النيل و قلة الأقوات، أو نتيجة لاغتصاب المماليك أقوات الناس و دوابهم لا سيما فى أوقات الاعداد لبعض الحملات الحربية كما حدث فى عام ٨٩٠هـ (١). و أخبار المجاعات و الغلاء كثيرة فى هذه الفترة و تعكس كثرتها صورة للاضطراب الاقتصادى بالبلاد و عدم استقرار الأمور على حال واحدة. (٢)

أما عن الأوبئة فقد انتشرت عدة مرات خلال هذه الفترة، و قد حدث أن انتشر الطاعون فى عهد قايتباى وحده ثلاث مرات كان أولها فى عام ٨٧٣هـ (٣)، و قد تزايد أمره بالقاهرة فى شعبان من ذلك العام «و عمل فى الأطفال و المماليك و العبيد و الجوارى و الغرباء عملاً بليغاً ذريعاً» (٤)، و قد كان من الشدة بحيث «صارت الغرباء يموتون فى الطرقات بعضهم على بعض» (٥).

و حدث الطاعون الثانى فى عام ٨٨١هـ أى بعد قرابة ثمانى سنوات من انتشار الطاعون الأول و قد «كان طاعونا مهولاً يموت فيه الانسان من يومه ...

و مات فيه من الأعيان جماعة كثيرة» (٦)، و قد عدد ابن إياس معاصر هذه الفترة جملة من الأمراء الذين لقوا حتفهم بسبب هذا الطاعون و ذكر أنه قضى به «من الأمراء و الخاصكية ما لا يحصى عددهم» (٧)، هذا فضلاً عن نحو ألفى مملوك من مماليك السلطان عدا من مات من مماليك الطوائف الأخرى (٨). (١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٢،

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١١٨ غلاء عام ٨٧٥هـ، ص ١٩٤ عام ٨٨٥هـ، ص ٢٤١ عام ٨٩٢هـ.

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٠١، ١٠٥، ١٠٦.

(٤) نفس المصدر: ص ١٠٦، ١٠٧.

(٥) نفس المصدر: ج ٢ ص ١٠٧.

(٦) نفس المصدر: ج ٢ ص ١٦٩.

(٧) نفس المصدر ج ٣ ص ١٧٠.

(٨) نفس المصدر: ج ٢ ص ١٦٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٨

و فى عام ٨٩٧هـ كان ثالث الأوبئة فى عهد قايتباى، و يبدو أن الناس قد ألقوا هذه الأوبئة التى تنتاب البلاد و العباد بين حين و آخر، حتى اعتبروا أن مدة خمس عشرة سنة بين الوباءين فترة طويلة «١».

و كان اعتقادهم أن حلول الطواعين إنما يكون بسبب ما أحدثوا فى دينهم من الفساد، و يعبر ابن اياس عن ذلك بقوله: ان الطاعون «كان فى مدة انقطاعه عن مصر كثر بها الزنا و اللواط و شرب الخمر و أكل الربا و جور المماليك فى حق الناس» «٢».

و كان هذا الطاعون أشد من سابقه إذ يذكر أن من مات به بمدينة القاهرة وحدها يقدر بمائتى ألف «٣»، و يؤكد السيوطى ذلك حيث يذكر أنه «ذهب فيه من القاهرة النصف أو أشد» «٤». و لا نلبث أن نجد بعد قليل أخبار طاعون رابع حدث بعد وفاة قايتباى و فى حياة السيوطى أيضا و ذلك فى عام ٩٠٣هـ، و قد مات فيه «من المماليك و الأطفال و العبيد و الجوارى جانب» «٥»، و مات فيه من هؤلاء قرابة ثمانية آلاف فضلا عن موت جماعة من الأعيان، هذا إلى جانب ما يقدر بمائتى ألف إنسان بالقاهرة، و قد مكث بالمدينة نحو من ثلاثة أشهر «٦».

و الذى يحق أن نقوله هو أن البلاد المصرية لم تكن أسوأ بكثير من غيرها فى الاصابة بالأوبئة، بل كثيرا ما كانت هذه الأوبئة تنتاب كثيرا من بلاد العالم «٧»، و لكن يبدو أن إصابة البلاد المصرية و فعل الأوبئة بها كان أكثر قوة و وضوحا نظرا لكثرة السكان، و لم يكن فى مقدور الناس و مستواهم آنذاك حكاما أو محكومين أن يفعلوا شيئا، بل كان مشهورا عند كثير من علماء ذلك العصر أن الطواعين (١) السيوطى: المقامة الطاعونية، مقامات السيوطى ص ٦٩.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٧٣.

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٥.

(٤) مقامات السيوطى: المقامة الطاعونية ص ٧٠.

(٥) ابن اياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٣٩.

(٦) المصدر السابق: ج ٢ ص ٣٤٠، ٣٤١.

(٧) المقامة الطاعونية.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٩

من الأمراض التى ليس لها دافع من الأدوية، و قد أنشد السيوطى لذلك فى مقامته منكرًا على المتداوين:

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقه و الطاعون و الهرما «١»

و إكمالاً للحديث عن الحياة فى المدن بصفة عامة و فى القاهرة بصفة خاصة يقتضى تناول بعض الظواهر الاجتماعية التى تميزت بها القاهرة فى ذلك الوقت منها طرائق الاحتفال بالأعياد المختلفة و وصف مواكب السلاطين كذلك الحديث عن الألقاب و الخلع و الملابس التى تميز بها ذلك العصر ثم تناول الأمراض الاجتماعية التى منى بها المجتمع و أهمها الرشوة و الزنا و الخمر و بعض المعتقدات الفاسدة، ثم تناول روح المرح و وسائل التسلية، و تجنبنا للاطالة فى هذه الموضوعات رأيت أن أشير إليها بالحديث أثناء تناول حياة السيوطى و آثاره ذلك أنه قد عالج فى كثير من رسائله جوانب تهتم المجتمع فى عصره و تعبر عن روحه و طابعه.

على أن دارس الحياة الاجتماعية لا يستطيع بحال أن يغفل ظاهرة هامة تعدّ من أهم الظواهر الاجتماعية السائدة فى مصر فى تلك الفترة و هى ظاهرة التصوف، فقد اتخذ التصوف آنذاك طابعا اجتماعيا، و وجه حياة المجتمع و أثر فيها تأثيرا بالغا، لذلك فإننا نرى أن نتناول هذه الظاهرة و نحن نختتم الحديث عن الحياة الاجتماعية.

التصوف و المجتمع:

عرفت البيئته المصرية التصوف منذ عصر مبكر فى الاسلام، فقد ظهر بها كثير من المتصوفة منهم ذو النون المصرى، و قد عرفت هذه البيئته منذ ذلك الحين دراسة النفس الانسانية فى صورة إشراقية تصلها بالملا الأعلى عن طريق المقامات «٢». على أن قوة تيار التصوف و أثره فى الجانبين الدينى و الاجتماعى و فعله القوى (١) المقامة الطاعونية ص ٧٠. (٢) د. سيد خليل: الليث بن سعد ص ٣٢، انظر حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٩٢. جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٥٠ فى الحياة لم يأخذ صورة واضحة إلا فى عصر المماليك.

و قد ساعدت عوامل كثيرة على ازدهار التصوف بالبيئته المصرية و تغلغله إلى أعماقها، فهناك عامل البيئته و حب الشعب المصرى و ميله الطبيعى إلى التدين بما يحتويه من تصوف فضلا عن الميراث الحضارى و الثقافى لهذه البيئته، يضاف إلى ذلك ما اختصت به هذه الفترة من ظروف، منها تعرض المسلمين فى هذا العصر للغزوات المستمرة من التتار المشركين من جهة الشرق، و من الصليبيين من جهة الغرب، بالاضافة إلى الأحوال الاجتماعية القاسية التى عاشها الناس و التى سبق أن أشرنا إليها، كذلك الأوبئة و الأزمات المستمرة، كل أولئك وجه أنظار كثير من الناس إلى التصوف و الانقطاع للعبادة التماسا للعدالة و النعيم فيما وراء الدنيا حيث افتقدوهما فى حياتهم الأولى.

و قد وفد على مصر فى عصر المماليك كثير من مشايخ الصوفية المغاربة و الأندلسيين كالسيد أحمد البدوى و أبى الحسن الشاذلى و أبى العباس المرسى، و قد لقيت مسالكهم قبولا لدى المصريين، كما ظهر بمصر كثير من المتصوفين كابن الفارض «١»، و ساعد على انتشار التصوف كثرة البيوت الخاصة بالصوفية و التى أقيمت لهم و هى ما عرفت بالخوانق و الربط و الزوايا. و قد انقسم الصوفية إلى طرق عديدة لكل منها شيخها و شعارها، فالأحمدية- مثلا- نسبة إلى السيد أحمد البدوى و شعارها اللون الأحمر.

على أن كلمات «الخوانق و الربط و الزوايا» تحمل دلالات مختلفة و متقاربة لا حاجة بنا إلى تفصيلها «٢»، فهى جميعا تدل على بيوت أنشئت لتقيم بها جماعات من الصوفية الذين انقطعوا للعبادة بشروط معينة. و قد شهد عصر السيوطى بالقاهرة عديدا من الخوانق و تحدث عنها فى كتابه حسن المحاضرة خلال حديثه العام عن هذه المنشآت، فتحدث عن خانقاه سعيد السعداء التى أنشأها صلاح الدين الأيوبي و وقف عليها أوقافا و استمرت (١) حسن المحاضرة، ج ١ ص ٢٩٢ و ما بعدها.

(٢) عبد الوهاب حمود: صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ص ٢٠، ٢١.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٥١

عامرة إلى عهد السيوطى «١»، و من بعده «٢»، كما تحدث عن الخانقاه البيروسيه التى اعتبرت أعظم خانقاه بالقاهرة «٣»، كما ذكر خانقاه شيخو «٤»، و رباط الآثار «٥»، و لم يفرد حديثا لخانقاه سرياقوس إلا ضمن حديثه عن الخانقاه الأولى.

و قد جرت العادة بأن يعين لكل خانقاه شيخ أو أكثر و عدد من الصوفية، كما كانت هذه المنشآت معاهد ثقافية تدرس فيها العلوم الشائعة و وقتذاك، فالشيخونية كان بها أربعة دروس للمذاهب الأربعة و درس للحديث و درس للقراءات، و مشيخة لسماع الصحيحين

و قد تولى السيوطى تدريس الحديث بهذه الخانقاه منذ وقت مبكر فى حياته (شعبان سنة ٨٧٧ هـ) «٦»، كما تولى مشيخة البيروية فيما بعد.

و قد كان لكل خانقاه أوقاف سخية تفى بأجور القائمين بالتدريس فيها، كما ينفق منها على الصوفية، و قد حرصت الحجج المعاصرة الخاصة بأوقاف هذه المنشآت على وضع الشروط التى تكفل انقطاع الصوفية للعبادة و عدم تغييبهم عن الخانقاه.

و قد كان للصوفية آداب و تقاليد مرعية، و كثيرا ما اجتمع الناس لمشاهدة صوفية خانقاه سعيد السعداء عند ذهابهم إلى صلاة الجمعة فى خشوع و نظام تبركا بهم، و قد كان الصوفية بصفه عامه موضع إجلال الناس و تقديرهم فى ذلك العصر، و كان الأمراء يتنافسون فى بناء الزوايا لهم.

غير أن الحال لم يبق على ذلك إذ تغير فى أواخر ذلك العصر من الصلاح إلى الفساد، و تخلوا عن كثير من النظم و الآداب التى عرفوا بها بين الناس كما أنشأ (١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٧.

(٢) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى، ترجمة الشيخ زكريا الأنصارى ورقة ٢٣ و ما بعدها.

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٠.

(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ١٩١.

(٥) نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٥.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ١٤٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٥٢

شيوخهم يمدون الأسمطة الحافلة و ينفقون أموال الأوقاف فى غير وجوها.

و يبدو أن انتشار الفقر و سوء الأحوال الاجتماعيه الذى سبق الاشارة إليه قد حدا بكثير من الناس إلى أن ينتظموا فى سلك الصوفية عن غير استعداد حقيقى الأمر الذى جعل هذه المنشآت الصوفية تضم كثيرا من الدخلاء و الأدعياء «١».

و لما رأى السيوطى حين توليه مشيخة البيروية ما آل إليه أمر هؤلاء قطع اعطاء بعضهم و رأى أنه لا حق لهم فيه و هم لا يتخلقون بأخلاق الأولياء و «من يأكل المعلوم بغير تخلق بأخلاقهم حرام» «٢»، فثار ثائره عليه و كادوا يقتلونه ثم حملوه بأثوابه و رموه فى الفسقية و شكوه إلى الأمير طومان باى الذى كان مبغضا له «٣».

و قد كان لكبار المتصوفة فى هذه الفترة مكانة كبيرة فى المجتمع، و لم تحجب الظلال المنفرة التى خلقها وجود الأدعياء فى صفوفهم

من أن يبقى للصوفية مكانة مرموقة مبدلة فى المجتمع، و هناك عديد من الأمثلة التى تدل على تلك المكانة التى تبوأها الصوفية منها

أن السلطان قايتباى قبل قدمى رجل اعتقد أنه الشيخ عبد القادر الدشوطى و شكا إليه ما بينه و بين ابن عثمان سلطان العثمانيين «٤»،

و قد ذكر الشعرانى عن الشيخ أبى السعود الجارحى المتوفى سنة نيف و ثلاثين و تسعمائة أنه كان له «القبول التام عند الخاص و العام

و الملوك و الوزراء و كانوا يحضرون بين يديه خاضعين و عملوا بأيديهم فى عمارة زاويته فى حمل الطوب و الطين» «٥»، و ذكر عن

غيره أنه كان «كثير الشفاعات عند السلطان و الأمراء» «٦». و قد بلغ من نفوذ أبى السعود الجارحى بالبلاد أنه بعد موت الغورى اختار

الأمراء طومان باى لىلى السلطنة فامتنع بسبب قلته الأموال و لا (١) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ١٧٤، ١٧٥.

(٢) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ٢١.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٣٩، شعبان سنة ٩٠٣ هـ.

(٤) المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٥٦.

(٥) الشعرانى: لوائح الأنوار فى طبقات الأخيار ج ٢ ص ١٠٤.

(٦) المصدر السابق ترجمة الشيخ تاج الدين الداكر المتوفى سنة نيف و عشرين و تسعمائة ج ٢ ص ١٠٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٥٣

ينتظر أن يمتثل الأمراء لرأيه دون أن ينفق عليهم الأموال، فذهب الأمراء إلى الشيخ أبى السعود فأحضر مصحفا و طلب من الأمراء أن يقسموا عليه بطاعة طومان باى، و ألا يخونوه ففعلوا فاستقر بالسلطنة «١». و فى هذا دلالة على أنه كان أثر عند الحكام و الشعب من كبار الفقهاء و العلماء المعاصرين. و قد حظى هؤلاء الصوفية لدى العامة بنفوذ أكبر و كان اعتقادهم فيهم أعظم، و إذا تعرض لهم أحد بما يمسهم قام العامة عليه و أرادوا قتله «٢».

و هكذا يتضح لنا كيف تمتع الصوفية فى هذا العصر بنفوذ كبير بين جميع فئات المجتمع بما فيهم العلماء و الفقهاء الذين نصبوا أقلامهم و ألسنتهم فى كثير من الأحيان للدفاع عن التصوف و رجاله، و قد كان السيوطى أحد هؤلاء العلماء الذين مالوا إلى التصوف و انتظموا فى سلكه و نافحوا بأقلامهم عن اعتابه. (١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٣ ص ٦٩.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٢١ الحديث عن ابن الفارض بين المدافعين عنه و المهاجمين له و قد كان البقاعى الفقيه من بين المهاجمين و يقول ابن إياس: «و أما البقاعى فكادت العوام أن تقتله و حصل له من الأمراء ما لا خير فيه، فهرب و اختفى حتى توجه إلى مكة».

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٥٥

الفصل الثانى

الحياة الثقافية

إشارة

أشرنا من قبل إلى المكانة التى احتلتها مصر بين دول العالم الاسلامى، و إلى المنزلة التى تبوأتها القاهرة بعد سقوط بغداد. و النشاط العقلى غالبا ما يرتبط بألوان النشاط الأخرى فى بيئته ما، فيزدهر بازدهارها و يخمل بخمولها، إذ إن عناصر الحياة و النماء فى سائر الأنشطة متصلة الأسباب مختلطة الأمشاج.

و قد شهدت مصر قبيل سقوط بغداد حركة علمية نشطة فى العصر الأيوبي، و قد شجع ملوك بنى أيوب هذه الحركة و بعثوا فيها الحياة و النشاط و كان هدفهم من ذلك بعث المذهب السنى فى البلاد و إحيائه و القضاء على ما خلف الفاطميون من آثار التشيع. و قد عرف كثير من ملوك الأيوبيين بميلهم إلى العلم و مشاركتهم فيه، و إغداقهم على العلماء و تكريمهم، فكان صلاح الدين شديد الكلف بعلوم الدين، و كان يحضر مع أبنائه دروس الحافظ السلفى بالاسكندرية، كما سمع من غيره و حضر كثيرا من مجالس العلماء المشهورين «١»، و قد سلك ملوك بنى أيوب مسلك صلاح الدين فى تشجيع العلم و تقريب العلماء، و قد أنشأ صلاح الدين عديدا من المدارس لنشر المذهب السنى و لم يكن بالبلاد مدارس قبل ذلك، فابتنى مدرسة بالقرافة الصغرى بجوار الامام الشافعى، و أنشأ أخرى بجوار المشهد الحسينى، و أقام ثالثة و خصصها للحنفية و قد عرفت هذه فى عهد السيوطى بالسيوفية، كما خصص للشافعية مدرسة عرفت بزین التجار و كانت (١) د. عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية فى مصر ص ١٤٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٥٦

على عهد السيوطى تعرف بالشريفية، و بنى مدرسة للمالكية عرفت على عهد السيوطى بالقمحية، كما أنشأ خانقاه سعيد السعداء حيث أقام بها الصوفية و كان بها دروس علمية «١».

و كان لكل مدرسة مدرسون و معيدون و طلبة تجرى عليهم الأرزاق من الأوقاف التى وقفها السلطان لذلك، و قد اتبع كثير من ملوك بنى أيوب هذه السنة فى إنشاء المدارس و الخوانق و المساجد.

و حين خلف المماليك بنى أيوب فى حكم مصر فانهم لم يكونوا أقل تحمسا للعلم و أهله و للمذهب السنى من أسلافهم، لذلك دأب ملوكهم على إنشاء المساجد و المدارس و الخوانق و وقفوا عليها الأوقاف السخية التى تمدها بما تحتاج إليه من الأموال، هذا فضلا عن أن مصر قد غدت فى أيامهم محور النشاط العلمى و الدينى فى العالم الإسلامى بعد سقوط بغداد فى أيدي التتار و أصبحت القاهرة قبلة علماء المسلمين و محط رحالهم و مركز علمهم، و غدت تموج بألوان النشاط العقلى المتنوعه.

و لقد حرص كثير من سلاطين المماليك على تشجيع الحركة العلمية بالبلاذ و المشاركة فى العلوم فى بعض الأحيان و إن تكن مشاركتهم لا تقاس إلى مشاركة أسلافهم الأيوبيين. و كان للغورى- و هو آخر من عاصرهم السيوطى- مجالس علمية تعقد مرتين أو أكثر فى كل أسبوع «٢».

و هكذا شهد العصر المملوكى نشاطا ثقافيا واسعا كما شهد كثيرا من المنشآت العلمية التى تمثلت فى المدارس و الخوانق و الأربطة و الزوايا و المساجد، و جميع هذه المنشآت- غير المدارس- كانت أماكن للدرس فضلا عن وظائفها الأساسية، أما المدارس فلقد كان غرضها الأساس أن تكون أماكن لالقاء الدروس و إقامة الطلاب، و قد ذكر ابن بطوطة أن مدارس مصر فى القرن الثامن- و هو القرن السابق للقرن الذى عاش فيه السيوطى- «لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها» «٣». (١) السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٥.

(٢) عبد الوهاب عزام: مجالس السلطان الغورى.

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٥٧

و كان إلى جانب هذه المدارس مكاتب صغيرة ملحقة بها تعنى بتعليم الصبية مبادئ القراءة و الكتابة و طرفا من العلوم الأولية و تحفيظ القرآن، و كانت هذه المكاتب تمهد للالتحاق بالمدارس الكبيرة.

و كانت هذه المدارس بمثابة جامعات علمية عظيمة الشأن من حيث طريقة التدريس و مستوى الدراسة و نظم التلقى و الإقامة، و كان لها نظم و قواعد محكمة و مرعية فى مختلف مناحيها، بل إنها تمتاز عن الجامعات الحديثة بأن طلابها كانوا لا يجدون من العقبات و العوائق ما يحول بينهم و بين تحصيل العلوم فضلا عما كانوا ينالونه من ضروب التيسير و المساعدة.

و قد روعى فى تصميم المدارس الأغراض التعليمية و عدد المذاهب و مساكن الطلبة و المعيدى فضلا عن خزائن الكتب و المصاحف، و لم يكن بناء المدرسة مستقلا فى كثير من الأحيان، بل كان بناء ملحقا بالقبه التى بناها السلطان أو الأمير منشئ المدرسة ليدفن فيها بعد وفاته، و مبعث اختيارهم أن يدفنوا إلى جوار المدارس هو طلب الرحمة باعتبار المدارس أماكن تدرس فيها العلوم الدينية «١»، و كان بالمدرسة مسجد و له عدد من المؤذنين و كان يؤم المصلين بها أحد القائمين بالتدريس أو المعيدى «٢».

و جرت العادة عند الفراغ من بناء مدرسة للسلطان أن يحتفل بافتتاحها فى حفل كبير يحضره الأمراء و الفقهاء و القضاة و الأعيان و يأكلون من سماغ يزرخ بألوان الأظعمه، ثم يخلع السلطان على كل من أسهم فى بناء المدرسة «٣»، و يعيرى لها موظفيها من المدرسين و المعيدى و المؤذنين و القراء و غيرهم.

أما العلوم الأساسية التى كانت تدرس فى هذه المدارس فقد ارتبطت بأصول الدين كالفقه و الحديث و التفسير أو العلوم اللغوية و ما يتصل بها كالنحو و الصرف و البيان، فضلا عن الدراسات العقلية كالفلسفة و المنطق أو العلوم العملية كالفلك و الكيمياء و الطب.

(١) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ١٤٩.

(٢) راجع: ابن دقماق: الانتصار: الكلام عن المدرسة الطيرسيه ج ٤ ص ٩٦.

(٣) راجع على سبيل المثال افتتاح مدرسة السلطان حسن: بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٥٨

و بطبيعة الحال فلقد تفاوتت هذه المدارس بحسب ما رصد لكل منها من أوقاف و ما كان لكل من الشهرة بحسب شهرة العلماء

القائمين بالتدريس فيها، و لذلك فكثيرا ما نرى من علماء العصر من قام بالتدريس بإحدى المدارس الصغيرة ثم تركها و انتقل إلى مدرسة أخرى أكثر شهرة و أوسع أوقافا.

أما فيما يخص الطلبة فقد كان الواحد منهم يحضر دروس أحد المدرسين حتى يأخذ منه كفايته ثم ينتقل إلى الآخر حتى يصل من يأخذ العلم عنهم بضع مئات فى بعض الأحيان، و نلاحظ ذلك من مطالعة تراجم كثيرين من علماء ذلك العصر، و كثيرا ما تطلبت هذه الطريقة من طالب العلم أن يرحل إلى مختلف المدن فإذا أتم الطالب دراسته و تأهل للفتيا و التدريس أجاز له شيخه ذلك و كتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب و شيخه و مذهبه و تاريخ الإجازة «١»، و لا شك أن لهذه الطريقة مزايا متعددة تتمثل فى حرص الطالب على حضور دروس أكبر عدد من الشيوخ و السماع منهم، كذلك الحرص على حضور دروس كبار الأساتذة و العناية بها للحصول على إجازات منهم، و قد كان الحصول على الإجازات يستلزم من الطالب إتقان ما درسه على الشيخ و استيعابه و تفهمه و حفظه فى بعض الأحيان فإذا ما أتم ذلك استوجب أن يمنح إجازة بتدريس كتاب ما أو الافتاء فى مذهب من المذاهب الفقهية، و قد ظل هذا التقليد ذائعا و مرعيا طيلة هذه الفترة.

و عرف فى هذه المدارس نظام المحاضرات التى عرفت بالمجالس إذ كان بعض المدرسين يملئ مجالسه على طلبته، و قد ذكر السيوطى عن الحافظ العراقى أن الله تعالى أحيا به سنة الاملاء فأملئ أكثر من أربعمائه مجلس «٢»، كما ذكر أن ابن حجر أملئ أكثر من ألف مجلس و أن الله قد أحيا به و بشيخه العراقى سنة الاملاء «٣». (١) عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر ص ٤٤.

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٤.

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٦، نظم العقيان فى أعيان الأعيان: ترجمة ابن حجر ص ٤٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٥٩

و كانت وظيفة التدريس بالمشهور من هذه المدارس جليلة القدر يخلع السلطان على صاحبها فى كثير من الأحيان، أى أن تعيين المدرس لا يتم إلا بموافقة السلطان نفسه و علمه.

و لم تكن فى دور التعليم نظم محددة و مناهج موضوعة يلتزم بها القائمون بالتدريس أو الطلبة، بل ثمة كتب فى الفقه أو الحديث أو النحو أو اللغة أو غير ذلك يدرسها الشيوخ حسب اختياراتهم و يسمعون من الشيخ من شاء من الطلاب و غيرهم، و لم تكن المساجد أو غيرها من دور العلم تفتقر فى ذلك عن المدارس، غير أن الحصول على الإجازة هو الذى كان يستلزم مواظبة الطلاب فى السماع و حضور الدروس.

و كانت هناك عناية فائقة بحفظ عدد من الكتب المشهورة فى كل فن من الفنون، و نرى فى تراجم علماء العصر أسماء الكتب التى حفظوها، و قد كان ذلك بالطبع أثرا من آثار العناية بعلم الحديث و حفظه حيث انتقلت العناية بالحفظ من الحديث إلى غيره من العلوم.

دور العلم:

إشارة

كانت مراكز العلم فى ذلك العصر منحصرة فى ثلاثة أنواع من المنشآت هى المدارس و الخوانق و ما يشبهها من الربط و الزوايا و المساجد، و سنعرض هنا لكل منها باعتباره مركزا علميا ذاكرين بعض الأمثلة:

١- المدارس:

إشارة

وقد أشرت من قبل إلى بداية إنشائها فى عهد الأيوبيين، ثم كثرتها فى عهد المماليك حتى أصبح من العسير إحصاؤها إذ بلغت عددا كبيرا، ووجد بالمدن المصرية غير القاهرة عديد من المدارس، ولكن القاهرة قد حظيت بالاحظ الأوفر منها، وقد أشار السيوطى إلى بعض هذه المدارس منها ما كان قائما فى عهده، ومنها ما انتهى أمره وبقى أثرا بعد عين، ونشير هنا إلى بعض المدارس التى كانت لا تزال قائمة إلى عهد السيوطى:

جلال الدين السيوطى عصره وحياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٦٠

المدرسة الصلاحية «١»:

أنشئت بجوار الامام الشافعى، بناها صلاح الدين الأيوبي وجعل التدريس والنظر بها للشيخ نجم الدين الخبوشانى و حدث أن خلت من مدرس ثلاثين سنة و اكتفى فيها بالمعدين و كانوا عشرة، و ممن ولى التدريس بها من شيوخ السيوطى ابن حجر العسقلانى و القاياتى شيخ والده، و الشرف المناوى، و كان قائما بالتدريس بها على عهد السيوطى الشيخ زكريا الأنصارى.

مدرسة السلطان حسن «٢»:

أنشأها السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، و هى أكبر مدارس مصر فى عمارتها و حسن هندامها، و قد شرع فى بنائها سنة ٧٥٨هـ، و تم بناؤها بعد ثلاث سنوات، و بها أربعة دروس للمذاهب الأربعة، و قد تعرضت للتخريب و نهب محتوياتها فى فتنة أقبردى الدوادار «٣»، و يفهم من ذلك أنها كانت لا تزال عامرة إلى ذلك الوقت الذى شهدته السيوطى.

مدرسة صرغتمش:

كانت تقع خارج القاهرة بجوار جامع ابن طولون، أنشأها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى، و قد تمت عمارتها عام ٧٥٧هـ، و قد رتب بها درس للحنفية و آخر فى الحديث «٤». و قد بقيت هذه المدرسة عامرة إلى عهد السيوطى كما يفهم مما ذكره عنها ابن إياس فى تاريخه «٥».

إلى جانب هذه المدارس كان هناك كثرة كاثرة من المدارس فى عهد السيوطى تؤدى دورها فى خدمة العلم و أهله منها المدرسة الأشرفية و الايتمشية (١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٦.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٩٢.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٢٨.

(٤) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٢.

(٥) بدائع الزهور ج ٢ ص ١٥٨.

جلال الدين السيوطى عصره وحياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٦١

و الجانبيكية «١»، و غيرها من المدارس التى لا حاجة بنا إلى تفصيلها فى هذا المكان لضيقه عن ذلك «٢».

خزائن الكتب:

و كان بكثير من هذه المدارس خزائن كتب حفلت بالكتب الثمينه فى شتى العلوم و الفنون و كانت على درجه كبيره من الاعداد و التنظيم، «٣» فكان بالمدرسه الظاهريه القديمه خزانه كتب جليله، و كان للمدرسه المحموديه خزانه كتب ضخمة و قد أفاد منها السيوطى، و كذلك المدرسه الجماليه و عديد من المدارس غير ما ذكرنا، كما ألحقت خزائن كتب ببعض الخواتق و المساجد. و قد عنى المماليك أنفسهم بالكتب عناية فائقه دل عليها احتفاظهم فى قلعه الجبل بمكتبه ضخمة بها أكبر عدد من الكتب «٤».

٢- الخواتق و الربط و الزوايا:

إشارة

رأينا من قبل فى حديثنا عن التصوف و المجتمع كيف انتشر التصوف فى البلاد المصريه، و قد استتبع ذلك و ساعد عليه فى نفس الوقت كثرة البيوت التى أنشئت للصوفيه و عرف بعضها بالخواتق و بعضها الآخر بالربط كما عرف قسم ثالث بالزوايا. و تكاد تنعدم التفرقة بين مسميات هذه الأسماء حتى وقع خلط فيها لدى المؤرخين فذكر ابن بطوطه أن الخانقاه هى الزاويه و أن المصريين يطلقون على زواياهم اسم خانقاوات أو خواتق «٥». (١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ١٥٨. الحديث عن الشيخ أمين الدين الأفصرائى.

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤-١٩٤، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث ص ٣٧-٥٧.

(٣) د. سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ٣٣٣، عبد الوهاب حموده: صفحات من تاريخ مصر ص ١٠٢، ١٠٣.

(٤) العصر المماليكى ص ٣٣٣.

(٥) رحلة ابن بطوطه ج ١ ص ٢٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٦٢

و الذى يهمنى الآن هو أن نذكر أن هذه المنشآت التى أنشئت لإقامة الصوفيه لم تخل من الجوانب العلميه، بل إنها جعلت- على مر الأيام- تحل محل المدرسه تدريجيا، و سنرى الآن أن بعض هذه الخواتق فضلا عن قيامها بوظيفتها الأولى و هى إيواء الصوفيه و إقامة شعائرهم قد أصبحت دورا للعلم تضارع أعظم المدارس فى عصرها، و وجد بها تدريس كثير من المواد الدراسيه المعروفة، و لعل هذا الاتجاه العلمى للخواتق هو الذى جعل بعض المؤرخين يطلق على بعضها اسم المدرسه مرادفا للخانقاه «١»، و هو كذلك ما حدا بالسيوطى إلى أن يذكر الخواتق المصريه أثناء حديثه عن المدارس فى الفصل الذى عقده عن المدارس و الخواتق حيث لم يفصل المدارس عن الخواتق «٢»، مما يدل على كونها من الناحيه العلميه كالمدراس سواء بسواء، و سنشير هنا إلى بعض هذه الخواتق التى تولى السيوطى مشيخه اثنتين منها.

خانقاه سعيد السعداء «٣»:

كانت دارا لرجل اسمه قنبر أو عنبر و لقبه سعيد السعداء، و هو أحد الأساتذة الذين خدموا فى قصور الفاطميين و كان له شأن فى دولتهم، فلما آلت سلطنه مصر إلى صلاح الدين الأيوبي وقفها على الصوفيه فى سنه ٦٤٠ هـ و تسعين و خمسمائه و كان شيخها يلقب بشيخ الشيوخ، و ظل ينعت بهذا اللقب حتى بنى محمد بن قلاوون خانقاه سرياقوس فدعى شيخها بشيخ الشيوخ، إلى أن كانت الحوادث عام ٨٠٦ هـ و تلاشت الرتب أو فقدت شيئا من مدلولاتها فتلقب شيخ كل خانقاه بشيخ الشيوخ.

و كان سكانها من الصوفيه يعرفون بالعلم و الصلاح و ترجى بركتهم.

و ممن ولى مشيختها قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز و القاضى بدر الدين بن جماعه و القاياتى و القلقشندى. (١) راجع ابن

إياس في حديثه عن خانقاه شيخو أو المدرسة الشيخونية، بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٢٢.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤.

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٨٧، ١٨٨، بدائع الزهور ج ١ ص ٧٢.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٦٣

و انتهى السيوطي في ذكر شيوخها إلى الكوراني الذي يذكر ابن اياس وفاته في رجب عام ٨٩٤ هـ فهو من معاصري السيوطي ثم جاء بعده السنتاوي و ليس الفتاوي كما هو محرف في كتاب ابن اياس، و هو الشيخ زين الدين عبد الرحمن السنتاوي الذي تولى مشيختها في شعبان من نفس العام «١»، و هو آخر من أوردتهم السيوطي من شيوخ هذه الخانقاه.

و قد ذكر ابن إياس بعد ذلك تولى عبد القادر بن النقيب مشيختها في عام ٩٠٣ هـ «٢». و فيما أوردنا دلالة على أن هذه الخانقاه ظلت منذ زمن إنشائها و طيلة عهد السيوطي قائمة تؤدي دورها الذي أنشئت من أجله.

و يتضح من أسماء الذين تولوا مشيختها أنهم كانوا من فضلاء أهل العلم و الفقه في ذلك الحين و لا ريب في أن ذلك قد جعل من هذه الخانقاه مركزا من مراكز العلم فضلا عن إيواء الصوفية و إقامة شعائرهم، نستطيع أن نذهب إلى ذلك بالرغم من عدم وجود نصوص لدينا تدل على وجود دروس علمية منظمه بها.

خانقاه شيخو «٣»:

أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمري في حي الصليبية تجاه جامع في عام ٧٥٦ هـ و رتب بها دروسا عديدة، منها أربعة دروس في الفقه على المذاهب الأربعة، و درس في الحديث و درس في القراءات، و مشيخة لاسماع الصحيحين و الشفاء.

و قد اشترط في شيخها الأكبر حضور التصوف و تدريس الحنفية و أن يكون عارفا بالتفسير و الأصول و ألا يكون قاضيا.

و أول من تولى مشيختها الكبرى الشيخ أكمل الدين البابر تي، و هكذا يلاحظ (١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٣٢.

(٣) المقرئ: الخطط ج ٤ ص ٢٨٣، السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩١، ١٩٢.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٦٤

أن مدرس الحنفية هو الذي كان يتولى مشيختها في الغالب وفقا لشروط الواقف، و قد أورد السيوطي أسماء جميع من تولى مشيختها الكبرى حتى انتهى إلى الشيخ باكير «١»، و لم يرد بكتاب السيوطي الذي بين أيدينا بعد الشيخ باكير أحد، بالرغم من أن الذين ولوا مشيختها بعد ذلك كانوا معاصرين للسيوطي و كان بعضهم من شيوخه، فمنهم الشيخ محيي الدين الكافيجي المتوفى عام ٨٧٩ هـ «٢»، ثم وليها الشيخ سيف الدين الحنفي المتوفى عام ٨٨١ هـ «٣»، و بعد ذلك وليها الشيخ محب الدين بن الشحنة «٤»، و قد نص السيوطي في أماكن أخرى على تولى هؤلاء مشيخة الشيخونية «٥». و يبدو أن كتاب حسن المحاضرة الذي بين أيدينا لم يسلم من نقص تعرض له كما لم يسلم من زيادات دخلت فيه، و ما قدمنا دليل على ما نقول، فلعل السيوطي كان حريصا كل الحرص على ذكر أسماء شيوخه و معاصريه الذين تولوا مشيخة الشيخونية، يدل على ذلك ذكره لهم في أماكن آخر و سنشير إلى هذه النقطة مرة أخرى في مناسبتها. و جدير بالذكر هنا أن السيوطي قد تولى منذ وقت مبكر تدريس الحديث بهذه الخانقاه و ذلك في شعبان عام ٨٧٧ هـ «٦»، بعد وفاة فخر الدين المقسمي.

و هكذا يتضح لنا أن خانقاه شيخو كانت تعد مدرسة كبيرة لها وزنها في المجتمع آنذاك فضلا عما كانت تؤديه من إيواء الطلبة و الصوفية، و قد كان لها أوقاف سخية ينفق منها على شيوخها و طلبتها و سائر مرافقها و قد عظم قدرها و تخرج فيها كثير من أهل العلم، و سنشير إلى هذه الخانقاه عند الحديث عن حياة السيوطي لأن والده كان من صوفيتها و قد تولى تدريس الفقه الشافعي بالجامع

الشيخونى المقابل للخانقاه كما أن السيوطى قد تولى أول وظائفه العلميه بها. (١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١٧.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ١٥٢.

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٨، ١٦٩.

(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ١٧٥.

(٥) السيوطى: نظم العقيان فى أعيان الأعيان ترجمه ابن الشحنة ص ١٧١.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ١٤٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٦٥

الخانقاه البيبرسيه «١»:

بناها الأمير بيبرس الجاشنكير فى عام ٧٠٧ هـ و أغلقها الناصر بن قلاوون مدة ثم أمر بفتحها، و قد ذكر المقرئى أنها أجل خانقاه بالقاهرة بنينا و أوسعها مقادارا و أتقنها صنعاً و الشباك الكبير الذى بها هو الشباك الذى كان بدار الخلافة ببغداد و كانت الخلفاء تجلس فيه، و يبدو من وصف المقرئى أنها ضمت من الصوفيه عددا بلغ أربعمائاً يجرى عليهم من أوقافها ما يكفيهم فى معيشتهم، و مما يذكر أنه كان بها درس للحديث و كان بها مجموعه من القراء و كان لها أوقاف عديده بدمشق و حماه و بمواضع متفرقه فى مصر.

و يبدو أن أوقافها الواسعه و مبانيها الضخمه فضلا عن كثرة صوفيتها و مدرسيتها قد أضفى عليها مسحة من الجلال و العظمة بين سائر المدارس و الخوانق المعاصره لها و جعل مشيختها منصبا يطمح إليه شيوخ المدارس الأخرى.

و الجدير بالذكر أن السيوطى قد تولى مشيختها بعد وفاة الجلال البكرى و قد ساعده فى بلوغ هذا المنصب الخليفه عبد العزيز «٢»، و كان ذلك فى ربيع الآخر عام ٨٩١ هـ.

و أقام السيوطى فى وظيفته بهذه الخانقاه حتى كانت سلطنه طومان باى و كان بينه و بين السيوطى عداوه فاختم فى رجب عام ٩٠٦ هـ و عزل من وظيفته و قرر فيها الشيخ يس البليسى، و سنشير إلى ذلك عند حديثنا من حياة السيوطى، و هذه الخانقاه هى المعروفه الآن بجامع بيبرس بشارع الجماليه بالقاهرة «٣».

و هناك عدد من الخوانق شهدها عصر السيوطى غير ما قدمنا منها خانقاه سرياقوس التى أشار إليها السيوطى عرضا و لم يفردها ذكرا مع نصح على أن (١) المقرئى: الخطط ج ٤ ص ٢٧٦، السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٧٦.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٦.

(٣) عبد الوهاب حموده. صفحات من تاريخ مصر ص ٧٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٦٦

شيخها كان يلقب بشيخ الشيوخ «١»، و قد جدّد الناصر محمد بن قلاوون عمارتها فى عام ٧٢٣ هـ «٢»، و كانت عامره تؤدى دورها فى حياة السيوطى.

٣- الجوامع:

إشارة

استقر العرف اللغوى على إطلاق «الجامع» على المسجد الذى تقام فيه الجمعة، و «الجامع» فى الأصل وصف للمسجد كان يلفظ به

مقترنا بموصوفه فيقال المسجد الجامع أو مسجد الجامع، ثم حذف الموصوف و أقيمت الصفه مقامه أو حذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه فاستعملت الكلمه وحدها لكل مسجد تقام به الجمعة.

و لم يقتصر الغرض فى إنشاء المساجد عند المسلمين منذ أوائل عهدهم على إقامة الصلوات فحسب و إنما امتد إلى الأغراض العلميه و السياسيه.

و قد عرفت مصر فى عصر المماليك عددا ضخما من المساجد قُدرت بالقاهرة على عهد المقرئى بمائه و ثلاثين مسجدا تقام بها الجمعة «٣»، على حين قدرها غيره بأكثر من ألف مسجد «٤». و قد شهد كثير من هذه المساجد ألوانا متنوعه من النشاط العلمى، و قام بالتدريس فيها كبار علماء العصر، و كثيرا ما نرى فى تراجمهم أسماء المساجد التى كانوا يترددون عليها. فالكمال السيوطى كان يدرس الفقه بالجامع الشيخونى المقابل للخانقاه، و ابنه الجلال السيوطى قام بالتدريس فى نفس المسجد مكان أبيه «٥»، كذلك تردد السيوطى على جامع ابن طولون يملئ الحديث «٦».

و كان لكل مسجد أوقاف سخيّه تقوم بسداد احتياجات المسجد و الإنفاق على مرافقه و العاملين به كما تكفل أموال القائمين بالتدريس فيه فى بعض الأحيان. (١) السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٧.

(٢) المقرئى: الخطط ج ٤ ص ٢٨٤، بدائع الزهور ج ١ ص ١٦٣.

(٣) المقرئى: الخطط ج ٤ ص ٢.

(٤) خليل بن شاهين الظاهري: زبده كشف الممالك ص ٣١.

(٥) السخاوى: الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٦.

(٦) أحكام قراقوش ورقه رقم ١٦٧ و هى رساله مخطوطه للسيوطى ضمن مجموعه رسائل.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٦٧

و قد أفرد السيوطى فى كتابه «١»، فصلا للحديث عن جوامع مصر، فذكر أربعة منها هى جامع عمرو و جامع ابن طولون و الجامع الأزهر و جامع الحاكم، و سنشير هنا إلى المساجد الثلاثة الأولى باعتبارها دورا للعلم لم تكن تقل شأنًا عن المدارس أو الخوانق، بل اننا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن بعضها قد بدّ جميع المدارس و تفوق عليها فى ضروب نشاطه العلمى فى بعض الأحيان.

و لم تكن الدراسة بهذه المساجد مقصوره على العلوم الدينيه و اللغويه فحسب، بل تعدتها إلى غيرها من العلوم كالتب و الفلك و الحساب و غيرها، و كانت مشيخه الجامع لا سيما إذا كان كبيرا من الوظائف الهامه بالدوله و كانت تسند إلى المبرزين فى العلوم الدينيه.

جامع عمرو «٢»:

أسسه عمرو بن العاص بعد فتح مصر و لا يزال قائما إلى اليوم، و قد عنى بتجديده و توسيعه كثيرون من أولى الأمر بمصر، و هو أول مسجد أسس بالديار المصريه و يسمى أيضا بالجامع العتيق.

و قد أفاض السيوطى فى ذكر تاريخه و المعتنين بأمره و القائمين على صيانتها، و كانت تعقد به حلقات تدرس فيها شتى العلوم بلغ تعداد هذه الحلقات قبل عام ٧٤٩ هـ بضعاً و أربعين حلقه لا- تكاد تبرح منه، و كان بالجامع زوايا يدرس فيها الفقه منها زاويه الامام الشافعى التى يقال إنها عرفت باسمه لأنه درس بها بعد مجيئه إلى مصر، و منها الزاويه الصحبيه رتبها الصحاب تاج الدين محمد بن بهاء الدين و وقف عليها و جعل لها مدرسين أحدهما مالكى و الآخر شافعى، و من ذلك يبدو أن الحركة العمليه بجامع عمرو كانت قويه نشطه، و يبدو أن النشاط العلمى ظل على حاله بالمسجد فى عهد السيوطى حيث لم يذكر انقطاع هذا النشاط. (١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٧٦.

(٢) المقرئى: الخطط ج ٤ ص ٤، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٧٧، ١٧٨.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٦٨

جامع ابن طولون «١»:

بناه أحمد بن طولون بالقطن عام ٢٦٣ هـ، و فرغ من بنائه فى عام ٢٦٦ هـ، و قد لبث هذا المسجد منارة تشع نور المعرفة و العلم فى مصر زمنا طويلا، و قد اتخذ المسجد طابعه العلمى منذ أول يوم أنشئ فيه إذ خطب فيه أبو يعقوب البلخى و أملى به الحديث الربيع بن سليمان تلميذ الشافعى، و قد قرر به ابن طولون جماعة من العلماء و الفقهاء و أجرى عليهم الرواتب و الصدقات و قد بلغ ما ينفق من الرواتب و الصدقات فى اليوم الواحد ألفا و مائتا دينار و كان هناك «مارستان» ملحق بالمسجد لايواء المرضى و الضعفاء «٢».

و قد لقي المسجد عناية السلطان لاجين الذى تولى عام ٦٩٦ هـ بعد أن ناله غبار الاهمال فوقف عليه السلطان أوقافا ثمينه و رتب فيه دروسا عديدة للحديث و التفسير و الفقه على المذاهب الأربعة و القراءات و الطب و الميقات.

و قد عدد السيوطى أسماء الذين تولوا نظر المسجد منذ اعتنى به السلطان لاجين فكان بعض نظاره من أمراء المماليك و بعضهم من القضاة، و استقر الأمر بأن يلى القضاء نظره و هو ما كان فى عهد السيوطى إذ يذكر أن نظره عاد «إلى القضاء بعد الصفوى و هو بأيديهم إلى اليوم» «٣»، و قد سبقت الاشارة إلى أن السيوطى كان يختلف إلى هذا الجامع يملئ به الحديث.

الجامع الأزهر:

أنشأه بالقاهرة القائد جوهر الصقلئ مولى المعز لدين الله الفاطمئ و قد تم بناؤه فى رمضان عام ٣٦١ هـ، ثم جدده الحاكم بأمر الله و وقف عليه أوقافا.

و كانت الحكمة واضحة فى إنشاء هذا المسجد لأن الدولة الفاطمئة دولة الشيعة الامامية و قد عملت على نشر مذهبها فأقامت هذا المسجد، و قد مكث يتمتع برعاية الدولة الفاطمئة طيلة عصرها مسجدا لإقامة الشعائر و معهدا (١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٠-١٨٣.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٣٨.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٦٩

تدرس فيه العلوم المختلفة. و لما تولى صلاح الدين أبطل الجمعة بالجامع الأزهر و أقرها بالجامع الحاكمى غير أن صفة المسجد العلمى ظلت قائمة فكان مقصد كثير من العلماء المبرزين و مستقرهم زمن الأيوبيين و قد لبث الجمعة مطلة بالمسجد حتى أيام الظاهر بيبرس «١»، و قد كان للجامع أهمية كبيرة فى عصر المماليك كما قام بدور كبير فى الحياة الثقافى فى تلك الأيام بالرغم من المنافسة القوية بين المدارس و الجوامع المختلفة فى اجتذاب العلماء و الطلبة إليها.

و قد بلغ عدد الفقهاء الذين أقاموا به أوائل القرن التاسع الهجرى سبعمائة و خمسين رجلا من مختلف البلاد، و كان لكل طائفة رواق يعرف بهم و يشتغلون فيه بالعبادة و العلوم الدينى، كما قصده كثير من الناس بألوان البر إعانة لطلبتة «٢»، و قد أبدى سلاطين المماليك عناية خاصة بالجامع الأزهر فكانت الأحباس و الهبات الثابتة تتوالى على الجامع و طلبته، و كان أكثرهم تحمسا السلطان قايتباى معاصر السيوطى الذى قام بتجديد المسجد و إصلاحه و أنفق عليه الأموال، و أنفق على طلبته «٣».

و هكذا فلقد كان القرن التاسع الهجرى عصر الأزهر الذهبى حيث شهد الجامع عددا كبيرا من العلماء فى كل علم و فن، و إذا كان هذا القرن يمثل نهاية ازدهار العلوم و تنوعها و اتساع آفاقها و كثرة العلماء المبرزين فى كل علم فلقد كان بينهم كثير من يترددون

على الجامع الأزهر لالقاء الدروس أو الخطب و يكفى أن الحافظ ابن حجر فى أوج مكانته العلمية قد تولى الخطابة بالأزهر مدة طويلة (٤).

و المتتبع لتراجم رجال هذا القرن التى كتبها معاصروهم يرى حرصهم على ذكر وظائف التدريس التى تولوها بالجوامع و المدارس و الخواتم دون تفرقة، إذ كانت كلها من الوظائف الجليله التى يخلع السلطان على صاحبها، كما يلاحظ (١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٨٣، ١٨٤.

(٢) المقرئى: الخطط ج ٤ ص ٥٣، ٥٤.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ١٦٩.

(٤) السخاوى: التبر المسبوك ص ٢٣١، عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر ص ٨٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٧٠

كثرة هذه الدور التى كانت بمثابة معاهد علمية عالية الشأن، و ثمة ملاحظة ثالثة يمكن إدراكها و هى أن شهرة العالم و مواهبه كانت تجعله أهلا لأن يجمع فى يده أكثر من وظيفة واحدة فنراه يلى مشيخته مدرسه ما و يدرس إحدى مواد الدراسة بغيرها، و يختلف إلى أحد الجوامع لالقاء بعض الدروس و نحو ذلك.

كما نرى منهم من ولى التدريس بالجامع الطولونى و الجامع الحاكى و مدرسة السلطان حسن و الشيخونية و الجمالية و المؤيدية و الأشرفية و غيرها «١»، و نرى عالما كبيرا طبقت شهرته الآفاق كابن حجر تسند إليه وظائف تدريس الحديث بالشيخونية و بجامع القلعة و بالجمالية و البيبرسية، و يسند إليه تدريس الفقه بالمؤيدية و الشيخونية إلى غير ذلك من وظائف القضاء التى تولاه.

و فيما أوردنا دليل على كثرة معاهد الدرس و تنوعها و العناية العظيمة التى لقيتها فى هذا العهد، كما كانت وظائف التدريس بمكانتها المرموقة فى المجتمع حافظا للعلماء على الإجادة و الاجتهاد فى علومهم فضلا عن الحوافز الدينية المخلصة التى وجدت عند كثيرين منهم و التى دفعتهم إلى الانتاج فى العلوم الدينية و اللغوية حسب الله و رغبة فى ثوابه فلا عجب أن تقوى الحركة العلمية فى ذلك العصر و أن تبلغ أوج ازدهارها فى أواخره أى فى الفترة التى عاش فيها الجلال السيوطى، حيث شهدت هذه الحقبة من الزمن عددا ضخما من العلماء فى كل فن.

بالإضافة إلى ما سبق كانت هناك عوامل عديدة سبقت الإشارة إلى بعضها ضمنا و إلى بعضها تصريحاً، ساعدت هذه العوامل على نشاط الحركة الثقافية و ازدهارها أولها انتقال النشاط العلمى إلى القاهرة بعد سقوط بغداد، و قد بينا من قبل مكانة القاهرة فى العالم الاسلامى بعد سقوط الخلافة فى بغداد و انتقالها إلى القاهرة، و كان لما قام به التتر من تخريب بغداد و تبديد الكتب الاسلامية و إلقائها فى دجلة و قتل كثير من العلماء أثره البالغ فى نفوس علماء عصر المماليك بصفه عامه إذ شعر هؤلاء بأن عليهم تبعه كبيرة و رأوا أنفسهم مسئولين أمام الله (١) السيوطى: نظم العقيان فى أعيان الأعيان ترجمه عز الدين العسقلانى ص ٣١.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٧١

تعالى عن دينه و أمام التاريخ و أمام ضمائرهم عن إنهاض العلم و إقاله عثاره و جمع ما تفرق منه فدفعهم هذا الشعور إلى الجد فى العمل و التحصيل، و كان لهذا الشعور نفسه أثر فى ظاهرة شاعت فى مؤلفات ذلك العصر و هى ظاهرة الموسوعات العلمية.

و قد اجتذبت البيئه المصرية و عاصمتها القاهرة بما لها من مكانة إسلامية و حضارة مزدهرة و ما بها من تشجيع للعلم و أهله كثيرا من العلماء و الطلاب الذين هوت أفئدتهم إليها من مختلف بلدان العالم الاسلامى، و قد ظل وفود هؤلاء العلماء إلى مصر مستمرا طيلة عصر المماليك، و من هؤلاء ابن مالك الأندلسى و ابن أبى حجلة المغربى، و ابن خلدون و كثيرون غيرهم ممن وفدوا على البلاد و ازدهرت بهم الحياة العلمية بها. و قد وصف ابن خلدون نشاط الحركة العلمية بالقاهرة و علل هذه الظاهرة تعليلا دقيقا فقال: «و نحن لهذا العهد نرى أن العلم و التعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر، و حضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين،

فاستحكمت فيها الصنائع و تفتنت، و من جملتها تعلم العلم، و أكد ذلك و حفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين فى دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب و هلم جرا و ذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء، و لما يخشى من معاطب الملك و نكباته، فاستكثروا من بناء المدارس و الزوايا و الربط، و وقفوا عليها الأوقاف المغلقة يجعلون فيها شركا لولداهم بنظر عليها، أو نصيب منها، مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير، و التماس الأجر فى المقاصد و الأفعال، فكثرت الأوقاف لذلك، و عظمت الغلات و الفوائد و كثر طلب العلم و معلمه، بكثره جراتهم، و ارتحل إليها الناس فى طلب العلم من العراق و المغرب، و نفقت بها أسواق العلوم، و زخرت بحارها، و الله يخلق ما يشاء» (١).

و لئن كان هذا الوصف الدقيق صادقا على القرن الثامن الهجرى الذى عاش (١) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٣٤، ٤٣٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٧٢

فيه ابن خلدون فلقد كان القرن التاسع الهجرى الذى عاش فيه السيوطى وارثا لحضارة القرن السابق عليه مع ما فيه من زيادة عليه ما يعطى صورة للحركة الثقافية المزدهرة فى تلك الأيام.

و لا ننسى ما كان لتشجيع السلطان و الأمراء من أثر فى ازدهار الحياة العلمية فقد حرص ولاء الأمر على إظهار غيرتهم على الاسلام و المسلمين فى كثير من الأحيان، كما شجع كثير منهم العلماء و أعقد عليهم و أقام لهم المدارس و الخوانق و المساجد، كما وجد العلماء- كما سبق أن أشرنا فى الحديث عن طبقات المجتمع- كثيرا من مظاهر التكريم و الحفاوة و كان لهم كلمة مسموعة بالبلاد، و قد تولوا كثيرا من المناصب الهامة بالدولة لا سيما مناصب القضاء و دواوين الانشاء و التدريس.

كما أن إنشاء دور الكتب الجديدة التى ألحقت بالمدارس و المساجد و الخوانق كان له أثره فى نشاط الحركة العلمية، فقل أن تجد دارا للعلم لا يلحق بها خزانه للكتب.

و قد عنى السلاطين و الأمراء و منشئو المدارس باختيار مدرسيها من بين العلماء الأفاضل المعروفين فى عصرهم، و لذلك فقد كانت وظائف التدريس فى المدارس المشهورة محتفظة- فى الغالب- بمكانتها العالية فى المجتمع.

و قد كان لتنافس العلماء فى سبيل بلوغ المناصب الهامة المتاحة لهم أثره المباشر فى نشاط الحركة العلمية، إذ كان على كل طامح إلى أحد المناصب أن يسعى إلى مطمحه من ناحية العلم أولا، فكان عليه أن يتلمذ و ينتقل من شيخ إلى شيخ و أن يدأب على الدرس و المطالعة و الحفظ، و أن يلم بشتات من علوم عدة، ثم عليه أن يتصدى للتدريس و الفتيا بعد ذلك و أن يتصدى للنفع العام بعلمه فإذا ذاع صيته و كثر ذكره دعى من قبل الملوك و الأمراء إلى تولى المناصب الكبيرة، و إذا لم يدع فإن من اليسير عليه أن يسعى لديهم بواسطة أحد أولئك الأمراء أو الأعيان فى سبيل بلوغ حاجته.

و هكذا نشطت الحركة العلمية فى العصر الذى نتحدث عنه، و كان لنشاطها

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٧٣

مظاهر ثلاثة أولها: و فود الطلبة إلى دور التعليم. و ثانيها: كثرة العلماء و الأدباء، و ثالثها نشاط الحركة التأليفية «١»، و سنشير هنا إلى كل مظهر من هذه المظاهر الثلاثة:

[نتائج نشاط الحركة العلمية]

١- و فود الطلاب إلى معاهد العلم:

كان للعناية البالغة بدور التعليم أثره الكبير فى اجتذاب الأعداد الكبيرة من الطلاب الذين وجدوا البيئة المهيأة للاقامة و المعينة على التفرغ لطلب العلم، و لم تقتصر المدارس كما أشرنا من قبل على الطلبة المنتظمين بها و المنقطعين للعلم مقابل ما يجدونه من أموال

الأوقاف، و إنما امتدت لتشمل عددا كبيرا من طلبة العلم الذين يتفرغون من أعمالهم بين حين و آخر و يحضرون من الدروس ما يشاءون حضوره مما تتيحه لهم أوقات فراغهم و بهؤلاء و هؤلاء زحرت المدارس و المساجد و الخوانق و جميع معاهد العلم، و كان لذلك أثره فى نشر الثقافة و المعرفة.

٢- كثرة العلماء و الأدباء:

زخر العصر بعدد وافر من العلماء فى شتى العلوم: فى الفقه على المذاهب الأربعة، و فى علم الكلام و التصوف و اللغة و النحو و الأدب و الطب و التنجيم و التاريخ و الفلك و غير ذلك من العلوم. و قد قام كثير من هؤلاء العلماء بالفتوى و التدريس و الوعظ و التأليف و شغلوا مناصب القضاء و الكتابة و ما إليها فتتج عن ذلك حركة فكرية نشطة سنرى شواهد عليها عند الحديث عن حياة السيوطى و ما شهدته عصره من منازعات فكرية و منافسات بين العلماء. و كانت هناك مناظرات بين كثير من العلماء فى شتى الموضوعات، كما كانت هناك رسائل ألفها بعضهم ردا على أقرانه. و قد شجع السلطان الغورى- و هو آخر السلاطين الذين عاصروهم (١) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ص ٨٧ و ما بعدها. جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٧٤
السيوطى- المناظرات العلمية بين العلماء فى مجالسه التى تعوّد عقدها يومين كل أسبوع «١».

٣- نشاط الحركة التأليفية:

و هى أهم مظاهر النشاط العلمى و أهم نتائجه كذلك و أبقاها، فلقد أنتج علماء هذه الحقبة آلاف من الكتب فى مختلف ألوان المعرفة، و قد عرف عن بعضهم أنه ألف مئات من الكتب وحده كابن تيمية الذى قيل إن مؤلفاته أربت على خمسمائة، و ابن حجر الذى زادت مؤلفاته على مائة و خمسين، و السيوطى الذى وصلت مؤلفاته إلى نحو ستمائة. و كانت هذه الكتب تملأ خزائن العصر، و قد ضاع عدد كبير منها بعد فتح العثمانيين لمصر و خمود الحركة العلمية بالبلاد، و نقل كثير من الكتب إلى القسطنطينية.

و الذى يعيننا أن هذا العصر قد شهد مجموعات من الكتب الضخمة التى وضعت به فى كل ناحية من نواحي المعرفة، و كنا نود أن نشير إلى بعض هذه الكتب فى شىء من الإيجاز لا سيما ما تناول منها التاريخ بفروعه و الحديث و مصطلحه و اللغة و النحو و الفقه و التصوف، و لكننا نكتفى دفعا للاطالة و تجنبنا للاستطراد بأن نذكر هنا أن هذه الفروع و غيرها من فروع المعرفة قد حظيت بعدد ضخم من الكتب التى وضعت فيها و كانت بمثابة مراجع للطلاب و الشيوخ، و نكتفى بالاحالة إلى ما ذكره محمود رزق سليم عن مؤلفات هذا العصر فى التاريخ و ما يتصل به من تراجم و سير و كتب عن المدن و الأمصار و الخطط «٢»، و ما ألف فى فقه المذاهب الأربعة «٣»، و ما ألف فى التفسير و ما يتصل به «٤»، و فى الحديث و مصطلحه «٥»، و فى التصوف و العقائد و ما ألف فى القراءات (١) عبد الوهاب عزام: مجالس السلطان الغورى: مقدمة الكتاب.

(٢) عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث ص ٩٢-١٢٥.

(٣) المصدر السابق، المجلد الثالث ص ١٢٦-١٣٨.

(٤) نفس المصدر، المجلد الثالث ص ١٣٩.

(٥) نفس المصدر، المجلد الثالث ص ١٤٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٧٥
و النحو و الصرف و علوم العربية و فى العلوم الكونية، ثم ما ألف من كتب جامعة «١».

ولا نرى داعيا لتكرار ما سبق إليه الباحث و نكتفى بالاحالة إليه، و يكفينا أن نخلص إلى أن العصر قد شهد حركة تأليفية و عرفت خزائن الكتب آلافا من الكتب المتنوعة فى شتى فروع المعرفة لا سيما الفقه و الحديث و اللغة و النحو. و مما يؤسف له أن كثيرا من هذه الكتب رغم قرب عهدنا منها قد ضاع و اندثر و لا نجد له ذكرا فى فهارس المكتبات المصرية مخطوطا أو مطبوعا، على أن كثيرا مما تبقى لا يزال إلى اليوم مخطوطا لم تمتد إليه يد النشر. و يمكننا أن نذكر عدة ملاحظات عامة على التأليف و المؤلفات فى ذلك العصر نجملها فى النقاط التالية:

[منهج التأليف فى العصر]

١- الاتجاه الموسوعى:

اتجه المؤلفون إلى وضع موسوعات علمية تجمع أشتاتا من علوم مختلفة، و يستطرد المؤلف فيها إلى كثير من الميادين حسب المناسبات، فنرى فيها التقويم و التاريخ و الأدب شعرا و نثرا إلى جانب الفكاهة أو الحديث عن الحيوان و النبات أو الحديث فى الطب و ما شاكل ذلك و هى فى جملتها تفى بجمع المعلومات المختلفة و الحقائق المتفرقة، و النصوص المتباعدة المبعثرة التى تجمعها أدنى جامع، و يربط بينها رباط يبدو واهيا، و يظهر فيها الاستطراد و التسلسل من موضوع إلى موضوع.

و يدل وضع هذه الموسوعات على سعة علم واضعها و مقدار اطلاعهم الواسع و صبرهم على تدوين ما لديهم من العلوم و تنسيقه، و ليس وضع الموسوعات عملا آليا خاليا من الجهد العقلى كما يتهم أصحابه بذلك من قبل بعض المحدثين، و إن كان يؤخذ على هذه الطريقة خلطها بين المواد العلمية المختلفة و قلة العناية بوحدة الموضوع فإننا لا نستطيع أن ننكر ما لها من فوائد فى حفظ هذه العلوم و الأفكار من الضياع. (١) نفس المصدر، المجلد الثالث ص ١٤٦-١٧٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٧٦

و لعل الدافع إلى وضع هذه الموسوعات و الإكثار منها هو شعور علماء العصر بمسئوليتهم تجاه المسلمين فى المشرق و المغرب بعد سقوط بغداد و ضياع كثير من كنوزها العلمية على أيدى التتر.

على أن كثيرا من المؤلفات التى وضعت فى ميدان من ميادين المعرفة لم تخل من أثر الاتجاه الموسوعى فى منهج تأليفها فنجد فيها الاستطراد إلى موضوعات خارجة، و التسلسل من موضوع إلى غيره، و هناك كثير من كتب اللغة و الحديث و التاريخ و النحو و الأدب لم تسلم من أثر النزعة الموسوعية إن قليلا و إن كثيرا و أشهر الكتب التى يتضح فيها الاتجاه الموسوعى هى:

أ- لسان العرب: و هو المعجم اللغوى المشهور الذى ألفه ابن منظور المتوفى عام ٧١١ هـ، و فيه إلى جانب اللغة تطرق إلى كثير من مواد المعرفة.

ب- إرشاد السارى إلى شرح البخارى لشهاب الدين القسطلانى المتوفى عام ٩٢٣ هـ و هو من معاصرى السيوطى، و فى كتابه إلى جانب شرح الحديث بحوث تاريخية و فقهية و تطرق إلى موضوعات شتى، و الكتاب فى عشر مجلدات.

ج- فتح البارى بشرح البخارى لابن حجر العسقلانى المتوفى عام ٨٥٢ هـ، و هو كتاب ضخيم و فى ثناياه بحوث فقهية و تاريخية.

د- صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء لشهاب الدين القلقشندى المتوفى عام ٨٢١ هـ، و هو فى عشرين مجلدا و فيه استطادات تاريخية و تراجم و نصوص أدبية و تطرق إلى كثير من الموضوعات المتنوعة.

إلى غير ذلك من الكتب التى يضيق المقام هنا عن ذكرها و إنما مثلنا بما قدمنا منها، و سنرى عند الحديث عن مؤلفات السيوطى أثر هذه النزعة الموسوعية فى مؤلفاته.

٢- ظاهرة التقليد:

يبدو أن كثرة المؤلفات التى وضعت فى هذه الحقبة و ذبوع شهرة بعضها جعلت كثيرا من المؤلفين يتجهون إلى تقليد ما اشتهر منها لدى أشياخهم، و لهذا

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٧٧

التقليد فى التأليف صور عديدة فقد نرى التقليد فى تسمية الكتاب، أو فى أسلوب التأليف، و قد يبدو التقليد واضحا حين يكون فى الموضوع باعتماد المؤلف على كتاب أو عدد قليل من الكتب السابقة اعتمادا ظاهرا فى مؤلفه الجديد دون إشارة إليها أو بإشارات قليلة بحيث يدرك الباحث مدى اعتماد المؤلف اللاحق على السابق.

٣- ظاهرة المتن و الشروح:

كانت هذه الظاهرة نتيجة للحركة التثقيفية النشطة بالبلاد، فقد اتجه الشيوخ تيسيرا على طلابهم إلى وضع المتن التى تجمع مسائل الموضوعات فى قليل من اللفظ حتى يتسنى لطالب العلم أن يستوعبها بأيسر طريق و فى زمن قليل، و قد غلا بعضهم فى الإيجاز و فى ضغط العبارة فى هذه المتن حتى بلغت حد الرموز فاستغلق بذلك فهمها على الطلاب و احتاجت إلى شروح، فوضعت لها كتب شارحة ثم وضعت كتب أخرى أكثر تفصيلا تشرح الكتب الشارحة، و من ثم تعددت الشروح التى تتناول المتن الواحد ما بين شرح مطول و آخر يميل إلى الإيجاز كما نظمت كثير من العلوم فى منظومات تعليمية احتاجت أيضا إلى وضع الشروح لها.

و قد استفرغت المتن و الشروح و المنظومات التعليمية جلّ مجهود قرائح العلماء فى ذلك العصر، بل أصبح وضع هذه الأنواع يبدو فى كثير من الأحيان تمرينات عقلية يريد بها الشيوخ إثبات مقدرتهم على التأليف و لكى يزداد عدد ما أنتجوا من كتب.

و هكذا فقد امتلأ العصر بالمتن و الشروح نثرا و نظما، فللمؤلف الواحد متن و شرح و هو بدوره يتناول متن سابقين و منظوماتهم بالشرح و البيان، و لعل أشهر المنظومات التى لقيت عناية الشارحين فى ذلك العصر هى ألفية ابن مالك فى النحو.

ثم نرى إلى جانب ذلك الحواشى و التعليقات التى يتكفل بها كثير من العلماء على الشروح السابقة أو يضعها واضعوها الأصليون، و سنرى جميع هذه الصور

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٧٨

من المؤلفات فى إنتاج السيوطى، على أن الاتجاه إلى الإكثار من الحواشى و التعليقات و التقارير قد ازداد بعد ذلك العصر و كان الاتجاه السائد فى مؤلفات العصر العثمانى بمصر.

و قد كان هذا الأسلوب الذى بيناه فى مؤلفات عصر السيوطى يمثل ظاهرة واضحة و عرفا متبعا فى التأليف لا يحيد عنه المؤلفون، و ربما دفعهم التمسك بالشكل المنهجي إلى وضع المتن و الشروح و المنظومات فيما لا تدفع إليه حاجة عملية، و لكن هكذا درجوا و على هذا المنهج ساروا كما هو عرف التأليف فى عصرهم.

و قد كان لهذا المنهج فى التأليف أثره الخطير فى الإنتاج العلمى لهذا العصر، فقد ضاع جهد المؤلفين و استفرغت ثمار أذهانهم فى نظم المنظومات التعليمية التى احتدوا فيها حذو سابقهم، و ربما زادوا عليهم ما لم يذكروه، و ربما لم يزدوا شيئا له قيمته العلمية، كما تبددت جهودهم فى الاختصار و التطويل و الجمع و التنظيم و التبويب و التقسيم.

و لعل طابع الزخرفة و التنسيق الذى ظهر فى فنون العصر و أثر فى الشعر و النثر و طبع الأدب بصنعة متكلفة ثقيلة، هذا الطابع ظهر أثره فى المؤلفات العلمية و فى طريقة وضعها و تصنيفها بحيث نجد الاهتمام الأول لدى المؤلف ينصب على التنظيم و التبويب فى مؤلفه، و قد يتكرر تنظيما لم يسبق إليه فى علم من العلوم.

على أن هذا الاهتمام بالناحية الشكلية فى المؤلفات لم يقض قضاء تاما على الاهتمام بالقيمة العلمية فى المؤلفات، و لم يصرف

المؤلفين في بعض الأحيان عن التجديد والابتكار. و الحقيقة أنه من العسير أن نجزم بطرافة بعض الأفكار و أوليتها لدى مؤلف من مؤلفي ذلك العصر، أو أن نجزم بأن صاحب المؤلف هو أول من طرق فكرة ما أو نبه إلى حقيقة من الحقائق العلمية وسط هذا الركام الضخم من الكتب التي وجدت آنذاك، و التي وصل إلينا بعضها و كثير منها لم تنله أيدينا. غير أنه في إمكاننا أن نقرر أن عالما ما هو الذي اتضحت لديه فكرة معينة لم تتضح لدى سابقه أو أنه هو الذي طرق بابا من الأبواب يظن أن غيره لم يعتمد إلى طريقه.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٧٩

و لكن هناك أمرا لا ينبغي أن نغفله و هو التجديد في التصنيف و التبويب في العلوم، فليس هذا عملا شكليا بحثا كما قد يتوهم لأول وهلة، بل إنه عمل تمليه عقلية علمية لها صفات تميزها عن غيرها، و تتجه بها وجهة فريدة في نوعها، بالاضافة إلى ما نجده لأصحاب هذه الكتب من الأفكار المبتكرة بين حين و آخر، و سنشير إلى ذلك في حديثنا عن مؤلفات السيوطي، و مهما يكن من شيء فإن هذه المؤلفات بطريقة وضعها تدل على مقدرة علمية كبيرة، و قدرة على الفهم و التحصيل عميقة، كما تدل في أحيان كثيرة على المقدرة الفائقة على تمثيل أفكار السابقين و استيعابها و إخراجها في صورة جديدة. و ليس من الانصاف أن نصف هذه الكتب بالتقليد و الجمع دون تمحيص و نرعى أصحابها بأنهم محتطون جماعون ليس لهم من الجهد العقلي شيء إذ تبدو كتبهم خالية من الابتكار، ذلك أن وضع هذه الكتب على محك النقد الصحيح الذي يضع في اعتباره الحقائق العلمية في المرتبة الأولى، ثم حالة العصر العقلية و منهجه في التأليف في المرتبة الثانية، يجعلنا نعيد النظر فيما يلصق بهذه المؤلفات و أصحابها من اتهامات. لقد كان تأثير التأليف بروح الحفظ التي شاعت في العصر و التي تأثرت بحفظ الحديث، ثم تأثر المؤلفون بمنهج المحققين في النقل ذا أثر كبير في أن تعج المؤلفات بروايات عديدة و أسانيد تملأ أرجاءها بحيث يبدو كثير من المؤلفات مجموعات من النقول حشد كل منها إلى جوار الآخر. و لقد كان من الميسور على كثير من المؤلفين أو على بعضهم - إذا لم يقدروا الأمانة العلمية و يتبعوا المنهج العلمي الصحيح - أن يرسلوا القول فيما يؤلفون دون إشارة إلى من ينقلون عنه مع تغيير في العبارة حتى يتوهم القارئ أن هذه الأفكار لمن يقرأ لهم لا لمن ينقلون عنه و لن يتنبه لحقيقة الأمر إلا -قله من الممحصين، فلا ينبغي أن يكون الحرص على الأمانة في النقل دافعا لأن نصف هذه الكتب من قبلنا بخلوها من الابتكار، و بانصرافها إلى الجمع و الترتيب دون تمحيص لما ينقلون، و إنما المنصف من القول أن نذكر ما عليه أصحابها من مقدرة علمية كبيرة على التمثيل و التحصيل و التنسيق في العلوم، ثم ما لهم من فضل في حفظ كثير من الأفكار و النقول منسوبة إلى أصحابها الأوائل، ثم نتبع بعد ذلك ما ذكره من حقائق علمية نقلوها عن غيرهم، فما أقروهم عليه منه

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٨٠

فهو يدل على عقلية فالاختيار يدل على عقل صاحبه، و ما عارضوا سابقهم فيه له نفس الدلالة، كما يمكننا أن نتبع ما ذكره من تعليقات على ما نقلوه من النصوص، و سنشير هذه المسألة مرة أخرى عند بحث الجانب اللغوي عند السيوطي و هو ما يهتم به البحث. ذلك أن بعض هؤلاء كانت له في بحوثه شخصية و قوة تشعرنا بعمق الفهم و كمال الإدراك و حسن التوجيه و التعليل. و في كثير من ميادين البحث: في الحديث و أصوله، و في اللغة و النحو و الفقه و أصوله و غيرها من العلوم نبغ في هذه الحقبة لا سيما في مصر رجال كانت لهم اليد الطولى في إرساء قواعد هذه العلوم و استقرارها و لم تخل بحوثهم من جدة و حسن اختيار و شخصية تظهر بوضوح خلال البحث.

٤- الإكاملات و التذييلات:

قريب من المتون و الشروح ما نراه من إكاملات و تذييلات، و هي ظاهرة شاعت في مؤلفات ذلك العصر لا سيما في كتب التراجم و التاريخ، و قد أفادت هذه الظاهرة العلم بأن وصلت حلقات الزمن المختلفة و حفظت لنا كثيرا مما كان مهددا بالضياع، فرى على سبيل المثال كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان المتوفى عام ٦٨١ هـ و به أكثر من ثمانمائة ترجمة بينها تراجم بعض أعيان القرن السابع، نرى

ذلك الكتاب و قد ذيله عالم متأخر هو ابن شاعر الكتبي المتوفى عام ٧٦٤ هـ بوضعه كتاب فوات الوفيات الذى ضمنه عشرات التراجم لبعض أهل القرن الثامن.

و نجد هذه الظاهرة فى بعض كتب التاريخ التى أكملها بعض المتأخرين لوفاء مؤلفيها السابقين كما صنع أبو المحاسن فى كتاب «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» إذ جعل كتابه ذيلًا لكتاب السلوك للمقريزى فيبدأ فيه من حيث انتهى المقريزى فى سلوكه عام ٨٥٦ هـ، و به تاريخ مصر مدة اثنى عشر عاما مع كثير من التراجم، و سنرى اتباع السيوطى أيضا لهذا العرف عند إكماله التفسير الذى وضعه جلال الدين المحلى فقد أكمله على نفس المنهج و التنظيم جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٨١ الذى اتبعه المفسر السابق.

و المتتبع لكتب الطبقات يجدها حلقات يكمل كل منها الآخر، فهناك طبقات لمشاهير القرن السابع يضعها البرزاني المتوفى عام ٧٣٩ هـ، و الأدفوى المتوفى عام ٧٤٨ هـ، يليها طبقات لرجال القرن الثامن يضعها ابن حجر العسقلانى (٨٥٢ هـ) معتمدا على الصلاح الصفدى (٧٦٤ هـ) سابقه و مضيفا إليه ما فاته.

ثم هناك طبقات لرجال القرن التاسع يضعها السخاوى (٩٠٢ هـ) و السيوطى كذلك، هذا على سبيل التمثيل فضلا عن عديد من كتب الطبقات التى ترجمت لرجال كل علم على حدة، أو ترجمت لرجال مصر من الأمصار، و قد أنتج السيوطى مجموعة من هذه التراجم ترجم فيها لكل طائفة فى كتاب مستقل و سنشير إليها فيما بعد.

و بصفة عامة فإن هذا المنهج فى التأليف بما شاع فيه من ظواهر و ما استقر فيه من أعراف قد خلف لنا عديدا من المختصرات و المتون و الشروح و المنظومات و التذييلات و الاكاملات و الحواشى و التعليقات.

و قد حظيت بعض المؤلفات بكثير من الشروح و التعليقات، و اعتمد عليها المدرسون فى دروسهم و لقيت رواجًا بين الطلبة، يتضح ذلك من تتبع تراجم كثير من رجال العصر إذ يرى الناظر أن أكثر الكتب المدروسة بين الطلبة ذكرا هى الكافية لابن الحاجب فى النحو و قد حظيت بشروح عديدة و مختصرات متنوعة، كذلك ألفية ابن مالك و كتاب الملحّة فى النحو أيضا، و فى الفقه و أصوله المنهاج الأصلى و المنهاج الفرعى و هما للنووى، و مختصر القدورى و جمع الجوامع، و فى اللغة فصيح تغلب، و فى الحديث ألفية العراقى و الأربعون حديثا النووية، و صحيح البخارى و صحيح مسلم، و الشاطبيتان فى القراءات، و العمدة للنسفى فى العقائد، و سنرى فى ترجمته السيوطى حفظه لكثير من هذه الكتب فى مقبل حياته العلمية.

٥- تنظيم العلوم و استقرار المصطلحات:

نلاحظ فيما أنتجه العصر من مؤلفات ظاهرة واضحة تبدو فى جميع ميادين

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٨٢

البحث تقريبا، فهناك أولا محاولات عديدة لتنظيم العلوم و تقسيمها و التعريف بها و بمصطلحاتها و قد أُلّف فى ذلك مؤلفات كان هدفها- على ما يبدو- أن تتيح للمتخصصين من أبناء كل علم أن يلموا بأطراف من العلوم الأخرى و أن يعرفوا عنها ما يريدون معرفته فى وقت يسير، و حين أتى السيوطى و وجد قبله مجموعة من هذه الكتب فإنه على عادته أراد أن يدلى بدلوه بين الدلاء فألف كتابه «إتمام الدراية لقراء النفاية» و يسمى أيضا «الأصول المهمة فى علوم جمّة» و قد عرف فيه بأربعه عشر علما ذكرا مبادئها و أصولها الأساسية. و نلاحظ أيضا استقرار مصطلحات العلوم فى ذلك العصر، و يمكن إدراك ذلك مثلا فى علم النحو بمقارنته ما وضع فى ذلك العصر من كتب مثل الكافية لابن الحاجب و الألفية لابن مالك و شروحها العديدة لكثير من رجال العصر كابن الصانع (٧٧٧ هـ)، و البابر تى (٧٨٦ هـ) و ناظر الجيش (٧٧٨ هـ)، و ابن عقيل (٧٦٩ هـ)، و السيوطى (٩١١ هـ)، و غير ذلك من الشروح لنجد أن

المصطلحات النحوية لا تتغير بين نحوى و آخر، فهى مستقرة متعارف عليها لديهم، و قد ندرك ذلك بوضوح إذا ما قارنا هذه الكتب بكتاب سيويه و ما وضع فى النحو من الكتب الأولى، إذ يتضح لنا تغير اصطلاحات المتأخرين عن اصطلاحات السابقين فى بعض المواضع، ذلك أن المصطلحات النحوية كانت إلى عهد سيويه و معاصريه من الكوفيين كالفرّاء لم يكتب لها الاستقرار و الثبات، كما أن علم النحو إلى عهده كان علما غضا لم يتم نضجه بعد، أما عند هؤلاء فقد نضح و احترق، و نستطيع إدراك ذلك أيضا فى كثير من العلوم الإسلامية إذ كانت فى ذلك العصر فى طور نضجها و كمالها.

٦- العناية بتاريخ مصر:

عنى مؤرخو العصر بالكتابة عن تاريخ مصر بعامة و تاريخ القاهرة بخاصة، و قد بدأت هذه العناية عند المصريين قبل عصر المماليك، و قد اتضحت هذه الظاهرة فى هذا العصر فظهرت موسوعات تاريخية ضخمة لتاريخ مصر و قاهرته و أهم هذه المؤلفات:

١- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى المتوفى عام ٨٤٥هـ، و هو تاريخ

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٨٣

مصر من عام ٥٧٧هـ- إلى عام ٨٤٤هـ مرتبا حسب السنين.

٢- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى المتوفى عام ٨٧٤هـ، و هو فى تاريخ مصر منذ الفتح الاسلامى حتى عام ٨٥٧هـ.

٣- حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور لأبى المحاسن و قد جعله ذيلًا لكتاب السلوك للمقريزى فيبدأ به من حيث انتهى المقريزى فى سلوكه عام ٨٥٦هـ كما بينا.

و هنا عديد من الكتب غير ذلك، و يأتى السيوطى فيؤلف فى التاريخ كتاب «حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة» و من بعده يضع ابن إياس كتابه المشهور «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» و يؤرخ فيه حوادث مصر حسب ترتيب السنين، و تمتد به الحياة حتى يشهد نهاية ذلك العصر و دخول العثمانيين مصر فيؤرخ فترة من حكمهم.

و يبدو أن هذه النزعة فى التأريخ لمصر كانت وليدة حب المؤلفين لمصر و لكونها أصبحت فى هذا العهد ممثلة للزعامة الاسلامية بعد سقوط بغداد و انتقال الخلافة إليها.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٨٤

الحياة الأدبية

إشارة

لست هنا بصدد دراسة الحياة الأدبية دراسة متعمقة فذلك أمر يطول شأنه و يحتاج إلى بحث مستقل، و إنما مقصودنا أن نعرض لهذه الحياة عرضا نستجلى به صورتها العامة و الشكل الذى كانت عليه فى عصر السيوطى، و نتعرف على الأنواع الأدبية من الشعر و النثر فى ذلك الحين، و تجنبنا للاطالة فإننا نكتفى بعرض سريع نتبين فيه الملامح العامة للنشاط الأدبى.

و قد حرم الشعر و الشعراء فى هذه الفترة الحفاوة التى وجدها أسلافهم القدماء، ذلك أن رجال الدولة و كبراءها كانوا من الأتراك الذين لا تهتر أعطافهم للأشعار العربية على الرغم من أن لغة الدولة العربية و لغة العلم هى العربية كذلك.

لذلك لا نجد من الشعراء من اتصل بالدولة أو بالسلطين، و إنما اندس هؤلاء بين الناس و تناولوا حرفهم.

و قد كان شعر هذه الفترة تقليدا لا استقلال فيه فى أحيان كثيرة، و كان الشعراء يتبعون فى أشعارهم آثار أسلافهم الأولين مصيبيين

حينا و مخطئين أحيانا.

و يمكن تقسيم شعر هذه الفترة إلى قسمين أولهما: شعر المناسبات و هو ما يخاطب به الحاكم و الجماعة، و الآخر الشعر الذاتى و هو ما يعبر به الشاعر عن مشاعره الذاتية بغض النظر عن الجماعة «١».

و فى الأول نجد العناية باللفظ و لكنها عناية متغالية تجلب على الشعر التكلف (١) د. عبد اللطيف حمزة: الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ص ١٠٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٨٥
و الصنعة و التقيد بالشكل فى صورته المتعددة التى حرص عليها الشعراء، و فى الثانى نجد الميل إلى البساطة و التحلل من قيود الصنعة اللفظية إلا ما كان منها بغير تكلف.

و هناك مذهبان فى التعبير أولهما المذهب البديعى المتأثر بمذهب الكتاب، و قد كان للقاضى الفاضل أثر فى إضفاء ألوان جديدة عليه حرص عليها الشعراء و الكتاب من بعده بيد أنهم أسرفوا فى حرصهم على المحسنات اللفظية، و لقيت العناية اللفظية بجميع ألوانها الاهتمام الأول لديهم على حساب المعانى «١»، و كان الشعراء يعمدون إلى المذهب البديعى فى شعر المناسبات أو فى قصائد المديح النبوى التقليدي.

أما المذهب الآخر و هو مذهب المعانى فيظهر بوضوح فى الشعر الشعبى و يتمثل فى احتفال بالأفكار و عناية تامة بتصوير العواطف و المشاعر التى ينفعل بها الناس انفعالا صادقا بريئا من التكلف. «٢»

و هناك بعض ظواهر يمكن ملاحظتها على الشعر و الشعراء فى ذلك العصر أولها قصائد المديح النبوى العديدة التى أنشأها شعراء العصر المملوكى معارضين بها برده البوصيرى فقل أن نجد شاعرا منهم لم يعارضها، بالإضافة إلى القصائد التى أنشئت فى المديح النبوى فى غير معارضة للبردة، و الملاحظة الثانية هى أن كثيرا من علماء العصر و فقهاء كانوا ينظمون الشعر فى أغراض كثيرة و أشهر هؤلاء ابن حجر ثم السيوطى، و ثالثها شيوع الشعر التعليمى فى دوائر العلماء و الطلاب و سنشير إليه عند الحديث عن شعر السيوطى. و قد شهدت الفترة التى عاشها السيوطى عددا كبيرا من الشعراء و قد ذكر ابن اياس أنه كان بالقاهرة سبعة من الشعراء اجتمعوا فى عصر واحد و كل منهم لقب بشهاب الدين، فكان يقال لهم السبعة الشهب و هم الشهاب ابن حجر و ابن الشاب التائب، و ابن أبى السعود، و ابن مبارك شاه الدمشقى، و ابن صالح، و الشهاب (١) أفاض الرافعى فى دراسة الصناعات اللفظية فى هذا العصر فى الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب ص ٣٧٠-٤٦٦.

(٢) د. عبد اللطيف حمزة: الأدب المصرى ص ١٠٨.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٨٦

الحجازى، و الشهاب المنصورى، فلما مات الستة رثاهم الشهاب المنصورى بقوله:

خلت سماء المعانى من سنا الشهب فالآن أظلم أفق الشعر و الأدب

تقطب العيش و جها بعد رحله من تجاذبوا بالمعانى مركز القطب «١»

و أشهر هؤلاء جميعا الشهاب المنصورى الذى توفى عام ٨٨٧ هـ و كان جيد الشعر.

و قد أصل جورجى زيدان الحديث عن شعر هذه الفترة بقوله: «ان الشعر أصبح صناعة لفظية بعد أن كان قريحة فطرية، و اختلط الشعر بالأدب، و قلما نبغ شاعر لم يشتغل بغير الشعر، فإن أكثرهم ألفوا الكتب فى الأدب و جمع الشعر و النكات و المواعظ و الحكم و نحو ذلك، و ابتذلت الصناعة الشعرية، و تعاطاها الناس لقضاء ساعات الفراغ فقط، و كثر الناظمون من الباعة و أرباب الحرف كالخياطين و النجارين و الدهانين و نحوهم و ليس ذلك خاصا بهذا العصر إذ كثيرا ما ظهرت القرائح الشعرية فى طبقات العامة لكنهم كانوا إذا نبغوا استغنوا عن صنائعهم بتقربهم من بعض الأمراء أو الخلفاء فتشخذ قرائحهم و يأتون بالمعجزات كما اتفق لكثيرين من شعراء العصر

الأموى و العباسى». (٢)

و الحق أن هذه الأوصاف تنطبق إلى حد كبير على العصر الذى نستوضح ملامحه، و لكن ينبغى التحفظ فى إطلاق الأحكام، إذ إن العصر لم يعدم كثيرا من الشعر الجيد و الشعراء الذين أجادوا فى كثير من أشعارهم على الرغم من أن شاعرا منهم لم يخل شعره من الإسفاف و الانحدار فى بعض الأحيان، و من تكلف الصنعة فى أحيان أكثر، و ذلك هو السبب فى تعميم وصف الانحدار على العصر و شعرائه.

أما النثر فله أنواع عديدة و صور متنوعة، و يمكن أن يندرج النثر بدوره من ناحية أسلوبه و طريقة التعبير فيه فى قسمين رئيسيين أولهما: قسم تلقى فيه العناية (١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٦.
(٢) جورجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٢٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٨٧

اللفظية الحظ الأوفر من الكاتب، و تصل هذه العناية إلى حد التكلف مع الاسراف فى استعمال المحسنات اللفظية على اختلاف ضروبها و هو ما نسميه بمدرسة البديع، و القسم الآخر ما لا يحفل الكاتب بالعناية اللفظية فيه بل يرسل قوله على عواهنه و لكن عيب هذا القسم الأخير كان يأتيه من انحدار الأسلوب و كثرة اللحن و استعمال العامية و هذا القسم يسمى بمدرسة المعانى. و الأنواع الأدبية النثرية التى أنتجها العصر كثيرة و متنوعة نكتفى منها بالحديث عن الخطبة و الرسالة و المقامة لكونها أشهر الأنواع و لاحتفال الكتاب بها أكثر من غيرها، فهناك إلى جانبها الموازات و التوقيعات و الحكم و الوصايا.

الخطبة:

كانت الطبقة الحاكمة بالبلاد كما رأينا من الأتراك الذين ديفت بالعجمه أسنتهم و بالرغم من تعلم كثيرين منهم العربية لكونها لغة الدين و العلوم فإنهم- فى الغالب- افتقروا إلى الفصاحة فيها- و بذلك فقد تغير الحال فى الخطابة عما كان عليه زمن الخلافة العربية فى عهد الأمويين و العباسيين، يضاف إلى ذلك ما أصاب اللغة من دخول كثير من الألفاظ التركيبية بها و انحدار كثير من أساليب الكتاب نحو العامية.

و إذا كان العصر قد خلا من الخطب الرسمية التى كان يلقيها الحكام باستثناء بعض خطب خلفاء العباسيين فى مصر فإنه لم يعدم وجود أنواع معينة من الخطب التى خلت فى الغالب من أهم عناصر الخطبة و هو الارتجال، فكانت الخطب تعد إعدادا كالرسائل، و قل أن نجد الارتجال فى غير المناظرات التى كانت تعقد بين العلماء حيث يضم جماعة منهم أحد المجالس.

لهذا نلاحظ على الخطب سمات الرسائل (١) حيث سلك الخطباء مسلك الكتاب فاتبعوا الأسلوب البديعى المسجوع و أكثروا من الاقتباس من آيات القرآن الكريم و من أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم و من أقوال السلف الصالح.

و أهم الخطب التى نزع هذا المنزع الخطب المنبرية التى كانت تعدّ من قبل (١) عبد الوهاب حمود: صفحات من تاريخ مصر ص ١٠٥، ١٠٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٨٨

أصحابها قبل القائها أو من قبل غيرهم، و من دواوين الخطب ديوان خطب الشيخ زكريا الأنصارى و هو معاصر للسيوطى، و قد امتد به العمر فتوفى عام ٩٢٦هـ، و اسم ديوانه «التحفة السنية» و هو مجموعة من الخطب المنبرية مرتبة حسب جمع الشهور العربية. (١) و هناك خطب كانت تقال فى المناسبات التقليدية كالأعياد و أوائل الشهور الهجرية، و الكسوف و الخسوف و الحفلات الاجتماعية و غير ذلك من المناسبات، و قد طبعت الخطب بما طبعت به الآثار الأدبية جميعها من احتفال بالصنعة اللفظية و حرص من الخطباء على الجمل المسجوع التى تشيع فى الخطبة و يبدو التكلف فى إيرادها واضحا، فضلا عما تتحملة الخطبة من حشو لمراعاة السجع و

الجناس و سائر ضروب الصنعة اللفظية.

الرسائل «٢»:

حظيت الرسائل الديوانية و الاخوانية بعناية بالغة من كتابها، بيد أن هذه العناية كانت منصرفه فى غالبها إلى الألفاظ على حساب المعانى، و جرى الكتاب على تقليد من سبقهم فى التزام المحسنات اللفظية بجميع ضروبها، و قد أدى ذلك إلى انحدار الأساليب و شيوع التكلف فيها، بل حرص الكتاب على وضع العناوين المسجوعة لرسائلهم فضلا عن عناوين الكتب المسجوعة، و بإجمال فإننا يمكن أن نلاحظ على كتابه ذلك العصر ما يلي:

١- التزام السجع فى جميع الرسالة، و ربما تكررت قافية السجعة فى عدة فقرات.

٢- الاحتفال بأنواع البديع و لا سيما براعة الاستهلال و التورية و التضمن و الاقتباس و التلميح إلى الحوادث الشهيرة و حل الأبيات و إدماج الأمثال، و الاكثار من أنواع الاستعارة و ضروب التشبيهات.

٣- كثرة الحشو مراعاة للسجع و الجناس و مراعاة لغيرهما من ضروب (١) المصدر السابق ص ١٠٦.

(٢) د. عبد اللطيف حمزة: الأدب المصرى ص ١٧٧ و ما بعدها.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٨٩
المحسنات اللفظية.

٤- استعمال الدخيل و عدم تحاشيه فى المفردات و التراكيب، و قد كانت ألفاظ كثيرة من التركية و الفارسية قد دخلت إلى العربية بعد غلبة العنصر التركى، و نتيجة لحكم الأتراك للبلاد.

غير أن أساليب الكتاب المصرين بالرغم من ذلك كانت تمتاز بميزة تتضح لقارئها و هى السهولة و الوضوح اللذان يدلان على ذوق سمح و فطرة مواتية، و لم تكن تميل - فى الغالب - إلى الغموض أو التعقيد، و سئرى هذه الخصوصية واضحة فى رسائل السيوطى جميعها على الرغم من أنها لم تخل من احتفال بالمحسنات اللفظية و حرص عليها شأن كتابات العصر. و الكتاب - بطبيعة الحال - فى ميدان السهولة و الوضوح درجات يتميز أسلوب كل منهم بخصائص فردية تقربه أو تبعده عن السهولة و الوضوح.

المقامة:

لم تكن المقامات فى ذلك العصر تختلف عن الرسائل كثيرا، بيد أنها كانت أكثر احتفالا بالمحسنات اللفظية حتى ليبدو أمام القارئ أن أصحابها قد وضعوها ليحشدوا بها ضروب الصناعات اللفظية و ليينوا مهارتهم فى ذلك، و إذا كانت المقامات العربية عند بديع الزمان و الحريري قد اعتمدت على تسلسل القصة و الحدث فى تطور فنى و عقده تسلما غالبا إلى حل ذى مغزى و هدف، فإن المقامة فى هذا العصر لم يراع فيها هذا التسلسل الفنى فى كثير من الأحيان.

و قد تنوعت أغراض المقامات فى ذلك العصر فتناول أصحابها فى مقاماتهم شتى الموضوعات و سئرى مصداقا لما نقول عند الإشارة إلى بعض مقامات السيوطى التى تعددت أغراضها.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٩١

الفصل الثالث

حياته و ثقافته و آثاره

مولده و نسبه:

فى العصر الذى بينا من قبل معالمه السياسيه و الاجتماعيه و العقليه، و فى النصف الثانى من القرن التاسع و أوائل القرن العاشر كانت حياة السيوطى، فقد ولد ليلة الأحد مستهل رجب عام ٨٤٩ هـ «١»، و يوافق هذا التاريخ ٣ من أكتوبر عام ١٤٤٥ م «٢». و يجمع المترجمون له: من عاصره و من جاء بعده على صحه هذا التاريخ فلا يحدون عنه «٣»، إلا شيئاً من الاختلاف اليسير حين يذكر ابن اياس أن مولده كان فى جمادى الآخرة «٤»، و يمكن توجيه قوله بأنه كان فى آخر جمادى الآخرة و فى ليلة أول رجب كما نصوا عليه.

و اسمه عبد الرحمن بن الكمال بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبى الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيرى الأسيوطى «٥».

و قد سماه والده عبد الرحمن، و لقبه بجلال الدين ثم عرضه على شيخه قاضى (١) السيوطى: حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨.

(٢) «T Eehcyn cycnEifoaidesmalstuyit»

(٣) السخاوى: الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٥، العيدروسى: تاريخ النور السافر ص ٥٤، الشوكانى: البدر الطالع ج ١ ص ٣٢٨، ابن العماد: شذرات الذهب ج ٨ ص ٥١.

(٤) ابن اياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٩.

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٩٢

القضاء عز الدين أحمد الكنانى فيما بعد فكناه بأبى الفضل «١».

و ينتهى نسبه من جهه أبيه إلى أصل أعجمى، و قد رجح ذلك حين ذكر أن جده الأعلى كان أعجمياً أو من الشرق و أن النسبه بالخضيرى هى إلى الخضيريه محله ببغداد «٢».

و ترجع نسبه إلى أسيوط لاستقرار أجداده بها، و قد ولد أبوه كمال الدين بها، و كان جده الأعلى همام الدين متصوفاً، و من دونه من آباءه كانوا من ذوى الوجاهه و الرئاسة بأسيوط، منهم من ولى الحسبه أو الحكم، و منهم من كان صاحب ثروه، أما والده فقد كان من المشتغلين بالعلم «٣».

و النسبه إلى أسيوط أسيوطى بضم أولها، و قد ذكر صاحب القاموس «سيوط و أسيوط بضمهما بلدة بصعيد مصر»، فالنسبه على ذلك سيوطى و أسيوطى بالضم «٤»، و زاد ابن الكسر فى ضبط النسبه إلى «سيوط» «٥».

والده:

ترجم السيوطى لأبيه كمال الدين ضمن الفقهاء الشافعيه بمصر «٦»، كما ترجم له السخاوى معاصره «٧»، و قد ولد بأسيوط عام ٨٠٠ هـ، و تولى قضاءها زمناً، و درس على بعض نابغى العصر كلقاياتى «٨»، و الحافظ ابن حجر، و نبغ فى علوم عدة منها فقه الشافعى و الأصول و الكلام و النحو و الحديث، و أجاز بالتدريس (١) العيدروسى: تاريخ النور السافر ص ٥٤، ابن العماد: شذرات الذهب ج ٨ ص ٥١.

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨.

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨.

(٤) القاموس المحيط مادة «ساط» و لم يذكرها صاحب اللسان، ضبط هذه النسبه كذلك الشيخ سليمان الجمل فى حاشيته على تفسير

الجلالين ص ٥.

(٥) ابن علان: شرح على الاقتراح (مخطوط) ص ٣.

(٦) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥١.

(٧) السخاوى: الضوء اللامع ج ١١ ص ٧٢، ٧٣.

(٨) السخاوى: الذيل على رفع الاصر عن قضاء مصر ص ٢٩٢ ضمن الحديث عن القياتى.

جلال الدين السيوطى عصره وحياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٩٣

عام ٨٢٩هـ، و برز فى الانشاء و درّس الفقه بالجامع الطولونى، و برع فى الخط و كان يخطب من إنشائه، و صنف بعض التصانيف و توفي عام ٨٥٥هـ.

و كان لوالد السيوطى صلة طيبة بخلفاء بنى العباس بمصر، و قد كتب صورة العهد بالخلافة لأحدهم كما سبق أن أشرنا «١»، و قد ذكر السيوطى أن والده كان إماما لهذا الخليفة و كان خصيصا به ثم يقول: «و أما نحن فلم نشأ إلا فى بيته و فضله» كما يذكر عن أبيه أنه لم يعيش بعد وفاته إلا أربعين عاما «١».

و لا-ريب أن هذه الصلة فضلا عن المكانة العلمية، كانت تجعل منه رجلا له قدره فى الحياة العامة، و قد كان الرجل من صوفية الخانقاه الشيخونية، و قد ولى تدريس الفقه بالجامع الشيخونى المقابل للخانقاه «٣»، بالاضافة إلى قيامه بالتدريس فى جامع ابن طولون كما ذكرنا.

و لم يذكر السيوطى فى ترجمته لنفسه شيئا عن أمه، فى حين ذكر السخاوى معاصره أنها أمه تركية «٤»، و قد تابعه فى ذلك بعض المترجمين للسيوطى «٥»، على حين أغفل كثير منهم الحديث عنها لاغفال السيوطى ذلك، كما أغفلت التراجم الحديثة التى كتبت عن السيوطى الحديث عن أمه تبعا لاغفال السيوطى ذكرها «٦». (١) تاريخ الخلفاء ص ٣٤٠، ٣٤١.

(٣) السخاوى: الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٦.

(٤) المصدر السابق ج ٤ ص ٦٥.

(٥) العيدروسى: تاريخ النور السافر ص ٥٤.

(٦) ممن ترجم للسيوطى من المحدثين و أغفل الحديث عن أمه. ٢١. ituyusIA. «VacinatirB aideapolcycnEehT malsIfo aideapolcycnEehT»

جرجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٤٤، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث ص ٣٥٥.

جلال الدين السيوطى عصره وحياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٩٤

نشأته و حياته العلمية و العملية

نشأته:

ولد السيوطى بالقاهرة بعد انتقال أبيه إليها بمدّة طويلة حيث كان يعمل مدرسا للفقه الشافعى بالجامع الشيخونى، و قد سبق بيان ما كانت عليه بيئته القاهرة من عظمتها فى نواحيها الفكرية و الحضارية، و نتيجة لغلبة الطابع الصوفى على البلاد من ناحية، و لكون والده من صوفية الشيخونية من ناحية أخرى حملة بعد مولده إلى أحد كبار الأولياء بجوار المشهد النفيس، و هو الشيخ محمد المجذوب فباركه «١»، و كان والده قد قارب الخمسين من عمره فى ذلك الحين.

و عند ما بلغ السيوطى الثالثة من عمره و كانت شهرة الحافظ ابن حجر تملأ الدنيا و كان شيخا لأبيه اصطحبه والده إلى مجلس الحافظ

ابن حجر فى إحدى المرات «٢»، و قد كان لحضور هذا المجلس أثره العميق فى نفسية السيوطى و فى حياته العلمية فيما بعد. و لم يلبث والده أن توفى بعد قليل فى صفر عام ٨٥٥هـ - مارس ١٤٥١ م «٣»، حين كان ابنه لم يتّم السادسة من عمره، و قد ولى الوصاية عليه بعد أبيه أحد أصدقائه من الصوفية و هو الشيخ جمال الدين بن الهمام «٤». و قد أنشأ السيوطى يحفظ القرآن قبل وفاة أبيه، و قد بلغ فى الحفظ عند وفاته إلى سورة التحريم «٥»، و قد واصل الحفظ بعد وفاته فأتم القرآن الكريم و لم يبلغ (١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨.

(٢) تاريخ النور السافر ص ٥٤.

(٣) «T Eeh ycn polc ifoaidemals ituyus».

(٤) العيدروسى: تاريخ النور السافر ص ٥٤، ابن العماد: شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٢.

(٥) شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٩٥
الثامنة من عمره «١».

درسته:

دلّ السيوطى بحفظه المبكر للقرآن الكريم على ذكاء متوقد، و ذاكرة قوية و قد حفظ بعد ذلك عمدة الأحكام، و المنهاج الفرعى فى الفقه للنووى، و المنهاج فى الأصول له أيضا على ما ذكر، و إن كان السخاوى ينص على أنه لم يحفظه كله و إنما حفظ بعضه «٢»، و ألفية ابن مالك فى النحو «٣»، و منهاج البيضاوى «٤»، و قد أتم حفظ هذه الكتب و عرضها على شيوخ عصره، و من ثم فقد أصبح أهلا لأن يطلب العلم على أيدي علماء العصر فى مختلف مناحى العلم.

و منذ مستهل عام ٨٤٦ هـ و حين كان السيوطى لم يتم الخامسة عشرة من عمره أنشأ يطلب العلم، فأخذ الفقه و النحو عن جماعة من الشيوخ منهم الشمس محمد بن موسى الحنفى إمام الشيخونية فى النحو، و عن الفخر عثمان المقسى و الشموس البامى و ابن الفالانى و ابن يوسف أحد فضلاء الشيخونية، و البرهانين العجلونى و النعمانى بعضهم فى الفقه و بعضهم فى النحو «٥»، و أخذ الفرائض عن العلامة فرض زمانه شهاب الدين الشارمساحى الذى كان قد بلغ المائة من العمر «٦».

و قد أجزى بتدريس العربية فى مستهل عام ٨٦٦ هـ أى حين كان فى السابعة عشرة من عمره «٧»، و قد ابتدأ التأليف فى هذه السنة فكتب شرحا للاستعاذة و البسملة و أطلع عليه شيخه علم الدين البلقينى شيخ الاسلام فكتب عليه تقريرا «٧»، و قد لزم عليه كثيرا من أبواب الفقه و أجازته بالتدريس و الافتاء فى عام (١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨، شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٢.

(٢) الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٥.

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨.

(٤) شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٢.

(٥) الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٥.

(٦) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨.

(٧) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٩٦

٨٧٦ هـ حين كان السيوطى فى السابعة و العشرين من عمره، و حضر تصديره، و قد توفى البلقينى عام ٨٧٨ هـ.

كما لزم السيوطى شيخ الاسلام شرف الدين المناوى فقرأ عليه بعض كتبه فى الفقه و التفسير «١». و لزم فى الحديث و العربية العلامة

تقى الدين الشمنى أربع سنين و كتب له تقریظا على شرح ألفیه ابن مالک و على جمع الجوامع فى العربیة، و كان شیخه یشهد له بالتقدم و یثق فى علمه و سعة اطلاعه «١».

و قد أخذ جملة من العلوم منها التفسیر و الأصول و العربیة و المعانى عن العلامة محبى الدين الكافيلى الذى لازمه السيوطى أربع عشرة سنة، و كتب له الكافيلى إجازة عظيمة بذلك، كما حضر دروسا عديدة عند الشيخ سيف الدين الحنفى «٣».

و قد أغفل السيوطى حين ترجم لنفسه كثيرا من الشيوخ الذين درس على أيديهم، و يبدو أنه قد اكتفى فى ذلك بالمعجم الذى وضعه لهم فى حين ذكر المترجمون له من خصومه و أنصاره أسماء بعض الذين أغفل ذكرهم، و يمكننا من دراسة ترجمته الذاتية و مقارنتها بما كتبه عنه معاصره و خصمه السخاوى و بما كتبه المحايدون من المترجمين و بما كتبه أنصاره من معاصريه أو لاحقيه أن نخلص إلى استجلاء المعالم الرئيسية فى حياة السيوطى فى وضوح نظمته إليه، و أن نقف على الأصول و البواعث التى كان لها أثرها فى توجيه حياته، و تكوين عقليته و كل أولئك نسترفده عند حديثنا عن منهجه فى التفكير و أصول هذا المنهج.

حاض السيوطى كما رأينا حياة دراسية شاقة بالقاهرة درس فيها على كثير من النابهين من علماء عصره، و يلاحظ أن الشيوخ الذين لزمهم مدة طويلة كانوا من شيوخ الخانقاه الشيخونية، حيث كان لأبيه من قبل صلة بها و حيث عمل هو بعد ذلك بها، و لم يكتف بذلك بل رحل طلبا للعلم إلى بعض البلاد فسافر إلى دمياط و الاسكندرية و الفيوم و المحلة ثم حج إلى مكة عام ١٨٦٩ هـ و جاور بها (١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٩.

(٣) الصّوء اللامع ج ٤ ص ٦٥-٦٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٩٧

سنة كاملة كما انتقل إلى بلاد الشام و اليمن و الهند و المغرب و التكرور (غينيا الآن) و قد حصل على إجازات كثيرة من الشيوخ الذين درس عليهم و رحل إليهم «١».

شيوخه:

إشارة

ذكر الداودى تلميذ السيوطى أسماء شيوخ السيوطى قراءة و سماعا مرتبين على حروف المعجم فبلغت عدتهم واحدا و خمسين «٢»، و قد حاولت العثور على ترجمة الداودى لشيخه فى طبقات المفسرين فلم أجد لها ذكرا، و لعله ترجم له فى مكان آخر اطلع عليه الناقلون عنه و لم يصل إلينا «٣»، و قد ذكر السيوطى أن شيوخه فى الرواية سماعا و إجازة يبلغون مائة و خمسين «٤»، أما عدة من درس عليهم و أخذ عنهم فقد بلغت ستمائة شيخ، و قد وضع السيوطى كتابين فى أسماء شيوخه هما معجم الشيوخ الكبير و يسمى حاطب ليل و جارف سيل، و معجم صغير يسمى المنتقى، و لم أتمكن من الوقوف على أحد المعجمين، و ليس هذا بالأمر الخطير إذا عرفنا أن أهم الذين درس عليهم قد ذكرهم فى ترجمته الذاتية، كما ترجم لهم فى بعض كتبه الأخرى، كما تناولهم غيره بالترجمة.

و قد روى الشعرانى تلميذ السيوطى عن شيخه أن شيوخه بلغوا ستمائة و قد نظمهم فى أرجوزة، و قسمهم إلى طبقات أربعة: الأولى: من يروى عن أصحاب الفخر بن النجار و الشرف الدمياطى و وزيره و الحجار و سليمان بن حمزة و أبى النصر بن الشيرازى و نحوهم، و الثانية: من يروى عن السراج البلقينى و الحافظ أبى الفضل العراقى و نحوهما و هى دون التى قبلها فى العلوم، و الثالثة:

من يروى عن الشرف بن الكويك و الجمال البجلي و نحوهما و هى دون الثانية، و الرابعة: من يروى عن أبى زرعة العراقى و ابن الجزرى و نحوهما. (١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٩، ١٩٠.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٣.

(٣) طبقات المفسرين (مخطوط)، و يبدو أن للداودى ترجمة مستقلة لشيخه السيوطى لم تصل إلينا، انظر الأعلام للزركلى ترجمة الداودى.

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٩٨
و لئن كان أساتذة السيوطى من الكثرة بحيث يتعذر علينا لضيق المكان التعريف بهم على الوجه الأكمل فليس أمامنا سوى التعريف بأكثرهم تأثيراً فى نفسه و عقله و أقواهم فعلاً فى حياته و أصدقهم به.

١- ابن حجر العسقلانى:

و أول هؤلاء الأساتذة ابن حجر العسقلانى، و بالرغم من أن السيوطى - على وجه التحقيق - لا يعد من تلاميذه إذ إنه لم يحضر مجلسه إلا فى طفولته صحبه والده «١»، فإنه تأثر به تأثراً كبيراً، و قد كان أملاً فى يوم من الأيام أن يصل إلى مرتبته فى الحديث «٢»، و قد كان السيوطى بعد نفسه من تلامذة ابن حجر العسقلانى و يتحدث عنه أحياناً بعبارة «شيخنا» و قد روى عنه متعمداً على الاجازة العامة، و قد قال عن نفسه: «ولى منه إجازة عامة، و لا أستبعد أن يكون لى منه إجازة خاصة، فإن والدى كان يتردد إليه و ينوب فى الحكم عنه، و إن يكن فاتنى حضور مجالسه و الفوز بسماع كلامه، و الأخذ عنه فقد انتفعت فى الفن بتصانيفه، و استفدت منها الكثير، و قد غلق و ختم به هذا الشأن» «٣».

و قد ترجم السيوطى لابن حجر فى كتابه نظم العقيان فذكر أنه «فريد زمانه و حامل لواء السنة فى أوانه ... إمام لهذا الفن للمتقدمين، و مقدم عساكر المحدثين، و عمدة الوجود فى التوهية و التصحيح، و أعظم الشهود و الحكام فى بابى التعديل و التجريح» «٤».
كان ابن حجر أولاً و قبل كل شىء إماماً فى الحديث و حسبه شرح البخارى الذى نبه ابن خلدون من قبل على أنه دين على هذه الأمة، و له إلى جانب جهوده فى علوم الحديث مشاركة فى كثير من العلوم و الفنون، و هو شاعر مجيد و أحد السبعة الشهب الذين سبقت الإشارة إليهم، و قد ولى فى حياته وظائف (١) ابن العماد: شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٢، العيدروسى: تاريخ النور السافر ص ٥٤.

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٠.

(٣) السيوطى: ذيل طبقات الحفاظ للذهبي ص ٣٨١، ٣٨٢.

(٤) نظم العقيان فى أعيان الأعيان ص ٤٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٩٩

سنية منها «تدريس الحديث بالشيخونية و بجامع القلعة و بالجمالية، و بالبيريسية، و تدريس الفقه بالمؤيدية و بالشيخونية و ولى مشيخة الشيوخ بالبيريسية، و مشيخة الصلاحية بجوار مشهد الامام الشافعى رحمه الله تعالى، و ولى قضاء القضاة بالديار المصرية» «١»، و له عدد كبير من المصنفات.

٢- علم الدين البلقينى:

هو علم الدين صالح بن شيخ الاسلام سراج الدين عمر، ترجم له السيوطى فى أماكن متفرقة من كتبه فأوجز فيما أورده عنه فى نظم

العقيان (٢)، و بسط القول بعض البسط فى حسن المحاضرة (٣)، و قد خصه بترجمة مفردة لم تصلنا، كما ترجم له تلميذه السخاوى (٤).

و قد أخذ السيوطى عنه الفقه و أشاد بتمكن شيخه فيه فذكر أنه إمام الفقهاء فى عصره و حامل لواء مذهب الشافعى فى عراقه و حجازه و شامه و مصره.

ولد البلقينى عام ٧٩١ هـ، و تلقى العلم على يد مشاهير عصره و من بينهم أبوه، و قد تولى عدة وظائف قام فيها بتدريس الفقه و الحديث و التفسير، ثم تولى القضاء الأكبر سنة ٨٢٦ هـ، و تكرر عزله و إعادته، و قد اختتم السيوطى ترجمته بقوله: «و أخذ عنه الجم الغفير و ألحق الأصغر بالأكابر و الأحفاد بالأجداد ...

قرأت عليه الفقه و أجازنى بالتدريس و حضر تصديرى، و قد أفردت ترجمته بالتأليف، مات يوم الأربعاء خامس رجب سنة ٨٦٨ هـ» (٥)، و قد ذكر ابن إياس وفاته عام ٨٦٩ هـ (٦) و الصواب ما ذكره السيوطى.

٣- شرف الدين يحيى المناوى:

ولد سنة ٧٩٨ هـ، و لازم أعيان شيوخ عصره، و تصدى للإقراء و الافتاء، (١) المصدر السابق ص ٤٦.

(٢) نظم العقيان ص ١١٩.

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٣.

(٤) الضوء اللامع ج ٣ ص ٣١٢-٣١٤.

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٣، ٢٥٤.

(٦) بدائع الزهور ج ٢ ص ٧٨.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٠٠

و ولى تدريس الشافعية و قضاء الديار المصرية، و له عدة مصنفات قال عنه السيوطى: «هو آخر علماء الشافعية و محققهم»، و قد رثاه ببعض الشعر (١)، و قد سمع السيوطى عليه دروسا فى الفقه و التفسير يبدو أنها غير قليلة (٢)، بالرغم مما يغمز به السخاوى معاصره السيوطى بأنه «حضر عند الشرف المناوى يسيرا جدا» (٣).

و قد كان المناوى معاصرا للبلقيني و كانا يتعاقبان قضاء الشافعية يعزل أحدهما فيولى (٤) الآخر.

٤- تقى الدين الشمنى الحنفى:

ذكر السيوطى أنه لزمه فى الحديث و العربية أربع سنين، و قد كتب له تقریظا على شرح ألفية ابن مالك و على جميع الجوامع فى العربية و المؤلفان للسيوطى، كما شهد له بالتقدم فى العلوم (٥).

و الشمنى هو تقى الدين أبو العباس أحمد بن كمال الدين، ترجمه السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة (٦)، و بغية الوعاة (٧)، ترجمته تفيض بالاعجاب نعتة فيها بأبلغ الأوصاف التى تدل على تنوع معارفه.

ولد الشمنى بالاسكندرية عام ٨٠١ هـ، و قدم القاهرة مع والده، و أخذ عن جماعة من أعيان علماء عصره منهم العراقي و البلقيني، ثم استحصدت قوته فتعرض للنفع العام بعلمه فأقرأ التفسير و الحديث و الفقه و العربية و المعانى و البيان و غيرها، و تراحم الناس عليه، و افتخروا بالأخذ عنه، و قد تولى مشيخة عديد من المدارس، و طلب لقضاء الحنفية فامتنع، و له مصنفات عديدة منها حاشية على (١)

حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٣، ٢٥٤.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٨٩.

(٣) الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٦.

(٤) بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٥، ٧٥.

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٩.

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧١.

(٧) بغية الوعاة ص ١٦٣-١٦٧.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٠١

مغني ابن هشام سماها «المنصف من الكلام على مغني ابن هشام» تعقب فيها الدماميني كثيرا «١»، و له نظم حسن. و قد سمع السيوطي عليه قطعة كبيرة من المطول للشيخ سعد الدين، و من التوضيح لابن هشام، و سمع و قرأ عليه في الحديث عدة أجزاء، و كانت صلة السيوطي بشيخه طيبة طيلة حياته، و قد مدحه بشعره، و رثاه بمرثية طويلة بعد وفاته التي كانت في ذى الحجة عام ٨٧٢هـ. و يعد الشمني شيخ السيوطي من أشهر نحاة القرن التاسع و قد رزق مؤلفه «المنصف من الكلام» رواجاً كبيراً في عصره.

٥- محيي الدين الكافيجي:

لقب بالكافيجي على ما يقال لكثرة اشتغاله بكافية ابن الحاجب في النحو، و قد لازمه السيوطي أطول مدة إذ بلغت أربع عشرة سنة، و أخذ عنه أكثر ما أخذ، و قد جمعتهما صلات طيبة يوضحها قول السيوطي: «ما كنت أعد الشيخ إلا والدا بعد والدي لكثرة ما له على من الشفقة و الافادة، و كان يذكر أن بينه و بين والدي صداقة تامة، و أن والدي كان منصفاً له بخلاف أكثر أهل مصر» «٢». و قد ترجم له السيوطي ترجمته تفيض بالاعجاب و التقدير «٣»، شأن الترجمة السابقة للشمني، و هو محيي الدين محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي، و قد اشتهر بأنه علامة وقته في المعقولات: «الكلام و أصول اللغة و النحو و التصريف و الاعراب و المعاني و البيان و الجدل و المنطق و الفلسفة و الهيئة بحيث لا يشق أحد غباره في شيء من هذه العلوم «٤»، هذا إلى جانب دراسته للعلوم النقلية و معرفته بها كالتفسير و الحديث و الفقه و قد صنّف كثيرا من الكتب في العلوم العقلية و يبدو أن كثيرا منها قد أتت عليه يد الحدثان و أكثر تأليفه مختصرات. (١) د. شوقي ضيف: المدارس النحوية ص ٣٥٧.

(٢) السيوطي: بغية الوعاة ص ٤٨.

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١٧، ٣١٨، بغية الوعاة ص ٤٨ و ما بعدها.

(٤) بغية الوعاة ص ٤٨.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٠٢

و قد تولى مشيخة التصوف بترية الأشرف برسباي، و تولى مشيخة الشيخونية بعد أن رغب عنها ابن الهمام، و قد عاصره السيوطي بالشيخونية إذ كان السيوطي يلي تدريس الحديث بها.

و يعد الكافيجي من أشهر علماء عصره، و يعد هو و الشمني أشهر نحاة القرن التاسع، و قد نص السيوطي على أنهما أنحى من رآه من الشيوخ «١»، و قد أورد لهما في كتابه جمع الجوامع بعض الآراء و الاختيارات النحوية، و خالفهما في بعض الأحيان، و قد توفي الكافيجي عام ٨٧٩هـ، و قد رثاه الشهاب المنصوري شاعر وقته «٢».

٦- سيف الدين الحنفى:

حضر السيوطى عنده دروسا عديدة كما ذكر عن نفسه فى الكشاف و التوضيح و حاشيته عليه و تلخيص المفتاح. و هو محمد بن محمد بن عمر بن قطلوبغا البكتري «٣»، ولد فى عام ٨٠٠هـ، و أخذ عن شيوخ عصره و لازم الكمال بن الهمام الذى كان يلى مشيخة الشيخونية، و برع فى الفقه و الأصول و النحو، و قد ولى التدريس بكثير من المدارس، و استنابه ابن الهمام فى مشيخة الشيخونية مدة حجه، و قد ولى مشيخة المؤيدية ثم آلت إليه فيما بعد مشيخة الشيخونية، و من ثم فلقد عاصر السيوطى بها حين كان يقوم بتدريس الحديث، توفى سيف الحنفى فى ذى القعدة عام ٨٨١هـ، و قد ذكر السيوطى أنه آخر شيوخه موتاً لم يتأخر بعده أحد ممن أخذ عنهم، و قد رثاه بعد موته، و أهم مصنفاته حاشية على توضيح ابن هشام.

هؤلاء أهم شيوخ السيوطى الذين درس على أيديهم و تلقى عنهم و كان لهم تأثير فى عقلية و منهجه الفكرى و توجيه حياته، و قد كان من تحدثنا عنهم - فى حقيقة الأمر - أشهر رجال عصرهم فى الفنون التى ثقفها على أيديهم السيوطى، (١) المصدر السابق ص ٣٠٩، ٣١٠ ترجمة عبد القادر بن أبى القاسم نحوى مكة.

(٢) بدائع الزهور ج ٢ ص ١٥١، ١٥٢.

(٣) بغية الوعاة ص ٩٢، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٠٣

فابن حجر أكبر علماء العصر فى الحديث، و البلقينى أكبر فقهاء الشافعية فى وقته، كذلك كان الشرف المناوى فى التفسير و الفقه، أما الكافيحى فهو أكبر علماء وقته فى المعقولات، و يعد هو و الشمنى أكبر النحاة الذين عرفهم ذلك القرن، و كان سيف الحنفى من العلماء المبرزين، و كان لهؤلاء جميعاً مكان مرموق بالمجتمع و قد تولى عدد منهم قضاء القضاء و رشح بعضهم لذلك و امتنع بمحض اختياره.

و هناك إلى جانب هؤلاء عدد كبير من الشيوخ الذين درس السيوطى على أيديهم أو لقيهم، و لكننا لا نرى موجبا لإيرادهم لما فى ذلك من الاطالة فضلا عن أثرهم القليل نسبيا فى عقله و تفكيره، و قد اكتفيت فيما تقدم بإيراد أهمهم و أكثرهم تأثيراً فى حياته و عقله.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٠٤

مراحل حياته

إشارة

سبق لنا بيان المرحلة الأولى من حياة السيوطى التى ابتدأت بمولده و ما تبعه من دراسته و تلقيه عن الشيوخ حتى أجزى بتدريس العربية و من ثم فقد أصبح مشاركا فى الحياة بصورة أخرى، و منذ ذلك التاريخ تبدأ مرحلة متميزة من مراحل حياته دأب فيها على التلقى و الدراسة مع مشاركة فى الحياة العامة.

و قد أجزى بتدريس العربية منذ وقت مبكر (عام ٨٦٦هـ) إذ لم يكن قد أتم السابعة عشرة، و قد ابتدأ التأليف منذ ذلك الوقت، و لهذا دلالة على قدرته الفائقة و نبوغه المبكر. و قد أسهم الرجل منذ ذلك الحين فى الحياة العملية و تصدى للنفع العام بعد قليل فقصد مسجد ابن طولون و أملى به الحديث من مستهل عام ٨٧٢هـ «١»، فكان يملئ به الحديث يوم الجمعة بعد الصلاة اتباعاً للخطيب البغدادي و ابن السمعاني و ابن عساكر، و خلافا للعراقى و ولده و ابن حجر فإنهم كانوا يملون يوم الثلاثاء «٢»، و يحاول السخاوى

الغض من قيمة عمل السيوطى فيتهمه بأنه كان يدرس لجمع من العوام أملى عليهم الحديث و أنه توسل بذلك إلى الوصول إلى منصب التدريس بالشيخونية (٣).

و قد حصل السيوطى على إجازة بالتدريس و الافتاء من شيخه البلقينى عام ٨٧٦هـ، تصدر على أثرها للتدريس و الافتاء، و حضر شيخه تصديره (٤)، و كانت سنة آنذاك تقترب من السابعة و العشرين، و هى سن صغيرة لمن يتصدى لمثل ذلك، و قد ساعده شيخه البلقينى فى تولى وظيفة تصدير الفقه بالجامع (١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٠.

(٢) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى (مخطوط) ورقة ٤ ص ٨.

(٣) السخاوى: الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٦، ٦٧.

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٠٥

الشيخونى و هى الوظيفة التى كان بها أبوه من قبل (١).

و فى العام التالى (شعبان ٨٧٧هـ)، تولى السيوطى تدريس الحديث بالخانقاه الشيخونية بعد وفاة الفخر المقسى (٢)، و قد أعانه فى الوصول إلى هذه الوظيفة.

الأمير اينال الأشقر (٣). كما تولى السيوطى إلى جانب ذلك وظيفة أخرى هى مشيخة التصوف بترية برفوق نائب الشام بالقراءة، و قد ساعده فى توليها أبو الطيب السيوطى (٤)، و بقى السيوطى يجمع هذه الوظائف فى يده حتى ناهز الأربعين من عمره.

و تبدأ مرحلة ثالثة من حياة السيوطى حين بلغ الأربعين من عمره يلاحظ عليه فيها ميله إلى الهدوء و زهده فى الدنيا، و قد حاول فى بداية هذه المرحلة أن يعتكف و ينقطع إلى الله تعالى، فترك وظائفه السابقة بيد أن اعتزاله التام لم يدم سوى بضعة شهور انتقل بعدها إلى وظيفة أكبر شأنًا مما كان تحت يده و هى مشيخة الخانقاه البيبرسية و ذلك فى ربيع الآخر عام ٨٩١هـ بعد وفاة الجلال البكرى، و قد ساعده فى الوصول إلى منصبه الأخير صديقه الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز (٥).

و بالرغم من أن مشيخة البيبرسية كانت أعظم الوظائف التى تولاها السيوطى و أكبرها أجرا فإنه كان يميل آنذاك إلى الزهد، و كان يتجه بحياته نحو الاعتكاف (١) الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٦.

(٢) بدائع الزهور ج ٢ ص ١٤٢.

(٣) الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٧، اينال الأشقر أحد أمراء المماليك، ترجم له السخاوى و ذمه كثيرا حتى قال فيه «مات غير مأسوف عليه فقد كنت أشهد فى وجهه المقت و كان من سيئات الدهر»، الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٣٠، انظر بدائع الزهور ج ٢ ص ٥٩.

(٤) الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٧، كان أبو الطيب السيوطى (٨٢٨ هـ - ٨٩٣ هـ) من أعيان موقعى الحكم و كان عالما فاضلا و جيهها عند الأمراء و أرباب الدولة، ترجم له السخاوى (ج ١١ ص ١١٨) و ذكر أنه كان يقصد السلطان و الأمراء لقضاء حاجات الناس و كان يميل إلى الاحسان.

(٥) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٠٦

و الانقطاع إلى العبادة و التأليف.

و الذى يدلنا على تميز هذه الفترة من حياة السيوطى بالميل إلى العزلة و الانقطاع أنه قد حاول العزلة التامة لبضعة أشهر قبل توليه مشيخة البيبرسية ترك فيها الاقراء و الافتاء و قد اتهمه معاصره السخاوى بأنه بعد استقراره فى البيبرسية «خمد من ثم بل جمد بحيث رام ستر نفسه بقوله: تركت الافتاء و الاقراء و أقبلت على الله» (١).

و هناك ما يلقى الضوء على هذا التحول فى حياة السيوطى بعد بلوغه الأربعين، ذلك أنه قد تعرض لأزمة بينه و بين السلطان قايتباى

بسبب صعوده إليه بالطيلسان، و لم يستحسن السلطان ذلك منه، و تمسك السيوطي بموقفه و كادت الأمور تسير سيرا حسنا لو لا أن ابن الكركي خصم السيوطي أوفر صدر السلطان و زين له البطش بالسيوطي مما دعاه إلى أن يحجم بعد ذلك عن الصعود إلى السلطان و ألف رسالة سماها «ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين»، و قد ألف في لبس الطيلسان رسالة سابقة يدعم بها موقفه و استفتى السلطان العلماء في شأن موقف السيوطي، و لكنهم لم ينصروا الحق مما دعاه إلى أن يعتزل وظائفه السابقة «٢».

و هنا نستطيع أن نقرر أن اعتزال السيوطي و اعتكافه حين بلوغه الأربعين كما روى ذلك المترجمون له «٣»، كان في الفترة التي أعقبت اعتزاله لوظائفه السابقة و قبل توليه مشيخة البيروية، و قد كان اعتزالا موقوتا، و لم يكن دائما كما توهم التراجم السابقة، و إلا فإننا لا نستطيع أن نفسر اعتكافه مع توليه فيما بعد مشيخة البيروية و مكوثه بها نحو خمسة عشر عاما (٨٩١هـ - ٩٠٦هـ) مع مشاركته في الحياة العامة.

و نحن نقول إنه مال إلى الزهد و العبادة منذ ذلك التاريخ و لكن اعتزاله (١) الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٩.

(٢) الشعراني: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ١٨، ١٩.

(٣) المصدر السابق ورقة ١٧، شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٣، تاريخ النور السافر ص ٥٥.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٠٧

و انقطاعه عن الناس في بيته بالروضة كان في مرتين أولاها لم تدم أكثر من بضعة أشهر كتب فيها مقامته اللؤلؤية التي تسمى أيضا «التنفيس في الاعتذار عن ترك الفتيا و التدريس». و اعتزاله الثاني و اعتكافه كان بعد عزله عن مشيخة البيروية في عام ٩٠٦هـ، و قد صمم في هذه المرة على عزله و انقطاعه حتى وفاته عام ٩١١هـ.

على أن المقامة التي كتبها في الاعتذار عن الافتاء و التدريس تطلعنا على الآلام التي كان يعانها من معاصريه و الأذى الذي تعرض له من بعض من يكيّدون له، كما تبين لنا حالة الفساد التي ظهرت بالبيئات العلمية و جعلت الرجل يفكر في اعتزالها، و في هذه المقامة يعتذر السيوطي إلى أصدقائه عن تركه الحياة العامة فيذكر كثيرا من الأعذار مجملها أن الزمان قد فسد و ظهر به من العلامات «ما أمر النبي صلى الله عليه و سلم بأن يلزم العالم عندها خاصة نفسه، و يجلس في بيته و يسكت و يدع أمر الحياة من ذلك الشح المطاع، و دنيا مؤثرة، و هوى له ذو أتباع، و إعجاب كل ذي رأى برأيه، و ذلك عين الابتداء، و قد مزجت الأمانات و العهود، و كثر القائلون بالزور و الشهود ... الخ» «١».

و يتضح من حديث السيوطي كثير من أوجه الفساد التي عانى منها عصره و التي تطرقت إلى الحياة العلمية، كما يدافع عن نفسه و يروي أن كثيرا من علماء السلف المعروفين قد اعتزلوا الحياة العامة حين شاهدوا فسادها، و يتحدث عن اعتزاله للتدريس فيذكر أن تلامذته طبقات ثلاث: أولاها كان فيها خير، و الثانية كان بها خير و شر، و الثالثة كانت شرا كلها و ساء حالها، و هو يحاول بذلك تصوير استسراء الفساد شيئا فشيئا.

و يذكر السيوطي أن فتاواه قد ملأت الأرض و أنه أهل للفتيا و قد انتفع الناس بعلمه، و يبدو من أسلوبه العنيف في آخر رسالته مدى العداء الذي كان يناصبه أعداؤه، فهو يهاجمهم هجوما لا هوادة فيه إذ يصف نفسه و ما يبذله من الجهد في العلم و ما يأتي به من أمور يعجز غيره عنها ثم ينظر فيجد نفسه بعد ذلك «بين (١) المقامة اللؤلؤية ص ١ (مخطوط بدار الكتب برقم ٢١١٧٤ ب).

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٠٨

راء بجهام، و رام بسهام و طاعن بكلام، و طاعن بلام، و راجم بسلام غير راحم بسلام» «١».

كما يشيع في الرسالة اعتداد السيوطي بنفسه و علمه، فهو يعبر عن ذلك نثرا ثم لا يلبث أن ينظم شعرا يقول فيه:

إذا المشكلات تصدين لي كشفت حقائقها بالنظر

إلى أن يقول:

و لست بإمعة فى الرجال أسائل هذا و ذا ما الخبر
و لكننى مدره الأصغرين أقضى بما قد مضى ما غبر
ثم يهاجم السيوطى أعداءه الكثيرين و يبدو من رسالته أنه يخص بالهجوم ابن الكركى الذى كان يشى به آنذاك عند السلطان، و كان ابن الكركى إمام السلطان قايتباى، و يشتد السيوطى فى هجومه حتى يقول عن خصمه «كلما سمع منى بمسألة يجهلها أكثر النعيق، و تابع النهيق ... فيا سبحان الله ما أنت و ذا هل أنت إلا مغنّ وراء الزفف ... الخ» (٢).

و هكذا يستمر السيوطى فى مهاجمة ابن الكركى و مهاجمة غيره بأعنف أسلوب يمكن أن يكتب فى الهجوم، و يعتمد السيوطى على ثروته اللغوية فى هجومه الشديد و هجائه لخصومه فهو يصفهم بأنهم «حثة حقالة حفالة رذالة بذالة نخالة سحالة وصاله هزاله نقالة غسالة بواله زيالة ... الخ» (٣).

و قد أورد السيوطى فى رسالته مجموعة من الأشعار صور بها نواحي الفساد التى تخللت البيئات العلمية مما جعله يؤثر الابتعاد عنها و الانقطاع فى بيته فمن ذلك قول الشاعر:

رأيت فقيه الشكل لا علم عنده و يقنع من حال الفقاها بالاسم

فقلت و قد وافى بتضلع عمه تضلع جهلا ما تضلع من علم

(١) المقامة اللؤلؤية ص ٤.

(٢) المصدر السابق ص ٤، ٥.

(٣) نفس المصدر ص ٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٠٩

و قول القائل:

دهر علا قدر الوضيع به و غدا الشريف يحطه شرفه

كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلا و يطفو فوقه جيفه

و قول القائل:

و عاش بدعوى العلم قوم و ما لهم من العلم حظ لا بعقل و لا نقل

فوا عجبا للعلم يحرم رزقه عليم و للأعمار ترزق بالجهل (١)

و يبدو أن حالة السيوطى النفسية و ما عاناه من آلام تسبب فى إذكاء نيرانها خصومه، و ما آل إليه أمره بعد ترك وظائفه السابقة التى كانت تأتبه بنصيب لا بأس به من أوقافها، هذه الحالة قد دفعته لأن ينفث فى رسالته تعبيرا عما يحس به داخل نفسه، و تخفيفا لآلامه. فهى تصور حالة نفسية فى وقت من أوقات الشدة التى مر بها و لجأ إلى قلمه عساه يجد فيه صديقا يشكو إليه ألمه بعد أن اعتزل جميع الأصدقاء.

و لا- تخلو هذه الرسالة من مبالغات فى وصف الفساد و اتهام الخصوم، و يبدو أن الخليفة عبد العزيز المتوكل على الله الذى كان صديقا للسيوطى و مخالطا له فى أكثر الأحيان قد ألمه ما آل إليه أمر صديقه، و كان يعرف عنه اعتداده بنفسه، فسعى له فى تولى مشيخة البيروية.

و الواقع أن مشيخة البيروية- فى ذلك الحين- كانت أكبر الوظائف التى يتولاها القائمون بالتدريس لأنها كانت أعظم الخوانق المصرية و أوسعها أوقافا، و أكثرها صوفية، و لا نستطيع أن ننكر أن السيوطى قد قرت عينه بهذا المنصب الجديد، و ربما يكون قد سعى فى سبيل الوصول إليه، و لعله كان يرى نفسه أكفا و أصلح من غيره لأن يوضع فى هذا المكان، و أيا ما كان الأمر فإن ذلك لا ينفى عنه نزعة التصوف الحقيقى التى كانت تخالط وجدانه و التى تمثلت فى ميله إلى العزلة. (١) المقامة اللؤلؤية ص ٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١١٠

و بالرغم من الوظائف الجليلة التى تولّاها السيوطى فإنه- على ما يبدو- لم يقنع بها بل كان يرى نفسه أهلا لأن يلى من الأعمال ما هو أجل مما وصل إليه لا سيما بعد أن بلغ من العلم مبلغا، و كانت وظائف القضاء- كما أشرنا من قبل- لها شأنها فى المجتمع، و كانت وظيفة قاضى قضاء الشافعية التى يمكن للسيوطى باعتباره فقيها شافعيّا أن يطمح إليها فى يد الشيخ زكريا الأنصارى (٨٢٤هـ-٩٢٦هـ) و كان أسنّ من السيوطى و قد تولى هذا المنصب منذ وقت مبكر (٨٨٦هـ)، و كان معروفا بالنزاهة و العدالة و الميل إلى الزهد و التمسك بالحق «١»، و قد قبل منصب القضاء بعد تمنع و إباء و قد مكث به نحو عشرين عاما حتى ضعف و اعتزل بنفسه عام ٩٠٦هـ «٢»، ثم أعيد إليه مرة ثانية، لذلك لم يشأ السيوطى أن ينافسه لزهده و عفته و صافته الحميدة التى جعلت منه صديقا له و مؤيدا فى بعض المواقف «٣» و كان سلوك الشيخ زكريا لا يدفع أحدا إلى منافسته لا سيما أنه كان عزوفا عن الدنيا غير راغب فيها، مألفا يحبه الناس و يجتمعون إليه.

لم يحاول السيوطى أن ينافسه فى الوصول إلى منصب القضاء برغم صلواته القوية بالخلفاء و بعض رجال الدولة لما قدمنا من أسباب، و لأن هذه المحاولة من شأنها أن تسيء إلى السيوطى و تبغضه إلى الناس و إلى أولى الأمر إذا أقدم عليها.

و لكن طموح السيوطى و تطلعه إلى منصب القضاء جعله يتخذ وسيلة أخرى لذلك إذ اتصل بصديقه المتوكل على الله الخليفة العباسى فى ذلك الوقت (صفر ٩٠٢هـ)، و اقترح عليه أن يجعله رئيسا لجميع القضاء بمذاهبهم الأربعة، و لم تكن هذه الوظيفة معروفة بمصر آنذاك إذ إن قضاء كل مذهب كانوا يتبعون قاضى قضاء المذهب، و بذلك فإن أعلى مراتب القضاء كانت وظائف قضاء القضاء الأربعة، و لكن السيوطى أفهم الخليفة بأن وظيفته التى يقترحها كانت بمصر زمن الأيوبيين، و قد تولّاها القاضى ابن بنت الأعز، و أن من حق الخليفة (١) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى: ترجمة الشيخ زكريا الأنصارى ورقة ٢٣.

(٢) بدائع الزهور ج ٤ ص ١٢.

(٣) ذيل الطبقات ورقة ٢٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١١١

أن يكلفها إلى من يراه أهلا لذلك، و من ثم فإن صاحب هذه الوظيفة تكون له السلطة على قضاء القضاء الأربعة فمن دونهم. و قد مال الخليفة إلى اقتراح السيوطى، و كان السيوطى فى ذلك الحين قد بلغ مكانة علمية ممتازة فضلا عن مكانته الاجتماعية و نشاطه السابق و مشاركته فى الحياة العامة بمصر، و أعلن الخليفة أنه عهد للسيوطى بهذه الوظيفة فى صفر عام ٩٠٢هـ «١».

و لم يكن هذا التصرف- بطبيعة الحال- مرضيا للقضاء بل كان سببا لثورتهم و معارضتهم و هاجموا الخليفة و قالوا: ليس للخليفة مع وجود السلطان حلّ و لا عقد و لا ولاية و لا عزل و لكن الخليفة استخف بالسلطان لكونه صغيرا. و كان السلطان آنذاك الناصر محمد بن قايتباى، و لم يكن يبلغ أن العشرين من عمره، و كان على ما وصفه المؤرخون به طيش و ظلم، و يبدو أن الخليفة تخوف من مساعى القضاء لدى السلطان و تأليبهم السلطان عليه بحجة أنه فعل أمرا ليس من حقه، و إنما هو من حق السلطان، و قد شرحنا من قبل ما كان عليه أمر الخلافة العباسية فى مصر طيلة ذلك العهد، لذلك لم يستطع الخليفة الصمود فى وجه تيار الثائرين عليه من القضاء فرجع عن ذلك و تعلل بأن الشيخ جلال الدين السيوطى هو الذى حسن له ما فعل، و أشهد على الخليفة بالرجوع عن العهد الذى عهد به إلى السيوطى و يبدو من سياق ما أورده ابن إياس عن هذه القصة أن السيوطى بعلمه و عقليته الكبيرة و لما بينه و بين الخليفة من صلوات طيبة قد استطاع التأثير على الخليفة و إقناعه بأن يقدم على عمل لم يكن معهودا فى عصره، و لم يقدر عاقبته، و لم يحتط لما سترتب عليه من ثورة القضاء.

و لترك جانباً هذه القصة التى تدل على طموح السيوطى إلى تولّى القضاء، و لعله كان يبغى شيئا من الإصلاح، و لتتجه مرة أخرى إلى السيوطى حيث لا يزال يشغل مشيخة البيبرسية كبرى الخوانق و أوسعها أوقافا فى عهده، و كانت البيبرسية تضم أكبر عدد من

المتصوفة الذين تجرى عليهم الأرزاق من جنى (١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١١٢

أوقفها، و قد رأى السيوطى ما آل إليه أمر التصوف فى عهده من كثرة الأديعاء الذين استمروا العيش داخل الخوانق دون عمل، و لم يقوموا بواجباتهم فى العبادة و التخلق بأخلاق التصوف الحقيقية، لذلك فقد وجه إليهم السيوطى نصحه بأن «الصوفى من تخلق بأخلاق الأولياء ... و من يأكل المعلوم بغير تخلق بأخلاقهم حرام» (١).

و قد عمد السيوطى إلى قطع جعلية هؤلاء الصوفية، و لكنهم ثاروا عليه، و كادوا يقتلونه ثم حملوه بأثوابه و رموه فى الفسقية (٢)، و كانت هذه الحادثة فى جمادى الآخرة عام ٩٠٣هـ، و لم يكتف الصوفية بإهانتهم للشيخ بل إنهم شكوه إلى السلطان وسعوا لديه فى سبيل قتله، و قد شجعهم و أعانهم على ذلك الأمير طومان باى الذى كان يلى «الدوادارية الكبرى» و يعد صاحب المنصب الثانى فى الدولة بعد السلطان، و كان بين السيوطى و بين طومان باى عداوة، و قد مر السيوطى ببعض المحن خلال هذه الأزمنة، و قد سعى طومان باى جاهدا فى سبيل قتله كما لم يكف أعداؤه عن تأليب ذوى الشأن من العلماء و الأمراء عليه، و يبدو أن السيوطى أبدى من الشجاعة و رباطة الجأش خلال أزمته ما جعل تلميذه الشعرانى يذكر أنه «لم يتغير منه شعرة واحدة» (٣)، و يدافع الشعرانى عن السيوطى و يهاجم الذين ثاروا عليه كثيرا حتى يقول: «إن جميع من قام على الشيخ حصل له مقت بين العباد و مات على أسوأ حال» (٤).

و يستدل بعض الباحثين بهذه الحادثة على فساد التصوف، و انتشار الجهل بين الصوفية الذين ارتفع قدرهم بين العامة على قدر العلماء، كما يرى أن السيوطى كان على حق فى سلوكه مع هؤلاء الصوفية (٥).

و لم ينل أعداء السيوطى الذين انتهزوا هذه الأزمنة للايقاع به ما يبتغون، (١) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ٢١.

(٢) ابن إياس: ج ٢ ص ٣٣٩.

(٣) ذيل الطبقات الكبرى ورقة ٢١ ص ٤٢.

(٤) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ٢١ ص ٤٢.

(٥) عبد المتعال الصعدي: المجددون فى الاسلام ص ٣٤٢-٣٢٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١١٣

و مرت الفتنة و ظل السيوطى فى مشيخة البيروسيه، و لم تكن هذه الحادثة سببا فى فقدته لمشيخة البيروسيه كما توهم كاتب ترجمته فى دائرة المعارف الاسلاميه (١)، و قد وقع فى هذا الوهم أيضا عبد الوهاب حمودة (٢)، و ليس الأمر كما ذهب إليه لأن هذه الحادثة كانت فى جمادى الآخرة عام ٩٠٣هـ، و قد نص عليها ابن إياس المؤرخ المعاصر لهذه الفترة، ثم إن تركه لمشيخة البيروسيه لم يكن إلا فى رجب عام ٩٠٦هـ أى بعد ثلاث سنوات من الحادثة السابقة، و لم يكن سبب تركه لها هو أصداء الحادثة المذكورة، بل كان سبب عزله من مشيخة الخانقاه كما سنرى هو تولى طومان باى السلطنة بعد أن كان يشغل منصب الدوادارية الكبرى، و حينئذ تخوف السيوطى على نفسه فاختفى فى جهة غير معلومة و كان السلطان قد طلبه ليفتك به «فلما اختفى قرر السلطان الشيخ يس البليسى فى مشيخة الخانقاه البيروسيه عوضا عن الجلال السيوطى بحكم صرفه عنها»، و قد نص على ذلك ابن إياس فى حوادث جمادى الآخرة عام ٩٠٦هـ (٣).

و هكذا فلقد ظل الرجل بعد حادثة الصوفية فى مشيخة البيروسيه بالرغم من كثرة الأذى الذى تعرض له، و الثورة الجامحة التى شارك فيها أعداؤه المتربصون به و التى كادت تعصف به.

و يبدو أنه قد تعرض لبعض الأذى من أعدائه بعد هذه الحادثة مما جعله ينفث ما يشعر به من ظلم فى رسالته «تأخير الظلامه إلى يوم القيامة» (٤)، و بالرغم من اتباعه فى رسالته منهجه فى التأليف الذى يكثر فيه من النقول، و على الرغم من أن الرسالة فى جملتها

مجموعة من النقول و القصص التى تذكر ليكون للمؤتسى بأصحابها أسوة حسنة فإن روح الرسالة تشعرنا بمدى ما تعرض له و أحس به خلال هذه الفتنة و بعدها.

و قد تطورت الأحداث بعد ذلك على غير ما يهوى السيوطى، فقد آلت (١). «TycnEehT malsIfoaideapolc ituyySIA» (٢) صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ص ١٥٥.

(٣) بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٩١، ٣٩٢.

(٤) تأخير الظلامه إلى يوم القيامة (مخطوط بدار الكتب المصرية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١١٤

السلطنة إلى طومان باى ألد أعدائه، و الذى تولى كبر الحملة عليه إبان أزمته السابقة، و كان طومان باى عسوقا سفاكا للدماء كثير التدبير للمؤامرات، و قد قتل كثيرا من خصومه من أمراء المماليك أثناء حكمه، و بالرغم من ذلك فقد كان يظهر العدل فى بعض الأمور مما حبه إلى العامة من الناس و إن كان يخفى فى نفسه غير ما يظهر «١»، و هذه الصفات بطبيعتها كفيلا بأن تجعل رجلا مثل السيوطى يخشى على نفسه منذ اليوم الذى ولى فيه طومان باى السلطنة.

لذلك اختفى السيوطى بعد توليه فى عام ٩٠٦ هـ «٢»، و كان حصييفا فى تصرفه إذ إن السلطان قد طلبه ليفتك به، و قد كثر الواشون لديه، و قد أوغروا صدره عليه مما جعله يتهدد بتقطيعه إربا إربا «٣».

و مكث السيوطى مختفيا منذ جمادى الآخرة عام ٩٠٦ هـ، لمدة تزيد عن ثلاثة أشهر، و فى خلال هذه الفترة فقد وظيفته بالبيبرسية إذ صرف عنها و تولى مكانه الشيخ يس البليسى «٤».

و يبدو أن السيوطى قد عانى مدة اختفائه كثيرا من الآلام لما كان يبلغه من وعيد السلطان و تهديده، بيد أنه قابل هذه المحن بالصبر و الشجاعة التى أثارها عنه تلامذته الذين شاهدوه فى محنته أو نقلوا عنه فيما بعد أخبار هذه المحنة.

و يترجم الشعرانى لشيخه السيوطى ترجمه تفيض بالحب و الاعجاب، و يذكر له كثيرا من المواقف الحسنة، و ما أظهره الله على يده من الكرامات، و مهما يكن من شىء فى أمر الخوارق التى أوردتها السيوطى، و سواء أ كانت قد حدثت بالفعل أم كانت من قبيل المنقبيات فإننا نستطيع أن نستدل منها دلالات تعيننا على تعرف الأحداث التى مر بها المترجم له و المواقف التى وقفها.

و مما رواه الشعرانى من أخبار هذه المحنة أن أعداء السيوطى قد أججوا النار (١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٤ ص ١١، ج ٢ ص ٣٩٥، ٣٩٦.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٩١، ٣٩٢.

(٣) ذيل الطبقات الكبرى ورقة ٢٢ ص ٤٣.

(٤) بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٩١، ٣٩٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١١٥

عليه عند السلطان الذى كان يضم له الكراهية من قبل فأقسم السلطان أن يقطعه قطعاً فبلغ ذلك السيوطى فقال: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم أخبرنى أن رأسه تقطع فى يوم كذا و كذا، فكان الأمر كما قال «١».

كما روى الشعرانى عن الشيخ عبد القادر الشاذلى أن السيوطى امتحن «المحن الكثيرة و ما سمعته يوما واحدا ينحو على من آذاه من الحسدة و لا يقابله بسوء و إنما يقول: حسبنا الله و نعم الوكيل، و صنف فى ذلك كتابا سماه تأخير الظلامه إلى يوم القيامة» «٢».

على أن دياجير الظلمة التى اكتنفت السيوطى فى محنته السابقة و فرضت عليه أن يعيش فيها لم تلبث أن تبددت، و انقشعت السحب القاتمة التى ظلمت سماء حياته لثلاثة أشهر، فقد دالت دولة طومان باى بعد ثورة المماليك عليه، و اضطر إلى الهرب، و آلت السلطنة إلى الغورى الذى بوعى فى مستهل شوال عام ٩٠٦ هـ و فى ذلك اليوم ظهر السيوطى بعد اختفائه و قد كفاه الله شر السلطان السابق «٣».

و تقبل الدنيا مرة ثانية على السيوطى فيرى بعينه ما يحل بخصمه طومان باى إذ هرب و اختفى و كثر التفتيش عنه من قبل السلطان الجديد، و ظل مختفيا نحو ثلاثة أشهر ثم انتهى أمره بأن حصره المماليك فى أحد المنازل و ألقى بنفسه يحاول الفرار و لكنهم اهتبروه بسيوفهم و مزقوه شر ممزق «٤».

و قد تحول السيوطى بعد هذه المحنة تحولا كبيرا، و لا شك أن هذه الأحداث كان لها دور كبير فى تحوله الأخير، و لكن الباعث على هذا التحول كان كامنا فى نفسه من قبل، فلقد سبق له أن اعتزل الناس و اعتكف فى بيته فترة من الوقت بعد بلوغه الأربعين و اعتزاله وظائفه، ثم إن اتجاه الزهد و الانقطاع كان مؤثرا فى حياته طيلة المدّة التى تولى فيها مشيخة البيروسيه، بالرغم من مشاركته فى الحياة العامّة و إسهامه فى النفع العام بالتدريس حيث ظل إلى ذلك الحين يملئ الحديث (١) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ٢١، ٢٢ ص ٤٢، ٤٣.

(٢) المصدر السابق ورقة ٢٢ ص ٤٣.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٤ ص ٥.

(٤) المصدر السابق ج ٤ ص ٩، ١٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١١٦
بالجامع الطولونى «١» و كان يتردد على المسجد كما سبقت الإشارة يوم الجمعة من كل أسبوع.

العزلة الأخيرة:

و لكنه بعد هذه المحنة اتجه إلى الاعتكاف و اعتزال الناس، و نحن نقرر أن اعتزاله و اعتكافه الذى ذكره المترجمون له إنما كان بعد هذه المحنة فى عام ٩٠٦هـ، و يصف المترجمون ذلك بأنه «لَمَّا بلغ أربعين سنه أخذ فى التجرد للعبادة و الانقطاع إلى الله تعالى و الاشتغال به صرفا، و الاعراض عن الدنيا و أهلها كأنه لم يعرف أحدا منهم، و شرع فى تحرير مؤلفاته و ترك الافتناء و اعتذر عن ذلك فى مؤلف سماه بالتنفيس، و أقام فى روضه المقياس فلم يتحول منها إلى أن مات» «٢».

فصاحب هذا النص و غيره من المترجمين «٣»، يوقتون انقطاع السيوطى و اعتكافه و ميله للعزلة و مقامه بالروضه ببلوغه الأربعين، و قد سبق أن رأينا أن ذلك يتنافى مع ما قدمنا من ترجمه حياته بعد الأربعين و توليه مشيخة البيروسيه و قيامه بالقاء الدروس بالجامع الطولونى و غير ذلك من أنواع الأنشطة، و أظهر من ذلك سعيه لتولى منصب رئاسة القضاء.

و الحق أن ما يذكره أصحاب هذه التراجم من أمر هذا الاعتكاف إنما كان بعد المحنة الأخيرة التى واجهها السيوطى عام ٩٠٦هـ و هو فى السابعة و الخمسين من عمره، و منذ ذلك الحين اتجه إلى الاعتكاف تماما و ابتعد عن المشاركة فى الحياة العامّة، و انقطع للعبادة و التأليف بمنزله بالروضه حتى وافته المنية. (١) أحكام قراقوش، رساله مخطوطة ضمن مجموعة رسائل برقم ٢٥ مجاميع قوله، و فى مقدمتها ما يدل على أنه كان إلى عام ٨٩٩ يختلف إلى المسجد الطولونى ورقة رقم ١٦٧.

(٢) شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٣.

(٣) ذيل الطبقات الكبرى ورقة ١٧، ١٨، ص ٣٤، ٣٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١١٧

و قد زهد السيوطى فى الحياة و رغب عن المناصب التى كان يشغلها من قبل أو التى حدثته نفسه بالطموح إليها فى وقت من الأوقات، و صمم هذه المرة و قد بلغ السابعة و الخمسين من عمره على أن يعتكف فى بيته و أن يبتعد عن الحياة بما فيها من زينة بدت زائفة أمام عينيه، و ما بها من مظاهر أصبحت نفسه لا تطيقها، لا سيما أنه رجل صوفى درس التصوف و انطبعت به نفسه فأحب أن يطبق الجانب العملى منه بعد أن أحاط بالجانب النظرى، فالتصوف كما يعرفه أهله علم و عمل، و لا يجوز للمتصوف الحقيقى أن يسلك

أحدهما دون الآخر و إلا كان عمله مبتورا.

و نحن نقرر هنا أن الرجل الذي دافع عن التصوف طيلة حياته، و ألف فيه عديدا من الكتب و الرسائل و ولي مشيخته في بعض الخواص قد أراد أن يسلك طريق الصوفية عملا بالتجرد و الزهد و الاعتكاف، و الانقطاع إلى الله و العبادة.

و لم يكن هذا الاتجاه- في حقيقة الأمر- شاغلا للسيوطي عن العلم و المشاركة فيه بل إنه ألف في هذه الفترة من حياته كثيرا من المؤلفات، و قد أتاح له الاعتكاف و الاعتزال و الابتعاد عن الحياة بمشاغلها الفرصة للعلم و التأليف.

و كان السيوطي يقيم في منزل يطل على النيل بجزيرة الروضة بجنوب القاهرة، و كانت جزيرة الروضة من الأماكن المفضلة في السكنى آنذاك، و قد أشاد السيوطي بالروضة و جمالها و فضلها في السكنى على غيرها من الأحياء الأخرى (١)، بيد أنه بعد اعتكافه الأخير و انقطاعه كلية في منزله بها لم يكن يفتح طاقات بيته المطلة على النيل (٢).

و تجلت صور العزوف عن الدنيا و أهلها و زينتها و سلطانها في سلوك السيوطي في عزلته الأخيرة حين كان يأتي الأمراء و الأغنياء و يعرضون عليه الأموال فيردها، و حين أرسل إليه الغوري خصيا و ألف دينار فأخذ الخصي و أعتقه و جعله خادما في الحجر النبوي، و رد الألف دينار و قال لفاصد السلطان: لا تعد تأتينا قط (١) مقامة الروضة: روضة مصر، مقامات السيوطي ص ٦٣-٦٨.

(٢) الشعراني: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ١٨ ص ٣٥.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١١٨

بهديته فإن الله أغناني عن مثل ذلك (١)، و قد كان السيوطي يرى منذ وقت مبكر في حياته و بعد اصطدامه بالسلطان قايتباي أن عدم التردد إلى السلاطين و الأمراء أسلم للمسلم و كذلك رد أموالهم عليهم.

و في هذه الفترة الأخيرة من حياة السيوطي عرض عليه الغوري أن يلي مشيخة مدرسته التي ابتناها بالقبه الزرقاء فلم يقبل، و يبدو أن السلطان قد ألح عليه، و لكن الرجل قد ثبت على رأيه و آثر البقاء في عزلته (٢).

و لقد كان السيوطي يحاول أن يعتزل منذ وقت مبكر، و كان ينفث في كتاباته ما يدل على ميله إلى الزهد و إحساسه بدنو الأجل، فهو حين يترجم لنفسه و قد كتب هذه الترجمة و هو في الحلقة الخامسة من عمره يقول بعد أن يعدد العلوم التي حصلها و أنه اكتملت لديه آلات الاجتهاد: «أقول ذلك تحدثنا بنعمة الله تعالى لا فخرا، و أي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها في الفخر، و قد أزف الرحيل، و بدا الشيب و ذهب أطيب العمر» (٣).

و ظل السيوطي في عزلته و انقطاعه إلى العبادة و التأليف، و ابتعاده عن الحياة العامة بالرغم من ميل السلطان الغوري إلى إشراكه في الحياة العامة و توليته بعض المناصب لما كان يكتفه له من إكبار في نفسه، حتى إذا ما انقضت سنوات ثلاث على هذه العزلة و توفي الشيخ يس البليسي شيخ البيروسيه (ذو الحجته عام ٩٠٩ هـ) (٤)، عرض على السيوطي أن يعود مرة ثانية إلى وظيفته السابقة و لكنه رفض (٥).

و قد كان السيوطي في هذه المرحلة الأخيرة من حياته يسلك المسلك العملي للصوفية و قد أعرض عن الدنيا و أهلها و امتنع عن الذهاب إلى الأمراء و السلاطين، و قد روى أنه سئل أن يقضى حاجة لإنسان عند الغوري، و كان (١) المصدر السابق ورقة ١٨ ص ٣٦، شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٣.

(٢) ذيل الطبقات الكبرى ورقة ٢١ ص ٤١.

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٠.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج ٨ ص ٤٣ ترجمة البليسي.

(٥) «ituyusIA malsIfoaideapolc ycnEehT».

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١١٩

الغوري يقدره و يعرف مكانته، و لكنه اعتذر عن ذلك بأنه يرى النبي صلى الله عليه و سلم يقظة، و يخشى على نفسه أن يجتمع بالغوري فيحتجب النبي صلى الله عليه و سلم عنه «١»، و نحن لا نستبعد صدور مثل هذا القول عن السيوطي، فليست القصة من قبيل المنقبيات التي رواها له الشعراي، فقد ألف السيوطي رسالته في «إمكان رؤية النبي و الملك» سماها بتنوير الحلوك «٢»، و قد حشد فيها كثيرا من الأحاديث و الآثار عن الصحابة و التابعين و الأولياء التي يستدل بها على إمكان ذلك، كما أورد أسماء كثيرين ممن وقعت لهم هذه المكاشفات، و بالرغم من أنه لم يصرح في رسالته بحدوث الرؤية له، فإن ما ذكره و دافع عنه يشهد لصحة ما نذهب إليه من صدق نقل الرواية السابقة عنه.

و لست هنا بصدد مناقشة صحة الموضوع فذلك لا يفيدنا في شيء، و إنما يهمننا ما يوحى به من دلالات و ما يفسره لنا من الاتجاه الذي سار فيه الرجل في المرحلة الأخيرة من حياته و هو اتجاه التصوف العملي.

وفاته:

لبث السيوطي في المرحلة الأخيرة من حياته على حاله التي قدمنا تفصيلها حتى وافاه أجله سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى عام ٩١١ هـ الموافق (١٨ أكتوبر عام ١٥٠٥ م) و كان مرضه سبعة أيام بورم شديد في ذراعه اليسرى يقال إنه خلط أو انحدر، و قد استكمل من العمر إحدى و ستين سنة و عشرة أشهر و ثمانية عشر يوما، و كان له مشهد عظيم، و دفن بحوش قوصون خارج باب القرافة من جهة الشرق، و قبره ظاهر و عليه قبة «٣».

و قد ذكر ابن إياس هذا التاريخ نفسه بيد أنه جعل وفاته يوم الخميس، كما أخطأ في حساب عمره حيث جعله اثنين و ستين عاما و أشهر «٤». و الصحيح ما (١) ذيل الطبقات الكبرى ورقة ١٤ ص ٢٨.

(٢) الرسالة بكتاب الحاوي للفتاوى ج ٢ ص ٤٣٧ - ٤٦٠.

(٣) ذيل الطبقات الكبرى ورقة ٢٣ ص ٤٥، شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٥.

(٤) ابن إياس ج ٤ ص ٨٣.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٢٠

تقدم ذكره، و قد ذكر ابن إياس أن بعض الناس اشترى قميصه للتبرك به بعد موته «١»، و هذا يدل على حسن اعتقاد الناس فيه.

قبر السيوطي:

لأحمد تيمور رسالة بعنوان «تحقيق قبر السيوطي»، و يبدو أن الدافع الذي حمله على كتابته بحثه ما تذهب إليه العامة من وجود قبر السيوطي في أسيوط في ضريح بأحد المساجد المسماة باسمه، فكان بعض من يسمع أنه دفن في حوش قوصون يتوهم دفنه في أشهر المسجدين فقام ببحثه تصحيحا لهذه الأخطاء و تصحيحا لخطأ وقع في خطط علي مبارك «٢». و قد تتبع تيمور ما قيل في وفاة السيوطي و موضع دفنه «٣»، و تكلم عن تاريخ القرافة الكبرى و القرافة الصغرى بالقاهرة و عن قرافة الإمام و حوش قوصون «٤»، و ينتهي المحقق بعد ذلك إلى أن «الذي دلت عليه هذه النصوص و الآثار و طابقه أيضا المعروف عن موضع قبره الآن أنه مدفون في هذه البقعة الواقعة شرقي باب القرافة المعروف اليوم عند العامة ببوابة السيدة عائشة، و عند بعضهم ببوابة حجاج خطأ، فإذا خرج قاصد زيارته من هذا الباب متجها إلى الشرق و سار قليلا مجتازا السكة الحديد الذاهبة من قراميدان إلى طرا اعترضه في أول هذه الجبابة شارع ممتد من الشمال إلى الجنوب الشرقي كتب على ألواح (شارع القرافة الكبرى)، ثم يواجهه شارع خارج منه إلى جهة الشرق كتب عليه (شارع سيدي جلال)، و المراد جلال الدين السيوطي لأنه مفض بسالكة إلى حوش قوصون الذي دفن فيه، و قبره مشهور

عند أهل هذه الناحية، يعرفه الخلف عن السلف من زمن وفاته إلى اليوم لا- يشكك فى ذلك شكك، و يرجع الفضل فى حفظه من الدثور كل هذه المدّة إلى حسن اعتقاد الناس فيه، و قصدهم إياه بالزيارة كل حين، و كانوا يقيمون له حضرة كل أسبوع ثم أبطلوها و اقتصروا على المولد الذى اعتادوا عمله كل سنة (١) المصدر السابق ج ٤ ص ٨٣.

(٢) مقدمه محيى الدين الخطيب لكتاب تحقيق قبر السيوطى ص ٣.

(٣) أحمد تيمور (باشا): تحقيق قبر السيوطى ص ٤-٦.

(٤) أحمد تيمور: تحقيق قبر السيوطى ص ٧-١٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٢١
فى نصف شعبان «١».

كان هذا زمن المرحوم أحمد تيمور، أما الآن فقد أبطلت الحضرة و المولد و نزع قضيب السكة الحديد، و قد ذكر تيمور زيارة النابلسى للقبر فى أوائل القرن الثانى عشر حيث ذكر أنه مدفون و حوله قبور، و هو ما عليه الحال إلى وقتنا.

صفة المقام:

أما صفة المقام فهو زاوية متوسطة يقع القبر فيها بجوار حائط القبلة فى مقصورة من خشب تحت قبة صغيرة و فوقه تابوت مغطى بستر أخضر مطرز بآيات كريمة و على باب الزاوية من الخارج لوح رخام نقش عليه: «هذا مسجد العارف بالله سيدى جلال الدين الأسيوطى رحمه الله»، و فوق هذا اللوح لوح آخر لا- صلة له بهذا المقام مكتوب فيه: «العرب و العجم و العز و النعم سنة ١٢١١»، و الظاهر من هيئته أنه بقية لوح كان على أحد القبور فنقله بعض العوام إلى هذا المكان و ليس تاريخ عمارة كما ظن على مبارك «٢». هذا ملخص ما ذكره تيمور، و قد قمت بزيارة القبر و الضريح و قد وجدت هذا الوصف لا يزال باقيا كما ذكره المحقق السابق، و الجدير بالذكر أن الزاوية بها قبور من الداخل، و قد منع الدفن فيها منذ أعوام قلائل، و خارج الزاوية توجد قبور كثيرة لا يزال الدفن بها قائما إلى الآن.

و جدير أن نلفت إلى أن المسجد الموجود بمدينة أسيوط إلى الآن و المعروف باسم جلال الدين السيوطى، و به ضريح تزعم العامة أنه له، و من عاداتهم إقامة مولد له كل عام، ليس له صلة بالجلال السيوطى، و ليس به قبره، و المسجد قد أنشئ قبل السيوطى فى القرن الثامن الهجرى، و النسبة حدثت خطأ «٣». (١) المصدر السابق ص ١٦.

(٢) نفس المصدر ص ٢٠، ٢١.

(٣) أحمد تيمور: تحقيق قبر السيوطى ص ٢٣-٢٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٢٢

مكانه فى المجتمع

إشارة

سبق أن أشرنا إلى ما كانت تتمتع به طبقة أهل العلم فى المجتمع إذ كان لأبنائها مكانة رفيعة بالمجتمع جعلتهم المعبرين عن الشعب و المدافعين عن حقوقه لدى الحكام، كما اتخذهم الناس وسطاء لقضاء حوائجهم.

و قد كان والد السيوطى من أبناء هذه الطبقة تمتع بما تمتعت به، بالإضافة إلى ما كان له من صلوات طيبة بخلفاء بنى العباس بمصر، و كانت صلته أكثر توثقا بالخليفة المستكفى بالله و قد بقيت هذه الصّلات الطيبة بعد وفاة والد السيوطى فنشأ منذ صغره مقربا إلى بيوت

الخلفاء العباسيين.

وقد كان كمال الدين بن الهمام وصيا عليه بعد وفاة والده، و كان كمال الدين من كبار فقهاء الحنفية و قد ولى مشيخة الشيوخية حتى عام ٨٥٨ هـ، و توفى فى عام ٨٦١ هـ «١»، و قد أعان السيوطى فى بداية حياته و قرره فى الخانقاه الشيوخية.

وقد استطاع السيوطى بعد أن أتم دراسته، و أجزى بالتدريس أن يأخذ مكانا ذا قدر فى المجتمع، و بعد تصديره فى عام ٨٧٦ هـ، أصبح يعد من كبار علماء عصره. و قد ظلت مكانته- بطبيعة الحال- فى تزايد و علو، و كان له شأن و تأثير فى المجتمع طيلة حياته، و نستطيع هنا أن نورد بعض الأمثلة التى تدل على أهميته فى الحياة العامة و اعتباره رجلا له قدره و كلمته المسموعة فى المجتمع. و أول الأحداث العامة التى كان له فيها دور مشهود ما حدث فى بداية عام ٨٧٥ هـ من جدل بين العلماء حول أقوال ابن الفارض، إذ تعصب عليه جماعة من العلماء و رموه بالكفر و الفسق و نسبوه إلى من يقول بالحلول و الاتحاد، و كان (١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٥٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٢٣

«رأس من تعصب على الشيخ عمر بن الفارض برهان الدين البقاعى، و قاضى القضاء محب الدين بن الشحنة و ولده عبد البر، و نور الدين المحلى، و قاضى القضاء عز الدين المحلى، و تبعهم جماعة كثيرة من العلماء يقولون بفسقه، و أما من تعصب من العلماء للشيخ فهم الشيخ محبى الدين الكافيجى الحنفى، و الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى، و الشيخ بدر الدين بن الغرس، و نجم الدين يحيى بن حجبى و شيخنا الجلال بن الكمال الأسيوطى و الشيخ زكريا الأنصارى و تاج الدين بن شرف» «١».

و هكذا وقف السيوطى بين مجموعة من كبار علماء عصره يدافع عن ابن الفارض، فوقف إلى جانب شيخه الكافيجى و السيف الحنفى، و قد ألف الكافيجى فى الدفاع عن ابن الفارض، و ألف السيوطى رسالته سماها «قمع المعارض فى نصره ابن الفارض» و يذكر أن العلماء قد وقع بينهم صدامات عنيفة حول هذا الموضوع، و تعرض البقاعى و ابن الشحنة لهجوم عنيف من أنصار ابن الفارض، و قد هجا الشهاب المنصورى شاعر عصره البقاعى بقوله:

إن البقاعى بما قد قاله مطالب

لا تحسبه سالما فقلبه يعاقب «٢»،

و هجاه بقصيدة أخرى، و قد تعصب السلطان و بعض الأمراء لابن الفارض، و قد استفتى السلطان الشيخ زكريا الأنصارى فى هذه المسألة فأفتاه بتبرئه ابن الفارض مما نسب إليه، و أن للصوفية تعبيراتهم و مصطلحاتهم الخاصة بهم، و التى لا ينبغى أن تؤخذ ألفاظهم فيها على ظاهرها، و قد انتهت هذه الفتنة بانتصار العلماء الذين دافعوا عن ابن الفارض و من بينهم السيوطى انتصارا كبيرا. (١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ١١٩.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١١٩، و هو يريد أن لفظ «يعاقب» هو مقلوب لفظ «بقاعى» و يتصور أن فى ذلك دلالة على عقابه بسبب هجومه على ابن الفارض، و تدل هذه الحادثة على مكانة التصوف فى المجتمع و نصرته الحكام لأهله، فضلا عن تعصب العوام للصوفية، و هو ما جعل الصراع غير متكافئ بين أنصار ابن الفارض و أعدائه.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٢٤

و لقد ساعد على هذا الانتصار اعتقاد العوام البالغ فى الشيخ عمر بن الفارض حتى ذكر أنهم حاولوا قتل البقاعى و رجموه بالحجارة، كما أن السلطان انتصر له و عزل ابن الشحنة من القضاء «١» و تدلنا هذه الحادثة على منزلة السيوطى منذ بداية حياته العلمية بين العلماء، و مشاركته فى الأحداث العامة، و الحقيقة أن السيوطى كانت له مبادئ و آراء تمسك بها طيلة حياته و دافع عنها، و قد نصب من نفسه مدافعا عن رجال التصوف المعروفين فصار ينفى عنهم كل شبهة أثرت حولهم و يحاول أن يبين التزامهم بالكتاب و السنة و موافقتهم فى مسالكهم لهما. فهو لا- يفتأ يذكر بعد ذلك فى موضع آخر أنه «ما زالت العلماء و محققو الصوفية يبينون بطلان القول

بالحلول و الاتحاد، و ينيهون على فساد، و يحذرون من ضلاله» (٢).

و غدا السيوطي عالما يشار إليه بالبنان في القاهرة منذ ذلك الوقت، و قد وردت عليه كثير من الأسئلة التي أجاب عليها أحسن إجابة، و استفتى في كثير من المعضلات فأفتى فيها، و من الأسئلة المبكرة التي تدل على تمكنه و شهرته و ذكائه و عقله ما ورد إليه عام ٨٧٦ هـ، و هي مجموعة من الألغاز العلمية المنظومة طلب إليه أن يجيب عنها نثرا و نظما فأجاب أصوب جواب (٣).

و قد طبقت فتاوى السيوطي بلاد مصر و الشام و سائر بلاد الاسلام (٤)، و انتشرت كتبه في حياته و انتفع بها الناس، و نلاحظ في فتاواه و كتاباته الكثيرة انتقادا لكثير من نواحي الحياة في المجتمع و حثا على الاصلاح، و من أوضح الأمثلة على ذلك فتواه بهدم أحد البيوت التي أقيمت إلى جوار أحد المساجد (١) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٠، ١٢١.

(٢) السيوطي: تنزيه الاعتقاد عن الحلول و الاتحاد، رسالة ضمن كتاب الحاوي للفتاوى ج ٢ ص ٢٣٦.

(٣) الأجوبة الزكية عن الألغاز السبكية، رسالة له طبعت بالحواي ج ٢ ص ٤٩٣.

(٤) انظر مثلا رسالته: المباحث الزكية في المسألة الدورية، و هي استفتاء عن وقف بإحدى بلاد خوزستان، الحاوي للفتاوى ج ١ ص ٢٥٣، انظر رسالته: فتح المطلب المبرور و برد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور، الحاوي ج ١ ص ٤٥١.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٢٥

و اتخذها صاحبها لايواء المفسدين من الزناة و غيرهم، و صارت مقصدا لأهل اللهو و العبث، فأفتى السيوطي بهدمها و كتب في ذلك رسالته «هدم الجاني على الباني» (١).

و كانت كتابات السيوطي في حياته موضع اهتمام عامة الناس و خاصتهم، و كانت فتاواه تحظى بهذا التقدير، و كان السلاطين يقدرونه تقديرا بالغا و يعرفون له منزلته، و يتبعون ما يفتى به أو يشير إليه، ففي عام ٨٩٦ هـ، ذاع بين الناس فتوى السيوطي بعدم جواز البناء على ساحل الروضة لأن الاجماع منعقد على منع البناء في شطوط الأنهار الجارية (٢) و قد كتب في ذلك رسالة سماها «الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر» (٣)، و قد أذعن لهذه الفتوى القضاء في عصره بعد أن أرسلها إليهم، و قد نظم السيوطي هذه الرسالة في منظومه سماها «النهر لمن برز على شاطئ النهر» (٤)، و قد أرسل السيوطي بفتواه إلى السلطان «فأحاط بذلك علما و تواعد أهل البروزات منعا و هدمًا» (٥).

و كانت صلة السيوطي طيبة بالسلطان قايتباي الذي عاصره أطول فترة في حياته، و كانت العادة في التهاني أن يصعد إلى السلطان قضاء القضاء و أعيان الدولة لتهنئته بالأعياد أو بأول كل شهر هجري و كان السيوطي ممن يصعد مع القضاء، و كان يفتقد من قبل السلطان إذا تخلف عن الصعود، و في إحدى المرات وجه السلطان مسألة للسيوطي عن سنة سنها النبي صلى الله عليه و سلم و لم يفعلها، و سكت الجلال السيوطي و لم يجب و أجاب بعد ذلك في رسالة و كان السلطان عنده كتاب يسمى «حيرة الفقهاء» و كان الجواب عن ذلك هو: الأذان، و يبدو أن سكوت السيوطي مرجعه أن الأصح أن الرسول لم يؤذن إلا عند من يقول بصحة الخبر بأنه أذن في وقت ما، و قد أضاف السيوطي إلى ذلك ذكر بعض (١) الحاوي للفتاوى ج ٢ ص ١٧٧.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٧١.

(٣) الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر: رسالة له ضمن كتاب الحاوي ج ١ ص ٢٠٨.

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٦.

(٥) نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٦.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٢٦

السنن التي سنها الرسول و لم يفعلها» (١).

يبد أن علاقته لم تلبث أن تغيرت بعد صعوده في إحدى المرات و هو يلبس الطيلسان، و قد تقدم ذكرها، و قد أذكي نيران الوقعة

بينهما ابن الكركى الذى كان خصما للسيوطى و قد انتهى الأمر بأن امتنع السيوطى عن تهنئة السلطان أو الذهاب إليه و ظل على تمسكه بهذا المبدأ بقيه حياته فأصبح لا يقصد السلاطين و الأمراء و لا يسعى إليهم، لأنه كان يرى أن السنة عدم سعى العلماء إلى السلاطين، و من ثم فقد أصبح السلاطين و الأمراء هم الذين يقصدونه و يسعون إلى زيارته أو يرسلون إليه الرّسل. و هكذا تمتع بمنزلة سامية بين أبناء عصره: حكامهم و محكوميههم، و كان فى القاهرة علما بارزا من أعلامها، و مؤثرا كبيرا فى حياة أبنائها، كما كان معروفا فى سائر بلاد الاسلام.

السيوطى بين أنصاره و خصومه:

و من الطبيعى أن تجر عليه هذه الصلات، و تلك المكانة بعض العداوات التى تفرضها طبيعة الصراع و التنافس بين الناس فى هذه الحياة، لذلك كانت حياته مليئة بالصراع بينه و بين بعض علماء عصره و أمرائه، و قد كانت بداية خصوماته منذ ذلك الوقت الذى وقف يدافع فيه عن ابن الفارض و يهاجم أعداءه، بيد أن الخصوم الذين صمدوا فى وجهه طويلا يناضلونه كانوا غير أولئك الذين هاجمهم و انتصر عليهم من قبل.

و هناك حادثه أخرى يذكر أنها من أوائل الوقائع «٢» التى تعرض فيها لهجوم عنيف من قبل علماء عصره و تلك هى فتواه بتحريم الاشتغال بعلم المنطق و كتبه، و يبدو أن كتابه «صون المنطق و الكلام عن فن المنطق و الكلام»، الذى اعتمد فيه على كتاب ابن تيمية فى الرد على المنطق كان من أول مؤلفاته التى (١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٨٠، حوادث عام ٨٩٩هـ. (٢) الشعرانى: ذيل الطبقات ورقة ٣ ص ٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٢٧

هاجم فيها المنطق الأرسطى، و من أوائل مؤلفاته بصفه عامه، و قد تعرض بسببه لحملة من بعض العلماء كما أشار السخاوى «١»، و على أية حال فقد تمسك السيوطى بأقواله و أبداها فى كل موضع، و جهر برأيه، و لم يأبه بخصومه «٢». ثم إن الرجل بعد أن استحصدت قوته و ارتفعت درجته، و كثرت وظائفه تألب عليه بعض منافسيه و أقرانه من العلماء و طعنوا فى مواهبه و علمه و مؤلفاته، و تحاملوا عليه، و رموه بما ليس فيه، و بالغوا فى تصوير عيوبه، و عين السخط تبدى من المساوى ما لا تبديه عين الرضا، و المعاصرة كما يقول أهل الجرح و التعديل حجاب، فينبغى أن تؤخذ أقوال المتعاصرين بعضهم فى بعض بحذر شديد.

و قد انقسم عصر السيوطى إلى معسكرين: أحدهما يقوده السخاوى (٩٠٣هـ)، و من أنصاره برهان الدين بن الكركى (٩٢٢هـ)، الذى كان إماما للسلطان، و الشمس الجوجرى و القسطلانى، و شمس الدين البانى و تلاميذ هؤلاء الكثيرون و أتباعهم. و المعسكر الآخر يقوده السيوطى و من أنصاره الفخر الديمى، و الشيخ أمين الدين الأقصرانى، و زين الدين قاسم الحنفى، و سراج الدين العبادى، و غيرهم و تلاميذهم الكثيرون.

و لبثت الخصومة بين الفريقين زمنا طويلا، بل إن هذه الخصومة قد استنفدت أعمار هؤلاء جميعا، و الذى نلاحظه فى كتابات الفريقين المتنوعة و المختلفة تأثرها بهذه الخصومة، فلا نلبث أن نجد بين حين و آخر عبارة أو عبارات يقصد بها الخصوم ردا عليهم أو قدحا فيهم.

و قد ألفت السيوطى فى الانتصار لنفسه و مهاجمة خصومه مجموعة من الرسائل فضلا عن هجومه فى كثير من كتاباته الأخرى، و أهم ما ألفه «الكاوى فى الرد على السخاوى»، و «الجواب الذكى عن قمامة ابن الكركى» و «الصارم الهندكى فى عتق ابن الكركى»، و له فى الرد على الجوجرى «الحبل الوثيق فى نصره الصديق»، و قد هاجمهم أيضا فى رسالته «التنفيس فى الاعتذار عن الفتيا (١) الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٦.

(٢) القول المشرق فى تحريم الاشتغال بالمنطق: رسالة ضمن كتاب الحاوى للفتاوى ج ١ ص ٣٩٣-٣٩٧، و الرسالة مخطوطة ضمن

مخطوط بدار الكتب برقم ٢١٦٠٦ ب.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٢٨

و التدريس»، و فى «مسالك الحنفا فى والدى المصطفى»، و فى كثير من المواضع الأخرى.

و قد تعرض السيوطى لهجوم عنيف من قبل خصومه كما تعرض لكيدهم له لدى أولى الأمر و قد ترجم له السخاوى ترجمةً مظلمةً فى كتابه «الضوء اللامع»، و وجه إليه مجموعةً من الاتهامات و الانتقادات كما غمزه فى مواضع كثيرة، و أهم هذه الانتقادات ما يتصل بسرقة المؤلفات فلقد ادعى السخاوى أن السيوطى قد اختلس منه حين كان يتردد إليه كثيرا مما عمله «كالخصال الموجبة للضلال، و الأسماء النبوية، و الصلاة على النبى صلى الله عليه و سلم، و موت الأبناء، و ما لا أحصره، بل أخذ من كتب المكتبة المحمودية و غيرها كثيرا من التصانيف التقدمة التى لا عهد لكثير من العصرين بها فى فنون فغير فيها يسيرا و قدم و أخر و نسبها لنفسه، و هؤل فى مقدماتها بما يتوهم منه الجاهل شيئا مما لا يوفى ببعضه» (١).

كما ذكر السخاوى أن هناك مؤلفات للسيوطى اختلسها من مصنفات ابن حجر و هى «لباب النقول فى أسباب النزول، و عين الاصابة فى معرفة الصحابة، و النكت البديعات على الموضوعات، و المدرج إلى المدرج، و تذكرة المؤتسى بمن حدث و نسى، و تحفة النابه بتلخيص المتشابه، و ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون، و الأساس فى مناقب بنى العباس، و جزء فى أسماء المدلسين، و كشف النقاب عن الألقاب، و نشر العبير فى تخريج أحاديث الشرح الكبير» (٢)، و يعقب على ذلك قائلا: «فكل هذه تصانيف شيخنا، وليته إذ اختلس لم يمسحها، و لو نسخها على وجهها لكان أنفع و فيها مما هو لغيره الكثير» (٣).

تلك أهم الاتهامات التى وجهت إلى السيوطى من قبل أكبر خصومه، و لم يكتف السخاوى بهذه التهمة بل وجه إليه عديدا من الانتقادات القاسية منها أنه كثير المجازفة، و أنه كان يكذب فى بعض الأحيان، و منها أنه كثير الادعاء، يقع (١) الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٦.

(٢) الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٨.

(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ٦٨.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٢٩

فى كثير من التصحيف و التحريف لكونه لم يزاحم الفضلاء فى دروسهم بل استبد بأخذه من بطون الدفاتر و الكتب (١)، كما أنه سريع الكتابة معروف لدى السخاوى بالهوس و مزيد الترفع حتى على أمه، كذلك ترفعه على شيوخه و من أسدى إليه المعروف (٢)، كما هوجم أقسى الهجوم فى دعواه بلوغ درجة الاجتهاد المطلق.

و إذا كان السخاوى قد وجه إليه هذه التهم القاسية و أشباهها فإن أنصار السخاوى لم يفتنوا أيضا بهاجمونه و يكيدون له، فقد كاد له ابن الكركى عند السلطان إبان حادثة الطيلسان التى أشرنا آنفا إليها (٣).

و إن يكن السيوطى قد عانى فى حياته من كيد خصومه الكثيرين له و هجومهم عليه، و انتقادهم له فإنه - فى حقيقة الأمر - كان أقوى منهم عريكة، و أشد بأسا، و لقد كانت قسوة الهجوم عليه كما يتضح فى بعض مواضع ترجمة السخاوى له محاولة للرد على انتقاداته القاسية لخصومه و هجومه عليهم و انتقاصه لهم.

و لئن كان قلم السيوطى سيالا كثير الانتاج فلقد وجهه إلى التعبير عن كل شىء يريد و من هنا فلقد خصص جملة من رسائله لمهاجمة خصومه، كما أن رسائله الأخرى التى لم يخصصها لهذه المعارك لم تخل من تنقصهم و مهاجمتهم فى أحيان كثيرة، و كما ترجم السخاوى للسيوطى فإن الأخير لم ينس أن يترجم له، بيد أن هذه الترجمة كانت موجزة، و يبدو أن السيوطى لم يفصل الهجوم فى ترجمته اعتمادا على كتاباته الكثيرة التى فوّق سهامها إلى أعدائه. و قد ذكر السيوطى عن السخاوى أنه لا يحسن من غير الفن الحديثى شيئا أصلا، و أنه قد أكب على التاريخ - و هو يقصد بالتاريخ تراجم الرجال - «فأفنى فيه عمره، و أغرق فيه عمله، و سلق فيه

أعراض الناس، و ملأه بمساوي الخلق و كل ما رموا به ان صدقا و إن كذبا، و زعم أنه قام في ذلك بواجب، و هو الجرح و التعديل، و هذا (١) نفس المصدر ج ٤ ص ٦٨.

(٢) نفس المصدر ج ٤ ص ٦٩، ٧٠.

(٣) الشعراني: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ١٨-٢٠، ص ٣٦-٤٠.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٣٠

جهل مبين و ضلال و افتراء على الله، بل قام بمحرم كبير، و باء بوزر كثير ...

و أنا نهبت على ذلك لثلا يغتر به أو يعتمد على ما في تاريخه من الإزراء بالناس خصوصا العلماء و لا يلتفت إليه «(١)»، و سنرى بعد قليل أن السيوطي كان على جانب كبير من الصواب فيما اتهم به تراجم السخاوي التي كان صاحبها شديد القسوة في أحكامه على من يترجم لهم، و لم تخل من اتباع الهوى في بعض الأحيان.

و يكتب السيوطي ستة رسائل حول موضوع أبوي الرسول صلى الله عليه و سلم يتعرض في جميعها لمسألة أحب التنبيه إليها و تأكدها، و هي القول بنجاتهما من النار و أنهما من أهل الجنة، و يبدو أن السخاوي قد عارض السيوطي فيما ذهب إليه، أو أنه توقف في هذه المسألة و لم يجب فيها باثبات النجاة أو نفيها كما صرح في آخر ترجمته للسيوطي و قد هاجمه السيوطي هجوما شديدا في بعض رسائله، و أكثر الهجوم في مقامته السندسية حيث يقول: «ليث شعري ما الذي أنكره على و فوق بسببه سهامه إلي، أ ترجيح جانب النجاة، أما لي فيه من سلف صالح؟

أما تقدمني إليه من أئمة كل منهم لو وزن بالجمال فهو عليها راجح؟ فإن اعتذر بعدم الوقوف كان عذره جليا ... إلى أن يقول من نظمه:

شخ السخاوي بالانجاء يذكره عن والدي سيد الأنبا و الأمم

إن عز أن يبلغ البحر الخضم روى يا ليته يستقى من وابل الديم» (٢)

و قد استمر السيوطي في هجومه بأسلوب سيال و حجج قوية كما تعرض في هذه المقامة لمجموعة من المسائل التي كانت مثارا للخلاف بينه و بين خصمه موجهة إليه أقسى الانتقادات معتمدا فيها يورده و يحتج به على الأدلة النقلية و العقلية و قد أشار فيها إلى إنكار السخاوي إمكان رؤية الأنبياء يقظة من قبل الأحياء و قد كان السيوطي أفتى بإمكانها و قد شدد السيوطي عليه النكير و ذهب إلى أن قول السخاوي يجره إلى التكفير، و عندئذ أحجم السخاوي عن إنكاره (١) نظم العقيان في أعيان الأعيان ص ١٥٢، ١٥٣.

(٢) المقامة السندسية في النسبة المصطفوية ص ١٢، ١٣ من ط. حيدرآباد، ص ٩٣ من ط الجوائب.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٣١

و تأول ما قاله «(١)»، و كان السخاوي قد ألف في إنكاره على السيوطي مؤلفا سماه «الإرشاد و الموعدة لزاعم رؤية النبي صلى الله عليه و سلم بعد موته في اليقظة» (٢)، و كان ذلك سببا في أن يؤلف السيوطي رسالة كبيرة في إمكان رؤية النبي و الملك يسميها بتتوير الحلوك و ذلك لأن «طائفة من أهل العصر ممن لا قدم لهم في العلم بالغوا في إنكار ذلك و التعجب منه، و ادعوا أنه مستحيل» (٣).

كما دافع السيوطي عن فتاواه التي أفتى بها و تعرض بسببها لانتقاد بعض خصومه أو مخالفتهم فقد أفتى في رسالته «تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء» (٤)، التي تدور كما يتضح من اسمها حول عدم التعريض بالأنبياء و أحوالهم و تشبيه ما يحدث من الأحياء من نقص ببعض أحوال الأنبياء، أو ذكرهم في مواضع تنقص أقدارهم، و قد أفتى بأن فاعل ذلك يعزر، و قد أورد نقولا عديده و أدلة متنوعة تؤيد فتواه، ثم نجده يهاجم خصومه قائلا: «المماراة في مثل هذا الموضع و التدليس و قصد الانتقام بالضغائن الباطنة لا يضر إلا فاعله، و لا- يصيب المشنع عليه من ضرره شيء» إلى أن يقول: «لأن يكون كل أهل العصر في هذه المسألة خصمائي أحب إلي من أن يخاصمني نبي واحد فضلا عن جميع الأنبياء» (٥).

و يتضح من أقوال السيوطي أن فتاواه كانت تتعرض لنقد من قبل خصومه، و لذلك فهو لا يكل من الدفاع بجميع الأدلة عنها «٦»، و قد رأينا هجومه العنيف من قبل على خصومه حين اعتزم في وقت من الأوقات أن يعتزل الافتاء و التدريس.

و قد هاجم السيوطي جميع أعدائه و خصص رسائل لمهاجمتهم، بيد أن جانباً كبيراً من انتقاده لخصومه كان موضوعياً بمعنى أنه كان نتيجة للاختلاف في (١) المقامة السندسية ص ٩٢، ٩٣.

(٢) الضوء اللامع ج ٨ ص ١٩ ترجمة السخاوي.

(٣) الرسالة بكتاب الحاوي ج ٢ ص ٤٣٧-٤٦٠، و النص ص ٤٣٧.

(٤) الحاوي ج ١ ص ٣٥٩ و ما بعدها.

(٥) المصدر السابق ص ٣٧٤.

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ٣٧٠.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٣٢

الفتاوى أو الاستنباط، فقد هاجم خصمه الجوجري و أنكر عليه ما أفتى به في تفسير قوله تعالى: وَ سَيَجْزِيهَا الْأُنثَىٰ بِأَنَّ الْآيَةَ و إن نزلت في أبي بكر فإنها عامة المعنى إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و قد أفتى الجوجري بذلك نتيجة لما حدث من خلاف بين بعض أمراء المماليك في تفضيل أبي بكر على سائر الصحابة، و قد رد السيوطي على فتوى الجوجري بقوله: «هذا شأن من يلقي نفسه في كل واد، و الرجل فقيه فماله يتكلم في غير فنه؟ و هذه المسألة تفسيرية حديثة أصولية كلامية نحوية، فمن لم يكن متبحراً في هذه العلوم الخمسة لم يحسن التكلم في هذه المسألة» (١)، ثم يفند السيوطي بالأدلة العلمية الثقيلة و العقلية قول الجوجري، و يؤيد ما ذهب إليه من نزول الآية في حق أبي بكر و اعتباره أفضل الصحابة، و يحمل على الجوجري حملة قوية يذكر فيها أنه ليس أهلاً للفتيا في هذا الفن لأنه لا- يتقنه، و لو جاز له أن يفتي فيه لكان ذلك جائزاً لآحاد الطلبة، و للعوام و السوق إذ «لا يعدم أحد منهم أن يكون عارفاً بعدة من المسائل تعلمها من عالم، أو رآها في كتاب، و لا ريب في أنه لا يجوز لأحد منهم أن يفتي» (٢)، و يذكر أن مدار الفتوى على التبحر في العلم «فمن تبحر في فن أفتى به، و ليس له أن يتعدى إلى فن لم يتبحر فيه» (٣)، و يستمر السيوطي في بيان التأهل للفتوى في الفنون المختلفة و يسيل قلمه دافقاً و يصرح من حين إلى آخر باسم خصمه الذي كان ينبغي أن يلاحظ هذه الأقوال و يعرفها قبل أن يقدم على الفتوى (٤).

و قد جر التصدي للإفتاء على السيوطي بعض العداوات بيد أنه- في حقيقة الأمر- لم يكن يأبه بمن يخالفه إذا أثبت له البحث أنه على الحق، و قد خالف في بعض فتاواه أكثر مفتي عصره، و في هذه الأحوال كان يعرض للمسائل عرضاً موضوعياً علمياً يثبت فيه ما يراه حقاً و يدفع ما يراه باطلاً معبراً عن ذلك (١) الحبل الوثيق في نصرة الصديق، رسالة له بكتاب الحاوي ج ١ ص ٥٠٤، النص ص ٥٠٤، ٥٠٥.

(٢) المصدر السابق ص ٥٠٧.

(٣) نفس المصدر ص ٥٠٨.

(٤) نفس المصدر ص ٥٠٨-٥١٥.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٣٣

بقوله: «لا أرى السكوت يسعني في ذلك فإن هذا عهد النبي صلى الله عليه و سلم عند وفاته، فوجب على كل من علمه أن يبينه و لا يراعى فيه صديقا و لا حبيبا و لا بعيدا و لا قريبا» (١)، و هذا تقدير منه لمسئولته التي يوجبها عليه كونه مجتهداً.

كما أن السيوطي كان يتعقب فتاوى خصومه أو تفسيراتهم و يبين ما قد يقعون فيه من خطأ فقد ذكر أن السخاوي صحف في حديث «شفر الحوراء» بمعنى هدب عينها، فجعله «شقر» بالقاف و بين أن ذلك تصحيف للحديث و تبديل لمعناه و أنه في غاية الركاكزة (٢).

كما هاجمه حين صوب قراءة من قرأ في كتاب الشفا عبارة «و يخلصنا بخصيصي زمرة نبينا و جماعته» في قراءة «خصيصي» بتسكين الياء مع أن صحة القراءة أنها كما ذكر السيوطي بألف القصر، و قد اقتنع جماعة من العلماء بصحة قول السيوطي و رجعوا عن تصويبهم للقارئ و منهم الشيخ أمين الدين الاقصرائي، و زين الدين قاسم الحنفي، و الشيخ سراج الدين العبادي و الفخر الديمي، و لم يكن بين هؤلاء و بين السيوطي إلا الصداقة، أما خصمه السخاوي فإنه لم يقنع بذلك، ورد بأنه مستنده في ذلك أن عنده نسخة من الكتاب صحيحة قرئت على شيوخ عدة و فيها صورة السكون مرقومة بالقلم على الياء، و كان من اليسير على السيوطي أن يوجه إليه عبارته القاسية: «كفى بهذا الكلام جهل و من هذا مبلغ علمه فهو غني عن الرد عليه»، ثم يورد بعد ذلك من الأدلة ما يؤيد صحة فتواه اللغوية «٣».

دعوى الاجتهاد:

و إكمالاً لما نحن فيه مما تعرض له السيوطي من خصومه لا مناص من الحديث عما قاله عن نفسه من استكمال أدوات الاجتهاد إذ جعله قوله هدفاً لكثير من الهجمات التي وجهها إليه خصومه منكرين عليه دعواه، و قد عدّ السيوطي نفسه ممن بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق و لذلك وضع ترجمته لنفسه آخر (١) فتواه الخاصة بسد الأبواب الملاصقة للمسجد النبوي، الحاوي ج ٢ ص ٦١ ضمن رسالته: شد الأثواب في سد الأبواب ج ٢ ص ٥٣ و ما بعدها.

(٢) الحاوي للفتاوى ج ٢ ص ١٨٠.

(٣) ألوية النصر في خصيص بالقصر، رسالة له بكتاب الحاوي ج ٢ ص ٤٧٨ - ٤٧٩.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٣٤

الفصل الذي عقده عن الأئمة المجتهدين بمصر في كتابه حسن المحاضرة، و قد صرح ببلوغه رتبة الاجتهاد في قوله بعد أن عدد أنواع العلوم التي تبحر فيها «و قد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً» (١)، و قد تعرض بسبب ذلك لهجوم أعدائه عليه فيذكر السخاوي أنه «قد قام عليه الناس كافة لما ادعى الاجتهاد» (٢)، و قد عبر السيوطي عما تعرض له من الهجوم في مقدمة إحدى رسائله بقوله بعد أن ذكر اشتغاله بالعلم و حبه للبحث عن الدقائق و الأصول: «و قد أوديت على ذلك أذى كثيراً من الجهالين و القاصرين و تلك سنة الله في العلماء السالفين فلم يزالوا مبتلين بأسقاط الخلق و أردالهم و بمن هو من طائفتهم ممن لم يرتق إلى محلهم» (٣)، ثم يذكر بعض من تعرض للأذى من علماء السلف كابن عباس و ما تعرض له من نافع بن الأزرق و سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه و ما تعرض له من أهل الكوفة، و ما قاساه الشافعي من أهل مصر و ما قاساه الغزالي و غيرهم، و ينبه السيوطي بعد ذلك إلى حقيقة هامة في أمثال هذه الخصومات و من يكون فيها على الحق بقوله: «و قد اجتمعوا كلهم عند الله، و ظهر لهم المحق من المبتل، و الأرفع رتبة عند الله من غيره، و ظهر لنا مصداق ذلك في هذه الدار ببقاء كلام هؤلاء الأئمة و انتشاره و ظهوره و اضمحلال من ردّ عليهم و طمس ذلك و دثوره» (٤). و بهذا الرد البليغ يرد على أعدائه معلناً لهم أن الحق هو الذي سيبقى و أن قائله هو الذي ستذكره الأجيال و الناس فيما بعد، و أن له أسوة بعلماء السلف الصالح الذين لم تتضح عظمتهم و أقدارهم في أزمانهم بقدر ما اتضحت لمن بعدهم، و هذه العبارة التي أطلقها السيوطي تأخذ الانسان بالدهشة و التأمل لما فيها من صدق الرجل مع نفسه و إحساسه بعظمته و إن لم يقدره أهل عصره.

و قد كتب السيوطي في بلوغه الاجتهاد مؤلفاً سماه «الرد على من أخلد إلى (١) السيوطي: حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٠.

(٢) الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٩.

(٣) تعريف الفئه بأجوبة الأسئلة المائة، رسالة بكتاب الحاوي ج ٢ ص ٥٠٩.

(٤) الرسالة السابقة النص ص ٥٠٩، ٥١٠.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٣٥

الأرض و جهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض»، افتتحه بما يريد قوله من أن الأمة لا تخلو في عصر من عصورها من مجتهد أو طائفة من المجتهدين و لا تخلو من طائفة تنصر الحق و هي ظاهرة عليه، ثم يهاجم الذين أنكروا قوله بالاجتهاد قائلا: «فإن الناس قد غلب عليهم الجهل و عمهم، و أعماهم حب العناد و أصمهم، فاستعظموا دعوى الاجتهاد، و عدوه منكرا بين العباد، و لم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات في كل عصر و واجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة في كل قطر» (١).

و قد قسم كتابه إلى أربعة أبواب جعل أولها لا يراد نصوص العلماء على أن الاجتهاد في كل عصر فرض من فروض الكفايات و أنه لا يجوز شرعا خلو العصر منه (٢)، و في الباب الثاني يحاول بالنقول المختلفة تأكيد الفكرة القائلة بأن أي عصر لا يمكن أن يخلو من مجتهد و هنا يرى أن عصرا من العصور قد يجتمع فيه طائفة كبيرة ممن بلغ رتبة الاجتهاد، و يجوز ألا يبقى في الأمة إلا مجتهد واحد (٣)، و يفرق السيوطي بين المجتهد المطلق و بين المجتهد المستقل و المجتهد المقيد، فالمستقل «هو الذي استقل بقواعده لنفسه يبنى عليها الفقه خارجا عن قواعد المذهب المقررة، و هذا شيء فقد من دهر بل لو أراد الانسان اليوم لامتنع عليه و لم يجز له» (٤)، و أما المجتهد المطلق غير المستقل، «فهو الذي وجدت فيه شروط الاجتهاد التي اتصف بها المجتهد المستقل ثم لم يتكر لنفسه قواعد بل سلك طريقة إمام من أئمة المذهب في الاجتهاد، فهذا مطلق منتسب لا مستقل و لا مقيد» (٥).

و قد وضح الشعراني هذه التفرقة في الحديث عن السيوطي فذكر أن الناس قد هاجموا لأنه ادعى الاجتهاد المطلق كأحد الأئمة الأربعة و أن السيوطي كان (١) الرد على من أخذ إلى الأرض و جهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ص ٢.

(٢) المصدر السابق ص ٣-٢٥.

(٣) نفس المصدر ص ٢٦-٢٨.

(٤) نفس المصدر ص ٣٩.

(٥) نفس المصدر ص ٣٩.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٣٦

قول إنه لم يدع الاجتهاد المطلق و إنما ادعى الاجتهاد المنتسب و أن كثيرا من أتباع المذاهب بلغوا درجة الاجتهاد المطلق و مع ذلك لم يخرجوا عن مذاهبهم، و ذكر السيوطي أن في أصحاب الشافعي على مر الزمن منهم المزني و ابن سريج و القفال و ابن خزيمة و ابن الصباغ و إمام الحرمين و ابن عبد السلام و تلميذه ابن دقيق العيد و التقى السبكي و ولده عبد الوهاب كذلك في أصحاب مالك ابن وهب و أضرابه، و في أصحاب أبي حنيفة أبو يوسف و محمد، و قد بلغ هؤلاء مرتبة الاجتهاد المطلق و مع ذلك فلم يخرجوا عن تبعيتهم لأئمتهم (١).

و قد ختم السيوطي كتابه بما يؤكد فكرته السابقة و مجمل ما يريد قوله أنه قد بلغ درجة الاجتهاد المطلق و مع ذلك فهو لم يخرج عن مذهب الشافعي و أنه بذلك يسمى مجتهدا مطلقا منتسبا، و قد كرر السيوطي في مواضع متفرقة من فتاواه و كتاباته هذه الفكرة نظرا لما تعرض له من هجوم و لما اتهم به في زحمة الصراع بينه و بين خصومه، فكانه أراد أن يؤكد تبرئه نفسه مما ادعوه عليه و لكن مع التمسك بالحديث عما أنعم الله به عليه من عقل و علم و ما بلغه من درجة.

و يفتي السيوطي عام ٨٩٨ هـ إحدى الفتاوى و يرى أن أحدا من أهل عصره لا يمكنه أن يتصدى لما يضطلع به، فيرفع عقيرته قائلا: «جولوا في الناس جولة فإنه ثم من ينفخ أشداقه و يدعى مناظرتي و ينكر على دعوى الاجتهاد و التفرد بالعلم على رأس هذه المائة، و يزعم أنه يعارضني، و يستجيش عليّ من لو اجتمع هو و هم في صعيد واحد و نفخت عليهم نفخة صاروا هباء منثورا» (٢).

و مهما يكن من أمر الخصومة بين السيوطي و أنصاره و بين السخاوي و أنصاره فإن المعاصرة كما سبق القول حجاب بين المتعاصرين، كما أن الاتهامات التي تبادلها الفريقان لم تخل من مبالغات كثيرة يمكن بسهولة أن نتعرف عليها، هذا فضلا عن أن

كثيرا مما وجه إلى السيوطى أثبت الأيام بطلانه و لعله قد استلهم ذلك حين ذكر أن له بعلماء السلف الصالح الذين تعرضوا للأذى فى أزمانهم (١) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى الورقة الأولى و الثانية ص ٢-٤.
(٢) الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف: رسالة له ضمن كتاب الحاوى ج ٢ ص ١٦٧.
جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٣٧
و ظهرت حجتهم من بعد أسوء حسنة (١).

و انتصر للسيوطى من بعده الشوكانى فى ترجمته له و فند جميع ما وجه إليه السخاوى ورد عليه ردا بليغا، و تعقب اتهاماته بالدفاع القوى، و من بين ما ذكره دفاعا عن الاتهام باختلاس الكتب أن ذلك «ما زال دأب المصنفين، يأتى الآخر فيأخذ من كتب من قبله فيختصر أو يوضح أو يعترض أو نحو ذلك من الأغراض - التى هى الباعثة على التصنيف، و من ذاك الذى يعمد إلى فن قد صنف فيه من قبله فلا- يأخذ من كلامه؟» (٢)، فليس السيوطى بدعا من المؤلفين، و إذا كان ذلك شأن عصره و منهجه فلا يصح أن نوجه التهمة إليه وحده، و قد بين الشوكانى أن السخاوى «و إن كان إماما غير مدفوع لكنه كثير التحامل على أكابر أقرانه كما يعرف ذلك من طالع كتابه الضوء اللامع فانه لا يقيم لهم وزنا بل لا يسلم غالبهم من الحط منه عليه، و إنما يعظم شيوخه و تلامذته و من لم يعرفه ممن مات فى أول القرن التاسع قبل مولده، أو من كان من غير مصره أو من يرجو خيره أو يخاف شره» (٣)، و هذه الأوصاف التى تقدح فى الكتاب كفيلا أن تجعلنا على حذر مما يورده السخاوى من تراجم، و مهما أحسنا ظننا به بعد ذلك فسنأخذ تراجم أقرانه بالحذر، و قد انتهى الشوكانى إلى أن ما بلغه السيوطى من المكانة العلمية و ما ادعاه من الاجتهاد كان سببا فى هذه الخصومات، و بين أنه بذلك قد تعرض لما تعرض له أئمة العلماء ممن بلغوا المرتبة العالية، فما زال «ذا دأب الناس مع من بلغ إلى تلك الرتبة، و لكن قد عرفناك فى ترجمة ابن تيمية أنها جرت عادة الله سبحانه كما يدل عليه الاستقراء برفع شأن من عودى بسبب علمه و تصريحه بالحق، و انتشار محاسنه بعد موته، و ارتفاع ذكره، و انتفاع الناس بعلمه، و هكذا كان أمر صاحب الترجمة فإن مؤلفاته انتشرت فى الأقطار، و سارت بها الركبان إلى الأنجاد و الأغوار، و رفع الله له من الذكر الحسن و الثناء الجميل ما لم يكن لأحد من معاصريه، و العاقبة (١) تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة، الحاوى ج ١ ص ٥٠٩، ٥١٠.

(٢) الشوكانى: البدر الطالع ج ١ ص ٣٣٣.

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٣، ٣٣٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٣٨
للمتقين» (١).

خلقه و شخصيته:

نريد بالخلق ما هو أعم من المعنى الذى نستعمل فيه هذه اللفظة اليوم، فنتناول فيه سلوكه مع أهله و مع الناس من حوله و صلته بمن يشتركون معه فى فنون المعرفة التى يجيدها و نستطيع من ثم أن نستوضح معالم شخصيته الاجتماعية و العلمية.
و لا شك أن خلق الفرد تشكله عوامل كثيرة من ورائه عن أسرته التى عاش بينها و اكتسب منها بعض الصفات أو الاتجاهات التى تحدد مسلكه فى الحياة ثم من المجتمع بمعناه العام الذى ترتبط حياته به، و به تتحقق مصالحه، ثم من تدينه و طريقته فى ممارسة الدين تسمح أو تشدد و تحرجا، و هذه الأشياء تكشف لنا عن أهم جوانب شخصيته (٢).
و نرى أن فيما قدمنا من الحديث عن جوانب حياته المختلفة ما يمكننا من استيضاح معالم شخصيته و يعرفنا بخلقه فضلا عن عديد من الروايات و النقول التى لم نوردنا من قبل اكتفاء بغيرها عنها أو ادخارا لها لمواضع آخر، أو تخففا من الاطالة.
و أول هذه الصفات التى نستشفها مما خلف السيوطى من آثاره هى الصراحة فى الحديث عن نفسه، تلك الصفة التى تدل على صفاء

نفسى و روحى، و من هنا فقد كان يتحدث فى رسائله عن نفسه بقلب مفتوح و وضوح بالغ، و من لا يعرف هذه الصفة عنه يخيل إليه أن الرجل صاحب دعاوى عريضة أو يصف نفسه بما ليس فيها من صفات حسنة، و الحقيقة أن السيوطى حين الحديث عن نفسه كان يعلله دائما بأنه تحدث بما أنعم الله به عليه لا فخرا و هنا يتضح لمنصفه صفة التواضع عنده بينما ينظر أعداؤه إلى ذلك على أنه ادعاء و تعال و زهو ممقوت، فبعد أن يعدد ما أتقنه من العوم و ما استكمله من آلات الاجتهاد (١) نفس المصدر ج ١ ص ٣٣٩.

(٢) د. سيد خليل: الليث بن سعد ص ٨٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٣٩

يقول: «أقول ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى لا فخرا، و أى شىء فى الدنيا حتى يطلب تحصيلها فى الفخر، و قد أرف الرحيل و بدا الشيب و ذهب أطيب العمر» (١).

و بالرغم مما يشيع فى عبارته من تواضع فإن الرجل كان يتصف بالشجاعة و الاعتداد بالنفس و الثقة فيها، و قد كانت هذه الصفات لديه وليدة شعوره العميق بأنه عالم مسلم استكمل أدوات الاجتهاد و حباه الله عقلا حسيفا فاستشعر المسئولية الجسيمة الملقاة على عاتقه بما هو عليه تجاه الله و تجاه المجتمع و تجاه ضميره، و من هذا الشعور العميق بهذه المسئولية يمكننا أن نفسر كثيرا من تصرفات السيوطى و كتاباته، فقد كانت الأمانة الملقاة على عاتقه أكبر مما يتحملة غيره، و كان ينظر فيمن قبله من كبار علماء السلف الذين تألفت نجومهم فى سماء التاريخ الاسلامى، و يجعل منهم قدوة صالحة فى السراء، و أسوة حسنة فى الضراء، و هناك كثير من الحوادث و الأدلة التى نستطيع أن ندلل بها على ما قلناه عن خلقه و شخصيته و لكننا نستدرك قبل ذلك بأن نذكر أن الرجل كانت به حدة و سرعة غضب لما يصيبه، و لكن هذا الغضب كان يستفرغ منه فى رسالة تكتب، أو انقطاع عن الناس، و هجرهم ريثما تهدأ نفسه و يعاود الحياة بنشاطه المؤلف، و كثيرا ما كلفته غضباته رسائل يدفع فيها عن نفسه و يهاجم خصومه.

على أن الأسلوب العنيف الذى لاحظناه فى رسائله الأولى التى هاجم بها خصومه أخذ يميل إلى الهدوء و الاتزان فى السنوات الأخيرة من عمره، بل لعله أصبح يعرض عن كثير من أذى الخصوم و يصبر على ما يقابله من أعدائه فقد نقل عنه بعض من اتصل به أنه امتحن المحن الكثيرة، و ما سمع يوما يدعو على من آذاه من الحسدة، و لا يقابله بسوء، و إنما يقول: حسبنا الله و نعم الوكيل، و صنف فى ذلك كتابا سماه «تأخير الظلامه إلى يوم القيامة» (٢).

و الحقيقة أن هذه الرسالة تعبر عن الاتجاه المتزن الصابر الذى طبعت به حياة السيوطى أواخر أيامه، و بالرغم من أن الرسالة فى جملتها مجموعة من النقول عن (١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٠.

(٢) الشعرانى: ذيل الطبقات ورقة ٢٢ ص ٤٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٤٠

الرسول صلى الله عليه و سلم و عن الصحابة و التابعين تدور حول تأخير ظلاماتهم إلى يوم القيامة لايمانهم بأن عذاب الله أشد و أبقى، و إثارة المظلومين منهم ألا يقتصوا لأنفسهم فى الدنيا مع تمكنهم من ذلك تأخيرا لظلاماتهم لتعرض أمام الله تعالى، بالرغم من ذلك فإن قراءتها تشيع فى نفس القارئ أن صاحبها كان يتعرض وقتها لمظالم يصبر عليها، و يعزى نفسه بالتأسى بالسلف الصالح، و هى تبين لنا جانبا هاما من خلق السيوطى فى سنواته الأخيرة، و تلقى الضوء على معالم شخصيته (١).

و من الحوادث التى تدل على ما قدمنا حادثة الطيلسان التى امتنع بعدها عن الذهاب إلى السلطان مع العلماء، و قد تمسك بموقفه برغم محاولة بعض الوسطاء الملاينة بينه و بين السلطان فكان رده: «إنى متمسك بقوله صلى الله عليه و سلم: لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله لا يضرهم من خذلهم» (٢).

و إحساسه بالمسئولية الملقاة عليه تجاه الناس يتمثل فى قوله: «ما أجبت قط عن مسألة جوابا، إلا و أعددت جوابها بين يدي الله تعالى إن سئلت عنها» (٣).

و قد سبق أن أشرنا إلى موقفه الشجاع الذى وقفه تجاه خصمه العنيد طومان باى الذى حاول الكيد له، ثم حاول قتله، كما قدمنا ما قاله من أن له أسوة حسنة بمن تعرض للأذى من كبار علماء السلف الصالح.

و إتماما للحديث عن خلقه و شخصيته فإننا نعرض لما يتصل بهذا الموضوع بأوشج الصلوات بل لما هو جزء منه و هو الحديث عن تدينه.

و قد قلت ان شخصية السيوطى شخصية العالم المسلم الذى يستشعر المسئولية نحو المجتمع و الذى يراعى فى خلقه و سلوكه السير على هدى من السنة التى أفنى حياته فى جمعها و درسها و تعليمها.

أما عن ورعه و تقواه فهناك روايات كثيرة تصل بالرجل إلى مصاف كبار (١) تأخير الظلامه إلى يوم القيامة، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٧٢٩ ب.

(٢) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ٢٠ ص ٤٠.

(٣) المصدر السابق ورقة ١٢ ص ٢٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٤١

الأولياء و أصحاب المناقب العالیه، و لست هنا بصدد مناقشه هذه النقول، و لكن مهما كان أمر صحتها أو كذبها أو المبالغة فيها فإنها تدل على ما عرف به الرجل فى عصره من ورع و تقوى. و هناك نقول و روايات لا تصل إلى حد الخوارق شأن الروايات الأولى، تؤيد ما قلناه من تقواه و زهده، و نحن نرى هذه الأوصاف منطبقة تماما على السيوطى لا سيما فى السنوات العشر الأخيرة من عمره بعد أن اتجه إلى الزهد و التجرد ثم انقطع بعد ذلك تماما فى بيته و اعتكف و كان لا يقبل هدايا الأمراء و السلاطين و يتعفف عنها قانعا بما قسم له من رزق قليل، ثم عزوفه عن الوظائف و مظاهر الدنيا و اغلاقه نوافذ بيته و اتجاهه إلى الله.

و قد أجمل الشعرانى صفات شيخه بقوله: أنه كان «مجبولا على الخصال الحميدة من صفاء الباطن و سلامة السريره، و حسن الاعتقاد، زاهدا ورعا مجتهدا فى العلم و العمل، لا يتردد إلى أحد من الأمراء و الملوك و لا إلى غيرهم مدة حياته رضى الله عنه و كان يظهر كل ما أنعم الله به عليه من العلوم و الأخلاق» (١).

كان هذا السلوك سلوكك التصوف العملى الحقيقى الذى لا نستطيع إنكاره، و لا نقول إنه كان يقصد به دنيا يصيها، بل كان عملا مخلصا يبتغى به وجه خالقه، و من كان هذا مسلكه فأحر به أن يكون خليقا بالاضطلاع بالمسئولية الجسيمة التى تحملها بوصفه عالما مجتهدا يعرف للكلمة حقها و يؤديها على وجهها لا يخاف لومة لائم لأنه لا ينتظر ثوبا و لا يخشى عقابا إلا من قبل الله تعالى.

و قد كان السيوطى يحاول جاهدا أن يؤدى ما عليه من واجب علمى تجاه مجتمعه، فهو ينقطع للتأليف فى خلوته و لا يكل من كتابة الأجوبة على المسائل العديدة التى ترد إليه ثم هو يعرف قيمة الفتوى بحيث لو جىء إليه على حد تعبيره بفتوى و هو مشرف على الغرق لأخذها ليكتب عليها، و قد قال ذلك بعد أن عاود الافتاء بعد ترك عزلته القصيره التى سبقت الإشارة إليها. (١) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ٣ ص ٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٤٢

و إذا كانت البيئه المصريه قد تميزت عن غيرها من البيئات بالسهوله و الاستقامه و الانبساط و الوضوح، و تلك مميزات الشخصية المصريه من جميع نواحيها، فقد انطبعت هذه الصفات و ظهرت فى شخصية السيوطى و هى تبدو واضحة إذا ما قورن بغيره من أقرانه الذين أنجبتهم بيئات أخرى.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٤٣

إشارة

تعد ثقافة السيوطي أفضل مثال للثقافة في عصره، كذلك تمثل عقليته العقلية الإسلامية بما تمثلته من معارف متنوعة في القرن التاسع الهجري:

الخامس عشر الميلادي و يمكن اعتبار كتاباته الموسوعية في موضوعاتها و دائرة اتساعها مجسم العلوم الإسلامية في القرن الخامس عشر.

و تتميز حياة الرجل العلمية بنشاط غير عادي فقلمه السيال لم يعرف الملل، و لم يترك قط موضوعا في حقل المعرفة إلا تناوله، فمن علوم قرآنية و حديثية و فقهية إلى علوم لغوية و نحوية إلى علوم في التصوف و التاريخ و الفلسفة إلى غير ذلك من مختلف العلوم التي عرفت في عصره، و تشهد آثاره التي يصعب إحصاؤها لكثرتها و تنوعها بتنوع معارفه و شمول عقليته و اتساع أفقه و مشاركته في كل علم فضلا عن تبحره في جانب كبير من العلوم، و صدق ما وصف به من وجهة نظر أجنبية بأنه من أعظم كتاب الشرق قاطبة «١»، و بأن نشاطه العلمي الذي ابتدأه في سن السابعة عشرة كان يتميز بحركة غير عادية «٢»، و قد عبر السيوطي عن مبلغ ثقافته بقوله: «و رزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير و الحديث و الفقه و النحو و المعاني و البيان و البديع على طريقة العرب و البلغاء لا على طريقة العجم و أهل الفلسفة، و الذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه و النقول التي اطلعت عليها فيها لم يصل إليه و لا-وقف عليه أحد من أشياخي فضلا عن هو دونهم، و أما الفقه فلا أقول ذلك فيه بل شيخي فيه أوسع نظرا و أطول باعا، و دون هذه السبعة في المعرفة: أصول الفقه و الجدل و التصريف، و دونها الإنشاء و الترسل و الفرائض و دونها القراءات و لم (١). ٢١.

VacinatirBaideap olcycnEehT

ityuyuS »malsIfOaideapolc ycnEehT (٢).

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٤٤

آخذها عن شيخ، و دونها الطب، و أما علم الحساب فهو أعسر شيء على و أبعد عن ذهني ... و قد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى، أقول ذلك تحدثا بنعمة الله لا فخرا، و أي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها في الفخر و قد أزف الرحيل و بدا الشيب و ذهب أطيب العمر؟، و لو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفا بأقوالها و أدلتها النقلية و القياسية و مداركها و نقوضها و أجوبتها و الموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله لا بحولي و لا بقوتي فلا حول و لا قوة إلا بالله «١».

و قد ألف السيوطي في جميع العلوم التي عددها مؤلفات تشهد بعلو قدره فيها، بيد أن هناك قلة من هذه العلوم المتنوعة استحوذت على الجانب الأكبر من اهتمامه، و كان لها أثر كبير في طبع عقليته بطابع معين، و في توجيه منهجه، و سنتناول اشتغال السيوطي بهذه العلوم بعد قليل.

و يتصل بما نحن فيه من شمول عقليته و اتساعها و تنوع مداركها ما قاله عن نفسه من بلوغ رتبة الاجتهاد، و قد سبق أن رأينا أن هذا القول قد جر عليه عداوات كثيرة و عرضه لكثير من النقد الذي وجه إليه من قبل خصومه، و الحقيقة أن السيوطي لم يكن مدعيا فيما نسبته إلى نفسه، فمصنفاته في الفقه تشهد بذلك، كما أنه لم يقصد الاجتهاد المستقل كالأئمة الأربعة و إنما قصد الاجتهاد المنتسب، و كان في فتواه يفتي بمذهب الشافعي و لا يذكر ما يمليه عليه اجتهاده خارج المذهب، و قد بين أنه ليس من شرط الاجتهاد في الفقه أن يكون صاحبه قد بلغ رتبة الاجتهاد في الحديث و الاجتهاد في العربية «٢»، و إنما يكتفى فيها بمرتبة أقل من ذلك، على أن السيوطي قد نص على بلوغه درجة الاجتهاد في الفقه و الحديث و العربية و أن بلوغ رتبة الاجتهاد في الفقه قد وجدت عند كثير من العلماء، أما الجامعون للثلاثة فقليل، و من قبله كان تقى الدين السبكي جامعا للثلاثة و لم يكن هناك بعد السبكي من اجتمعت له غيره «٣». (١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٠.

(۲) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۷ ص ۱۳.

(۳) المصدر السابق ورقة ۶، ۷ ص ۱۲، ۱۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۴۵

على أن إحساس السيوطى بتنوع معارفه و بلوغه درجة الاجتهاد فى بعض العلوم، و إحساسه أن ذلك لم يحدث لأحد من أبناء زمانه فمنهم من بلغ درجة كبيرة فى الفقه أو فى العربية أو فى علم من العلوم، و لكن اجتماع هذه العلوم على سبيل التبحر لدى أحدهم غير كائن، هذا الاحساس قد جعله يستشعر فى قرارة نفسه أنه المبعوث على رأس المائة التاسعة و وجد الرجل نفسه و قد جاوز الخمسين من عمره و حصل من العلوم جملة كبيرة، و بلغ ما لم يبلغه أحد، و رأى أنه قد جاوز أقرانه و بدّهم جميعا، و هنا وقف يعلن أنه المبعوث على رأس المائة التاسعة.

فكرة المبعوثية:

و يبدو أن الرجل كان يعرف أن هذه الفكرة قد تقابل ببعض الأفكار، و لذلك أكدها فى كثير من كتاباته فهو يبدأ كتابه «الدر النثر الذى لخص فيه نهاية ابن الأثير» قائلا: «الحمد لله الذى بعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها و أقام فى كل عصر من يحوط هذه الملة بتشيد أركانها و تأييد سننها و تثبيتها» (۱).

و كان عليه أن يثبت صحة هذه الفكرة عن طريق السنة و أن يقنع الناس بذلك، ثم عليه بعد ذلك أن يقنعهم بأنه المبعوث على رأس المائة التاسعة.

و بداية هذه الفكرة فى كتاباته نلاحظها فى ترجمته لسراج الدين البلقينى (المتوفى ۸۰۵هـ) والد علم الدين، إذ نقل أن السراج البلقينى مجدد المائة الثامنة، ثم ذكر أن كثيرا من المبعوثين على رؤوس القرون مصريون: عمر بن عبد العزيز فى الأولى، و الشافعى فى الثانية .. و ابن دقيق العيد فى السابعة، و البلقينى فى الثامنة، ثم أتبع ذلك بقوله «و عسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر» (۲)، و هنا نلاحظ أنه كان يمهد لفكرته، و يرجو أن يكون هو المبعوث على رأس قرنه، و نلاحظ أنه وضع ترجمته بعد ترجمته البلقينى مباشرة (۱) الدر النثر فى تلخيص نهاية ابن الأثير: المقدمة.

(۲) حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۸۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۴۶

و كأنه بذلك يضع مجدد المائة التاسعة عقب مجدد المائة الثامنة، و لم يفصل بينه و بين البلقينى السابق بأحد من علماء قرنه، و ذلك فى الفصل الذى خصصه لتراجم الأئمة المجتهدين.

ثم ينادى بعد حين بصوت قوى بأنه المتفرد بالعلم و الاجتهاد على رأس قرنه فيكتب فى عام ۸۹۸هـ معلنا ذلك فى قوله: «فإن تم من ينفخ أشداقه و يدعى مناظرتى، و ينكر على دعوى الاجتهاد، و التفرد بالعلم على رأس هذه المائة، و يزعم أنه يعارضنى و يستجيش على بمن لو اجتمع هو و هم فى صعيد واحد و نفخت عليهم نفخة صاروا هباء منثورا» (۱).

و حين ينقضى القرن و ينظر السيوطى فى نفسه و فيمن حوله و يرى ما بلغه من علم فإنه يصرح بعد ذلك بأنه المبعوث على رأس هذه المائة، و لكنه يمزج قوله بالرجاء و الضراعة إلى الله، و قد كتب السيوطى رسالة فيمن «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة» ترجى فيها أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة لانفرادها عليها بالتبحر فى العلوم، ثم نظم فى هذا الموضوع منظومة تسمى «تحفة المجتهدين فى أسماء المجددين» (۲)، و قدم لها بمقدمة نثرية صغيرة، و وضح الفكرة فى قوله: «فقد ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:

إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها، و معنى التجديد إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب و

السنة و العمل بمقتضاها على رأس كل مائة سنة أولها من الهجرة النبوية، و هى ما يؤرخ بها فى مدة المائة، و أن يكون المبعوث على رأس المائة رجلا معروفا مشهورا مشارا إليه و أن تنقضى المائة و هو مشهور حتى يشار إليه ... و لا يكون المجدد إلا عالما بالعلوم الدينية ظاهرا و باطنا، ناصرا للسنة قامعا للبدعة» (٣)، ثم نظم منظومة فى ثمانية و عشرين بيتا وضح فيها هذه الفكرة، و ذكر أسماء المجددين السابقين و شروط من يكون مجددا، و بين أن بعض المثين قد اختلف فى المجدد فيها أ هو واحد أم (١) الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف، رسالة بكتاب الحاوى ج ٢ ص ١٦٧.

(٢) مخطوط بدار الكتب فى ورقة واحدة أى فى صفحتين، فى مجلد مستقل برقم ٢٦٠ ح.

(٣) المصدر السابق ص ١.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٤٧

أكثر؟، و من الذين لم يختلف فيهم عمر بن عبد العزيز فى المائة الأولى و الشافعى فى الثانية، و الغزالي فى الخامسة، و ابن دقيق العيد فى السابعة، ثم ذكر أن البلقينى يعد مجدد المائة الثامنة و فى أخريات المنظومة يترجى السيوطى أن يكون مجدد المائة التاسعة فيقول: و هذه تاسعة المثين قد أنت، و لا يخلف ما البارى وعد

و قد رجوت أنى المجدد فيها، ففضل الله ليس يجحد» (١)

و أيا ما كان أمر الحديث عن فكرة التجديد و البعث على رءوس المثين، فإن لها دلالة تهمنا فى الحديث عن منهجه فى التفكير، و تشير إشارة صريحة إلى ما أحس به الرجل بين أبناء زمانه من تفرد العلم و تبحره فى أكثر من علم على وجه لم يتيسر لمعاصريه الذين اشتهر كل منهم بإجادة فن واحد، و هذه الدعوى عن التبحر فى بعض العلوم صحيحة إلى حد كبير يثبتها ما خلف السيوطى لنا من آثار فى سائر فروع المعرفة فى عصره، و هذه الآثار تشهد بعلو كعبه فى الفنون المختلفة التى طرقها.

و لكى نصف منهج السيوطى وصفا دقيقا نبتين منه كيفية تناوله للأشياء، و نظرتة فى العلوم لا بد لنا أن نتعرف على مكونات عقلية و منابع ثقافته المختلفة.

و قد سبق لنا أن تحدثنا عن شيوخه الذين تلقى عنهم، و لاحظنا أنهم من كبار علماء عصره، كما رأينا رحلاته و تنقلاته إلى أكسيته زيادة فى الثقافة و المعرفة فضلا عن قيامه بالحج و المجاورة بمكة لمدة عام، و ها نحن أولاء قد رأينا و قد أحاط بجملته كبيرة من العلوم تبحر فى بعضها و أجاد بعضها، و شارك فى بعض، فأى هذه العلوم كانت ذات أثر أكبر فى تفكيره و طبع عقلية؟، و أى هذه العلوم نستطيع من خلالها التعرف على صفات هذه العقلية و تحديد منهج صاحبها فى التفكير؟.

إن الإجابة على هذا السؤال ليست باليسيرة، فقد ذكر الرجل عن نفسه أنه (١) نفس المصدر ص ٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٤٨

تبحر فى سبعة علوم هى: التفسير و الحديث و الفقه و النحو و المعانى و البيان و البديع، و نقل عنه أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق فى ثلاثة علوم هى الفقه و الحديث و العربية (١)، ثم إننا نجد أن عنايته بالتفسير متصله أشد الاتصال بعنايته بالحديث فأهم مؤلفاته فى التفسير كتاب «الدّر المنثور فى التفسير بالمأثور» الذى جمع فيه جميع الروايات المأثورة عن الرسول صلى الله عليه و سلم و عن الصحابة و التابعين فى تفسير القرآن و لا شك أن هذه الروايات التى تفسر القرآن تدخل من جانب آخر فى مباحث علماء الحديث، كما يشهد لما نقوله أيضا كتابه «لباب النقول فى أسباب النزول» الذى تشيع فيه ثقافة الرجل الحديثية النقليه يخدم بها علوم القرآن.

و من ناحية أخرى نجد عنايه الرجل بالتصوف، و التصوف علم و عمل، و التصوف يطبع عقلية صاحبه بطابع معين و يترك أثرا فى منهجه فى تناول العلوم، و لذلك أرى أن عقلية السيوطى و منهجه فى التفكير لا- بد أن ينظر إليه من خلال أمور ثلاثة هى: علم الحديث الذى اهتم به أبلغ اهتمام و ود أن يصل فيه إلى مرتبة الحافظ ابن حجر، و الثانى: التصوف الذى أقبل عليه، و دافع عن رجاله و سلك طريقه، و الثالث الفقه الذى بلغ فيه درجة الاجتهاد و تصدى فيه للافتاء منذ وقت مبكر، و من ثم فإننا نستطيع بعد ذلك أن

ندرس بقية جوانبه، و أهم الجوانب عنده بعد الحديث دراساته اللغوية التى أجزى بالتدريس فيها منذ بلوغه السابعة عشرة، ثم بلغ فيها بعد درجة الاجتهاد المطلق، و دراساته الفقهية التى بلغ فيها مرتبة الاجتهاد المطلق. (١) الشعرانى: ذيل الطبقات ورقة ٦ ص ١٢. جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٤٩

السيوطى و علوم الحديث

اشتغل السيوطى منذ أيامه الأولى بتدريس الحديث بالخانقاه الشيخونية، و امتزج بعلوم الحديث امتزاجا كبيرا، فهو يشرب من زمزم تطلعا لأن يصل إلى مرتبة الحافظ ابن حجر، ثم يحمل على المنطق و الفلسفة و يذكر أن الله قد عوضه عنهما بعلم الحديث الذى هو أشرف العلوم، كما يذكر بعد أن استحصدت قوته أن مجدد القرن لا بد أن يكون مقيما للسنة ناصرا لها و لن يتسنى لمن لا يكون عالما بالسنة إقامتها، ثم نراه يهتم بمسألة أبوى النبى صلى الله عليه و سلم فيكتب فيها ستة رسائل دفاعا عنهما، و هكذا نلاحظ أن ميوله منذ وقت مبكر كانت تتجه نحو علوم الحديث، و كانت هذه العلوم تحظى من وقته بالنصيب الأوفر.

و تطلعا مقدمة كتابه «اللئالى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة» على طول اشتغاله بعلوم الحديث فقد ابتدأ تأليف هذا الكتاب كما ذكر فى عام ٨٧٠هـ، أى حين كان فى الحادية و العشرين من عمره، و أتمه بعد خمسة أعوام، ثم عاود تأليفه مرة ثانية مع بعض الاضافات عام ٩٠٥هـ، أى قبل وفاته بستة أعوام فقط «١»، كما أخذ السيوطى يملئ الحديث منذ عام ٨٧٣هـ بالجامع الطولونى؛ و ظل مداوما على هذا الدرس العام إلى أن اعتكف فى بيته عام ٩٠٦هـ، و كان يذكر عن نفسه أنه أحيا سنة الاملاء بعد دروسها إذ انقطع الاملاء بالديار المصرية بعد وفاة الحافظ ابن حجر (عام ٨٥٢هـ) عشرين سنة.

و قد بلغ درجة الاجتهاد فى الحديث، و قد قال المحدثون: إن أقل مراتب الحافظ أن يكون الرجال الذين يعرفهم و يعرف تراجمهم و أحوالهم و بلدانهم أكثر من الذين لا يعرفهم، و كان بعض المحدثين لا يعدّ من أصحاب الحديث من لم يكتب عشرين ألف حديث، و كان الحافظ ابن حجر يقول: الشروط التى (١) اللئالى المصنوعة ج ١ ص ٢، ٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٥٠

اجتمعت فى الآن اسم الحافظ و هى الشهرة بالطلب و الأخذ من أقوال الرجال و المعرفة بالجرح و التعديل، و المعرفة بطبقات الرواة و مراتبهم و تمييز الصحيح من السقيم حتى يكون ما يستحضره من ذلك أكثر مما لا يستحضره مع استحضار الكثير من المتون، فمن جمع هذه الشروط استحق اسم الحافظ، و قد ذكر السيوطى أن ابن حجر كان يحفظ مائتى ألف حديث أو ما يزيد، و أن الحافظ الديرى كان يحفظ عشرين ألف حديث و ذكر عن نفسه أنه يحفظ مائتى ألف حديث، و أنه لو وجد أكثر من ذلك لحفظ و قال: لعله لا يوجد على وجه الأرض الآن أكثر من ذلك «١».

و قائمة الآثار التى تركها و ذكر الجانب الأكبر منها فى ترجمته لنفسه تشهد للرجل بأن اهتمامه الأول كان بعلوم الحديث، و لست أحب أن أسرد ما ألفه فى الحديث تجنباً للتكرار حيث سنعرض لذلك عند الحديث عن آثاره «٢».

على أن نظرنا فى الفتاوى الحديثية التى جمعت فى كتابه «الحاوى» تطلعا على قدراته الخارقة فى علم الحديث و حفظه الجم، و معرفته التى لا تقتصر على نقل آراء الحفاظ السابقين و إنما تتناول الإسناد و رواه بالنقد، و تبين رتب الأحاديث المختلفة و كونها صحيحة أو حسنة أو ضعيفة أو موضوعة، و له قدرة عجيبة على إيراد الطرق المختلفة من شتى الكتب للحديث الواحد مما يدل على الجهد الشاق الذى بذله، و طول المراس الذى أكسبه قدرة على السير فى المسالك الوعرة لهذا العلم بمختلف فروعه.

و كان له عين فاحصة ناقدة فى علم الحديث، و كثيرا ما حكم على كثير من الأحاديث التى شاعت على ألسنة الناس فى عهده بطلانها إذا لم يثبت لديه إسناد بصحتها كحديث «لا تسودونى فى الصلاة» الذى قال إنه لم يرد «٣»، و حديث «التكبير جزم» الذى أفتى بأنه من قول إبراهيم النخعى و ليس من قول (١) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ١٠ ص ١٩، ٢٠.

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩١، ١٩٢.

(٣) الحاوي للفتاوى ج ١ ص ٥٣٣.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٥١

النبي صلى الله عليه و سلم «١»، و قد أفتى غير ذلك ببطلان بعض الأحاديث التي سئل عنها، و أجاب بصحة غيرها «٢»، و كان يستفتي في تفسير بعض الأحاديث و يجيب عن التعارض بين الأحاديث و يبين، كيفية الاستنباط منها و العمل بها بأجوبة حسنة تدل على تمكنه في ناحيتي السند و المتن وسعة اطلاعه التي شملت كتب الحديث و الرجال المختلفة.

على أن ما أبغى الوصول إليه من اهتمام السيوطي البالغ بعلم الحديث و إفاء جُلّ وقته فيه هو أن عقليته قد تأثرت تأثرا كبيرا بعلم الحديث بحيث أستطيع القول بأنه أولا و قبل كل شيء محدّث من النوع الأول، و الأثر الذي تركه التمرس بعلم الحديث في عقله تجلّى في عنايته بالنقول و النصوص، و اتضح تشربه بعلم الحديث، و تأثير ذلك في عقليته في سائر فروع المعرفة التي تناولها، كما استعلن في كثير من كتاباته المتنوعة، و نجد في غالب آثاره شواهد لما نقول حيث تشيع فيها ظاهرة النقل و الاهتمام بذكر المنقول عنهم، و هكذا فلقد أثر منهج المحدثين الخاص بالرواية في التأليف عند السيوطي بحيث إنه كان حريصا في كل مؤلفاته على أن ينسب كل قول إلى قائله، و الكتاب الذي نقل عنه و سنشير إلى هذه الفكرة عند الحديث عن دراساته اللغوية التي طبق عليها منهج المحدثين.

و يؤكد هذه الفكرة أيضا ما نلاحظه في كتاباته الأدبية التي كان عليه أن يتحرر فيها من النقل، بيد أن روح المحدث و عقليته و طريقته تبدو ظاهرة في أقواله و أسلوبه بين حين و آخر، ففي المقامة المسكية في أنواع الطيب - مثلا - يتحدث عن الموازنة بين أنواع الطيب و هي المسك و العنبر و الزعفران و غيرها، حيث يتحدث كل واحد منها عن نفسه مبينا فضيلته، و يتبع السيوطي فيها ما شاع في عصره من محسنات لفظية، و يهمننا هنا أنه ظهرت فيها ثقافته الحديثية بحيث يدرك قارئها أن صاحبها قد تشرب بهذه الثقافة أكثر من أي شيء آخر «٣»، و في (١) المصدر السابق ج ١ ص ٥٣٥.

(٢) انظر: - مثلا - الحاوي للفتاوى ج ١ ص ٥٥٦، ٥٥٧.

(٣) المقامة المسكية في أنواع الطيب (ضمن مقامات السيوطي ص ١ - ١١).

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٥٢

مقامة أخرى نجد نفس الظاهرة التي تدل على ما نقول إذ يبدأ المقامة بقوله:

«حدثنا الريان عن أبي الريحان عن أبي الورد أبان عن بلبل الأغصان عن ناظر الانسان عن كوكب البستان عن وابل الهتان قال مررت يوما على حديقة ...

الخ» «١»، فليست هذه المقدمة للمقامة الوردية في الزهور إلا انعكاسا و تأثرا بما عاناه في دراساته الجادة لعلم الحديث، فجاءت بما فيها من عننة معبرة عما يبطن عقله، كما أن المقامة لا تخلو من كثير من الأحاديث التي يحرص صاحبها على ذكر أسانيدها و الكتب التي خرجتها برغم أن المقام ليس مقام استنباط شرعي أو استدلال علمي و إنما هو مقام نزوح أدبي، و سائر مقامات السيوطي تشهد لما قلناه، و تشيع فيها نفس الظاهرة و تؤكد نفس الفكرة، بل إن منظوماته الشعرية لم تخل - في بعض الأحيان - من هذه الروح كقوله:

لم لا نرجى العفو من ربنا و كيف لا نطمع في حلمه

و في الصحيحين أتى أنه بعبده أرحم من أمه

و قوله:

حدثنا شيخنا الكنانى عن أبيه صاحب الخطابة

أسرع أخوا العلم في ثلاث الأكل و المشى و الكتابة «٢»

و في غير ما ذكرنا من شعر له نجد في بعض الأحيان مصداق ما قلناه.

نستطيع أن نخلص مما تقدم إلى أن عقلية السيوطي عقلية الرجل المحدث الذي يصب اهتمامه الأول على الأسانيد و يهتم بالرواة و النقلة، و أن نظرتة إلى العلوم هي نظرة المحدث و قد كان لذلك أثره في طريقة تأليفه و عنايته البالغة بالنقول و إيراد أسماء أصحابها و أسماء الكتب التي نقل عنها، و حرصه الشديد على عدم إغفال ذلك.

بيد أن ثمة أمراً لا ينبغي أن نغفله لصلته بالرواية و مدى التشدد و التسامح في قبولها، هذا الأمر هو أن السيوطي كان رجلاً متصوفاً انخرط في سلك (١) المقامة الوردية (ضمن مقامات السيوطي ص ١١).

(٢) شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٥.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٥٣

الصوفية، فهل كان لانخراطه أثر في منهجه في الرواية تشدداً و تحرجاً أو تسامحاً و تساهلاً؟، للإجابة على ذلك لا بد أن نتناول تصوف السيوطي بشيء من الحديث نستجلي به أبعاده و نستوضح به غوامضه.

السيوطي و التصوف:

سبق أن أشرنا إلى أن التصوف في عصر السيوطي كان يتخذ شكل ظاهرة اجتماعية واضحة في البيئة المصرية، و أن تياره كان من القوة بمكان، و قد ساعد على ذلك عوامل متنوعة أهمها وجود المنشآت الصوفية التي سميت بالخوانق أو الزوايا و الربط.

نشأ في هذه البيئة، و كان للتصوف أثر كبير في توجيه حياته، فجده الأعلى همام الدين كان من مشايخ الطريق، و كان لوالده ميل إلى التصوف، و الكمال بن الهمام أحد الأوصياء عليه كان من المتصوفة و قد ولي مشيخة الشيخونية.

كما أن والد السيوطي قد حمّله بعد مولده كما سبق أن رأينا إلى أحد كبار الأولياء ليباركه و يدعو له، و إذا كانت بيئة السيوطي الخاصة التي تتمثل في أسرته و المحيطين به و بيئته العامة التي تتمثل في المجتمع، كلتاهما يجد التصوف فيها منبثاً حسناً، فلا عجب أن نشأ السيوطي ميلاً منذ صغره إلى سلوك طريق المتصوفة.

و منذ وقت مبكر نصب السيوطي نفسه للدفاع عن الصوفية و رجالها، و قد رأينا اشتراكه في المعركة حول ابن الفارض و قيامه بنصرته، و إفراده لذلك مؤلفاً سماه «قمع المعارض في نصره ابن الفارض» و قد دافع كذلك عن ابن عربي و أفرد للدفاع عنه مؤلفاً سماه «تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي».

و له مؤلفات أخرى في التصوف تشهد بحبه العميق لطريق المتصوفة و دفاعه عنهم، و قد ولي منذ وقت مبكر من حياته مشيخة التصوف بترية بقوق، و قد سبق أن رأينا اتجاهه العلمي في التصوف أواخر حياته، إذ اعتزل الناس و اعتكف في بيته و تجرد إلى الله، و أكب على العبادة و التأليف.

بيد أن الذي يهمنا الآن من هذا كله هو النظر في الآثار التي تركها في

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٥٤

التصوف، و هل لها دلالات معينة على عقله و منهجه في التفكير؟.

لقد ترك السيوطي في التصوف عدداً لا بأس به من الرسائل، و أفتى ببعض الفتاوى فيه و نرى في فتاواه تعمقه في فهم التصوف و مصطلحاته و مذاهب أهله، كما نرى دفاعه عن رجال التصوف المبرزين و انتصاره لهم، كذلك نرى دفاعه عما يصدر عن المتصوفة من أفعال ينكرها عليهم أهل الظاهر، و يعد ذلك من الأحوال التي تعرض لهم، و على غيرهم أن يسلم بها «١».

و الذي نلاحظه على كتاباته في التصوف حبه العميق للمتصوفة و حسن ظنه بهم، و تساهله في إيراد الأحاديث التي تدعم أقوالهم، و لو كانت هذه الأحاديث تروى غرائب أو أشياء قد ينكرها العقل، و لا يقر بقبولها.

فهو مثلا يكتب رسالة يسميها «المنجلى فى تطور الولي» (٢)، يحاول أن يثبت فيها نقلا و عقلا إمكان وجود الولي فى أكثر من مكان فى الوقت الواحد، و يفيض فى الأقوال المثبتة لما يقول و بالرغم من ذلك فإنه فى كلامه عن حديث «من أهان لى و ليا فقد بارزنى بالمحاربة»، و الذى عقد له رسالة سماها «القول الجلى فى أحاديث الولي» (٣)، لم يزد على إيراده بأمانة جميع الطرق التى ورد بها الحديث و كلام أصحاب الحديث عن رجال هذه الطرق و تضعيف بعضهم، و الحكم على الحديث بالضعف أو بالغرابة، و لم يعلق على ما نقله بشىء، و هذا يدلنا فى الحقيقة على أمانته و تحرجه، بيد أنه لميله إلى التصوف يرجح ما يسند أقوالهم، فهو يرجح - مثلا - كون الحسن البصرى قد لقي على بن أبى طالب رضى الله عنه و روى عنه، مع نص ابن حجر و غيره من كبار المحدثين على أنه لم يلقه، و ذلك لأن المتصوفة يروون أن عليا قد ألبس الحسن خرقة التصوف، فإثبات عدم اللقاء يهدم قولهم و لذلك كتب السيوطى رسالة سماها «إتحاف الفرقة برفو الخرقة» حاول فيها إثبات رواية الحسن عن على و بالتالى إثبات الباسه إياه خرقة (١) انظر الحاوى للفتاوى ج ٢ ص ٤٠٥ و ما بعدها، بعض الفتاوى المتعلقة بالتصوف.

(٢) الحاوى ج ١ ص ٣٣٥.

(٣) الحاوى ج ١ ص ٥٦٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٥٥

التصوف «١». و رجح كون الخضر و إلياس عليهما السلام على قيد الحياة، و أجاز عن ذلك بأنه يرتضى القول الذى يذهب إلى أنهما من الأحياء فقال:

و المرتضى قول الحياة فكم له حجج تجل الدهر عن إحصاء

خضر و إلياس بأرض مثل ما عيسى و إدريس بقوا بسماء (٢)

بيد أنه يلاحظ عليه التساهل فى إيراد الأحاديث التى تدعم ما يذهب إليه الصوفية، و بالرغم من أنه لا يصف طرق هذه الأحاديث بغير ما وصفها به المحدثون فإنه يحاول أن يتلمس أكبر عدد من الطرق التى وردت للحديث الواحد لتقوية ما يورده، و يتضح ذلك فيما أورده عن وجود القطب و الأوتاد و النجباء و الأبدال، و هو ما اشتهر عند الصوفية، و قد قوبل بالانكار فألف فى ذلك رسالة سماها «الخبر الدال على وجود القطب و الأوتاد و النجباء و الأبدال» (٣)، ذكر فيها جميع الأسانيد التى روى بها الحديث و بالرغم من نصه على أن جميع ما ورد كان مرفوعا أو موقوفا فإنه يميل إلى اعتقاد ما ذكره لكثرة الطرق، و كثير من الأخبار التى أوردها عن التابعين و عن غيرهم فى هذا المجال فيها تساهل يجعلنا لا نطمئن إليها.

على أن التساهل فى قبول الروايات الذى رأيناه عنده بصدد التصوف فى بعض الأحيان قد ظهر لديه فى أماكن أخرى حيث أورد كثيرا من الأخبار غير الصحيحة أو الموضوعية و لم ينبه على وضعها، ففى حديثه عن نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان أورد بعض الاسرائيليات التى رواها كعب الأخبار و وهب ابن منبه و أضرابهما و لم ينبه عليها (٤)، و فى الحديث عن أخبار المهدي (٥)، أورد كثيرا من الروايات التى نقلها عن أبى نعيم و غيره، و كثير مما نقله تشهد متونه باستحالة صحته، و مع ذلك لم ينبه إلى حقيقة هذه الأخبار و إنما اكتفى بجمع ما (١) الرسالة بكتاب الحاوى ج ٢ ص ١٩١ و ما بعدها.

(٢) الحاوى ج ٢ ص ٢٥٠.

(٣) الرسالة بكتاب الحاوى ج ٢ ص ٤١٧.

(٤) الاعلام بحكم عيسى عليه السلام، رسالة بالحواى ج ٢ ص ٢٧٧ و ما بعدها.

(٥) العرف الوردى فى أخبار المهدي، رسالة بالحواى ج ٢ ص ١٢٣ - ١٦٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٥٦

يتصل بالمهدي، و بعض هذه الأخبار يبدو عليه مسحة الوضع فى العصر العباسى لا سيما الأخبار التى وردت فيها الإشارة إلى الرايات

السود التى تخرج من قبل المشرق، و بعض هذه الأخبار يجعل خروج المهدي انتقاما من أهل الشام و ظلمهم، و أن المهدي سينتقم منهم، و يعدل بين المسلمين و يتضح من روح هذه الأخبار أنها من الموضوعات زمن الأمويين، و جانب من الأخبار يذكر فيه السفيناني الذى يهاجم الكوفة و يطلب أهل خراسان، و المعروف فى التاريخ أن السفيناني كان أحد الخارجين على الدولة العباسية، إلى كثير من الأخبار التى تتمزج بأحداث التاريخ المتعاقبة التى مرت بالأمة الاسلامية و التى يتضح فيها أنها لم تخل من حشو كثير و تزيد، كما أن بعضها تقطع بطلانه و وضعه، كذلك فإن من الضعيف أو الموضوع الذى قبله السيوطى الأحاديث التى تتصل بعمر الدنيا، و أنه سبعة آلاف سنة «١»، على أن قبوله لبعض هذه الأحاديث كان نتيجة لما شاع فى عصره من اعتماد الناس على حديث باطل هو أن النبى صلى الله عليه و سلم لا يمكث فى قبره ألف سنة، و قد بين السيوطى بطلان هذا الحديث، و بين أن مقدمات الساعة و أسرارها و ما ورد فى ذلك من آثار تقضى بمجاوزة الأمة الألف، و ذكر أن الأمة لن تجاوز بعد الألف خمسمائة عام، و قد كان غير موفق فى هذا التقدير لأن أسرار الساعة من خروج الدجال و المهدي و غيره تستلزم أكثر من مائتى عام - كما نص على ذلك - و هذا ما لم يحدث إلى الآن، و الحق أنه كان عليه أن يتوقف فى مثل هذا الموضوع و أن يبتعد عن التقدير فى مثل هذه الغيبات «٢».

و من قبيل ما ذكرناه جملة كثيرة من الأحاديث التى ساقها فى كتابه «الخصائص الكبرى» أو «كفاية الطالب اللبيب فى خصائص الحبيب» فقد تساهل فى إيراد و قبول كثير من الآثار فى سيرة النبى صلى الله عليه و سلم و أورد كثيرا مما نص أئمة الحديث على وضعه و بطلانه. نخلص من ذلك إلى أن السيوطى برغم معرفته التامة بالحديث و علومه و نقده فإنه كان يميل إلى التساهل فى قبول المرويات التى تتصل بالتصوف و المسائل الغيبية، و الأمور المستقبلية و قد كان هذا التساهل ناتجا عن انخراطه فى (١) الحاوى للفتاوى ج ٢ ص ١٦٨ - ١٧١.

(٢) الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف، رساله بالحواى ج ٢ ص ١٦٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٥٧

سلك الصوفية، و قد عرف الصوفية بالتساهل فى رواية الحديث، و فى رواية أخبار صلحائهم و كراماتهم، و لم يعتد الفقهاء بما يشتهر على السنة العامة من كرامات الأولياء أو بما يشتهر على السنة الصوفية فكثير منهم يجهل شروط صحة النقل، و كثير منهم يروى ما يسمعه و يحسن الظن بناقله، و لقد كان ذلك سببا فى قول بعض علماء الحديث «إن من إخواننا من نرجو بركة دعائه، و لو شهد عندنا بشهادة ما قبلناها» «١».

و قد حذر رجال الحديث منذ القدم من الرواية عن عرف بالصلاح إذا لم يكن من أهل الضبط و الدراية و قال قائلهم: «ما رأيت الصالحين فى شىء أشد فتنه منهم فى الحديث» «٢». بيد أنه للانصاف فإننا ينبغى أن نأخذ أنفسنا بشىء من التحفظ فى وصف السيوطى بالتساهل فى قبول بعض المرويات، فهو ينقل ما ينقله بأمانه و ينص على كونه ضعيفا أو مرفوعا أو موقوفا أو أن بعض النقلة غير موثق، و لا يخفى شيئا من هذه الأوصاف، فهو من ناحية البحث العلمى يقدم لنا الوصف الصحيح، و لكنه تأثرا بتصوفه يميل بقلبه إلى قبول ما يرويه و الدفاع عنه فى بعض الأحيان برغم أن كثيرا من هذه الأخبار فى مرتبة الضعيف أو الغريب و لم ترتق إلى الحسن أو الصحة كما أن كثيرا منها موضوع. و هو يحاول - أحيانا - أن يجد لبعض الموضوعات مدخلا فى قسم الضعيف.

السيوطى الفقيه:

بلغ السيوطى درجة الاجتهاد فى الفقه، و قد طبقت فتاواه الفقهية أرجاء العالم الاسلامى فى حياته، و تشهد آثاره الفقهية بمقدرته، و قد كان شافعى المذهب، و بالرغم من بلوغه درجة الاجتهاد المطلق فإنه كان فى فتاواه يفتى بمذهب الشافعى، و قد تولى تصدير الفقه بالجامع الشيوخنى مكان أبيه منذ وقت مبكر فى حياته.

و دراسة الفقه و معاناته تربط صاحبه بالبيئة التى يعيش فيها، و تجعله على (١) الخطيب البغدادي: الكفاية فى علم الرواية ص ١٥٨.

(٢) المصدر السابق ص ١٥٨، انظر ص ١٥٨-١٦١.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٥٨

اتصال دائم بحاجات الناس و مشكلاتهم و ما يجد من مستحذات يطلبون فيها حكم الله فيعمل الفقيه عقله و استنباطه فيما عنده من نقول و يجتهد لينقل حكما يناسب ما جدّ من حادثات، أو يستنبط هذا الحكم، و حياته بالرغم من كونه فقيها متأخرا كانت مثالا لما نقول، فطالما استفتي في كثير من المسائل التي فتش عن إجاباتها و نقلها، أو استنبطها مما لديه من نقول و أدله.

و بالرغم مما وصل إليه من درجة عالية في الفقه أهله للاجتهاد المطلق كالأئمة المجتهدين فإنه كان في اجتهاده- كما قال- مجتهدا مطلقا منتسبا أي أنه لم يخرج في غالب اجتهاده عن مذهب الامام الشافعي، و قد دافع عن فكرة الاجتهاد و بين أن كل عصر لا ينبغي أن يخلو من مجتهد، و هذا اتجاه نحمده له، فهو يدل على عقلية المتحررة التي ثارت على بعض ما بعصره من جمود.

و لا يعيننا هنا التعرض لفتاوى السيوطي فهي من الكثرة بمكان، و لا يعيننا التعرض لمصنفاته الفقهية و جهوده فيها، و إنما نكتفي مما ذكرناه بأن نستدل على أن عقلية قد صبغها الفقه بصبغته و أثر فيها تأثيرا كبيرا، و الفقه يستلزم من صاحبه أعمال عقله فيما لديه من نقول، و نقد النقول و فهمها الفهم الجيد، ثم تطبيقها العملي على الحوادث.

و تأثر السيوطي بالفقه و دراساته، و إقباله على ما كتب فقهاء عصره، و ما تركه السلف من كتب سنرى أثره عند الحديث عن الجانب اللغوي عنده حين يدرس مسائل العربية على غرار دراسة الفقهاء للفقه.

و جدير بالذكر أن نذكر اهتمامه بعلم أصول الفقه الذي سيطبق منهجه على اللغة حين يحاول إنشاء علم يسمى بعلم أصول النحو، و حسبنا هذا القدر في الحديث عنه فقيها لأننا لا نبغى سوى تبيين ثقافته المتنوعة و جوانب عقلية و المؤثرات فيها لكونها أصولا ترفد منهجه في التفكير و تعين على تحديده.

السيوطي و الأدب:

جدير بنا في ختام الحديث عن عقله و منهجه في التفكير أن نتناول لغته في التعبير، و يقتضى ذلك منا أن ننظر في إنتاجه الأدبي، إذ تعيننا كتاباته جميعها على

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٥٩

الحكم على طريقة التعبير عنده، كما ينبغي ألا نغفل تعبيره الشعري، فله من الإنتاج الشعري ما يجدر أن نقف عنده بعض الوقت. و من العجيب أنه قد جعل الترسل و الانشاء في أواخر قائمة الفنون التي أجادها «١»، و لكن هذا في الحقيقة يعني أن إجادته لهما دون إجادته و عنايته بغيرهما، و إن كان ذلك لا يعني أنه لم يدل في هذين الفنين بدلو.

و قد عنى بالإنشاء و الترسل الكتابة الأدبية لا العلمية أو كتابة الدواوين و رسائلها، و هو أقل إنتاجا فيها، بيد أن له عددا كبيرا من المقامات و الرسائل الأدبية و الافتتاحات الأدبية الجميلة التي تعطينا صورة عن حياته الأدبية و أسلوبه لا سيما أنه قد عاش غضوبا سيال القلم تكلفه الغضبة رسالة يكتبها انتصارا لنفسه و من هذه الرسائل نستطيع التعرف عليه أدبيا معبرا عن نفسه مصورا مشاعره.

و قد كانت الكتابة الأدبية في عصره- كما سبق أن بينا- يطغى عليها البديع، و أصبح ذلك التسابق في استخدام المحسنات اللفظية على اختلاف ضرورها شغل الكتاب الشاغل، و هو ما دعا السيوطي إلى الاعتراف بأنه لم ينبغ النبوغ الكافي في الانشاء و الترسل، فهو حقا لم يبلغ ما بلغه كبار كتاب العصر السابقين له الذين برزوا في مدرسة البديع، و طول الاشتغال بالعلم و ممارسة التأليف لا تترك لصاحبها فرصة لاتباع البديع و التزام المحسنات. على أن السيوطي قد جرى على نفس المنهج و سابق رجاله، فصدرت عنه رسائل و مقامات و كتب كثيرا من مقدمات كتبه ملتزما الأسلوب البديعي، و لكنه له بعض الرسائل التي تحرر فيها من بعض قيود اللفظ إلى حد ما، و لم تأسره الصناعة اللفظية.

وقد كان أسلوبه في هذه و تلك تبدو فيه السهولة و الوضوح و التجافى عن الغموض و التعقيد و هو متصل بما قدمنا من مميزات شخصيته التي تأثرت بالبيئة المصرية التي تميل إلى الاستقامة و السهولة و الوضوح.

وقد كتب السيوطي مقامات متنوعة اتبع في بعضها نهج الحريري و بديع (١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٠.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٦٠

الزّمان في ابتداع شخصية طريفة تدور حولها القصة، و تحرر في أكثرها من هذا المنهج فضمن بعض مقاماته موازنات و منافرات و ضروبا من الجوار التمثيلي كما في مقامته المسكية في أنواع الطيب، و مقامته الوردية في أنواع الرياحين، و التفاحية في أنواع الفواكه، و الفستقية في أنواع النقول و غيرها، و بعض مقاماته يعتبر مقالات أو رسائل تعرض لموضوع معين و نتناوله بالمعالجة و ذلك كمقامته اللازوردية في التعزية عن فقد الأولاد، و مقامته في وصف الروضة و المقامة الطاعونية و غير ذلك.

فالمقامة المسكية يفترض فيها المؤلف اجتماع أمراء الطيب و منافرتها و قيام أحد الحكام بإعطاء كل منهم أوصافه و حقوقه، و قد حكم بين المسك و العنبر و الزعفران فقدم المسك و جعل العنبر ثانيا و الزعفران في المرتبة الثالثة، و صرح لكل بفضل «١»، و قد التزم السيوطي المحسنات اللفظية في سائر المقامة، و في المقامة الوردية «٢»، افترض أن الأزهار قد اجتمعت عساكرها و اتفقت على عقد مجلس لاختيار من هو أحق بالملك فصعد كل منها المنبر ليبدى فضيلته و حجته، و هو يلتزم فيها أيضا الأسلوب البديعي فيقول فيها: «... و اتفقت على عقد مجلس حافل، لاختيار من هو بالملك أحق و كافل، و ها أكابر الأزهار، قد سعدت المنابر، ليبدى كل حجته للناظر، و يناظر بين أهل المناظر، في أنه أحق أن يلحظ بالنواظر، من بين سائر الرياحين النواظر، و أولى بأن يتأمر على البوادي منها و الحواضر ... الخ» «٢».

أما المقامتان التفاحية و الفستقية فهما وصف لأنواع الفواكه و النقول و فوائدها المتنوعة، و ما ورد فيها من الآثار مع العناية بالتزام الأسلوب البديعي الذي يتسم بالتكلف في غالب الأحيان. و تمتلئ مقامات السيوطي بالآيات و الأحاديث التي يضمنها عباراته كما تشيع فيها الحكم و الأمثال و الأشعار الكثيرة، و اختياره للأشعار يدل على ذوق أدبي جميل، و في مقامته التي خصصها للتعزية عن فقد (١) المقامة المسكية، مقامات السيوطي ص ١-١١.

(٢) المقامة الوردية، المقامات ص ١١-٢٤.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٦١

الأولاد «١»، بدأها بقوله تعالى: وَ لَتَبْلُوَنَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصِ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَرَاتِ وَ بَشْرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ، ثم بين أن المصاب بفقد الأولاد من أعظم المصاب، و تحدث عن الصبر و ما فيه من الأجر، و أورد الأحاديث التي تتحدث عن أجر الصبر على فقد الولد و أخذ يسرد الآثار و الأخبار بأسلوب مقنع واضح، و بين ما للأطفال عند ربهم، ثم ختمها بقوله: «فيا أيها الوالد الجريح، و الواله القريح، ما ذا البكاء و الصريخ، بعد هذا الخبر الصريح، و ما ذا العويل و الضجيج بعد ما ثبت في الحديث الصحيح، و ما ذا التلهف و التأسف بعد هذا القضاء المريح».

فإن كنت تبكيه طلابا لنفعه فقد نال جنات النعيم مسارعا

و إن كنت تبكي أنه فات عوده عليك بنفع فهو قد صار شافعا

فطب نفسا بهذا الفضل العظيم، و قرّ عينا بنزول ولدك في جوار الرب البر الرحيم و أنشد عن نفسك قول شاعر حكيم:

جاورت أعدائي و جاور ربه شتان بين جواره و جوارى

و إن تلوت «يا أسفى على يوسف و ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم»، فاتل تلوها «إنما أموالكم و أولادكم فتنه، و الله عنده أجر عظيم ... الخ» «٢».

على أنه قد تطرق في مقاماته إلى موضوعات فيها شيء من المجون و الأدب المكشوف فمن مقاماته «رشف الزلال من السحر الحلال»

«٣»، و تسمى مقامة النساء، و قد تحدث فيها بلسان عشرين عالما يصف كل منهم ما جرى بينه و بين عروسه ليلة دخوله بها موريا باصطلاحات علمه و فنه، و بالمقامة تعبير مكشوف و ميل إلى المجون برغم أنه بدأها بمقدمة استحث فيها على الزواج و الابتعاد عن المحرمات، و قد التزم فيها المحسنات اللفظية و أكثر من إيراد الأشعار، و إذا كان (١) المقامات ص ٧٦، مخطوط بدار الكتب برقم ٢٢٧٢٩ ب.

(٢) مقامات السيوطى ص ٨٤.

(٣) رشف الزلال من السحر الحلال (طبعت بالقاهرة طبع حجر بدون تاريخ).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٦٢

قد انزلق إلى هذا الضرب من الأدب الماجن مع ما عرف عنه من زهد و تقوى وجد فعلل له عذره فى ذلك، فهو أديب و الأديب طروب، و النفس تمل من طول الجد و تميل إلى التروح، و لم يكن لدى الرجل من أسباب التروح غير ما يقرأه أو يكتبه. أما أسلوبه فى مقدمات كتبه و فى رسائله الأدبية الأخرى فقد التزم فيه النهج البديعى و استعمل المحسنات اللفظية، أما فى كتاباته العلمية فقد تحرر من البديع و أرسل قوله على عواهنه و تميز أسلوبه العلمى بالسهولة و الوضوح و الاستقامة و حسن العرض، و لو لا تجنب الاطالة لمثلنا لجميع ذلك بأمثلة توضح ما نذهب إليه.

السيوطى الشاعر:

و ليس غريبا أن يكون الرجل شاعرا فقد رأينا أديبا يجيد فن القول النثرى كما عرفه عصره، و قد كان بالاضافة إلى ذلك شاعرا، و قد ذكر أن له ديوان شعر، و قد رأينا له بعض الأشعار الجيدة، أما منظوماته العلمية فهى من الكثرة بحيث يعسر إحصاؤها و له كثير من الأجوبة الفقهية التى أجاب بها نظما، و له عديد من المنظومات التى تعرض فيها لموضوعات علمية دقيقة.

و هكذا فإن الغالب على شعر الرجل الطابع العلمى حتى فى أشعاره التى أنشأها فى غير الأغراض العلمية، و لكن هناك أمرا يدل على ذوقه الشعرى يتضح فى اختياراته الشعرية التى أوردها فى بعض كتبه و رسائله، و هى تدل على حسن تذوقه و فطرته السليمة.

و قد نظم فى الأغراض الشعرية المختلفة فله فى المدح و الرثاء و المديح النبوى، و الاخوانيات و الأحداث العامة، غير أنه كما قلنا ذو باع طويل فى نظم العلوم و الفنون، و له فى المنظومات العلمية إنتاج كبير نذكر منه ما يلى:

١- التبرى من معرة المعرى، و هى أرجوزة فى أسماء الكلب «١».

٢- الخلاصة نظم كتاب الروضة فى الفقه. (١) طبعت مع كتاب تعريف القدماء بأبى العلاء.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٦٣

٣- الفريدة: ألفية فى النحو و الصرف و الخط «١».

٤- قطف الثمر فى موافقات عمر «٢»، أرجوزة فيما وافق فيه سيدنا عمر التنزيل.

٥- مختصر ملححة الاعراب للحريرى فى مائة و عشرين بيتا.

٦- موشحة فى النحو «٣»، أولها:

إلى إله الأنام من نحلا أفضاله كل آمل أملا أرغب

٧- التثيت عند التبييت «٤»، و هى أرجوزة فى سؤال الميت فى القبر نحو مائة و خمسين بيتا.

٨- تحفة المجتهدين فى أسماء المجددين «٥»، منظومة فى الحديث عن بيعته الله على رأس كل مائة.

٩- تعريف الفتنة بأجوبة الأسئلة المائة «٦»، و هى إجابة على نحو مائة من الأسئلة و الألغاز أجاب عنها نثرا، ثم نظم إجاباتها.

على أن له كثيرا من المنظومات غير ما قدمنا، و له مقطوعات نظمية كثيرة أجاب بها عن الأسئلة التى كانت ترد إليه نظما، و كتاب

الحاوى ملء بأمثال هذه الأسئلة و الفتاوى التى أفتى بها نظماً، إلى جانب فتاواه النثرية فى جميع فروع المعرفة التى أجادها.

و من أمثلة شعره فى الرثاء قوله فى شيخه الشمنى المتوفى عام ٨٧٢ هـ «٧»:

رزء عظيم به تستنزل العبر و حادث جلّ فيه الخطب و الخبر

رزء مصاب جميع المسلمين به و قلبهم منه مكلوم و منكسر

(١) لها طبعه مستقلة.

(٢) طبعت ضمن كتاب الحاوى ج ٢ ص ٥.

(٣) مخطوط بدار الكتب برقم ١٩١ نحو تيمور.

(٤) طبعت بالقاهرة.

(٥) مخطوط بدار الكتب برقم ٨٢٦٠ ح.

(٦) الحاوى ج ٢ ص ٥٠٢ و ما بعدها، و النظم ص ٥٤٧.

(٧) بغية الوعاة ص ١٦٥، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧١.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٦٤

ما فقد شيخ شيوخ المسلمين سوى انهدام ركن عظيم ليس ينعم

رزيتة عظمت بالمسلمين و قد عمت و طمت فما للقلب مصطبر

تبكيه عين أولى الاسلام قاطبة و يضحك الفاجر المسرور و الغمر

و من أمثلة منظوماته قوله فى موافقات عمر رضى الله عنه «١».

الحمد لله و صلى الله على نبيه الذى اجتباه

يا سائلى و الحادثات تكثر عن الذى وافق فيه عمر

و ما يرى أنزل فى الكتاب موافقا لرأيه الصواب

خذ ما سألت عنه فى أبيات منظومة تأمن من شتات

ففى المقام و أسارى بدر و آيتى تظاهر و ستر

و ذكر جبريل لأهل القدر و آيتين أنزلا فى الخمر

و آية الصيام فى حل الرفث و قوله نساؤكم حرث بيت

و قوله لا يؤمنون حتى يحكموك إذ بقتل أفتى

... إلى آخر المنظومة.

و من الأسئلة التى وردت إليه نظماً و أجاب عنها نظماً، و هى كثيرة مبثوثة فى كتابه ما سئل عنه فى ضبط كلمة «يطلع» فسئل «٢»:

يا عالماً فاق أهل العصر و الأثر و زان أهل النهى فى الخبر و الخبر

هل لام يطلع مضموم و يضبطها بذاك ذاكرها فى البدو و الحضر

أو ينصبوها و ضم اللام ذا خطأ كما تفوه شخص من أولى الفكر

فأجاب بقوله:

الحمد لله مزجى السحب بالمطر ثم الصلاة على المختار من مضر

بالضم يطلع منقول و شاهده تطلع على قوم المقروء فى الزبر

و الواقع أن المنظومات العلمية للسيوطى من الكثرة بحيث يدهش المرء من (١) الحاوى ج ٢ ص ٥.

(٢) الحاوى للفتاوى ج ٢ ص ٤٦٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٦٥
تنوعها و تناوله فيها مختلف المسائل من مختلف ألوان المعرفة. و لعلنا بذلك نكون قد مثلنا لما عنده من الشعر و أعطينا صورة واضحة له.

و إذ كنا قد بينا معالم ثقافته، و ألقينا الضوء على عقله و منهجه الفكرى و حددنا أصول هذا المنهج و اتجاهاته بما أثر فيها من مؤثرات علمية و بيئية، فليس أمامنا الآن سوى الحديث عن الآثار التى خلفها السيوطى و التى كانت تتناول جمع فروع المعرفة.
جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٦٦

آثار السيوطى

عرف السيوطى بكثرة مؤلفاته، و قد أعانه على القيام بتأليف العدد الكبير من الكتب المنسوبة إليه ما طبع عليه من حب للتأليف و صبر عليه، و ما عرف عنه من سرعة الكتابة، فقد روى عنه تلميذه شمس الدين الداودى أنه عاين أستاذه «و قد كتب فى يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفا و تحريرا» (١).

على أن هذه الكثرة الكاثرة من الكتب المنسوبة له تجعل من العسير علينا أن نقوم بإحصائها على وجه الدقة، و أكثر عسرا أن نتبعها لنعرف الموجود منها و المفقود، و ما طبع و انتشر و ما لا يزال مخطوطا، و قد عانيت فى هذه المحاولات كثيرا من الجهد، و تكلفت كثيرا من المشقة.

و احصاء هذه الكتب متفاوت بين من حاولوا إحصاءها، فالسيوطى قد ذكر فى ترجمته لنفسه نحو ثلاثمائة مصنف، بيد أن قائمة الكتب التى سردها ليست الفيصل فى آثاره التى خلفها إذ يبدو أنه قد ألف بعد كتابتها كثيرا من الكتب التى لم يذكرها فيها، كما يبدو أن هذه القائمة قد سقط منها على أيدى النساخ أسماء بعض الكتب، أو نسي هو ذكره، كما تغافل عن ذكر بعض الكتب التى قال إنه رجع عنها، و الذى يؤكد لى هذه الفكرة أنه لم يذكر بين قائمة كتبه كتابا يعد من أهمها و هو كتاب المزهر، و ليس هناك أدنى شك فى نسبة الكتاب إليه فقد صرح باسمه فى بعض كتبه الأخرى و أشار إليه، فوردت إشارته إليه أكثر من مرة فى كتابه «النكت على الألفية لابن مالك و الكافية لابن الحاجب...».

و هذا الكتاب قد أتم السيوطى تأليفه عام ٨٩٥ هـ «٢»، مما يؤكد تأليف المزهر أو (١) الشعرانى ذيل الطبقات الكبرى ورقة ١٢ ص ٢٣.
(٢) النكت على الألفية لابن مالك و الكافية و الشافية لابن الحاجب و شذور الذهب و نزهة الطرف لابن هشام (مخطوط بدار الكتب المصرية) انظر ورقة ٣٢٧ ص ٦٥٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٦٧

الشروع فيه على يده قبل ذلك التاريخ، و نرجح أن إغفال ذكره جاء سهوا من المؤلف و الأرجح أنه سهو من الناسخ. و الجدير بالملاحظة أن بعض كتب السيوطى قد مكث يعمل فى تأليفها ردحا من الزمن، يكتب حين يفرغ لها بعض أجزاءها، ثم يشغل بأخرى أو تجرفه أحداث الحياة، ثم يعاود بعد حين ما بدأه منذ وقت بعيد، و قد حكى عن نفسه ذلك فى بعض كتبه، فالكتاب السابق «النكت» ذكر أنه شرع فيه عام ٨٦٧ هـ، و صنّفه على ترتيب الألفية فكتب فيه إلى المعرب و المبنى، ثم عاود الكتابة عام ٨٧٦ هـ، فكتب جزء آخر، ثم عاود الكتابة عام ٨٨٥ هـ، فأنتهى إلى حروف الجر ثم أنهى تأليفه عام ٨٩٥ هـ «١».

و فى مقدمة «اللئالى المصنوعة» يبين أنه شرع فى تأليفه عام ٨٧٠ هـ و فرغ منه عام ٨٧٥ هـ و كتب منه عدة نسخ، بيد أنه بدا له فى عام ٨٩٥ هـ أن يعيد كتابته مرة أخرى مع بعض التغييرات و الزيادات التى رآها لازمة لمؤلفه، فأعاد تأليف الكتاب مرة أخرى «٢».

كما توضح مقدمته لكتابه «بغية الوعاة» أنه شرع فى جمعه و الاعتداد له منذ عام ٨٦٨ هـ، و أنه لم يخرج على صورته الأخيرة إلا بعد

عام ٨٩٩ هـ، بعد أن كان بمكة و اطلع على ما جمعه صديقه الحافظ نجم الدين بن فهد (٣).

و الملاحظة الثانية أن الجانب الأ-كبر من مؤلفاته يتمثل فى رسائل صغيرة أو كتيبات ما بين صفحة واحدة و بضع عشرات من الصفحات، و ما هو دون العشر كثير فله نحو ثلاثين مقامة لا يتجاوز أكثرها عشر صفحات، و قد طبع من رسائله فى كتاب «الحوارى للفتاوى» ثمانون رسالة، كما أن هناك مخطوطا قد عثرت عليه بدار الكتب يحوى نحو ١١٤ رسالة له تكرر بعضها بكتاب الحواوى، و كثير من رسائله لا- يزال مخطوطا، و بدار الكتب المصرية عدد كبير منها، بعضها فى مخطوط مفرد، و بعضها ضمن مجاميع له أو مجاميع لأكثر من (١) المصدر السابق ورقة ٣٢٧.

(٢) اللئالى المصنوعة ص ٢، ٣.

(٣) بغية الوعاة ص ٢، ٣

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٦٨

مؤلف، و بالرغم من ذلك فإن كتبه المطولة تمثل عددا كبيرا، و قد طبع من آثاره إلى الآن عدد لا بأس به، إلا أن قدرا كبيرا من هذه الآثار لا يزال مخطوطا، كما أن جانبا من آثاره قد ضاع و فقد على ما أرجح.

و الملاحظة الثالثة تتصل بوثاقه هذه المؤلفات و صحه نسبتها أو نسبة ما بها إلى السيوطى و هذه النقطة تستلزم دراسة لكل مؤلف منها منفردا، و هذا ما يستحيل القيام به تجاه أربعمائه أثر أو أقل أو أكثر، بيد أن كثرة المطالعة فى كتبه جعلتنى أستوضح شخصيته و أسلوبه و فكره الذى أستطيع تبينه و معرفته فى مؤلفاته، بالاضافة إلى ما يكتبه من إشارات متناثرة فى داخلها عن بعض الأحداث التى تعرض لها فى حياته أو إشارات إلى كتبه الأخرى بما يجعلنا نظمئن إلى صحه نسبة أكثر هذه الكتب إلى السيوطى، و لكن ذلك لا يمنع أن بعضها قد دخله فى بعض الأحيان حشو من قبل بعض تلاميذه أو من غيرهم، غير أن ذلك- على ما أرجح- قليل جدا، و قد استطعت أن أعر فى كتابيه «حسن المحاضرة»، و «الكنز المدفون»، على نصين قطعت بأنهما مما زيد على كتبه بعد موته فقد تحدث السيوطى فى حسن المحاضرة عن سلاطين مصر من المماليك و سردهم سردا سريعا حتى انتهى إلى قانصوه الغورى، و إلى هنا يمكن أن نقول: إن ما كتب كان على يد السيوطى، إذ إن الغورى كان آخر السلاطين الذين عاصروهم، و قد توفى السيوطى عام ٩١١ هـ و استمر حكم الغورى إلى عام ٩٢٢ هـ، و نجد فى الكتاب بعد ذلك مباشرة أن الغورى: «أقام فى الملك إلى أن خرج من مصر فى منتصف ربيع الآخر سنة اثنتين و عشرين و تسعمائة فى جيش كبير إلى البلاد الحليية لملاقاة السلطان سليم بن عثمان فوقع المصاف بينهما بمرج دابغ فى خامس عشرى رجب من السنة المذكورة، فمات فى ذلك حتف أنفه و لم توجد جثته، ثم فى يوم الجمعة رابع عشر شهر رمضان من السنة المذكورة تولى طومان باى الدوادار ابن أخى الغورى و لقب بالأشرف، ثم ان السلطان سليم بن عثمان دخل مصر فى يوم الخميس سلخ الحجى سنة ثلاث و عشرين و أقام بمصر إلى أن رحل عنها فى رابع عشرى شعبان من السنة المذكورة، و خلف عليها خاير بك المسمى، ثم إن ابن عثمان مات ببلاد الروم فى ليلة السبت تاسع شوال سنة ست و عشرين، و قام بعده فى الملك ولده

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٦٩

سلطان العصر سليمان نصره الله تعالى، ثم مات خاير بك فى ثالث عشرى ذى القعدة سنة ثمان و عشرين و تسعمائة، ثم ولى بعد خاير بك مصطفى أحد وزراء السلطان سليمان، ثم فى شهر رمضان قدم من الروم أمير لنيابة مصر يسمى قاسم، ثم جاء من بعده أحمد باشا، ثم من بعده سليمان باشا خسرو، ثم من بعد خسرو أعيد سليمان باشا ثم من بعده الزينى داود باشا متولياها الآن أدامه الله تعالى» (١).

و واضح أن النص السابق قد وضع بعد السيوطى فأحداثه جميعا قد وقعت بعد وفاته، و النص كما يبدو يستمر فى الحديث عن أحداث وقعت بعده إلى أكثر من ثلاثين سنة، بل إننى أرجح أن الحديث عن بعض السلاطين قبل هذا النص قد أضيف أيضا إلى الكتاب و لم

يكن السيوطي قد كتبها، فمن المرجح أنه انتهى في ذكر السلاطين إلى محمد بن قايتباي الذي انتهى حكمه عام ٩٠٤ هـ، والذي يرجح ذلك المنظومة التي ذكرت في نهاية هذا الفصل و نسبت للسيوطي فقد انتهت إليه، و على ذلك فمن المرجح أن ذكر السلاطين بعده إلى الغوري- و هم من معاصريه- مما أضيف إلى الكتاب أيضا.

و قد تكررت هذه الاضافة نفسها في كتاب «الكنز المدفون و الفلك المشحون» فقد ذكر السيوطي أن السادس من الخلفاء يكون مصيره الخلع ثم ابتداء بالنبى صلى الله عليه و سلم و عدد الخلفاء بعده و ذكر أن الحسن بن على سادسهم قد خلع، و استمر في سرد أسماء الخلفاء الأمويين ثم العباسيين ثم الفاطميين بمصر ثم الأيوبيين بها ثم سلاطين المماليك حتى وصل إلى قايتباي فقال: «ثم الملك الأشرف قايتباي أيده الله و نصره و حكمه في رقاب الكفرة الفجرة ببركة محمد و حبه في الفقراء و المساكين»، و يبدو من هذا الدعاء أن الكتاب قد أُلّف في عهد قايتباي (٩٠١ هـ) و لكن نجد بعد ذلك و هو ما نرجح كونه مدسوسا العبارة التالية: «فمات ثم ولده الملك الناصر فقتل، ثم الملك الظافر قانصوه فخلع ثم الملك الأشرف جانبلط فخلع و قتل، ثم الملك الأشرف قانصوه الغوري» (٢). (١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠٦، ١٠٧. (٢) الكنز المدفون ص ٨١.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٧٠

و بالرغم من أن هؤلاء قد عاصروهم السيوطي أواخر حياته إلا أننا نرجح أن هذا النص مدسوس عليه، ثم إننا نقطع بأن بقية النص مزيدة على كتاب السيوطي بعد وفاته إذ نذكر أن الغوري: «سار بعسكره إلى مرج دابغ لملاقاة السلطان الملك المظفر سليم بن عثمان فلما التقيا خر ميتا و جهل أمره و لم يوجد، ثم مات الملك المظفر سليم بن عثمان بجمرة في ظهره و ولى ولده السلطان الملك المظفر سليمان شاه أدام الله تعالى أيامه و أصلحها و أبعده عنه قرناء السوء» (١)، و يتضح أن كاتب هذا النص كان يعيش في عصر السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ هـ - ٩٧٢ هـ)، و لعله أحد تلاميذ السيوطي، و قد رجحت أن يكون ابن إياس المؤرخ إذ إنه ينتهي في تاريخه إلى هذا الوقت، و هو من تلاميذ السيوطي، و يتحدث عنه دائما بقوله «شيخنا».

على أن ذلك لا يطعن في وثاقه مؤلفات السيوطي و صحة نسبتها إليه، و لكن ما أريد أن أصل إليه هو أن هذه المؤلفات لم تسلم من قليل من الزيادات، كما أنها لم تسلم من بعض النقص، و قد سبق عند الحديث عن شيوخ الخانقاه الشيخونية أن رجحت سقوط بعض الأسماء التي ذكرها السيوطي، كما رجحت من بعد سقوط بعض أسماء مؤلفاته التي ذكرها في ترجمته لنفسه.

و إذا حاولنا العودة إلى مصنفاته و احصاءها فإننا نذكر أنه قد سُمي نحو ثلاثمائة مصنف منها و لم يستوعب جميعها، و أغلب الظن أن بعض ما ذكره قد سقط من أيدي النساخ، و أرجح أن يكون من بين ما سقط مصنفات اللغة كالزهر و أسماء الذئب و الأسد و الكلب و غيرها، و قد ذكر الشعراني أن مصنفاته بلغت أربعمئة و ستين مصنفا (٢)، و قد أحصيت ما أورده له صاحب كشف الظنون فبلغ نحو أربعمئة و سبعة و ستين مصنفا (٣)، ثم أحصيت ما أورده صاحب كتاب هدية العارفين فبلغ نحو خمسمئة و ستة و ثمانين مؤلفا (٤)، و قد (١) المصدر السابق ص ٨١.

(٢) الشعراني ذيل الطبقات الكبرى ورقة ٥ ص ٩، ١٠.

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون، في أماكن متعددة.

(٤) إسماعيل البغدادي: هدية العارفين بأسماء المؤلفين و آثار المصنفين ص ٥٣٥-٥٤٤.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٧١

أحصى فلوجل أعماله العلمية فبلغت ٥٦١ عملا (١)، و قد ذكر بروكلمان قائمة مؤلفات السيوطي بيد أنه اقتصر على ما أورده السيوطي في ترجمته و لم يزد عليه (٢).

و قد كنت أود أن أورد هنا ثبنا أستوفى به الحديث عن جميع آثار السيوطي، بيد أنني رأيت ذلك يستغرق صفحات كثيرة فضلا عن

خروجه عما نقصد إليه من بحثنا إلى مجرد القيام بالفهرسة لهذه الكتب، و لذلك فإنني تجنبنا للاطلاع و الاستطراد رأيت أن أجعل هذه الفهرسة في آخر الرسالة بمشيئة الله ضمن مسرد المصادر، فأجنب بذلك تكرار ذكر هذه الآثار، و هناك سابين ما قد رجعت إليه و وقفت عليه من هذه الآثار، و ما لم أتمكن من الوقوف عليه. (١) «ituyus malsIfoaideapolc ycnEehT»

(٢). (١٩٨-١٧٨ ١٧٨-١٩٨). II. Vrutaretilnehcs ibarAreDethcihce G. (جز ٢ ص)

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٧٣

الباب الثاني جهوده اللغوية

تقديم:

بعد أن عرضنا للحديث عن عصر السيوطي و حياته و ثقافته و تعرفنا على شخصيته و عقليته و منهجه، و عرفنا بآثاره، نريد أن نتقل هنا إلى دراسة الجانب اللغوي لديه و أريد بالجانب اللغوي جميع ما يتصل بالدراسة اللغوية التي تصنف الآن إلى مستويات دراسية خمسة هي المستوى الصوتي و الصرفي و النحوي و المعجمي و الدلالي و أقصد من التعرض لها و دراستها استيضاح جهود السيوطي و بيان أثره في هذه الدراسات، و أسلوبه في تناولها، و مميزاته الشخصية التي تميزه في هذا الميدان من ميادين المعرفة الانسانية عن غيره من اللغويين، فهل كان للسيوطي أثر في هذه الدراسات؟ و هل كان له مميزات خاصة تفرد بها عن غيره، و ما قيمته بالنسبة لتاريخ هذه الدراسات عند العرب؟، ذلك ما نحاول في هذا الباب أن نحدد معالمه و أن نقطع فيه برأى.

على أن السيوطي بالرغم من تنوع الميادين التي طرقها فإنه قد برز في ثلاثة منها كما ذكرنا من قبل هي الحديث و الفقه و العربية و المقصود بها النحو بما يشمل في معناه العام من الأبحاث الصرفية، و قد حكي عنه الشعراني بلوغه درجة الاجتهاد المطلق في هذه العلوم الثلاثة «١»، كما حكي عنه قوله عن نفسه فيما يخص الاجتهاد في العربية إنه «لم يكن بعد ابن هشام من يصلح أن يوصف به غيري» «٢»، و قد حدد آلات الاجتهاد و مؤهلاته بقوله: «و أما الاجتهاد في العربية فهو أن يحيط بنصوص أئمة الفن من سيبويه إلى زمانه هذا، و يحفظ غالب شعر العرب الذين يحتج بأشعارهم في العربية، و لا يضر خفاء بعض ذلك عليه، و ليس المراد حفظه عن ظهر قلب، و إنما المراد أن يكون له اطلاع على دواوينهم (١) ذيل الطبقات ورقة ٦ ص ١٢.

(٢) المصدر السابقة ورقة ٨ ص ١٦.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٧٦

بحيث يعرف محل الاستدلال بذلك من الكتب، و يكون مع ذلك محيطا بقواعد النحاة التي بنوا تصرفاتهم عليها غير القواعد المذكورة في واضحات الكتب، فإن تلك كالأصول لهذه القواعد، و هذا لا يعرفه الآن إلا متبحر في الفن» «١».

و الحق أن صلة السيوطي باللغوة و دراستها جد مبكرة فقد كانت أول إجازة علمية حصل عليها في حياته بتدريس العربية، و قد تتلمذ كما رأينا على يد أشهر رجال عصره في النحو و هم الكافيجي و الشمني و سيف الدين الحنفي، و قد أتاحت له ظروفه أن يقف على كثير من الكتب التي لم تكن في متناول غيره من خزانه محمود التي كانت تحت نظره، و قد وضح صلته بالدرس اللغوي قائلا:

«و لم أزل من زمن الطلب أعتني بكتبها قديما و حديثا، و أسعى في تحصيل ما درس منها سعيا حثيثا إلى أن وقفت منها على الجرم الغفير، و أحطت بغالب الموجود مطالعة و تأملا، بحيث لم يفتني سوى النزر اليسير، و ألفت فيها الكتب المطولة و المختصرة و علقته التعاليق ما بين أصول و تذكرة، و اعتنيت بأخبار أهلها و تراجمهم و إحياء ما دثر من معالمهم، و ما رووه و رووه، و ما تفرد به الواحد منهم من المذاهب و الأقوال، ضعفه الناس أو قووه، و ما وقع لهم مع نظرائهم و في مجالس خلفائهم و أمرائهم من مناظرات و محاورات و مجالسات و مذاكرات و مدارسات و مسامرات و فتاوى و مراسلات، و معاياة و محاجاة، و قواعد و مناظيم، و ضوابط و

تقاسيم، و فوائد و فرائد، و غرائب و شوارد، حتى اجتمع عندى من ذلك جمل و دونتها رزما لا أبالغ و أقول وقر جمل» (٢).
و قد حاول أن يسلك مسلك اللغويين القدماء فى إملاء اللغة كما يملى الحديث فى مجالس، و لكنه لم يجد من يحمل ذلك عنه (٣).

و تدل آثاره فى الدراسات اللغوية على أنه لم يكن مبالغا فى أقواله السابقة، فكثرة ما جاء بها من أفكار و أخبار و ترتيبها و تنسيقها يستلزم مجهودا ضخما و إحاطة واسعة و دراية بالغة بهذه الفنون. (١) نفس المصدر ورقة ٩، ١٠ ص ١٨، ١٩.
(٢) مقدمة الأشباه و النظائر ص ٣.
(٣) المزهر ج ٢ ص ٣١٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٧٧
و إذا كان السيوطى قد تناول فى أبحاثه المتنوعة كثيرا من المباحث التى تدرس فى المستويات الصوتية و المعجمية و الدلالية، كما أنه خلف عددا ضخما من المصنفات النحوية التى تضم أبحاث الصرف فليس أمامنا غير أن نعرض لكلتا الناحيتين من دراساته، و لذلك رأيت أن أجعل الفصل الأول لبحث جهوده فى المستويات اللغوية التى تتصل بالأصوات و المعاجم و الدلالة و القضايا اللغوية العامة، و أن أخصص الفصل الثانى لتناول ما يتصل بجهوده النحوية بما تشمله بالطبع من أبحاث صرفية، أى ما يتصل بدراسة التراكيب و الصيغ، و قد رأيت أن يكون عنوان الفصل الأول الخاص بالجانب غير النحوى «فقه اللغة» و أعنى به جميع مستويات الدرس اللغوى يضاف إليها القضايا العامة، و جعلت عنوان الفصل الثانى: «النحو» و عنيت به مدلوله الواسع الذى يشمل الصرف.
جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٧٩

الفصل الأول

فقه اللغة أو: «الدراسات اللغوية غير النحو و الصرف»

تقديم:

لا بد لنا لكى نقوم الدور الذى أداه السيوطى فى ميدان فقه اللغة من أن نعرض لجهود سابقه التى نظر فيها و اعتمد عليها لكى نقارن ما قام به بما قام به غيره، و من ثم نستطيع الحكم له أو عليه و نستطيع أن نبين مقدار الجهد الذى بذله فى هذا الميدان و قيمته، كما أن هذه المقدمة ضرورية لبيان تطور الدراسة اللغوية عند اللغويين العرب الذين يعد السيوطى من متأخريهم، أى أنه لغوى شهد آخر مراحل هذا التطور فى الدراسة و على يديه وصلت الدراسة اللغوية إلى مرحلة أرقى مما كانت عليه عند سابقه كما سنتبين ذلك فيما بعد.

و نريد هنا بالدراسة اللغوية أو «فقه اللغة» ما يعنيه المحذون بفقه اللغة و علم اللغة فأبحاثهما متداخله مشتركة بحيث إن كثيرا من المؤلفين المحذون فى علم اللغة يرون أبحاثهم داخله فى ميدان فقه اللغة، و لا نريد بالدراسة اللغوية فى هذا الفصل ما يتصل منها بعلم النحو لأننا سنخصص - كما ذكرنا- للدراسة النحوية، فضلا مستقلا نبحث فيه جهود السيوطى فيها.
و قد بين بعض المحذون أن خير ما توصف به أبحاث اللغويين القدماء هى أن تسمى بفقه اللغة، ذلك أن فقه الشىء هو كل ما يتصل بفلسفته و فهمه و الوقوف على ما يسير عليه من نواميس (١). (١) د. على عبد الواحد وافي: علم اللغة ص ١٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٨٠
فما المراحل التى مر بها الدرس اللغوى قبل السيوطى؟ و ما الأدوار التى اضطلع بها رجال اللغة على مر الأحقاب المتواليه؟ ثم ما هى الآثار التى خلفها هؤلاء فى ذلك الفرع من فروع المعرفة الانسانية؟

الحقيقة أن الاجابة على ذلك تستلزم بحثا طويلا يخرج بنا عما نقصد إليه من بحثنا و هو تحديد دور السيوطى فى الدرس اللغوى لا سيما أن الآثار التى خلفتها القرون الطويلة من الكثرة بحيث يصعب مجرد حصرها فضلا عن تناولها بالدراسة، و ليس يعنى ذلك التقاعس عن التعرض لهذا الموضوع، و إنما يعنى أننا سنتناوله بالقدر الذى نراه موفيا لما نقصد إليه من بحثنا الأساسى و لذلك فلا لوم علينا إذا اقتصرنا على تناول المعالم الرئيسية لهذا الموضوع أو اقتصرنا على الاشارة إلى أهم رجال اللغة، مغضين النظر عن بعض التفاصيل التى لا تحدث تغييرا فى الصورة العامة التى نرسمها و نحددها.

و البحث فى اللغة ينشأ لدى أى أمه من الأمم نتيجة لقيام تضاد بين لغتين أو مرتبتين من لغة واحدة «١»، فحينئذ يمكن ملاحظة بعض الخصائص اللغوية، و قد كانت العربية منذ وقت مبكر حافلة بصور الخلاف بين لهجاتها المتعددة التى تمثل مستوى معيناً فى الاستعمال العادى بعضها مع بعض من ناحية، و بين جميع هذه اللهجات و بين اللغة المثالية التى هى لغة القرآن و الأشعار و التى كان العرب جميعا يستطيعون فهمها من ناحية أخرى.

بيد أن الدافع القوى الذى دفع إلى البحث فى الدرس اللغوى و العناية بالألفاظ اللغوية هو نفس ما حدث بالنسبة للنحو من انتشار اللحن نتيجة لاختلاط العرب بغيرهم من الأمم، فلم يعد اللحن يقتصر على عدم القدرة على ضبط أواخر الكلمات بل تعداه إلى استعمال الألفاظ و تحريفها فى الاستعمال التى تعارفت العرب عليها، أو عدم القدرة من قبل المستعربين على حفظ هذه الألفاظ و ضبطها و النطق بها على هيئاتها الصحيحة الصوتية و الصرفية مما هدد بضياح كثير من الفاظ اللغة، و حفز بالتالى العلماء على تدوينها (١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربى ترجمة الدكتور محمد عبد الحليم النجار ج ٢ ص ١٢٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٨١
و ضبطها و البحث عن معانيها الدقيقة، لتعين فيما بعد على تفهم معانى القرآن الكريم و الحديث و الشعر، و قد عبر عن هذه الحقيقة ابن خلدون بقوله: انه «لما فسدت ملكة اللسان العربى فى الحركات المسماة عند أهل النحو بالاعراب و استنبطت القوانين لحفظها كما قلناه، ثم استمر ذلك الفساد بملاسة العجم و مخالطتهم حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب فى غير موضوعه عندهم ميلا- مع هجنة المستعربين فى اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتابة و التدوين خشية الدروس و ما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن و الحديث فشمّر كثير من أئمة اللسان لذلك و أملوا فيه الدواوين» «١». و من هنا فإن العناية بدراسة ألفاظ اللغة و تحديد مدلولاتها و ضبطها قديماً، و ربما كان هذا النوع من الدراسة أقدم فى نشأته من العناية بالاعراب، لأن نشأته قد بدأت فى الظهور منذ العناية بالنص القرآنى و تفسير بعض ألفاظه. و لعل فيما ينسب إلى ابن عباس رضى الله عنه من المسائل المعروفة بمسائل نافع بن الأزرق لعل فيها دلالة على هذه العناية منذ وقت مبكر سواء صحت نسبة جميعها أو بعضها.

على أننا ندخل فى دائرة الدراسة اللغوية الجادة التى بقى لأصحابها آثار تدل على نوعيه دراساتهم، أو أثر عنهم قيامهم بأنواع من الدراسات اللغوية حين تصل إلى أبى عمرو بن العلاء «٢»، و نكون بذلك قد تخطينا من المشتغلين بالبحوث اللغوية طبقة أبى الأسود و تلاميذه الذين غلب عليهم الاشتغال بالنحو، و قد كان أبو عمرو معاصراً لعبد الله بن أبى إسحاق صاحب الشهرة الكبيرة فى تاريخ النحو و القياس و كان «عبد الله يقدم على أبى عمرو فى النحو، و أبو عمرو يقدم عليه فى اللغة، و كان أبو عمرو سيد الناس و أعلمهم بالعربية و الشعر و مذاهب العرب» «٣».

و قد ولد أبو عمرو بمكة عام ٧٠هـ تقريبا و عاش بالبصرة، و تحدثنا تراجمه العديدة فى كتب الطبقات بقيامه بجمع أشعار العرب القدماء و الدعوب على (١) ابن خلدون: المقدمة ص ٥٤٨.

(٢) راجع مقدمة تهذيب اللغة للأزهري ج ١ ص ٨.

(٣) المزهر ج ٢ ص ٣٩٨، ٣٩٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٨٢

شرحها و إجراء الملاحظات اللغوية عليها، بيد أن شيئا من كتبه لم يصل إلينا «١»، و قد ذكر القدماء أنه أحرق هذه الكتب قبل وفاته، و لكن أثره قد ظهر واضحا فى تلاميذه الذين برزوا فى ميدان اللغة و قد توفى أبو عمرو عام ١٤٥ هـ.

و أهم اللغويين الذين نجدهم فى هذه الفترة هم تلامذة أبى عمرو و طبقتهم «٢»، و قد قام هؤلاء بأجل الأعمال اللغوية فقد اضطلعوا بعملية شاقه تتمثل فى جمع اللغة و الرحلة إلى البادية تحقيقا لهذا الغرض، و قد ظلت الرحلة إلى البادية و السماع من الأعراب الذين لم تديف ألسنتهم بالعجمه سنه متبعه بين اللغويين حتى منتصف القرن الرابع الهجرى، و فى ذلك الحين توقف اللغويون عن الأخذ عن أعراب البادية، و انتهى بذلك عهد السماع اللغوى، و انقطع المدد اللغوى المنطوق الذى كان يعتمد عليه اللغويون بالاضافه إلى ما لديهم من مصادر مقررره و معروفة تتمثل فى القرآن الكريم بقراءته و أشعار الجاهليين و الاسلاميين و الأمويين الذين يختتمون بابن هرمه، و أقوال فصحاء الحواضر حتى منتصف القرن الثانى.

و بذلك فإن المرحلة الأولى فى التأليف اللغوى قد تأثرت بما يهتم اللغويين فى ذلك الحين و هو عملية الجمع، و نلاحظ على آثارهم التى خلفوها عنايتها بجمع الألفاظ التى تدور حول موضوع معين دون أن يكون هناك اهتمام كبير بدراسة الفلسفة اللغوية لهذه الألفاظ أو تعمق فى دراسة الخصائص اللغوية المتنوعة المتصلة بها.

و أقدم المؤلفات فى اللغة هى ما خلفه هؤلاء فقد ترك الأصمعى (٢١٥ هـ) عددا كبيرا من الكتب ضاع عدد منها و وصل إلينا عدد لا بأس به، و النظرة فى كتب الأصمعى تؤيد الملاحظة السابقة عن اتجاه المؤلفين إلى جمع الألفاظ التى تتصل بموضوع ما بعضها إلى جانب بعض، فله من الكتب خلق الانسان، الأجناس و الأنواء، الهمز، المقصور و الممدود، الصفات، الميسر و القداح، خلق الفرس، الابل، الشاء، الأخبية و البيوت، الأمثال، الأضداد، الألفاظ، (١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربى الترجمة العربية ج ٢ ص ١٢٩.

(٢) الأزهرى: مقدمة تهذيب اللغة ج ١ ص ١١.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٨٣

اللغات، الاشتقاق ... إلى آخره «١».

و يتضح من ذكر بعض مؤلفاته دراساته لبعض الظواهر العامة فى اللغة كالأشتقاق و الأضداد، و أن معظم كتبه معاجم متنوعة ترمى إلى بيان المفردات الموضوعه لمختلف المعانى. و كان معاصرا للأصمعى اللغوى الكبير أبو زيد الأنصارى (٢١٤ هـ) و كان من رواة اللغة الموثوق بهم، و قد ترك من الكتب:

الإبل و الشاء، المطر، خلق الانسان النبات و الشجر و اللغات و النوادر و الجمع و التثنية، و تحقيق الهمزة و الوحوش ... إلى آخر ما صنف من كتب «٢»، و قد بقى من كتبه عدد لا بأس به، و نفس ما قلناه عن الأصمعى و آثاره يمكن أن نحكم به على أبى زيد من ناحية توزع مباحثه اللغوية بين الاهتمام بالمعاجم المتنوعة للمعانى المختلفة و بين بعض الظواهر اللغوية، و قد قيل عنه إنه كان شديد العناية بجمع اللغات أى اللهجات، و قد ترك أبو عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠ أو ٢١١ هـ) عددا كبيرا من الكتب منها غريب القرآن و معانى القرآن و كتاب الموالى و كتاب الضيفان و مرج راهط و المنافرات و القبائل و العقارب و الحيات و النوائح و الخيل و الابل و المصادر و الأضداد «٣».

و هذه كما يتضح تعنى بالمعاجم المتنوعة للمعانى المختلفة، أو بألفاظ القرآن بالاضافة إلى اهتمامه بالأخبار و التاريخ.

و كذلك كان النضر بن شميل (٢٠٤ هـ) و هو ممن أخذ عن الخليل و كان معاصرا لهذه الطبقة، يهتم بنفس ما اهتمت به طبقته من جمع الألفاظ، و يتناول بعض الظواهر اللغوية، و قد ذكر له من الكتب كتاب الصفات الذى احتوى مباحث تدل على ما قلناه «٤». بيد أن أهم الأعمال اللغوية التى صدرت عن هذه (١) ابن النديم: الفهرست ص ٨٢، بروكلمان: تاريخ الأدب العربى ج ٢ ص ١٤٧ - ١٤٩.

(٢) الفهرست ص ٨١، بروكلمان: تاريخ الأدب العربى ج ٢ ص ١٤٥، ١٤٦.

(٣) الفهرست ص ٧٩، بروكلمان: تاريخ الأدب العربى ج ٢ ص ١٤٢-١٤٤.

(٤) ابن النديم: الفهرست ص ٧٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٨٤

الفترة تمثل فى معجم «العين» الذى نسب إلى الخليل و الذى يوضح الاتجاه إلى جمع مفردات اللغة جميعها و ترتيبها و محاولة استقصائها، و بيان المستعمل منها و المهمل.

ثم توالت جهود اللغويين بعد ذلك و وضعت بعض المعاجم على غرار كتاب العين، و أهم المعاجم العربية بعد كتاب العين «تهذيب اللغة» الذى وضعه الأزهري (٣٧٠هـ)، و قد اتبع فيه ترتيب مواد اللغة على نفس الترتيب الذى وضعه الخليل و هو: ع ح ه خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط ذ ث ر ل ن ف ب م ي و ا.

و الأزهري من رجال اللغة القدماء، و قد وقع فى أيدى القرامطة، و اختلط بقوم منهم من عرب هوازن و تميم و سمع عنهم كثيرا من اللغة، و قد كتب الأزهري مقدمة قيمة لكتابه أرخ فيها تطور الدرس اللغوى عند العرب إلى عصره فذكر ثلاث طبقات من اللغويين سمع هو من رجال الطبقة الثالثة و أخذ عنهم.

و قد وضعت كتب تهتم بجمع الألفاظ التى تتصل بمعنى من المعانى أو بجملة من المعانى المتقاربة، و وضعت بعض البحوث اللغوية المتناثرة حتى ظهر أبو الفتح عثمان بن جنى (٣٩٢هـ) فأنتج كتابه الخصائص و اهتم فيه بأبحاث عديدة تتصل بالقضايا اللغوية العامة و الخاصة فتناول أصل اللغة و نشأتها، و بحث ظواهر الاشتقاق و القياس، و تناول اختلاف اللهجات، و ضمن كتابه عديدا من البحوث القيمة بالإضافة إلى الدراسة الصوتية المتميزة التى وضعها فى كتابه «سر صناعة الإعراب» و فى غيره.

كما ظهر ابن فارس (٣٩٥هـ) و تناول فى كتابه «الصاحبى فى فقه اللغة و سنن العرب فى كلامها» أصل اللغة و نشأتها كما تناول نظم العرب فى مخاطباتها، و ما لها من الافتنان تحقيقا و مجازا، و قد ذكر أن مثل هذه الأبحاث من الأبحاث التى تهتم بالأصول «١»، و هو يقصد ما كان يعنيه و نعنيه بفلسفة اللغة أو فقهها، و قد (١) الصاحبى فى فقه اللغة: المقدمة.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٨٥

تضمن كتابه بعض المباحث الهامة فى خصائص العربية، كالاقتقاق و القياس و الترادف و المجاز و المشترك و النحت، و اختلاف اللغات و اللهجات.

كما وضع ابن فارس معجما هاما جمع فيه كثيرا من المواد اللغوية و حاول رد مفردات كل مادة من مواد اللغة إلى أصولها المعنوية المشتركة، فلجميع مفردات المادة عنده أصل أو أصلان، ثم يتفرع الأصل أو الأصلان إلى فروع كثيرة، تربطها بالأصل صلة المعنى، و هذا هو الاشتقاق الدلالى الذى حاوله من قبل ابن دريد (٣٢١هـ) فى كتابه «الاشتقاق» الذى حاول فيه رد أسماء قبائل العرب و أفخاذها و بطونها و أسماء ساداتها و أعلامها إلى أصول لغوية اشتقت منها هذه الأسماء، و قد عبر ابن جنى عن هذا الاشتقاق بالاشتقاق الأكبر بيد أنه لم يطبقه إلا على قلة من الكلمات و أيا ما كان الأمر فمعجم ابن فارس فريد فى نوعه لم يسبقه مثله، و لم يخلفه من نسج على منواله و قد سماه بمعجم مقاييس اللغة، و هو يعنى بالمقاييس ما يسميه اللغويون بالاشتقاق الكبير الذى يرد مفردات كل مادة إلى معنى أو قلة من المعانى تشترك فيها هذه المفردات.

و قد وضع الجوهري (٣٩٨هـ) معجما ضخما سماه «الصحاح» رتبته على أحرف الهجاء و راعى فى ترتيبه أواخر الكلمات، و هى الطريقة التى اتبعها المتأخرون من المعجميين فى العصر المملوكى كابن منظور و الفيروزآبادى، و قد حصر الجوهري اللغة مقتديا بحصر الخليل و بين منهجه فى مقدمته بقوله: «قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندى من هذه اللغة التى شرف الله تعالى منزلتها، و جعل علم الدين و الدنيا منوطا بمعرفتها على ترتيب لم أسبق إليه و تهذيب لم أغلب عليه، فى ثمانية و عشرين بابا، و كل باب منها ثمانية و عشرون فصلا على عدد حروف المعجم و ترتيبها إلا أن يهمل من الأبواب جنس من الفصول بعد تحصيلها بالعراق رواية و إتقانها

دراية و مشافهتى بها العرب العاربة فى ديارهم بالبادية، و لم آل فى ذلك نصحا و لا ادخرت وسعا».

ثم ألف أبو منصور الثعالبي (٤٣٩ هـ) كتابا بعنوان «فقه اللغة»، بيد أنه لم يضمه إلا بعض المباحث القليلة التى تتصل بهذا العلم، حيث تحدث فى آخره عن بعض الألفاظ العربية التى نسبت إلى الرومية، و بعض الأسماء المشتركة فى

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٨٦

الوضع بين العرب و الفرس، و بعض ما تفرد به الفرس من الأسماء مما اضطر العرب إلى تعريبه أو تركه، أو الأسماء التى ماتت فارسيتها و لا تزال عربيتها مستعملة.

و الكتاب يصب عنايته فى الغالب على إصابة مواضع الاستعمال الصحيحة للألفاظ العربية، و التفرقة بين ما وضع منها على العموم و ما وضع على الخصوص، و ذلك لتجنب اللحن اللغوى الذى ينشأ من تحريف استعمال الألفاظ عن مواضعها التى وضعتها العرب لها، فالعرب مثلا تضع الأبيض لكل ما فيه بياض، ثم تخص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب و من الانسان بالأزهر و من الغنم بالأملاح، فلا يجوز تحريف هذه الألفاظ باستعمال الأزهر للخيل مثلا، و التحريف فى الاستعمال كما يقولون «أشد من اللحن فى الاعراب و أفحش» (١).

فالكاتب فى جملته معجم للمعاني، يراعى اختلاف الدلالات و الفروق الدقيقة بينها و ينبه على مواضع الاستعمال الصحيحة للألفاظ. أما ابن سيده (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) فقد تناول فى كتابه «المخصص» بعض البحوث المتعلقة بنشأة اللغة العربية و الترادف و التضاد و الاشتقاق و الاشتراك و التعريب و يقع كتابه فى سبعة عشر جزء، و هو حسن التنسيق، بيد أنه فى غالبه يمثل معجما كبيرا للمعاني، ففيه - مثلا - الألفاظ الخاصة بخلق الانسان ثم أوائل الحمل و الولادة، ثم أسماء ما يخرج مع الولد، و الرضاع و الفطام ... و هكذا. و فى القرن السادس الهجرى وضع الزمخشري (٥٣١ هـ) معجمه المسمى «أساس البلاغة» مرتبا كالمعتاد على أحرف الهجاء، و قد عنى فيه بذكر المعنى الحقيقى للكلمة و المعنى المجازى لها.

و توفر الجوالقى من علماء القرن السادس على دراسة «المعرب من الكلام الأعجمى» و قد رتب كتابه على حروف المعجم.

ثم كان عصر المماليك الذى قدمنا خصائصه التى من أهمها اهتمام رجاله (١) ابن خلدون: المقدمة ص ٥٥٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٨٧

بالجمع و التنسيق و النظر فيما تقدم من الكتب، و كثرة المؤلفات التى أرادوا بها إحياء الحركة العلمية التى قوضت دعائمها ببغداد، و أشهر من ظهر بهذا العصر من اللغويين ابن منظور الافريقى (٧١١ هـ)، و الفيروز آبادى (٨١٦ هـ).

أما ابن منظور فقد عاش بمصر و توفى بها، و له أعمال علمية كثيرة، بيد أن أهمها و أبغاها معجمه «لسان العرب» و هو معجم واسع المادة جمع فيه ستة كتب سبقتة هى تهذيب الأزهرى و صحاح الجوهري و حواشى ابن برى عليه، و المحكم و المخصص لابن سيده، و نهاية ابن الأثير، و قد بلغت مواد المعجم ثمانين ألفا، و يمتاز بالسط فى تناول كل مادة، و قد ظهر بالمعجم أثر الموسوعية التى كانت من خصائص العصر كما سبق أن أشرنا، فهو كثير الاستطراد فى شرح المواد اللغوية، و إذا كان لهذه الطريقة بعض العيوب فإن لها بعض المزايا، فقد احتوى المعجم على كثير من الفنون فى الحديث و النحو و الصرف و التفسير و الأشعار و الأراجيز و غيرها، و ترتيب اللسان - كما هو معروف - بحسب أواخر المواد بعد تجريدتها و هو ترتيب لم يعرف من قبل إلا - عند الجوهري فى كتابه «الصاح».

و الفيروز آبادى عالم من علماء اللغة ولد بفيروزآباد إحدى قرى شيراز، و قد طوف بالشام و مصر و غيرها، و أخذ عن مشاهير علماء عصره، و قد صنف عديدا من المصنفات أربت على أربعين مصنفا، بيد أن أهم كتبه أيضا معجمه الشهير «القاموس المحيط»، و هو مختصر كتاب كان قد ألفه من قبل و سماه «اللامع المعلم العجائب الجامع بين المحكم و العباب»، و ترتيبه كترتيب اللسان، و يمتاز بالاختصار مع كثرة موادها فقد احتوى نحو ستين ألف مادة، و قد استعمل مؤلفه الرموز التى تدل على الجمع و الموضع و اللفظ

المعروف ليستعين بذلك على الاختصار، بيد أن هذا الاختصار قد جعل المعجم محل انتقاد بعض المتأخرين و الحق أن بالمعجم بعض العيوب التى ترجع إلى الاختصار و بعض العيوب التى ترد إلى غير ذلك، فصاحبه لا يذكر أسماء الذين ينقل عنهم و لا ينبه- كما هو شأن اللغويين- على الفصيح و الغريب و الحوشى و المهمل و المذموم ... إلى آخره، بالإضافة إلى خلطه بين الأفعال الثلاثية و الرباعية و الخماسية، كما أنه لا

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٨٨

ينبه فى أحيان كثيرة على الفروق الدلالية أو النحوية بين الألفاظ التى يفسر بها و بين الألفاظ المفسرة.

بعد هذا العرض لتطور الدراسة اللغوية قبل السيوطى- فى بيئة اللغويين- و بيان أبرز معالمها نستطيع أن نخلص إلى أن جميع ما سبقه من دراسات لغوية تتصل بالمستويات اللغوية غير النحو و الصرف، أو بعبارة أخرى تتصل بفقهاء اللغة كما سبق أن حددنا مقصودنا بهذا المصطلح، و هى التى تأثر بها و اعتمد عليها فى دراساته، يمكن أن تندرج تحت أنواع أربعة من الدراسات:

١- دراسات تهتم ببعض مسائل فقه اللغة، كدراسة الأصمعى للاشتقاق، و كتاب «الصاحبى» لابن فارس الذى تحدث فيه عن نشأة اللغة و تناول بعض مسائل فقه اللغة، و كتاب «الخصائص» لابن جنى الذى بحث فيه أصل اللغة و تناول عددا من الموضوعات التى تهتم فقه اللغة، و بعض الموضوعات التى ضمنها ابن سيده فى المخصص و بعض موضوعات كتاب «فقه اللغة» للثعالبي، و بعض موضوعات كتاب «المعرب» للجوالقي، و هناك عديد من الكتب التى تضمنت بعض البحوث اللغوية الهامة فى طياتها كأمالى القالى و أمالى ثعلب و أمالى الزجاجى، و هناك طائفة أخرى اقتصر على جانب من جوانب دراسات فقه اللغة ككتاب «الأضداد» لأبى عبيد، و الأضداد لابن الأنبارى، و المقصور و الممدود لابن السكيت، و المقصور و الممدود لابن سيده، و كذلك للقالى، و الإلماع فى الاتباع لابن فارس، و أمثال هذه الكتب.

٢- معجمات تهتم بجمع الألفاظ و حصرها رامية إلى شرحها و ترتيب موادها ترتيبا خاصا يتسنى معه إمكان الرجوع إليها لمن يبغي ذلك فى سهولة و يسر، و أول من عمل على تدوين معجم شامل هو الخليل الذى وضع «العين» أو وضع فكرته و منهجه و أساسه و أكمله بعض تلامذته، و قد ظهر بعده «معجم الجمهرة» لابن دريد، و قد خالف فى ترتيبه سابقه، و هناك من أمثال هذه المعاجم الشاملة التهذيب للأزهري، و المجمل لابن فارس، و الصحاح للجوهري، و أساس البلاغة للزمخشري، و العباب للصغاني، و اللسان لابن منظور، و القاموس الفيروزآبادى.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٨٩

٣- معجمات ترمى إلى بيان الألفاظ الموضوعة لمختلف المعانى و الموضوعات فترتب المعانى و الموضوعات بطريقة خاصة، و تذكر الألفاظ التى تستعمل فى كل منها، و أهم هذه المعجمات «الألفاظ» لابن السكيت (٢٤٣ هـ)، و «الألفاظ الكتابية» للهمداني (٢٢٧ هـ)، و «فقه اللغة» للثعالبي، و أكثرها جمعا و أضخمها كتاب المخصص لابن سيده.

٤- معاجم خاصة تقتصر على ذكر ألفاظ موضوع من الموضوعات أو تهتم بطوائف معينة من الألفاظ، و هذه أقدم مؤلفات اللغة ظهورا، و يمثلها كتاب الأنواء و النبات لأبى حنيفة، و كتب الأصمعى التى أشرنا إليها و كذلك كتب أبى زيد فى الابل و المطر و غيرها، و كتب أبى حاتم و أمثال هذه المصنفات.

هذه جوانب الدراسة اللغوية التى سبقت السيوطى و أهم ما وضع فيها من الكتب، بيد أننا ينبغى ألا نغفل ما كان يحدث خارج البيئة اللغوية من تناول للغة، و نقصد بذلك دراسة الأصوليين (علماء أصول الفقه) للغة، فالحق أن السيوطى لم يقتصر على النظر فى أبحاث اللغويين بل تجاوز ذلك إلى النظر فى أبحاث الأصوليين التى تهتم باللغة، و الحق أن «المقدمة اللغوية عند الأصوليين من أدق و أوفى ما كتب و يكتب عن الحياة اللغوية منذ نشأة اللغة إلى أن أصبحت كائنا معقد البناء و التركيب» (١).

و قد ألم الأصوليون فى هذه المقدمة بمباحث لم يستوفها الدارسون اللغويون، و لا نكون مبالغين إذ قلنا: إن تتبع ما عند الأصوليين من

البحث اللغوى كثيرا ما يكون أجدى من تتبع بحوث أصحاب اللغة أنفسهم «٢».

كما كان للمتكلمين نصيب كبير فى التوفر على دراسة نشأة اللغة و القول بمواضعها و اصطلاحها أو توقيفها، و قد اختلفوا فيما بينهم حول ذلك، و تعدّ هذه المسألة من أهم أبحاث علم الكلام. (١) د. سيد خليل: التصور اللغوى عند العرب ص ١٨٤ (مقال بمجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية).

(٢) أمين الخولى: مشكلات حياتنا اللغوية ص ٢٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٩٠

آثاره اللغوية و مكانها من حياة الدرس اللغوى

إشارة

توفر السيوطى على جميع هذه الدراسات التى سبقته، و قبل أن نحدد قيمة عمله بالمقارنة بأعمال السابقين و خصائص هذا العمل و مميزاته يحسن أن نعرف أولا بآثاره اللغوية لنتمكن من تحديد أبعاد جهوده فى الدرس اللغوى.

و أهم هذه الآثار التى تركها السيوطى فى اللغة كتابه الشهير «المزهر»، الذى سنتناوله بالدراسة و نعتمد عليه فى بيان منهج مؤلفه فى الدرس اللغوى، و موقفه من الدراسات اللغوية السابقة، و مكانه بين هذه الدراسات، و قبل أن نفيض فى ذلك نشير إلى أن للسيوطى بعض الرسائل الصغيرة فى اللغة، و العجيب أن قائمة المؤلفات التى تخص اللغة قد سقطت من الترجمة ربما منه و ربما من ناسخى الكتاب بعد اللغوية الأخرى، مما رجح عندي أن قائمة المؤلفات التى تخص اللغة قد سقطت من الترجمة ربما منه و ربما من ناسخى الكتاب بعد ذلك و قد سبق أن ذكرت إشارته إلى المزهر فى كتابه «النكت على الألفية...» الذى لا يزال مخطوطا «١»، و قد ذكر كتاب «النكت» بين ما ذكره بحسن المحاضرة مما يرجح تأليف المزهر قبل كتابة الترجمة.

و الرسائل التى تركها فى اللغة غير المزهر هى:

١- المتوكلى فيما ورد فى القرآن باللغة

الحبشية و الفارسية و الهندية و النبطية و القبطية و السريانية و العبرانية و الرومية و البربرية، و هو كتيب صغير، و قد طبع بدمشق فى عام ١٣٤٨ هـ، و قد ألفه للخليفة العباسى المتوكل على الله صديقه، و كان قد طلب إليه ذلك «٢»، و قد بين السيوطى أنه سماه بالمتوكلى اقتداء بأبى بكر الشاشى الذى ألف كتابا فى الفقه بأمر الخليفة المستظهر و سماه المستظهرى، (١) النكت ورقة رقم ٢٩٩.

(٢) المتوكلى ص ٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٩١

و بإمام الحرمين الذى ألف فى الفقه كتابا لغياث الدين نظام الملك و سماه الغياثى، و سمي رسالة أخرى الرسالة النظامية، و غيرهم ممن فعل ذلك «١».

و قد تتبع السيوطى فى كتابه ألفاظ القرآن التى نقل عن المفسرين من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم أنها مما دخل العربية من اللغات الأخرى، و السيوطى بذلك يوافق القائلين بوجود ألفاظ معربة فى القرآن الكريم، و هو الرأى الذى هاجمه الشافعى من قبل فى رسالته «٢»، حيث نفى تأثر العربية بغيرها من اللغات و أفرد صفحات طوالا لذلك، و اتجه إلى القول بالاتفاق فى الوضع اللغوى إذا وجدت

مشابهة بين ألفاظ عربية و أخرى غير عربية، و موقف السيوطي من هذه القضية يبدو أكثر جلاء في كتابه الاتقان «٣» حيث يتناول القضية فيذكر أن أكثر الأئمة يذهبون إلى عدم وقوع ألفاظ غير عربية في القرآن و منهم الشافعي و ابن جرير و أبو عبيدة، و القاضي أبو بكر بن الطيب و ابن فارس، و ذلك لقوله تعالى: «قُرْآنًا عَرَبِيًّا»، و قوله تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ»، و حكى السيوطي إنكارهم وقوع ألفاظ أعجمية في القرآن و ميلهم إلى القول بالاتفاق في الوضع بين العربية و غيرها من اللغات، و قد بالغ بعض هؤلاء فذهب إلى أن اتساع العربية و كثرة ألفاظها جعلت أمثال هذه الألفاظ تخفى على أمثال ابن عباس و غيره ممن عزوها إلى ألسنة غير العرب، و يبدو من عرض السيوطي كثرة أنصار الرأي القائل بعربية هذه الألفاظ و تعليل ذلك باتساع لسان العرب حتى خفى على بعض الناس حقيقة هذه الألفاظ، بيد أن ثمة رأياً حاول صاحبه التوسط بين المنكرين و المثبتين و هو في الحقيقة أصوب هذه الآراء و أكثرها إدراكاً للواقع اللغوي و ما ينتج عن اختلاط اللغات بعضها ببعض من وقوع التأثير و التأثر في الألفاظ، و استعمال كل لغة بعض ألفاظ الأخرى بعد تهذيبها و صقلها و صوغها بصيغها المألوفة و هو ما يعرف في العربية بالتعريب، و قد وقع هذا التعريب في العربية، (١) المصدر السابق ص ٢.

(٢) رسالة الشافعي ص ٤١-٥١.

(٣) الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ١٣٦، ١٣٧.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٩٢

و وجدت ألفاظ أجنبية استعملها العرب قبل الاسلام في لغتهم نتيجة الاختلاط بينهم و بين غيرهم من الأمم، و قد كان بمكة جاليات أجنبية من الحبشة و الروم و الفرس ممن اشتغلوا بالتجارة و أقاموا بها، و قد دخلت إلى العربية بعض ألفاظهم بعد شيء من التحوير في أصواتها و صيغها لتناسب الأصوات و الصيغ العربية، كما أن اختلاط العرب بالأمم المحيطة بهم و هم طريق التجارة و أدواتها بين الشرق و الغرب معروف، و نلاحظ مصداق ذلك في أشعار الجاهليين لا سيما من أكثر منهم دخول بلاد الفرس و الروم أو البلاد المجاورة لها. فنلاحظ لديهم استعمال الألفاظ الأجنبية بعد تعريبها، و القول الذي يشير إلى هذه الحقيقة و يرى استعمال الألفاظ المعربة في القرآن الكريم بعد أن عربتها العرب هو ما نسب إلى أبي عبيد القاسم بن سلام، و قد نقل عنه السيوطي قوله: «و الصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً و ذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها و حولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن و قد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال إنها عربية فهو صادق، و من قال أعجمية فصادق» «١».

و قد حكى السيوطي رأياً مشابهاً لهذا، و لكنه لم يحدد قائله، و هو أكثر وضوحاً و دقة، إذ يرى أصحابه أنه «كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطة لسائر الألسنة في أسفارهم فعلقت من لغاتهم ألفاظاً، غيرت بعضها بالنقص من حروفها، و استعملتها في أشعارها و محاورتها، حتى جرت مجرى العربي الفصحى، و وقع بها البيان و على هذا الحد نزل بها القرآن» «٢».

و القرطبي ينسب هذا القول إلى ابن عطية في عبارة أكثر تفصيلاً- لخص عنها السيوطي عبارته السابقة- توضح تماماً هذه الفكرة إذ يقول: «فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب و عربتها، فهي عربية بهذا الوجه، و قد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، و برحلتى قريش، و كسفر مسافر بن أبي عمرو (١) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٨.

(٢) الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ١٣٧.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٩٣

إلى الشام، و كسفر عمر بن الخطاب، و كسفر عمرو بن العاص، و عمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة، و كسفر الأعشى إلى الحيرة و محبته لنصارها مع كونه حجة في اللغة، فعلقت العرب بهذا كله ألفاظاً أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها، و جرت إلى تخفيف

ثقل العجمة، و استعملتها في أشعارها، و محاوراتها حتى جرت مجرى العربي الصحيح، و وقع بها البيان، و على هذا الحد نزل بها القرآن، فان جهلها عربي، فكجهله الصريح بما في لغة غيره» (١).

بيد أن المنكرين لوجود ألفاظ أعجمية في القرآن لا- يقبلون الأقوال التي حاولت التوسط بينهم و بين خصومهم الذين يذهبون إلى وجودها، فابن فارس يرى خلق القرآن من الألفاظ الأعجمية، و ينكر على أبي عبيد رأيه فيقول: «إن قال قائل: فما تأويل قول أبي عبيد فقد أعظم و أكبر؟ قيل له: تأويله أنه أتى بأمر عظيم، و ذلك أن القرآن لو كان فيه من غير لغة العرب شيء لتوهم منه متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها، و في ذلك ما فيه» (٢).

و يتضح أن حجة ابن فارس لا يسندها الواقع اللغوي الصحيح، لأن العرب القدماء قد وقع في أشعارهم ألفاظ معربة كالسجنجل في شعر امرئ القيس و شهنشاخ في شعر الأعشى، و غير ذلك كثير، و لم يخرجهم ذلك عن النمط العربي السليم، و الأساليب العربية الصحيحة، فوقع ألفاظ معربة في القرآن لا- يعنى أنه نزل بجملة من اللغات، و إنما نزل بالعربية بما احتوته من ألفاظ ذات أصول أجنبية تمثلتها العربية و صقلتها وفقا لخصائصها الصوتية و الصرفية و أصبحت تستعمل بها، و هذا أمر معروف في جميع اللغات.

و السيوطي يذهب مع القائلين بوجود ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم، و قد دلّ على رأيه وضعه الكتاب الذي نتحدث فيه، و سرى له بعد قليل كتابا آخر يؤكد هذه الفكرة بيد أننا- في الحقيقة- لا نجد له- في هذا الكتاب المسمّى (١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٦٨، ٦٩.

(٢) الصحابي في فقه اللغة ص ٢٩، ٣٠.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٩٤

بالمتوكلي- رأيا فيما ذهب إليه أبو عبيد و ابن عطية و غيرهما من الذين قالوا بتعريب هذه الألفاظ و استعمال العرب لها ثم استعمال القرآن لهذه الألفاظ بعد ذلك، و إن كان ما ذهبوا إليه لا يتنافى مع اختيار السيوطي لوقوع ألفاظ أعجمية في القرآن، و قد حاول نتيجة لطبيعته عقلية الحديثية النقلية أن يدعم رأيه ببعض الآثار و الأحاديث فقال: «و أقوى ما رأيت للوقوع، و هو اختياري ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي مسرة التابعي الجليل قال: في القرآن من كل لسان» (١).

و قد أورد بعض النقول غير هذا ثم أكد احتواء القرآن على ألفاظ من مختلف اللغات بقوله «فالنبي صلى الله عليه و سلم مرسل إلى كل أمة، و قد قال الله تعالى: و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، فلا بد و أن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم و إن كان أصله بلغة قومه هو» (٢).

و على هذا الأساس وضع السيوطي كتابين أو رسالتين في هذا الموضوع غير تناوله له في كتابه الإتيان، و إذا عدنا إلى «المتوكلي» فإننا نستطيع أن نخرج بعد قراءته بالملاحظات التالية على منهجه:

أولا: من ناحية تنظيم الكتاب، رتب السيوطي الألفاظ المنسوبة إلى كل لغة من اللغات على انفراد، فبدأ بذكر الألفاظ التي جاءت بلغة الحبشة، ثم ما جاء بالفارسية فالرومية، فالهندية، فالسريانية، فالعبرانية، فالنبطية، فالقبطية، فالتركية، فالنجليزية، فالبربرية، فكأن بالقرآن ألفاظا من إحدى عشرة لغة، و هي اللغات التي كانت معروفة وقت نزوله.

ثانيا: جميع ما أورده من الألفاظ حوالي ٩١ لفظا موزعة بين اللغات التي (١) الإتيان ج ١ ص ١٣٧.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٧، و حجة السيوطي واهية في نظرنا فليس وجود ألفاظ من لغة ما أو لفظه واحدة في العربية يعنى أن الناطق للعربية ينطق بهذه اللغات جميعا، و من البديهي أن المخاطبين بالقرآن الكريم من غير العرب لا- يمكن لهم فهمه إلا بتعلم اللسان العربي، و ليست اللغة مجرد ألفاظ إنما هي نظام له خصائص صرفية و صوتية و تركيبية و دلالية بالإضافة إلى ذلك.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ١٩٥

ذكرها، بيد أن بعض هذه الألفاظ قد تكرر أكثر من مرة فيما أورده، لكونه منسوبا إلى أكثر من لغة، و بالرغم من ذلك لم يلفت

السيوطى إلى شىء بصدد هذه الملاحظة و هى اختلاف النقول فى نسبة بعض الألفاظ إلى اللغات، فهو بصدد الحديث عن السريانية يورد لفظة «الفردوس»، و ذلك بإسناد عن ابن عباس عن كعب الأخبار «١»، ثم لا يلبث أن يوردها بين ما ورد بالنبطية و يعزو ذلك إلى السدى «٢»، و قد أوردها من قبل بين الكلمات التى جاءت بالرومية و نقل ذلك عن مجاهد «٣»، و كثير من الألفاظ أورد السيوطى فيها نقولا مختلفه من هذا القبيل، و لم يعلق بشىء على ذلك، بل اكتفى بتنظيم رسالته على النحو الذى شرحناه، و سرد هذه الألفاظ موردا النقول التى تعزوها إلى لغة من اللغات، و هكذا يتضح فى كتابه غلبه الطابع الثقلى و العقلية الحديثية التى فصلنا من قبل خصائصها، و قد حدد فى مقدمته ما يبين أنه سيذكر الألفاظ التى «ذكر الصحابة و التابعون أنها بلغة الحبش أو الفرس أو غيرهم مما سوى العرب» «٤» فكانه بذلك يصرح بحرصه على اتباع المنهج الثقلى.

و قد نسب السيوطى للحبشيه ٢٨ لفظا، و للفارسيه عددا قريبا من هذا، و للرومية تسعة ألفاظ، و للهنديه ثلاثة ألفاظ، و للسريانية تسعة عشر لفظا، و للعبرانية ثلاثة عشر و للنبطية ثلاثة و عشرين، و للقبطية سبعة ألفاظ، و للتركية لفظا واحدا، و للزنجية ثلاثة ألفاظ و للبربرية سبعة ألفاظ.

ثالثا: نلاحظ أنه اجتهد فى إيراد كل ما نقل القول عن نسبه إلى غير العربية و يبدو أنه نتيجة لوجهة نظره السابقة قد حاول أن يصل بهذه الألفاظ إلى عدد كبير، فتسمح فى النقل إلى حد كبير، برغم أن بعض هذه الألفاظ يمكن القطع بعربيته، و أن بعضا آخر لا يقوم دليل على وجوده فى بعض اللغات - لا سيما الساميه منها - قبل العربية، و لذلك فلا حجة فى نسبه إليها دون العربية، و كثير (١) المتوكلى ص ٩.

(٢) المصدر السابق ص ١١.

(٣) نفس المصدر ص ٨.

(٤) نفس المصدر ص ٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٩٦

من ألفاظ هذه اللغات لا تزال واحدة، أو متشابهة لكونها من عائلة لغوية واحدة، فلا داعى لنسبة بعض ألفاظ القرآن إليها دون العربية. و ليس من الانصاف أن نؤاخذ السيوطى بإغفال بعض الحقائق التى لم نصل إليها إلا فى عصرنا الحديث ففكرة العائلات اللغوية وليدة أبحاث علماء اللغة المحدثين، و قد ظهرت أواخر القرن الثامن عشر و أوائل التاسع عشر «١»، و على أساس من هذه الفكرة التى ترد اللغات الحبشيه و العبريه و العربيه و السريانية بالاضافه إلى ما قيل من انتماء اللغة القبطية إلى نفس العائلة، على أساس من هذه الفكرة التى ترد هذه جميعا إلى أصل واحد، و فصيلة لغوية واحدة هى فصيلة اللغات الساميه «٢»، نستطيع أن نرد كثيرا من الألفاظ التى نقل السيوطى عن القدماء نسبتها إلى هذه اللغات لأن وجودها بها إنما هو من قبيل التشابه بين هذه اللغات التى تنتمى إلى أصل واحد و ليس فيه دليل على حدوث التأثير، و المعروف أن كلمة مثل «نهر» لا تزال موجودة و مستعملة فى جميع اللغات الساميه، فليس لنا أن ننسبها إلى إحداها و ندعى أنها دخيلة فى غيرها من أخواتها الساميات، و من هذه الألفاظ التى نستطيع القول بعربيته مع نقل السيوطى نسبتها إلى غيرها كلمة «شطر» التى نقل أنها حبشيه و معناها تلقاء، و قد أكد الشافعى فى رسالته عربيته و أورد شواهد لذلك منها قول خفاف بن ندبة:

ألا من مبلغ عمرا رسولا و ما تغنى الرسالة شطر عمرو

و قول ساعده بن جؤية:

أقول لأم زنباع أقيمي صدور العيش شطر بنى تميم

و غير ذلك من الشواهد، فكثرة دوران الكلمة على ألسنة الشعراء القدماء يرجح أصالة عربيته، و أنها ليست من المعرب الذى دخل إلى اللغة، فنسبة (١) د. على عبد الواحد وافى: فقه اللغة ص ٥.

(٢) المصدر السابق ص ١٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٩٧

مثلا إلى الحبشية أمر غير مقبول «١».

و كلمة «ابلى» التى قال إن معناها: ازدردى بالحبشية، ثم ذكر نسبتها مرة أخرى إلى الهندية، مع أن الكلمة باشتقاقها مستعملة و معروفة فى العربية فنسبتها إلى الحبشية تحكم بغير دليل مقبول، فقد ذكر صاحب اللسان «بلع الشيء بلعا و ابتلعه و تبلعه ... جرعه، و بلع الطعام و ابتلعه لم يمزغه، و أبلعه غيره»، و ذكر غير ذلك من المشتقات التى تفيد استعمال المادة بمشتقاتها فى العربية مذ عصور قديمة، و لا دليل على نسبة الكلمة إلى لغة سامية أخرى.

و كلمة «منسأة»، التى معناها «العصا» نسبتها إلى الحبشية مرة و أخرى إلى الزنجية، و ليست الحبشية بأولى من العربية فى نسبة الكلمة إليها، فمادة «نساء» مستعملة فى العربية منذ القدم، و قد ذكر صاحب اللسان أن معناها الأول التأخير، و قال إن «المنسأة» العصا يهمز و لا يهمز، ينسأ بها، و أبدلوا إبدالا كليا فقالوا «منسأة» و أصلها الهمز و لكنها بدل لازم حكاة سيبويه و قد قرئ بهما جميعا، قال القراء فى قوله عز و جل: تَأْكُلُ مِنْسَأَتُهُ: هى العصا العظيمة التى تكون مع الراعى يقال لها المنسأة، أخذت من نسأت البعير أى زجرته ليزداد مسيره، و قد أورد صاحب اللسان جملة من الشواهد الشعرية المنسوبة إلى الجاهليين فى استعمال هذه اللفظة. بل إن السيوطى قد نقل أن كلمة «كفر» من «كفر عنا سيئاتنا»، بمعنى «امح» عبرانية أو نبطية «١»، مع أن استعمالها العديدة بالعربية و التى ترجع معناها إلى الستر و التغطية كما هو مذكور بكتب اللغة بالإضافة إلى وفرة اشتقاقات مادتها يدحض القول بنسبتها إلى غير العربية، و إنما كل الاستعمالات التى تتفرع عن الأصل الأول يمكن أن يلحقها بعض التغيير عن الأصل تبعا لقوانين التطور الدلالي بأنواعه العديدة «٣».

و كذلك كلمة «يحور» من قوله تعالى: إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ نقل السيوطى نسبتها إلى الحبشية لأنها بلغة الحبشة معناها يرجع، و نحن لا ننكر هذا المعنى أو وقوعه فى الحبشية، و لكننا ننكر نسبة اللفظة إلى الحبشية فهى مستعملة منذ القدم (١) الشافعى: الرسالة ص ٣٤، ٣٥.

(٣) لسان العرب «مادة كفر».

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ١٩٨

فى العربية، قال فى اللسان: «الحور: الرجوع عن الشيء أو إلى الشيء، حار إلى الشيء و عنه حورا، و محارا، و محارة و حؤورا رجع عنه و إليه، قال لبيد:

و ما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع»

فالكلمة مستعملة بهذا المعنى فى العربية، و وجودها فى الحبشية بنفس المعنى أمر طبعى لكونها لغة سامية كالعربية، و لكن ذلك لا يعنى أن إحدى اللغتين قد نقلت الكلمة عن الأخرى، و إنما كتلتها قد أخذتها من اللغة الأم.

و كلمة «اليم» المستعملة فى القرآن و التى نقل أنها معربة عن السريانية أو عن العبرانية ليس هناك ما يؤكد أن العربية قد أخذتها عن إحدى هاتين اللغتين، و إنما وقعت المشابهة نتيجة لاتحاد الأصل الذى تنتمى إليه اللغات الثلاث، و الذى يجعلنا نرجح أن أكثر هذه الألفاظ أو جانبا منها لم تنقلها العربية عن هذه اللغات أن اللغات السامية لم يكن لها ما يدفع إلى تأثر العربية من غلبة المتكلمين بها أو كثرتهم أو تحضرهم باستثناء الحبشية التى كان لها شيء من التأثير بالمجاورة للعرب فى وقت من الأوقات قبل الإسلام.

و أمام هذه الكلمات المنسوبة إلى اللغات السامية نستطيع القول بأن وجهة نظر الذين نفوا دخول ألفاظ أعجمية فى القرآن و ذهبوا إلى القول بالاتفاق فى الوضع اللغوى أقرب إلى الصواب من وجهة نظر الذين قالوا بوجود هذه الألفاظ، و إن كانت كلتا النظرتين غير دقيقة فى جملة ما ذهبت إليه.

و لا يقف الأمر عند الحدود السابقة، بل إن كثيرا من الألفاظ التى نسبتها إلى لغات أخرى غير سامية نستطيع أن نحكم بعربيتها لوجود

الأدلة التي تدلنا على ذلك، فقد نقل أن كلمة «مقاليد» كلمة فارسية ومعناها المفاتيح، مع أن مادة «قلد» و مشتقاتها مستعملة في العربية بكثرة و منذ القدم و قد ذكر صاحب اللسان «قلد الماء في الحوض و اللبن في السقاء و السمن في التّحى يقلده قلدا، جمعه فيه، و القلد جمع الماء في الشيء، و رجل مقلد: مجمع، و المقلد: عصا في رأسها اعوجاج يقلد بها الكلاً ... و الجمع المقاليد، و المقلد: المنجل يقلع به القت قال الأعشى:

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: 199

لدى ابن زياد أو لدى ابن معرّف يقت لها طورا و طورا بمقلد و المقلد: مفتاح كالمنجل .. و قوله تعالى: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يجوز أن تكون المفاتيح، و معناه له مفاتيح السموات و الأرض، و يجوز أن تكون الخزائن، قال الزجاج: معناه أن كل شيء من السموات و الأرض فالله خالقه، و فاتح بابه». كما نقل نسبة بعض ألفاظ إلى القبطية لا يمكننا أن نقره عليها لوجودها في العربية و استعمالها منذ وقت بعيد، من ذلك كلمة «تحتها» في قوله تعالى:

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا إِذْ نَقَلَ أَنْ مَعْنَاهَا «بطنها» بالقبطية، و كلمة «بطائن» في قوله تعالى: بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ حَيْثُ نَقَلَ أَنَّهَا بِالْقَبْطِيَّةِ مَعْنَاهَا «ظواهر» كذلك كلمة «الأولى» و هي اللفظة العربية الصريحة نقل أنها بالقبطية معناها «الآخرة» و ذلك في قوله تعالى: الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَ كَذَلِكَ كَلِمَةٌ «الآخرة» العربية الصريحة نقل أنها بالقبطية بمعنى «الأولى» و ذلك في قوله تعالى: فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ.

و نخلص مما تقدم إلى القول بأن مذهب المانعين لوجود ألفاظ أعجمية بالقرآن و الذين يقولون بالاتفاق في الوضع اللغوي يجافى الصواب في أكثر نواحيه، و أن الذين يذهبون إلى وقوع هذه الألفاظ بالقرآن قبل أن تعربها العرب أو تستعملها لا يطابق الحقيقة و أن الذين توسطوا بين الفريقين و قالوا بوقوع هذه الألفاظ بعد أن عربتها العرب و استعمالها يبدو رأيهم أكثر صوابا، و إن لم يكن قد أصاب كبد الحقيقة، فليس من المقطوع به أن جميع هذه الألفاظ المنسوبة إلى اللغات الأخرى قد استعمالها العرب من قبل، أو عربتها، بل إن بعضها قد استعماله القرآن على الصيغ العربية لأول مرة.

أما ما نأخذه على السيوطي فهو أنه قد انساق وراء مذهبه و حاول نسبة أكبر عدد من الألفاظ التي وردت بالقرآن إلى لغات غير العربية، و جانب كبير منها تصح نسبته إلى هذه اللغات مع القول بأنه معرب، و جانب ليس بالقليل لا يمكن القطع بأنه من هذا المعرب و القول بنسبته إلى هذه اللغات نظرا لوجوده بها- كما بينا- تحكم من غير دليل إذ ليس مجرد التشابه في الصيغ و الأصوات في

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: 200

اللغات التي ترجع إلى أصل واحد دليلا على نقل إحداها عن الأخرى.

٢- المهذب فيما ورد في القرآن من المعرب:

و هو مؤلف آخر للسيوطي في نفس الموضوع الذي كنا بصدده آنفا، بيد أن هذا المؤلف يتميز عن سابقه بعدة مميزات سنوضحها فيما يأتي، و قبل بيان مميزات هذا المؤلف نذكر أنه لم يطبع إلى الآن، و قد اعتمدت على نسختين مخطوطتين بدار الكتب المصرية بالخزانة التيمورية أولاهما برقم 285 لغة، و هي في 15 ورقة أي أن صفحاتها 29 صفحة، و صفحاتها من القطع الكبير و ليس بهذه النسخة اسم كاتبها و لا تاريخ كتابتها، و النسخة الأخرى برقم 286 لغة، و عدد أوراقها 18 ورقة أي أنها تقع في 36 صفحة، و خطها أكثر وضوحا من الأولى، كتبها على بن سالم ابن أحمد الشافعي في شوال سنة 1299 هـ.

و قد أشار السيوطي إلى مؤلفه هذا في كتابه الاتقان بصدد الحديث عما وقع في القرآن بغير لغة العرب حيث قال: «قد أفردت في هذا النوع كتابا سميته المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب» (١)، و ما ذكره بالاتقان في هذا الموضوع ليس غير تلخيص لما بالمهذب.

و يمتاز هذا المؤلف عن سابقه بالبسط و الايضاح و كثرة النقول، و قد ذكر فيه ١١٧ لفظاً نقل نسبتها إلى غير العربية من اللغات المختلفة فهو بذلك قد زاد على ما بالكتاب السابق نحو ثمانية عشر لفظاً، كما أنه- في هذا الكتاب- قد بسط القول عما نقل عن نسبة كل لفظ، بينما أجمل القول و اختصر في كتابه السابق.

و يختلف ترتيب ألفاظ «المهذب» عن ترتيب الكتاب السابق، فقد رتب هذه الألفاظ حسب الحروف الأبجدية فبدأ بكلمة «أباريق»، ثم «أب» ثم «ابلعى» ثم «أخلد» و هكذا حتى نهاية ما أورده من الألفاظ التي انتهت بلفظتي «اليم» ثم «اليهود». (١) الاتقان ج ١ ص ١٣٦.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٠١

و قد قدم لمؤلفه بمقدمة مستفيضة تحدث فيها بوضوح عن اختلاف العلماء حول وقوع المعرب في القرآن، و عرض هذه الآراء جميعها، و بين أن اختياره هو وقوع ألفاظ من جميع اللغات بالقرآن الكريم، و قد أورد عددا من النقول التي تؤيد رأيه و أكثر منها فروى عن إسحاق بن أبي ميسرة قوله: «في القرآن من كل لسان»، و نقل بإسناد عن الضحاك نفس القول، و عن غيره أنه قال: «ليس لغة في الدنيا إلا و هي في القرآن ...» إلى آخر ما أورده، و قد تحدث محاولاً التعليل لاحتواء القرآن على ألفاظ من اللغات الأخرى و نقل عددا من وجهات النظر التي ترى أن ذلك إحدى مناقب القرآن و فضائله، و قد عرضنا لهذا الموضوع فلا حاجة بنا إلى إعادته. و قد ختم السيوطي مؤلفه بقوله: «فهذا ما وقفت عليه من الألفاظ المعربة في القرآن بعد الفحص الشديد سنين، و سعة النظر و المطالعة، و لم تجتمع في كتاب قبل هذا، و قد نظم القاضي تاج الدين السبكي منها سبعة و عشرين لفظاً في أبيات، و ذيل عليه الحافظ أبو الفضل بن حجر بأبيات فيها أربعة و عشرون، و عدة ما استدرسته عليهما اثنان و سبعون لفظاً، ستة كالمكررة ... فتمت بدونها مائة لفظ و سبع عشرة لفظاً، و قد ذيلت عليهما بالست و الستين» (١).

و هكذا يتضح مدى الجهد الذي بذله في الاحاطة بجوانب الموضوع، و قد غلبت عليه الطبيعة التي امتاز بها عصره و هي الجمع و الترتيب و التنسيق- و المنهج النقلي الذي وضحنا خصائصه- في هذه المرحلة.

و قد ختم السيوطي مؤلفه بمنظومة للتاج السبكي يذكر فيها الألفاظ المعربة التي وقعت في القرآن و التي يقول فيها:

السلسيل و طه كورت بيع روم و طوبى و سجيل و كافور

إلى آخر ما أورده، ثم أتبعها بما استدركه الحافظ ابن حجر الذي نظم فيه قوله:

وزدت حرّم و مهل و السجل كذا السرى و الأب ثم الجبت مذكور

(١) المهذب ورقة ١٧ ص ٣٤.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٠٢

ثم أورد بعد ذلك نظماً له في الألفاظ التي زادها في أحد عشر بيتاً أولها:

وزدت يس و الرحمن مع ملكوت ثم سنين شطر البيت مشهور

و الجدير بالذكر أن هذه المنظومات التي أوردتها بآخر كتابه قد أوردتها آخر النوع الذي تحدث فيه عما وقع في القرآن بغير لغة العرب في كتابه الاتقان (١).

و بالرغم من أن السيوطي قد اختار كما بينا مذهب القائلين بوقوع ألفاظ أعجمية في القرآن فإنه يعقد في كتابه المزهر مبحثاً عن «توافق اللغات» (٢)، يذكر فيه أن الجمهور قد ذهبوا إلى أنه ليس في كتاب الله سبحانه شيء بغير لغة العرب، و ينقل في ذلك أقوال أبي عبيدة و ابن فارس و الفخر الرازي التي تذهب إلى القول بالموافقة في الوضع اللغوي بين العربية و بين اللغات الأخرى، ثم ينقل بعض الأمثلة لألفاظ أخرى منها ما وقع في القرآن، و منها ما لم يقع، ذهب اللغويون إلى القول بأنها مما وافقت فيه العربية غيرها من اللغات، و لم يعقب بشيء على هذه النقول التي تخالف وجهة نظره.

٣- بعض الأبحاث اللغوية المتصلة بالقرآن الكريم:

تناول السيوطى فى كتابه الاتقان بعض المباحث اللغوية سنقتصر منها على الأبواب التى تناول فيها غريب القرآن و ما وقع فيه بغير لغة الحجاز، و حديثه عن الخاص و العام و المطلق و المقيد.

و قد تناول غريب القرآن «٣» فبدأ ببيان ما صنف فى الموضوع من قبل و نص على ضرورة معرفته بالنسبة للمفسر، و أن علم ذلك يحتاج إلى كتب اللغة و معاجمها، ثم بين أن أولى ما يرجع إليه فى ذلك ما ثبت عن ابن عباس و أصحابه الآخذين عنه، ثم ساق بعد ذلك جميع ما ثبت عنده عن ابن عباس من طريق ابن أبى طلحة لأنها من أصح الطرق عنه و هى التى اعتمد عليها (١) الاتقان ج ١ ص ١٤١، ١٤٣.

(٢) المزهر ج ١ ص ٢٦٦.

(٣) الاتقان ج ١ ص ١١٥-١٣٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٠٣

البخارى، و بعد سرد جميع هذه الألفاظ التى ثبتت روايتها تفسيرها عن ابن عباس تحدث السيوطى عن الاحتجاج لغريب القرآن بالشعر و نبه إلى أن ذلك كثير غير منكر، و أن ابن عباس قد أمر به، ثم نقل عن ابن عباس مسائل نافع بن الأزرق. و يتمثل جهد السيوطى فى جمع هذه المسائل من مختلف المظان و تمحيصها و إيرادها فى كتابه بتمامها، و هذه المسائل تتناول أسئلة عن ألفاظ غريبة فى القرآن و بيان تفسيرها و الاستدلال عليها بما روى عن العرب من الشعر، و قد استغرقت صفحات طوالا، و الحق أنها ذات قيمة جلية فى بيان كثير من ألفاظ القرآن الكريم.

و يتضح من عرض السيوطى لهذا الموضوع تأكيد ما قلناه عن منهجه النقلى فى التأليف الذى يتمثل فى الإشارة إلى المؤلفات السابقة و جمع الأقوال المتنوعة، و استقصاء الموضوع استقصاء تاما، ثم إن منهجه الحدیثى النقلى يتضح فى تمحيصه للروايات و إيراده ما ثبت عن ابن عباس من تفسير هذه الألفاظ الغريبة، و تتضح لديه القدرة على الجمع و التنسيق.

و حين تناول ما وقع فى القرآن بغير لغة الحجاز «١»، نقل كثيرا من الألفاظ التى وردت فى القرآن و نسبت إلى لهجات القبائل المختلفة متبعا نفس منهجه النقلى، و قد أورد عددا كبيرا من هذه الكلمات، بيد أن هذا المنهج و إن ظهرت مزاياه فى جمع أطراف الموضوع فإنه كان له بعض العيوب المتمثلة فى قلة التمحيص أو قلة العناية بالمتون نفسها فقد نقل نسبة بعض الألفاظ إلى لهجات بعض قبائل العرب، و كان قد نقل من قبل نسبتها إلى لغات غير العربية، كالسريانية و العبرية و غيرها، و برغم ذلك لم يبد أية ملاحظة، اكتفاء منه بأن يقف موقف الناقل الأمين دون أن يذكر شيئا و كأن مهمته تنحصر فى النقل و الاحاطة و الجمع و حسب، فهو ينقل أن كلمة «ريون» معناها رجال بلغه حضرموت «٢»، بينما ذكر (١) الاتقان ج ١ ص ١٣٤-١٣٦.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٠٤

عند الحديث عن الألفاظ المعربة التى دخلت القرآن أنها سريانية «١»، و «منساء» معناها «عصا» فى لغة حضرموت «٢»، فى حين ينقل أنها «العصا» بالزنجية أو بالحشية فى مكان آخر «٣»، و ألفاظ أخرى من هذا القبيل لا نرى موجبا لسردها نقل نسبتها إلى بعض لهجات العرب بصدد حديثه عما وقع فى القرآن بغير لغة الحجاز ثم لا يلبث أن ينقل نسبتها إلى بعض اللغات غير العربية حين يتحدث عما وقع فى القرآن بغير لغة العرب.

و قد تناول «الخاص و العام» «٤»، فى القرآن بالبحث فبدأ بذكر صيغ العموم، ثم ذكر أن أقسام العام ثلاثة: أولها الباقي على عمومه و نص على أن مثاله قليل، و لم يمثل له دارسو هذا المبحث من قبل بحكم من الأحكام الفرعية أى بنص من النصوص لم يدخله

التخصيص بينما مثل له السيوطى بقوله تعالى:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ، والقسم الثانى: العام المراد به الخصوص و الثالث العام المخصوص، و قد تناول الشافعى من قبل هذه المباحث فى رسالته و بين أن من سنن العرب فى كلامها أن تطلق العام و تريد به الخاص إلى آخر ما ذكره، و قد تناولها الأصوليون فى مقدماتهم اللغوية، و مبحث السيوطى هنا من نوع مباحث الأصوليين و قد أفاد منهم، فتعريفه للعام هو نفس التعريف الذى تواضعوا عليه «٥»، و الجدير بالذكر أنه قد اختصر ما أطال فيه الأصوليون، كما أنه جمع و هذب أقوالهم بالاضافة إلى بعض الملاحظات و الأمثلة التى ابتكرها، و سنرى بعد قليل أن بحث العام و الخاص قد تعرض له فى كتابه المزهر، بيد أنه هناك مختلف فى بعض الوجوه عنه هنا و سنبين ذلك فى موضعه.

و هناك أبحاث أخرى لغوية تناولها السيوطى فى كتابه ترسم فيها خطى الأصوليين من قبل كالبحت فى المطلق و المقيد، و المنطوق و المفهوم و المجمل، (١) المهدب ورقة ٨ ص ١٦.

(٢) الاتقان ج ١ ص ١٣٦.

(٣) المهدب ورقة ١٥ ص ٢٩.

(٤) الاتقان ج ٢ ص ١٦.

(٥) راجع: فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت ج ١ ص ٢٥٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٠٥

و نظرا لأن هذه الموضوعات قد استفاضت دراستها عند الأصوليين فإننا لا نكاد نجزم بآراء مبتكرة فيها للسيوطى، بيد أن أبحاثه تتسم بما تميز به من السهولة و الوضوح و عرض الموضوع عرضا يتناول جميع أطرافه مع استيعاب لأكثر الأقوال السابقة، و إعراض عن نواحي الاسهاب التى يمكن الاستغناء عنها.

٤- رسالة فى أصول الكلمات:

رسالة صغيرة للسيوطى تستغرق بضع صفحات، و قد طبعت ضمن مجموعة مع كتابه السابق «المتوكلى»، و هذه الرسالة تهتم بالبحث فى التطور الدلالى للغة فهى تهتم بالتغير الذى يلحق معنى الكلمة نفسه «كأن يخصص معناها العام فلا تطلق إلا على بعض ما كانت تطلق عليه من قبل، أو يعمم مدلولها الخاص فتطلق على معنى يشمل معناها الأسمى، و معانى أخرى تشترك معه فى بعض الصفات، أو تخرج عن معناها القديم فتطلق على معنى آخر تربطه علاقة ما، و تصبح حقيقة فى هذا المعنى الجديد بعد أن كانت مجازا فيه أو تستعمل فى معنى غريب كل الغرابة عن معناها الأول» (١).

و بالرغم من أن هذا البحث لا يتتبع التطور الدلالى تتبعاً مفصلاً إذ إنه يقتصر على تحديد الدلالة الأولى للكلمة فإنه يعين الباحث فى التطور الدلالى، و قد تناول هذا الموضوع من قبل الراغب الأصفهاني فى مفردات القرآن، و تعرض ابن فارس لتحديد الدلالات الأولى لبعض الكلمات فى الفصل الذى عقده عن أصول أسماء قيس عليها و ألحق بها غيرها حيث قال: «كان الأصمعى يقول: أصل «الورد» إتيان الماء، ثم صار إتيان كل شىء وردا، و «القرب» طلب الماء ثم صار يقال لكل طلب فيقال هو يقرب كذا أى يطلبه، و لا تقرب كذا، و يقولون: «رفع عقيرته» أى صوته، و أصل ذلك أن رجلا عقرت رجله فرفعها و جعل يصيح بأعلى صوته فقبل بعد ذلك لكل من رفع صوته رفع عقيرته» (٢). (١) د. على عبد الواحد وافى: علم اللغة ص ٢٨٧.

(٢) الصحابى فى فقه اللغة ص ٦٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٠٦

بيد أن ابن فارس لم يفضل القول فى هذا المبحث، و يتضح مما ذكره أن التطور الدلالي قد أدركه اللغويون القدماء مثل الأصمعى، و لكننا لا نكاد نجد من أفرد لهذا الموضوع بحثا مستقلا، و قد استطاع السيوطى أن يجمع فى رسالته عددا كبيرا من الكلمات و أن يحدد دلالاتها الأولى.

و يتضح من سرده لهذه الكلمات و تقصى دلالاتها الأولى أنها لا تخرج عما ذكرنا من تخصيص معنى عام، أو تعميم مدلول خاص، أو خروج عن الدلالة السابقة إلى دلالة أخرى لعلاقة رابطة بين الدالتين أو الخروج عن ذلك كله إلى معنى جديد فى قليل من الأحيان.

و الحق أن رد الكلمة إلى استعمالها الأول، أو ما يمكن أن نسميه بالتاريخية فى دلالات الألفاظ يتصل بمادية اللغة أو الدلالات الحسية الأولى للألفاظ باعتبارها أسبق من الدلالات المجردة، و قد كانت هذه المادية موضع مشاحة بين اللغويين و قد تتبعها من القدماء الراغب الأصبهاني فى مفرداته، و من المحدثين الذين أخذوا بها الأستاذ أمين الخولى إذ يصر على هذه البدايات المحسوسة فى تحديده لمعاني الألفاظ و تدرجها عبر العصور التاريخية، كما يطبق هذه الفكرة على الألفاظ التى صارت فيما بعد مصطلحات فى العلوم و الفنون المختلفة، و القول بهذه البدايات المادية يلائم- فى الحقيقة- بين حياة اللغة و بين حياة الانسان منذ كان طفلا لا تتسع مداركه لغير المعانى المحسوسة، ثم تدرجت حياته و ارتقت لغته و أصبحت مداركه تتسع شيئا فشيئا للمعاني المجردة و للمعقولات.

و يبدو مما أورده السيوطى برسالته أنه قد فطن لهذه المادية أو لبعض جوانبها و لذلك حدد كثيرا من الدلالات الأولى للكلمات على هدى من هذه الفكرة فمن ذلك «أصل العبادة الخضوع و التذلل، أصل الطغيان الانقباض، أصل الفسق الخروج عن الشئ أصل التلاوة الاتباع ... أصل الظلم وضع الشئ فى غير محله، أصل الجهر الظهور و منه المجاهرة بالمعاصى أى إظهارها، أصل البعث إثارة الشئ من محله، أصل المصر الحد، ... أصل الصوم فى اللغة الامسك، أصل اللحن فى كلام العرب الطرد و الابعاد، أصل القنوات القيام، أصل الصبر الحبس، أصل الصفا الحجر الأملس، أصل الحج القصد، أصل السبب الحبل

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٠٧

يشد بالشئ فيجذب ثم جعل كل ما جر شيئا سببا، أصل الاعتكاف:

الملازمة ... إلى آخره» «١».

و نلاحظ على رسالة السيوطى السابقة أنه لم يذكر فيها المصادر التى نقل عنها على عكس منهجه الذى نعرفه عنه، و لعله أراد بذلك الإشارة إلى ما بذله من جهد فى تحديد الدلالات الأولى للكلمات و هو ما لم يحظ باهتمام كبير من اللغويين من قبله حيث إن المعاجم قليلا ما تشير إلى هذا التطور الدلالي، و إنما تذكر جميع المدلولات دون مراعاة تدرجها.

٥- التبرى من معرّة المعرى:

و هى منظومة للسيوطى فى أسماء الكلب، لها نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية إحداهما فى مجموعة برقم ١٦٥٧ أدب، و الأخرى فى مجموعة برقم ٣٢ معارف عامه، و قد طبعت فى كتاب تعريف القدماء بأبى العلاء «٢»، و قد رجعت إليها مطبوعه. و ترجع تسمية هذه المنظومة بهذا الاسم إلى ما رواه السيوطى فى مقدمتها من أن أبى العلاء المعرى «دخل يوما على الشريف المرتضى فعثر برجل فقال الرجل: من هذا الكلب؟ فقال أبو العلاء: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما، قلت و قد تتبعت كتب اللغة فحصلتها و نظمتها فى أرجوزة و سميتها «التبرى من معرّة المعرى» «٣».

و قد ابتدأ السيوطى نظمه بحمد الله و الصلاة على نبيه و حكى نفس القصة ثم أخذ فى نظم أسماء الكلب، و جميع أبيات المنظومة سبعة و ثلاثون بيتا، استغرق نظم المقدمة ثمانية أبيات و نظم الخاتمة بيتين و بقيت النظم فى الأسماء التى أحصاها.

و هذه المنظومة تدل على اهتمام السيوطي بألغاز اللغة و قدرته على الجمع و الاستيعاب، و هي تدخل في مبحث هام من مباحث العربية هو الترادف، (١) رسالة في أصول الكلمات ص ١٤.

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٢٩-٤٣٣ (نشر الدار القومية ١٣٨٥ هـ).

(٣) المصدر السابق ص ٤٢٩.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٠٨

و يبدو أن السيوطي من اللغويين الذين يؤيدون وقوع الترادف في اللغة، و إن لم يعبر صراحة عن رأيه في منظومته فإن تسميته لما أورده «بأسماء الكلب» تدل على ما نذهب إليه لأنه لو كان من مانعي الترادف لأطلق عليه اسما واحدا و اعتبر الباقي صفات، و الجدير بالذكر أنه قد عرض للترادف بالتفصيل في كتابه المزهر، بيد أنني لا أكاد أقف له على رأى صريح ينسبه إلى نفسه نستطيع أن نحدد به موقفه من الترادف في صراحة و وضوح.

و قد بدأ مبحث الترادف بتعريفه نقلا عن الرازي بأنه «الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد» (١)، ثم تحدث عن إنكار الترادف و من ذهب إلى أن كل ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات التي تتباين بالصفات كما في الانسان و البشر فالأول موضوع له باعتبار النسيان أو باعتبار المؤانسة، و الآخر باعتبار أنه بادي البشرة (٢)، و ممن أنكر الترادف في اللغة ابن فارس و قد أشار إليه السيوطي و نقل عنه ذلك، كما أنكروه الفارسي، و قد لخص السيوطي أقوال الأصوليين في الترادف، ثم اختتم مبحثه بالإشارة إلى المؤلفات التي وضعت فيه و من تناوله بالتأليف و أهمهم الفيروزآبادي الذي ألف كتابا سماه «الروض المسلول فيما له اسمان إلى ألوف»، و ابن خالويه من قبل الذي ألف في أسماء الأسد و أسماء الحية، ثم أورد أمثلة للمترادف فأورد أسماء العسل نقلا عن الفيروزآبادي و غيره (٣)، ثم مثل لأسماء السيف و غير ذلك من الأمثلة.

و من ثم فإن السيوطي من الذين يقولون بوقوع الترادف في اللغة برغم أنه لم يوضح مذهبه بقول صريح و إنما تناول الموضوع بمنهجه المعتاد، فبعض اللغويين يقول بالترادف مطلقا و يجعل ما قيل في أسماء السيف من المهند و الحسام و القضيب و المشرفي و غيرها من المترادفات، و آخرون ينكرون الترادف و يرون أن للسيف اسما واحدا و جميع ما عدا ذلك صفات، و يتوسط قوم بين الفريقين فيقولون بالترادف مع وجود الصفات، و ذلك لاختلاف الوضع اللغوي بين (١) المزهر ج ١ ص ٤٠٢.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٤٠٣.

(٣) المزهر ج ١ ص ٤٠٧-٤٠٨.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٠٩

القبائل المختلفة فيمكن أن يوجد مترادفان أو أكثر ثم يعد ما عدا ذلك من الصفات، و قد نقل السيوطي عن الراغب الأصفهاني ما يشير إلى ذلك في قوله:

«و ينبغي أن يحمل كلام من منع على منعه في لغة واحدة، فأما في لغتين فلا ينكره عاقل» (١).

و السيوطي بما أورده في منظومته من الذين يقبلون الترادف و يتوسعون فيه، و يرون جميع الألفاظ التي تتحد دلالاتها على ذات معينة من قبيل المترادف، دون اعتبار لما يختص به بعض الألفاظ من زيادة في المعنى عن بعضها الآخر أو من اختلاف نوعيه الدلالات أو جهاتها، و لذلك أورد في منظومته كثيرا من الأسماء التي هي من قبيل الصفات و إطلاقها على الذات لا يقع إلا تجوزا من قبيل حذف الموصوف و إقامة صفته مقامه، و ليس لهذه الصفات شهرة في إطلاقها على المسميات بل هي مفتقرة إلى القرائن، و لذلك لا تعد من الأسماء، من ذلك تسميته بداعي الضمير و هائئ الضمير، و داعي الكرم، و مشيد الذكر، و متمم النعم (٢)، كذلك أوصاف الكلب باعتبار نسبه جعلها من بين الأسماء التي يحفظها و هي «القلطي» و هو لفظ يقال للقصير من الناس و السنائر و الكلاب، و «السلوقي» نسبة إلى سلوق قرية باليمن، و الصينى نسبة إلى الصين.

و بديهي أن إطلاق إحدى هذه الصفات دون ذكر الموصوف أو وضوحه بالقرائن لا يستقيم فى اللغة و لذلك فاعتبارها من الأسماء أمر غير مقبول من الذين يتوسعون فى الترادف فلا يفرقون بين الاسم و صفته رغبة فى استكثار ما يحفظونه. و أصح الأقوال و أقربها هنا أوسطها و هو الرأى القائل بوجود الترادف نتيجة اختلاف اللهجات أو حين تبلغ بعض الصفات المختصة ببعض الأسماء شهرة بين الناطقين تجعلهم يدركون المسمى دون حاجة إلى قرائن تحدد الموصوف. و حين تعرض الأستاذ الرفعى لمبحث الترادف ذكر أن من ألفاظ المترادف (١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٠٥. (٢) تعريف القدماء بأبى العلاء (المنظومة) ص ٤٣٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢١٠

الأسماء التى ترجع إلى وضع القبائل المتعددة، أو الصفات التى تصرف فى وضعها أفراد كل قبيلة ثم نزلت منزلة الحقائق العرفية بعد أن فشت فى الاستعمال «١»، و إلى هنا فإن كلامه مقبول، بيد أنه مثل لذلك بما ورد من أسماء العسل و أنها ثمانون و أسماء الأسد التى بلغت ثلاثمائة و خمسين و أسماء الكلب التى بلغت سبعين ... إلى آخر هذه الأمثلة و هذا ما لا نقبله لأن كثيرا من هذه المترادفات من قبيل الصفات التى لم تنزل فى اللغة منزلة الحقائق العرفية، و إنما الدافع إلى اعتبارها من المترادفات عند اللغويين هو الرغبة فى بيان اتساع الحفظ اللغوى و الدراية بأكبر عدد من الألفاظ، دون التنبيه على ما يمكن أن يسمى بالمترادف و ما هو من قبيل الصفات التى لا يمكن بحال أن تطلق وحدها و يفهم منها مسماها، و لقد كان المنهج النقلى المفتون أحيانا بالحفظ و الاستكثار هو الدافع لهؤلاء بما فيهم السيوطى إلى أن يقوموا بمباحثهم التى يحاولون فيها إظهار حفظهم لأكثر عدد من الألفاظ.

و الذين توسطوا بين إنكار الترادف مطلقا و إثباته مطلقا يراعون ما راعاه منكر و الترادف من الفروق الدقيقة بين الألفاظ المختلفة الموضوعه لشيء واحد، و هو ما تبلغ فيه العربية حد الإعجاز، و قد تتبع الثعالبي هذه الفروق و بينها فى كتابه فذكر - مثلا - أن الكأس لا يقال لها كأس إلا إذا كان فيها شراب، و إلا فهى قدح، و لا يقال مائدة إلا إذا كان عليها طعام و إلا فهى خوان، و لا كوز إلا إذا كانت له عروة و إلا - فهو كوب «٢». و للانصاف فإن القائلين بوجود الترادف لا ينكرون هذه الفروق الدقيقة بين الألفاظ الموضوعه لشيء واحد و قد عقد لها السيوطى مبحثا سماه بالمطلق و المقيد «٣»، و لكننا نأخذ عليهم أنهم لم يضعوها فى اعتبارهم عند بحث الترادف.

و نجد من الباحثين المحدثين من يؤيد المذهب المعتدل فى الترادف «٤»، و هو (١) مصطفى صادق الرفعى: تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٩٢.

(٢) فقه اللغة ص ٣٢١.

(٣) المزهر ج ١ ص ٤٩٩.

(٤) صبحى الصالح: دراسات فى فقه اللغة ص ٣٤٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢١١

الذى ذهب إليه من قبل كثير من الأصوليين و بعض اللغويين.

و قد ترك السيوطى عددا من الرسائل الأخرى التى تشبه رسالته السابقة حول نفس موضوع الترادف و هذه الرسائل هى:

٦- التهذيب فى أسماء الذئب:

لم أقف عليه، و قد ذكره صاحب كشف الظنون و غيره و هو كما يتضح من اسمه رسالة جمع فيها أسماء الذئب، و نستطيع أن نتكهن بأنه قد اعتمد على ما جمعه اللغويون السابقون، ثم زاد عليه من كتب اللغة بعض الأسماء التى فاتتهم و تلك هى طريقته فى كثير من

رسائله و كتبه، و لعله قد اعتمد على كتاب الروض المسلوف، و إن كنا لا نستطيع أن نجزم بذلك لأن الكتاب الأخير لم يصل إلينا و الحديث عن هذه الرسالة لن يخرج عما قدمنا فى حديثنا المسوق آنفا.

٧- فظام اللسد فى أسماء الأسد:

لم أقف عليه و قد ذكره صاحب كشف الظنون، و القول فيه كالقول فى سابقه كما أن أسماء الأسد قد جمعها من قبل السيوطى ابن خالويه حيث جمع له خمسمائة اسم «١». و إلى هنا نكون قد فرغنا من بحث الترادف و الآثار المتصلة به عند السيوطى.

٨- الافصاح فى أسماء النكاح:

لم أقف عليه و قد ذكر صاحب كشف الظنون أنه فى مجلد بشواهد و نقوله و يبدو أن المؤلف من قبيل ما أشرنا إليه من المعجمات اللغوية التى تهدف إلى جمع الألفاظ الموضوعية لمختلف المعانى و الموضوعات مثل كتاب «الألفاظ» لابن السكيت و فقه اللغة للثعالبي، و المخصص لابن سيده، و قد أشار الراجعى إلى هذا الموضوع و بين أن العربية تعد أحكم اللغات نظاما فى أوضاع المعانى و سياستها بالألفاظ، و أكثرها رقىا و تمدنا حيث لم يدع ناطقوها معنى من المعانى إلا رتبوا أجزاءه و أبانوا عن صفاته بألفاظ متباينة تعين تلك الأجزاء و الصفات على (١) المزهرج ١ ص ٣٢٥، ٤٠٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢١٢
مقاديرها «١».

و نحن لا- نستطيع هنا أن نقوم ما قام به السيوطى فى مؤلفه السابق لعدم وقوفنا عليه و لكنه يطلعنا على مشاركته فى مبحث هام من المباحث المتعلقة بدلالة الألفاظ.

٩- الافصاح فى زوائد القاموس على الصحاح:

ذكره صاحب كشف الظنون و غيره و لم أقف عليه، و يتضح من اسمه أن تأليفه يقتضى من السيوطى استقراء جميع مواد الصحاح للجوهري و مواد القاموس لكى يستخرج الزيادات التى يذكرها، بيد أننا لا نستطيع أن نحدد مقصوده بهذه الزيادات هل يريد بها جميع المواد التى وردت بالقاموس و لم ترد بالصحاح؟ أم أن مراده بعض الزيادات التى تخص جانباً من الجوانب؟.

١٠- الالمام فى الاتباع كحسن بسن فى اللغة:

ذكره صاحب كشف الظنون و غيره، كما أشار إليه السيوطى فى حديثه عن الإتياع فى كتابه المزهر حيث ذكر أن ابن فارس قد ألف فيه تأليفاً مستقلاً ثم قال: «وقد رأيت مرتباً على حروف المعجم، وفاته أكثر مما ذكره، وقد اختصرت تأليفه و زدت عليه ما فاته فى تأليف لطيف سميت «الالمام فى الاتباع» (٢)».

و يمكن أن نعتمد على هذه العبارة فى حكمنا بصفه مجمله على الكتاب، فالسيوطى قد اعتمد فيه على ابن فارس، كما زاد عليه و أضاف بعض الإضافات، و اتبع فيه على ما يبدو نفس ترتيب ابن فارس، و الكتاب كما تبين عبارة السيوطى صغير الحجم. و نستطيع

تبيين موقف السيوطى من موضوع الإتياع من الفصل الذى عقده لدراسته فى كتابه المزهر، فهو كما تبين من بعض ما عرضنا من قبل يكتب فى الموضوع الواحد أكثر من مرة و فى أكثر من موضع كما رأينا عند حديثنا عن الألفاظ المعربة فى القرآن و لا- يختلف عرضه للموضوع (١) الرافعى: تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٣٢،
(٢) المزهر ج ١ ص ٤١٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢١٣
الواحد فى الأماكن المتفرقة إلا إيجازا أو بسطا، و من ثم فإننى أستطيع أن أذهب إلى أن ما ذكره بالمزهر عن الإتياع هو إيجاز لما بسطه فى كتابه الذى لم أقف عليه.

بدأ السيوطى بتعريف الإتياع- على نفس منهجه النقلي- فنقل عن ابن فارس أنه «أن تتبع الكلمة الكلمة على وزنها أو رويها إشباعا و تأكيدا» (١).

و فى هذا الفصل نقل عن أحد عشر كتابا من كتب اللغة و أورد عنها بعض النقول و الأمثلة، و هذه الكتب هى فقه اللغة و الماع الإتياع لابن فارس، و غريب الحديث لأبى عبيد، و شرح منهاج البيضاوى للسبكي، و أمالى القالى و أمالى ثعلب، و الجمهرة لابن دريد و تذكرة ابن مكتوم، و ديوان الأدب للفارابى، و الصحاح للجوهري، و الغرة لابن الدهان.

و بعض هذه الكتب لم يصل إلينا، و الجدير بالذكر أن السيوطى راعى فيما جمعه من أمثلة للإتياع من هذه المصادر المختلفة أن يذكر من كل منها ما لم يذكره الآخرون و كأنه بذلك يحاول استقصاء هذه الأمثلة التى وردت للإتياع و يحاول أن يصل بها على عادته فى الجمع إلى أكبر عدد، و فى هذا دلالة على مبلغ الجهد الذى عاناه فى ذلك، و براعته فى التنسيق و الجمع.

و من أمثلة الإتياع قولهم: عطشان نطشان، و جائع نائع، و حسن بسن، و أمثال ذلك ما كانت فيه الكلمة الثانية على روى الأولى، و تابعه لها على وجه التوكيد، و لا يمكن أن يؤتى بالكلمة التالية (التابعة) وحدها (٢).

و ليس الإتياع من قبيل الترادف، بل هو مختلف عنه لإفادة المترادفين فائدة واحدة و التابع لا يفيد وحده شيئا، و الفرق بينه و بين التوكيد أن شروط التابع أن يكون على زنة المتبوع و رويه، و ليس كذلك التوكيد.

و بعض الكلمات التى ورد استعمالها فى الإتياع لم يعرف لها بعض أهل اللغة (١) المزهر ج ١ ص ٤١٤.
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٤١٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢١٤

معنى و اعتبروها لمجرد الإتياع، على حين وجد لها آخرون دلالات معينة، و مع ذلك قرروا أن كثيرا منها لا يصح إفرادها و إنما يلزم الإتياع، و أن بعضها يصح أن يفرد.

تلك خلاصة المبحث الذى أورده السيوطى، و قد ساق كثيرا من الأمثلة لكثير من الألفاظ التى جمعها من كتب اللغة السابقة، بيد أننى لم أجد للسيوطى قولا صريحا ينسبه إلى نفسه نستطيع أن نتبين به مذهبه فى صراحة، و إذا كان الأمر كذلك فإن ما قدمناه يعد ما أقر به، و تعبر اختياراته للنقول عن رأيه و مذهبه فى هذا الموضوع.

١١- حسن السير فيما فى الفرس من أسماء الطير:

ذكره صاحب كشف الظنون و غيره منسوباً إلى السيوطى، و لم أقف عليه، بيد أنى وجدت السيوطى قد تناول هذا الموضوع عند ما تحدث عن المشترك اللفظى (١)، و هو دلالة اللفظ الواحد على معنيين فأكثر، و قد لخص السيوطى فى دقة أقوال الأصوليين فى المشترك اللفظى، و قد ذهب أكثرهم إلى وقوعه فى اللغة نتيجة لتعدد الوضع، و ذلك مبنى على القول بأن اللغة غير توقيفية أو ليست

من وضع واحد عند القائلين بالتوقيف، و حجتهم فى وقوعه نقل أهل اللغة ذلك فى كثير من الألفاظ «٢». و يبدو أن جميع اللغويين قد ذهبوا إلى وقوع المشترك اللفظى، و يبدو بديها لمن ينظر فى كثير من ألفاظ اللغة و يرى اختلاف معانيها و تنوعها أن يرجع ذلك إلى الاشتراك اللفظى. و قد أورد السيوطى نقلا عن أهل اللغة و أصحاب المعاجم عددا كبيرا من الأمثلة لوقوع اللفظ الواحد لمعان كثيرة، ثم أخذ يسرد الألفاظ المشتركة بين الفرس و الطير فنقل عن أمالى القالى جملة منها «الهامة: العظم الذى فى أعلى رأسه، و الفرخ: و هو الدماغ، و النعامة: الجلد التى تغطى الدماغ، و العصفور: العظم الذى تنبت عليه الناصية.. إلى آخره» «٣». (١) المزهر ج ١ ص ٣٧٧ - ٣٨٠ (الحديث عما فى الفرس من أسماء الطير).

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٣٦٩.

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٣٧٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢١٥
ثم نقل عن شرح الكامل للبطلوسى بعد ذلك شعرا لجرير ذكر الأصمعى أن فيه عشرين اسما من أسماء أعضاء الفرس و هى من أسماء الطير و منه «١»:

و أقب كالتسرحان تم له ما بين هامته إلى النسر

رجعت نعامة و وقّر لحمه و تمكن الصردان فى النحر

فالهامة: اسم طائر خرافى زعم العرب أنه يخرج بعد قتل القتيل و يصيح فوقه حتى يؤخذ ثأره، و فى الفرس: الهامة: أعلى الرأس، و النسر: طائر معروف، و فى الفرس: ما ارتقى من بطن الحافر، و النعامة: طائر معروف و فى الفرس:

الجلدة التى تغطى الدماغ، و الصرد: طائر ضخيم يصطاد العصافير و الصردان فى الفرس: عرقان يكتنفان اللسان.

و قد أتبع السيوطى هذا الشعر بنص آخر فى هذا الموضوع عن كراسه لم يذكر اسمها، ثم نقل عن الصحاح و أمالى الزجاج بعض الأمثلة الأخرى.

و طبيعة الموضوع جعلته يقتصر على حصر الألفاظ المشتركة بين الطير و أعضاء الفرس دون إبداء ملاحظات أو تعليقات على نقوله، و نستطيع القول بأن مؤلفه جاء محصيا لهذه النقول و غيرها فى نفس الموضوع.

أما عن بحث المشترك فلقد لخص فيه السيوطى بعبارة موجزة آراء الأصوليين و هم خير من درس المبحث، كما أفاض فى ذكر الأمثلة بحيث إن المحدثين فى بحوثهم عيال على نقول السيوطى، و إن تضمنت أبحاثهم بعض الزيادات فى النقول أو الأفكار على ما أورده «٢».

١٢- غاية الاحسان فى خلق الانسان:

ذكره صاحب كشف الظنون و رجح نسبته للجلال السيوطى، و ذكر أنه جمع فيه كتب خلق الانسان للنحاس و لأبى محمد ثابت و للزجاج و لأبى القاسم عمر (١) نفس المصدر ج ١ ص ٣٧٨.

(٢) انظر الرافعى: تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٩٤، صبحى الصالح: دراسات فى فقه اللغة ص ٣٥٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢١٦

بن محمد العصامى و محمد بن حبيب، و قد ذكره صاحب هدية العارفين، و لم أقف عليه مخطوطا أو مطبوعا.

و الحديث عن «خلق الانسان» أى محاولة تسمية جميع أعضائه، و جمع ما يتصل بذلك من الأشعار أو المأثورات الواردة عن العرب من أقدم الموضوعات التى تناولها اللغويون، فلأصمعى كتاب فى خلق الانسان، و لأبى زيد مثله، و ألف النضر بن شميل كتابا سماه

«الصفات» احتوى على ذكر هذا الموضوع.

و قد حظى هذا الموضوع بكثير من مؤلفات علماء اللغة، ففضلا عن الكتب التى ذكرناها توجد كتب أخرى تناولت الموضوع، فقد تناول ابن سيده فى المخصص و قد سبق القول بأن هذه المؤلفات تعد من قبيل المعاجم الخاصة، أى التى تقتصر على ذكر ألفاظ موضوع من الموضوعات، و نرجح أن السيوطى قد جمع فى مؤلفه هذه الألفاظ نقلا عن الكتب السابقة و استطاع أن يستدرك ما فات غيره و أن يصل فيما أحصاه إلى ما لم يصل إليه أى مصنف من المصنفات التى سبقتة.

١٣- شرح قصيدة بانة سعاد:

يسمى: «كنه المراد فى شرح بانة سعاد»، و قد وقفت فيه على مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٦٦٥٦ ز، و هو مخطوط متوسط الحجم يقع فى سبعين ورقة أى ١٤٠ صفحة.

و قد قدّم السيوطى لشرحه بمقدمة طويلة بين فيها أن الشروح السابقة عليه، و التى وقف عليها تقتصر على شرح غريبها و إعراب ألفاظها المؤدية إلى حل تركيبها دون التعرض لمعانيها، و أن قصده من شرحه بيان المعانى فضلا عن حل الألفاظ «١». و الحق أن شرح السيوطى يمتاز عن سواه من الشروح بأنه تعرض لبيان المعنى فى أسلوب واضح سلس، كما أنه يهتم بشرح الغريب من الألفاظ، ثم يورد (١) كنه المراد فى شرح بانة سعاد ورقة ٢ ص ٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢١٧

أشعارا و أقوالا- تناسب المعنى الذى يتناوله، و نلاحظ أنه نقل عنده فى هذا الشرح النقول التى تعود فى مؤلفاته الاكثار منها، فهو يتكلم بأسلوبه شارحا و مفصلا، ثم يستشهد أو ينقل عن غيره بحيث تندمج النقول فى حديثه على عكس ما تعودنا فى مؤلفاته من اختفاء رأيه وراء النقول التى تمثل معظم كتابته، و هو كثير الاستطراد و الاطناب فى الشرح بحيث يتناول الكلمة من نواح متعددة قد يبدو أنه لا صلة لها بما نحن فيه.

و يدل الشرح- فى الواقع- على مدى تمكن السيوطى و معرفته بالأدب، و له فيه لمحات بديعة و ابتكارات لطيفة، و اشارات قد لا يتنبه لها كثير من دارسى الأدب، فضلا عن دقته و معرفته الواسعة بطرائق الشعراء و أسرار البلاغة.

و فى بعض الأحيان يورد السيوطى فى المناسبة أشعارا له فيذكر بصدد شرحه للبيت:

لكنها خلّة قد سيط من دمها نجع و ولع و اخلاف و تبديل

يورد بصدد الحديث عن الوشاة و الرقبة قوله:

احرص على طرد الرقيب و بعده ان تغتم وصل الحبيب تلاعبه

كم ليلة بات الحبيب بجانبى لكننى خوف الرقيب أجانبه

و يكثر من الاستشهاد فى شرحه بالقرآن الكريم و الحديث الشريف و أشعار السابقين، و لا تفوته طبيعته الحديثية فى بعض الأحيان حيث تظهر فى حرصه على إيراد الأسانيد، و بيان أوجه ضعف الأحاديث أو صحتها، و قد لاحظنا ذلك فى أحاديث القدر التى ساقها بصدد شرحه للبيت:

فقلت خلوا سبيلى لا أبا لكم فكل ما قدر الرحمن مفعول

و بعض الأحاديث التى أوردتها بصدد شرح البيت:

أنبت أن رسول الله أوعدنى و العفو عند رسول الله مأمول

و هى الأحاديث الخاصة بعفو النبى صلى الله عليه و سلم.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢١٨

و إذا قارنا هذا الشرح بشرحين أحدهما سابق له و قد نشأ صاحبه فى نفس بيئته السيوطى و هو شرح ابن هشام، و الآخر لاحق له و هو شرح الشيخ إبراهيم الباجورى لتبيننا اهتمام ابن هشام بالملاحظات النحوية و اللغوية و ذكر الأوجه المختلفة فى إعراب الألفاظ و الجمل، و التعرض للألفاظ ببيان نوعها أو اشتقاقها أو غير ذلك من هذا القبيل، و هو بذلك يغفل ذكر المعنى الاجمالي، و الشرح اللاحق للسيوطى أكثر إيجازاً من شرح ابن هشام من الناحية اللغوية و النحوية بيد أنه لا يغفل ذكر المعنى العام للبيت.

و نستطيع أن نصف شرح السيوطى بعد هذه الموازنة بأنه شرح لغوى أدبى، فهو شرح لغوى لأنه يعنى بتفسير معانى الألفاظ و ذكر المعنى العام لكل بيت، و هو شرح أدبى لتناوله الأفكار و الأساليب الأدبية بالتعليق و التمثيل و إبداء الملاحظات القيمة فحين يتناول السيوطى بيت كعب:

و ما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

يقول: «أى و ما سعاد غداة البين إذ رحلوا و هى معهم إلا ظبى أغن الصوت غضيض الطرف مكحول العين، و سعاد هى محبوبته التى أشار إليها فى البيت الأول، و الغداة: اسم لمقابل العشى، قال تعالى: يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، و قد يراد بها مطلق الزمان ... إلى آخره» (١)، و يستمر فى شرح الألفاظ و بيان معانيها و استعمالاتها المتنوعة و ما يترتب على ذلك من وجوه متنوعة فى فهم النص، ثم لا يلبث أن يعود إلى تفصيل المعنى الذى أوجزه فى أول الشرح فيقول: «و حاصله أنه لما ذكر حال نفسه، و ما أعقبه الفراق من الضنك شرع فى ذكر وصف محبوبته التى يهواها و ما اشتملت عليه من المحاسن التى لا يقدر معها على الأسف على فراقها ... فشبهها بظبى موصوف بأحسن الصفات» (٢)، ثم يتعرض بعد ذلك إلى الجوانب الأدبية فيتحدث عن عادة الشعراء فى التشبيه و يذكر أمثلة لذلك (٣). و نحن إذا قارنا شرح هذا البيت بما (١) شرح السيوطى ورقة ١٠ ص ١٩.

(٢) المصدر السابق ورقة ١٠ ص ٢٠.

(٣) نفس المصدر ورقة ١٠، ١١.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢١٩

أورده من قبله ابن هشام لرأينا اختلافاً بينا فى المنهج، فابن هشام يذكر بصدد البيت: «قوله: و ما سعاد: الواو عاطفة على الفعلية لا على الاسمىة و إن كانت أقرب و أنسب لكون المعطوفة اسمية لأن هذه الجملة لا تشارك تلك فى التسبب عن البيئونة، و سعاد: مبتدأ لا اسم لما، لانتقاض النفى بالواو، و الأصل: و ما هى، فأنايب الظاهر عن المضمرة» (١)، و يستمر فى دراسة النص دراسة نحوية لغوية خالصة و يتناول النص كلمة كلمة أو جملة جملة دون أن يعبأ بالمعنى العام للبيت.

أما الشرح اللاحق للسيوطى (٢)، فقد حاول الافادة من سابقه فهو يبدأ بشرح البيت ثم يعقب ببعض الملاحظات اللغوية و النحوية عليه، و يبدو أثر شرح السيوطى فى هذا الشرح، و قد أشار إليه صاحبه فى بعض الأحيان، و التشابه بين المقدمة التى قدم بها السيوطى لشرحه و بين مقدمة الباجورى يشهد بذلك.

١٤- الرياض الأنيقة فى شرح أسماء خير الخليفة:

وقفت فيه على مخطوط بدار الكتب برقم ٢٣٣١٦ ب، و هو مخطوط متوسط الحجم يقع فى ٥٢ ورقة، أى أن صفحاته تبلغ ١٠٤ صفحة بيد أنه بخط غير جيد. و قد قصد السيوطى فى هذا المؤلف أن يجمع أسماء النبى صلى الله عليه و سلم مستوفياً ما جمعه السابقون فى مختلف المظان كتهذيب الأسماء للنووى.

و قد ابتدأ بمقدمة طويلة تحدث فيها عن كثرة أسمائه صلى الله عليه و سلم، و عددها و نوعيتها، و ما انتهى إلى الوقوف عليه منها

سابقوه، ثم ما زاده و استدرکه عليهم و أخذ بعد ذلك يسرد هذه الأسماء و الحديث عنها، فبدأ «بمحمد» ثم رتب بقية الأسماء فيما بعد على حروف المعجم إلا فى بعض الحالات التى يستدعى المعنى أن يأتى فيها باسم فى غير موضعه لمناسبة تستلزم ذلك حيث قرن «الناهى» «بالآمر»، و المنير بالسراج، و المستقيم بالصراط، فاستدعى هذا وضع بعض الأسماء فى غير مواضعها الأبجدية. (١) شرح ابن هشام على قصيدة بانت سعاد ص ١٢.

(٢) إبراهيم الباجورى: حاشية الاسعاد على بانت سعاد (بهامش شرح ابن هشام).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٢٠

و بالرغم من أن المؤلف يغلب عليه الطابع الحدیثى الذى يهتم بالآثار فإن به دراسة لغوية لا بأس بها لكثير من هذه الأسماء، فهو يتعرض لشرحها و بيان اشتقاقاتها و ضبطها و تصريفها، و فى بعض الأحيان يتعرض لبعض الدراسات النحوية «١» و يتناول فى أحيان أخرى أصل المعنى فى اللغة على نحو ما رأينا فى رسالته عن أصول الأسماء كبيانها لأصل الصدق فى اللغة و أنه الثبوت و القوة بصدده حديثه عن اسم «الأصدق» «٢»، و هكذا يمكننا اعتبار هذا المؤلف من آثاره اللغوية التى توضح مقدرته اللغوية و تحدد قدرته على تناول النصوص، بيد أنه ليس له فيه من الآراء ما يستحق الوقوف عنده و إنما له بعض الاستدراكات أو الزيادات أو التعليقات. و استيفاء لآثار السيوطى اللغوية قبل شروعنا فى دراسة كتابه الهام فى اللغة و هو المزهر، يجدر أن نشير إلى أن كثيرا من مؤلفات السيوطى فى شتى الموضوعات لم تخل من دراسات لغوية قيمة أو ملاحظات تشهد بطول باعه فى هذا المجال، و سأمثل بأحد هذه المؤلفات على سبيل التمثيل لا الحصر، و هو مؤلف قد ذكره بين كتب التاريخ و هو كتاب:

١٥- الشماريخ فى علم التاريخ:

(طبع فى مدينة ليدن سنة ١٣١٢ هـ - ١٨٩٤ م):

كتاب صغير الحجم طبع مع مقدمة له باللغة الألمانية، و قد تحدث السيوطى فى الباب الأول منه عن مبدأ التاريخ، و فى الثانى من فوائد التاريخ من معرفة الآجال و حلولها و انقضاء العدد، و وفیات الشيوخ و مواليدهم، و الرواة عنهم فيعين ذلك على تبين صدق الرواة من كذبهم، و يعين فى ضبط الأسانيد «٣».

و فى الباب الثالث تعرض لموضوعات شتى تتصل بالتاريخ، بيد أن الذى يهمنا فى الكتاب عنايته ببعض المسائل اللغوية المتصلة بالتاريخ. (١) انظر مثلا «أحيد» ورقة ١٠، ص ١٩، و أحاد ورقة ٢١.

(٢) المصدر السابق ورقة ١٢.

(٣) الشماريخ ص ٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٢١

فقد ذكر السيوطى أنه: «يقال أول ليلة فى الشهر كتب لأول ليلة منه، أو لغرته أو لمهله، أو لمستهلته. و أول يوم لليلة خلت ثم لليلتين خلتا ثم لثلاث خلون إلى العشر، فخلت إلى النصف، فللنصف من كذا و هو أجود من لخمس عشرة خلت أو بقيت، ثم لأربع عشرة بقيت إلى العشرين، ثم لعشر بقين إلى آخره، و لآخر ليلة أو لسليخة أو لانسلاخه، و فى اليوم بعدها لآخر يوم أو لسليخة أو لانسلاخه و قيل: إنما يؤرخ بما مضى مطلقا...» «١»، ثم يبين أن قولنا فى بعضها: خلون، لأن تمييزه جمع، و ما يقال فيه، «خلت» فهو ما تميزه مفرد. إلى آخر ما ذكره، كما بين أنه يقال فى العشر الأواخر و الأول و لا يقال الأواخر و الأوائل لأن الأولى أن يجمع على فعل قياسا مطردا. و لا يجمع على الأوائل إلا- أول الذكور، و الأواخر جمع آخره و هو المراد هنا، أما الأخر فجمع أخرى، و قد نقل ذلك عن ابن الحاجب.

كما تحدث عن حذف التاء من لفظ العدد فذكر أنه يقال: «إحدى و اثنتان إن أرخت بالليله أو السنه و تؤنث، و يقال أحد و اثنان إن أرخت باليوم أو العام فان حذف المعداد جاز حذف التاء و منه الحديث» و أتبعه ستا من شوال «إلى العشر فيذكر مع المذكر و يؤنث مع المؤنث» «٢».

و تناول أسماء الأيام و جموعها، و اشتقاقها و معناها و ما كان لهذه الأيام من أسماء عربية قديمة أميتت و استعملت محلها هذه الأسماء «٣». ثم ذكر أسماء الشهور و جموعها و معانيها و اشتقاقاتها و أسماءها العربية السابقة التي هجرت باستعمال هذه الأسماء «٤»، متعرضا لبيان تسمية الشهور و أسباب هذه التسمية و ذلك بعد بيان المعنى.

و ما نريد أن نخلص إليه هو أن هذا الكتاب على صغره و اهتمامه بالتأريخ لم يخل من نظرات و ملاحظات لغوية، و نظرات أسلوبية و نحوية ضمنها صاحبه فيه (١) المصدر السابق ص ٩.

(٢) الشماريخ ص ١٠.

(٣) المصدر السابق ص ١٠-١٢.

(٤) نفس المصدر ص ١٣-١٥.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٢٢

مما يدل على مقدرته اللغوية و تشربه بروح اللغوي، و نلاحظ أن هذه النظرات اللغوية لم يسبقها السيوطي بمنهجه النقل المعتمد و إنما بسط القول بعض البسط و تحلل من الأسانيد و اضطلع بالقول و العرض و بيان ما يريده.

١٦- المزهر في علوم اللغة و أنواعها:

إشارة

«طبع الكتاب عدة طبعات أدقها الطبعة التي حققها محمد أحمد جاد المولى و زميلاه و هي في جزءين و قد اعتمدنا عليها». يعد أجل مؤلفات السيوطي في فقه اللغة و يعد أجمع المؤلفات العربية و أوفاهها و أشملها في تحديد معالم الدرس اللغوي. و قد عرضت آنفا لتدرج أبحاث فقه اللغة عند العرب، و ذكرت أهم آثارهم، و قد رأينا اهتمام كبير منها بناحية من النواحي و اقتصارها عليها، كما أن الكتب التي وضعت في خصائص العربية أو في فقه اللغة لم تتعرض في الحقيقة إلا لبعض جوانب فقه اللغة، و لم يكن من هدفها شمول جميع الجوانب، فالكتب السابقة عليه كما بينا إما معجمات عامة تهدف إلى جميع مواد اللغة، أو معاجم خاصة تقتصر على ألفاظ موضوعات معينة كالشجر و الابل و المطر ... إلى آخره، أو معاجم خاصة مطولة للمعاني كالمخصص لابن سيده، أو دراسات تهتم ببعض مسائل فقه اللغة كالخصائص لابن جني و الصاحبى لابن فارس، أو دراسات تهتم باللغة و ألفاظها و معانيها و بكثير من القضايا اللغوية العامة خارج البيئة اللغوية كدراسات الأصوليين و أبحاثهم.

و لم يكن هناك قبل السيوطي من جمع هذه الألوان المتنوعة في مؤلف واحد، و لم يكن قبل المزهر كتاب للسيوطي أو لغيره يمكن أن يمثل بحق دراسة العرب لفقه اللغة، أو بعبارة أخرى «يمكن أن يكون ألقى المؤلفات بفقه اللغة كعلم قائم بنفسه» «١».

و السيوطي على حق في قوله: «وقد كان كثير ممن تقدم يلتم بأشياء من ذلك، و يغنى في بيانها بتمهيد المسالك، غير أن هذا المجموع لم يسبقني إليه سابق، و لا (١) د. صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة ص ١٠.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٢٣

طرق سبيله قبل طارق» «١».

و بالرغم من أن جميع الأبحاث التي تناولها السيوطي درست عند العرب من قبله و تناولها اللغويون أو الأصوليون، فإن أحدهم لم

يتصدّ لدراسة هذا الفن كله، و لم يستوعب أحدهم نظريات العلم و يتناولها بحديث جامع منظم الأبواب، بل تكلم هذا فى ناحية أو بعض النواحي و ذاك فى أخرى، فلم يجتمع شتات هذا الفن و لم يلتئم شمله.

و قد حاول السيوطى فى كتابه أن يجمع هذا الشتات، و قد امتاز عن سابقه من اللغويين باهتمامه الكبير بأبحاث الأصوليين السابقين فى دراسة اللغة، و هذا يدل على بعد نظره و دقة منهجه فبحث الأصوليين للغة أدق و أوفى من بحث اللغويين أنفسهم، و كانت كتب اللغويين تغفل فى أحيان كثيرة جهود الأصوليين، فجاء كتاب السيوطى جامعاً لأبحاث الفريقين يلائم بين أجزاء الشمل، و يقيم مما تفرق أبواباً و مباحث لها كيانه المستقل ثم ينتهى به الأمر إلى أن يجعل من هذه المباحث علماً له كيانه المستقل، و هذا بغير شك جهد عظيم و ابتكار لا ينكر، و جرأة على ما أحجم عنه السابقون، و قد نجح فى عمله نجاحاً يغبط عليه و سيتضح لنا بعد مصداق ما قدمنا.

منهج السيوطى فى المزهرة:

أريد هنا أن أتناول باجمال كتاب المزهرة، و أهم الجوانب التى تحدد منهج صاحبه هى مصادر الكتاب، ثم طريقته فى النقل و العرض و كيفية تقسيم الكتاب، و ذلك يحدد لنا معالم منهج المؤلف و ينتهى بنا إلى الحديث عن منهج المحدّثين و محاولة السيوطى تطبيقه على اللغة و دراستها من خلاله و سنين ذلك فيما بعد.

و قد عرضت من قبل لتدرج الدراسات اللغوية قبل السيوطى و بينت أنواع المصنفات التى سبقتها، و أستطيع القول بأن معظم كتب اللغة السابقة سواء نتجت عن البيئتين اللغوية أو عن بيئة الأصوليين فقهاهم و متكلميهم كل أولئك (١) المزهرة ج ١ ص ١.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٢٤

قد وقف عليه السيوطى و اتضح أثره فى كتابه الذى بين أيدينا، و يبلغ ما ذكره السيوطى من الكتب التى نقل عنها مائة و ثلاثة و سبعين كتاباً و هى جميع ما نقل عنه تقريباً لأنه- فى الواقع- يمتاز بميزة هامة و هى الأمانة الشديدة التى تجعله لا يذكر نصاً إلا معزواً إلى قائله و مذكوراً معه اسم الكتاب الذى نقل عنه و ذلك ما جعل سبيل إحصاء الكتب واضحاً، و قد كان من أهم خصائص منهجه فى التأليف، و هو ما جعله يحرص فى ذكر النقول على ذكر أصحابها و أسماء الكتب التى نقل عنها لأنه يعد ذلك من شكر العلم و بركته التى ينبغى أن تكون من آداب المحدّث و اللغوى و قد قال: «و لهذا لا ترانى أذكر فى شىء من تصانيفى حرفاً إلا معزواً إلى قائله من العلماء مبيناً كتابه الذى ذكر فيه» (١).

و النقول التى شغلت حيزاً كبيراً فى كتابه هى النقول عن المعاجم سواء أ كانت معاجم عامة أم معاجم خاصة، فقد أكثر من النقل عن الصحاح للجوهري فى مواضع متفرقة و عن الجمهرة لابن دريد، و المجل لابن فارس و المحكم لابن سيده و الغريب المصنف لأبى عبيد، و فقه اللغة للثعالبي، و ديوان الأدب للفارابى و أدب الكاتب لابن قتيبة، و إصلاح المنطق لابن السكيت و تهذيبه للتبريزى، و كتاب ليس لابن خالويه، و الفصحى لثعلب و التهذيب للأزهري.

و يلى هذه المصادر فى حجم النقول الكتب التى عنيت كالمعاجم بالألفاظ، و ضمت إليها أبحاثاً لغوية أخرى كالأمالي لثعلب، و أمالي القالى و الزجاجى و ابن دريد، و شروح الفصحى لابن درستويه، و لابن خالويه و للبطلوسى.

أما أهم الكتب التى تناولت بعض أبحاث فقه اللغة و شغلت حيزاً كبيراً بين نقول السيوطى فهى الصحاح فى فقه اللغة لابن فارس و الخصائص لابن جنى، يليهما الكامل للمبرد و لمع الأدلة فى أصول النحو لابن الأنبارى.

و سائر الكتب بعد ذلك تشغل النقول عنها حيزاً أقل، و لا يفوتنا أن نذكر أن بينها كتاباً هامة ككتاب سيبويه و القاموس للفيروزآبادى، و مجموعة من كتب النوادر لأبى زيد و لابن الأعرابى و لأبى عمرو الشيبانى و للنجيمى و اليزيدى (١) المزهرة ج ٢ ص ٣١٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٢٥

و يونس و بعضها قد وصل إلينا و بعضها لم يصل.

و قد اعتمد السيوطى على مجموعة لا- بأس بها من كتب الأصوليين و نقل عنها و أهمها البحر المحيط للزر كشى و البرهان لإمام الحرمين، و التلخيص له أيضا، و شرح منهاج البيضاوى للتاج السبكي، و جمع الجوامع للسبكي، و شرح المحصول للقرافى، و شرح منهاج الأصول للاسنوى، و المختصر لابن الحاجب، و الملخص فى أصول الفقه للقاضى عبد الوهاب المالكي، و الوصول إلى الأصول لابن برهان.

و لم يقتصر اعتماد السيوطى على هذه الكتب بصدد بحث نشأة اللغة الذى يهتم به المتكلمون و الأصوليون و حسب و إنما اعتمد عليها فى كثير من الأبحاث الأخرى لا سيما التى تتصل بالمعنى كالأخص و العام و المشترك و المترادف و الاشتقاق و الحقيقة و المجاز و غير ذلك بحيث يبدو النقل عنها متناثرا فى سائر كتابه.

و نلاحظ قلة الكتب النحوية بين مصادر السيوطى فما ذكره بعضه فى أصول النحو كجمع الأدلة فى أصول النحو لابن الأنبارى، و بعضه فى الفروع و هو قليل ككتاب سيبويه و أصول ابن السراج و التسهيل و نظم الفرائد لابن مالك، و شرح التسهيل لأبى حيان، و هذا يدل فى الحقيقة على تفرقه بين دراسة اللغة و بين دراسة النحو، و أن اعتماده على الكتب النحوية فى المجال اللغوى غير النحوى لا يكون إلا- بمقدار ما يخدم الموضوعات التى يتناولها، و الحق أن التفرقة واضحة منذ القدم فى أذهان اللغويين و النحاة، و من الطبيعى ألا تكثر المصادر النحوية لكتاب فى فقه اللغة أما كتب الطبقات فقد رجع السيوطى إلى عدد من الكتب التى وضعت فى طبقات اللغويين و النحويين و هذه الكتب لا- تفرق بين الفريقين لما أن كثيرا ممن اشتغل بأحد العلمين كان له اشتغال بالآخر، و من هذه المصادر مراتب اللغويين لأبى الطيب اللغوى و طبقات النحويين للزبيدى، و طبقات النحويين للسيرافى، و تبعاً لاهتمام الكتاب بالرواية بصفة عامة فقد اعتمد صاحبه أيضا على طبقات الشعراء لابن سلام و أكثر نسيباً من النقول عنه.

و عامة ما تبقى من المصادر بعضه كتب فى التاريخ كتاريخ ابن عساكر و غيره، و بعضه فى التفسير، و بعضه فى فروع الفقه، و بعضه أراجيز أو أشعار أو أخبار

جلال الدين السيوطى عصره و ميّاته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٢٦

كالترياق للأزدى و الأغانى لأبى الفرج، و غالبه كتب فى اللغة اختصت بموضوع واحد أو عدة موضوعات ككتب الأضداد لأبى داود و لأبى عبيد و لابن الأنبارى، و شجر الدر لأبى الطيب اللغوى، و كتاب العسل للفيروز آبادى، و المقصور و الممدود للأندلسى و لابن ولاد و لابن سيده و لابن السكيت و للقالى، و قد أكثر نسيباً من النقل عن هذه الكتب الثلاثة الأخيرة، و المؤلف و المختلف للامدى، و الفروق لأبى الطيب، و غيرها من الكتب. و لا حاجة بنا بعد ما قدمناه إلى استقصاء جميع مصادره و ذكرها فقد ذكرت جانباً كبيراً منها كما حددت المعالم العامة لهذه المصادر و أنواعها.

و قد شاع لدى عامة الدارسين أن السيوطى ناقل لا غير، و ملخص لأقوال الأقدمين بحيث إن المقدمين لكتابه كادوا يشوهونه بقولهم: «إن هذا الكتاب على ضخامته ليس للسيوطى فيه إلا الجمع و الترتيب عدا بدوات قليلة نجدتها مبعثرة فى ثنايا الكتاب، و فقرات يقدم بها بين يدي الباب أو يختتمه» (١).

و بالرغم من صدق هذه العبارة إلى حد كبير فإن ذلك لا يغض من شأن الكتاب و لا من شأن مؤلفه فحسبه أنه المؤلف الذى تنبه إلى وجوب جمع هذه الأبحاث و ضمها جميعاً فى مؤلف واحد، كما أن نقوله و اختياراته تدل على مقدرة كبيرة على الجمع و الترتيب و اختيار أنسب النصوص و أخصرها و أوفاهها بالعرض، و يبدو أن جنوح السيوطى إلى الاختفاء بشخصيته وراء النقول قد أتاه كما بينا من تأثير منهج المحدّثين، و طبع عقليته بالطابع النقلى الحديثى بحيث إنه حينما يريد الحديث عن فكرة معينة يبحث لها عن نقول تعبر عما يريد قوله، و كأنه بذلك لا- يرى ثبوت الفكرة إلا- بقوة إسنادها و اتصالها بعالم من علماء السلف المشهورين، و من هذا المنطلق نستطيع أن نعتمد على كثير من النقول التى يوردها و يختفى وراءها فى تبين آرائه اللغوية و سنذكر ذلك بعد.

و إذا كان اهتمام السيوطى بالنقول إلى هذا الحد فيحسن بنا أن نتناول أسلوبه فى عرض أفكاره و ترتيب هذه النقول و كيفية اعتماده على المصادر. (١) المزهر ج ١ ص أ من المقدمة.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٢٧

و السيوطى حريص على أن يبدأ بذكر اسم المؤلف ثم اسم الكتاب عند بداية كل نص يورده، كما ينبه عند نهاية كل نص على تمامه بحيث نستطيع فى يسر أن نتبين فى كل مبحث من المباحث التى تعرض لها عدد النقول التى أوردها و مقاديرها.

و حينما يتناول موضوعا من موضوعات كتابه بالبحث يبدأ بتعريفه فينقل هذا التعريف عن غيره إن كان ثمة نقول تفيد ذلك، و إلا فإنه يبدأ بتحديدته بألفاظ من عنده، ففى النوع الرابع مثلا عن المرسل نقل عن ابن الأنبارى تحديده بأنه الذى انقطع سنده «١»، بينما حدد بألفاظه النوع الخامس: الأفراد بقوله «و هو ما انفرد بروايته واحد من أهل اللغة و لم يتقله أحد غيره» «٢».

و بعد تحديد الموضوع يتناول السيوطى بعض أجزائه أو الملاحظات عليه من قبل اللغويين فيورد النقول التى تشير إلى ذلك، و إن كان ثمة خلافات بين اللغويين أو الأصوليين فى المبحث فهو يهتم بذكرها، و إذا لم يكن ثمة شىء من ذلك و كان المبحث فى ألفاظ تحتاج إلى الأمثلة فإنه يكثر من النقول التى يمثل بها لما ذكر.

أما ترتيب هذه النقول فيتبع فيه ما تفرضه عليه طبيعة الموضوع، فهو يرتب كل موضوع وفق ما يراه ثم يورد النقول مترابطة فى الاطار الذى حدده لموضوعه، و لا يلتزم بالتدرج التاريخى للكتب المنقول عنها و إن بدا ذلك فى بعض الأحيان، فالاعتبار الأول لطبيعة الموضوع و تخطيطه العام فإذا كانت جملة من النقول دائرة فى غرض واحد من أغراض البحث فإنه غالبا ما يراعى التدرج بأن يذكر السابق فاللاحق، و إن كان هذا غير ملتزم فى سائر الكتاب و إنما هو غالب عليه.

على أن الناظر لأول وهلة فى الكتاب قد لا يلاحظ ما نذكره بل يرى كل باب من الأبواب مجموعة من النقول رص بعضها إلى جانب بعض. (١) المزهر ج ١ ص ١٢٥.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٢٨

و الواقع أن هذا الترتيب يراعى فيه طبيعة ترتيب الموضوع، ثم إلى حد ما التدرج التاريخى للنقول، فإذا نظرنا إلى أول مبحث فى كتابه و هو «الصحيح» وجدناه قد بدأ بتعريف اللغة، و تحت هذا الغرض أورد نقولا ثلاثة راعى فيها التدرج التاريخى فأولها نص لابن جنى و الثانى لامام الحرمين و الثالث لابن الحاجب «١».

ثم انتقل إلى غرض آخر من أغراض الموضوع و هو كون اللغة توقيفا أو اصطلاحا، فبدأ بنقل نص عن ابن فارس أتبعه بنقل عن ابن جنى ثم تعرض بعد ذلك لآراء الأصوليين فلخصها عن المحصول لفخر الدين الرازى (٥٦٠هـ) ثم أورد نقولا بعد ذلك عن كتب فى الأصول لابن برهان (٥٢٠هـ)، ثم عن إمام الحرمين فالغزالي فابن الحاجب فتاج الدين السبكي، و هكذا نرى عدم التزامه الدقيق بالتدرج التاريخى فى ترتيب هذه النقول، و إن كان هذا التدرج قد التزمه فى إيراد أقوال إمام الحرمين فمن بعده، و هناك بعض نقول له يراعى فى ترتيبها التدرج التاريخى، فحين يتحدث عن الحكمة فى وضع اللغة ينقل عن الكيا الهراسى (٥٠٤هـ)، ثم يتبعه بالنقل عن الفخر الرازى (٥٦٠هـ)، و يكاد لا يلتزم بهذا التدرج حين حديثه عن ثبوت اللغة بالقياس التى أفاض فى بحثها الأصوليون فبدأ بالنقل عن الكيا الهراسى (٥٠٤هـ)، فابن برهان (٥٢٠هـ)، فامام الحرمين (٤٧٨هـ)، فالغزالي (٥٠٥هـ).

بيد أن السيوطى لا يلتزم بدقة فى أحيان غير قليلة بالتدرج التاريخى للكتب التى نقل عنها فهو ينقل مثلا فى فَعِيل فَعِيلَى أمثلة من الجمهرة لابن دريد (٣١٠هـ)، ثم ينقل عن ديوان الأدب للفارابى و هو متأخر عنه، و لكنه يعود فيورد أمثلة عن الصحاح للجوهري (٤٠٠هـ)، و هو سابق على الفارابى، ثم ينقل مرة أخرى عن جمهرة ابن دريد، ثم عن ابن فارس (٣٩٥هـ)، ثم عن الصحاح للجوهري، ثم عن أمالى القالى (٣٥٦هـ)، و طبيعة هذه النقول لا تحتاج إلى التزام التدرج التاريخى التزاما دقيقا فليس ذلك مما يؤخذ عليه.

و الحق أن ما يجب مراعاة التدرج التاريخي فيه هو النقول التي تعرض لفكرة (١) نفس المصدر ج ١ ص ٧، ٨.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٢٩

من الأفكار أو نظرية من النظريات، أما ألفاظ اللغة فعامه كتب اللغة تروى عن روايتها الأولين، و يزيد بعضها على بعض، فلا يلزم حين النقل عنها مراعاة التدرج التاريخي مراعاة دقيقة، لأن هذه المصادر لم تحرص على هذا التدرج.

أما عن كيفية النقل فهو حريص على أن يورد القول بنصه، فإن لخصه نبه على ذلك، و أحيانا يلخص جملة أقوال فلا يذكر حينئذ اسم كتاب نقل عنه و هنا ينبه على أن ما يورده هو ملخص أقوال الأصوليين أو البلاغيين أو غيرهم بصدد موضوع من الموضوعات.

أما عن نقل ألفاظ اللغة فهو حريص على أن ينقل عن كل كتاب ما لم يرد في غيره من الأمثلة حتى تجتمع من ذلك حصيلة من الأمثلة لم يحصلها قبله غيره منفردا.

و أهم الكتب التي نقل عنها السيوطي و نستطيع أن نتبين منها منهجه في النقل الخصائص لابن جنى و الصاحبى لابن فارس و لمع الأدلة لابن الأنبارى.

و طريقته في النقل عنها تمثل لنا طريقته في النقل عن سائر الكتب التي اهتمت ببعض أبحاث فقه اللغة، أما المعاجم و كتب اللغة التي من قبيلها فلا تحتاج نقوله عنها إلى تمثيل لأن نقله في ذلك الحين جمع لما تفرق و تنسيق لما تشعث.

و حين ينقل السيوطي عن الصاحبى لابن فارس يورد ما ينقله نصا دون أن يغير فيه و كثير من نقوله تشهد بذلك «١»، فإذا أراد تلخيص ما يذكره ابن فارس صرح في عبارته بما يشعر بأنه يلخص و لا ينقل نصا «٢». (١) انظر المزهج ج ١ ص ٤ حيث نقل مقدمة

الصاحبى، و انظر الصاحبى ص ٢، انظر المزهج ج ١ ص ٦٤ حيث نقل بابا عن الصاحبى هو «القول على لغة العرب و هل يجوز أن يحاط بها»، انظر الصاحبى ص ١٨، و انظر ج ١ ص ١٣٧ من المزهج حيث ينقل في معرفة من تقبل روايته و من ترد نصا عن ابن فارس

أورده في مأخذ اللغة بالصاحبى ص ٣٠، و هناك نقول شتى غير ذلك تدل على حرص السيوطي على إيراد نصوصه بدقة و أمانة دون تغيير.

(٢) انظر المزهج ج ١ ص ٢٢٢، ٢٢٣ حيث لخص عن ابن فارس اللغات المذمومة في بضعة سطور، و انظر الصاحبى حيث تحدث ابن فارس عن ذلك ص ٢٤-٢٧ و قد

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٣٠

و قليلا ما يختصر السيوطي دون أن تشعر عبارته بأنه قد حذف شيئا من النص، و الواقع أنه في اختصاره إنما يحذف ما لا حاجة إليه أو ما يغنى التمثيل له عن الكلام فيه «١».

و قد أكثر من النقل عن الخصائص لابن جنى، و نهج في نقله نهجا يدل على فهمه العميق لأقوال السابقين و حسن تلخيصها، و المعروف عن ابن جنى إسهابه في أقواله و توليده للمعاني و استطراده الكثير أثناء حديثه عن الفكرة الواحدة، و لذلك يعتمد السيوطي كثيرا حين النقل عنه إلى اختصار أقواله و تلخيصها بما يشهد له بدقة الفهم و استقامته و ميله إلى الوضوح و الايجاز و البعد عن

الاطناب حيث يغنى الايجاز حتى إن بعض نقول السيوطي عن ابن جنى تبدو في كتاب المزهج أكثر وضوحا منها لدى صاحبها. و في بعض الأحيان ينقل السيوطي نصوص ابن جنى بألفاظها دون أن يتصرف فيها كمنقله عنه حدّ اللغة و تعريفها «٢»، و القول على أصلها:

إلهام أم اصطلاح حيث نقل بابا بأكمله «٣»، و هناك أمثلة أخرى لخص فيها السيوطي أقوال ابن جنى منها حديثه عن وضع اللغة: في وقت واحد أم في أوقات متلاحقة «٤»، و قد نقل عنه بابا بأكمله في المطرد و الشاذ و قد تحدث ابن جنى عنه تحت نفس العنوان «٥»،

بيد أن السيوطي قد زاد على ابن جنى ما أورده من أمثلة متنوعة نقلها عن كتب اللغة الأخرى «٦»، و قد حرص السيوطي على اداء نص ابن جنى بألفاظه إلا أنه في آخر النص استغرق حديثه أربع صفحات.

(١) انظر المزهج ج ١ ص ٢٥٥ «معرفة مختلف اللغة» حيث نقل عن ابن فارس من باب «القول في اختلاف لغات العرب» فذكر نصوص

ابن فارس كاملة بيد أنه حذف جانبا ذكره ابن فارس بصدد الاختلاف بين اللهجات فى الاعراب، المزهر ج ١ ص ٢٥٦، الصحبى ص ٢٠، ثم أتم النقل بعد ذلك بنصه إلى ختام الباب، انظر الصحبى ص ١٩-٢٢.

(٢) المزهر ج ١ ص ٧، الخصائص ج ١ ص ٣٣.

(٣) المزهر ج ١ ص ١٠-١٦، الخصائص ج ١ ص ٤٠-٤٧.

(٤) المزهر ج ١ ص ٥٥-٥٧، الخصائص ج ٢ ص ٢٨-٣٣.

(٥) المزهر ج ١ ص ٢٢٦-٢٣٠، الخصائص ج ١ ص ٩٦-١٠٠.

(٦) المزهر ج ١ ص ٢٣٠-٢٣٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٣١

أغفل بعض فقرات لابن جنى «١»، و ما أغفله تخريج لبعض الأمثلة الشاذة لا يمثل إغفالها نقصا فى عرض الموضوع أو بيانه.

على أن السيوطى فى تلخيصه لأقوال ابن جنى لا يغير فيها و إنما ينتقى منها ما يراه مفيدا للغرض و يغفل بعضها دون الاخلال بفكرتها العامة، و خير مثال لذلك ما نقله عنه بصدد «المستعمل و المهمل» «٢»، حيث أورد نصوص ابن جنى و أغفل كثيرا من الفقرات التى مثل بها المنقول عنه أو التى أوردتها على سبيل الاستشكال، و لذلك فاغفال السيوطى لها لم يخل بما نقله، و قليل من عبارات السيوطى تختلف فى اللفظ عن عبارات الخصائص و لكنه اختلاف لا يخل بالمعنى، و لعل مرده إلى اختلاف النسخة التى بين أيدينا من الخصائص عن النسخة التى نقل عنها السيوطى.

و يمكن أن نلاحظ اختلاف بعض العبارات فيما نقله عنه بصدد اختلاف اللغات «٣»، كما نلاحظ ما قلناه عن اختصاره لعبارات ابن جنى، و هناك نقول أخرى تشهد لما أردنا بيانه.

أما كتاب لمع الأدلة لابن الأنبارى فهو كتاب فى أصول النحو نقل السيوطى عنه ثلاثة نقول، و سنرى اعتماده عليه كثيرا فى كتابه «الاقتراح»، و قد نقل عنه هنا فى الحديث عن المتواتر و الآحاد «٤»، ما تحدث عنه ابن الأنبارى فى الفصلين الرابع و الخامس من كتابه و هما انقسام النقل «٥» و شروط نقل المتواتر «٦»، و نلاحظ (١) المزهر ج ١ ص ٢٢٩، ٢٣٠، الخصائص ج ١ ص ٩٩، ١٠٠ حيث حذف من أول قول ابن جنى: «فأما قول أبى الأسود: ليت شعرب البيت، إلى قوله: و إن لم يكن قبيحا و لا مأبيا فى القياس» نحو أحد عشر سطرا.

(٢) المزهر ج ١ ص ٢٤٠-٢٤٢، الخصائص ص ٥٤-٦٨، أغفل السيوطى فقرة لابن جنى من أول قوله ص ٥٥ «و أنا أرى أنهم إنما يقدمون الأقوى من المتقاربين ... إلى قوله: فهذا واضح كما تراه»، ثم نقل بالنص عنه من أول: و أما ما رفض أن يستعمل، و بعد قليل نراه يترك فقرات أخرى.

(٣) المزهر ج ١ ص ٢٥٧، ٢٥٨ نقل عن الخصائص ج ٢ ص ١٠-١٢.

(٤) المزهر ج ١ ص ١١٣.

(٥) لمع الأدلة ص ٨٣.

(٦) لمع الأدلة ص ٨٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٣٢

أنه قد حرص على إيراد ألفاظه بدقة كاملة و لم يغفل إلا- عبارة يسيرة هى مثال من الأمثلة التى أوردتها ابن الأنبارى، كما أن نص السيوطى فى كتابه يشعر بأنه قد أغفل شيئا أراد التنبيه عليه إذ أورد عبارة «ثم قال» بعد الفقرة التى أغفل من نهايتها ذلك الجزء اليسير. و حين تحدث السيوطى عن المرسل و المنقطع فى كتابه بدأ بالحديث عن المرسل نقلا عن ابن الأنبارى، و لما كان الأخير قد تناول المرسل و المجهول معا فإن السيوطى قد نقل ما يخص المرسل و أغفل العبارات التى تحدث فيها ابن الأنبارى عن المجهول دون أن

يبتر ألفاظه أو يغير منها «١».

وحين نقل عنه فى النوع السادس «من تقبل روايته و من ترد» أورد ما كتبه ابن الأنبارى فى شرط نقل الأحاد، و قد التزم السيوطى بألفاظ ابن الأنبارى و عباراته بيد أنه فى آخر النص أغفل بضع عبارات لم يوردها و هى فى الحقيقة لا تنقص المعنى و لا تخل به، و إنما أوردتها ابن الأنبارى زيادة فى توضيح فكرته فاستطاع السيوطى الاستغناء عنها دون أن يختل المعنى مع حرصه على عدم تغيير عبارات المنقول عنه «٢».

يتضح مما قدمناه، و من غيره مما تتبناه أن السيوطى كان يمتاز بالأمانة البالغه فى نقوله، و يبدو حرصه الشديد على إيراد هذه النقول بألفاظها فى طريقة اختصاره حيث يغفل العبارات التى لا- تخل بالمعنى أو التى يرى فيها استطرادا و تشتيتا للفكرة، و يقتصر على عبارات المنقول عنه التى يرى فيها إيضاحا للفكرة التى ينقلها دون أن يغير من اللفظ و يبدله، على أن جانبا كبيرا من هذه النقول لم يقسم باختصارها بل أورد النصوص كاملة كما هى لدى أصحابها، و من ثم فإنه يمكن الاعتماد على نقول السيوطى فى استنباط آراء السابقين و مذاهبهم، و الاطمئنان إلى وثاقتها. (١) انظر المزهر ج ١ ص ١٢٥ النوع الرابع، و انظر: لمع الأدلة: الفصل الثامن «المرسل و المجهول» ص ٩٠، ٩١.

(٢) انظر المزهر ج ١ ص ١٣٨، لمع الأدلة ص ٨٥، ٨٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٣٣

وضع أصول لنقد الرواية اللغوية

إشارة

بينت بالبواب الأول من البحث أن السيوطى أولا- و قبل كل شىء محدث من النوع الأول يهتم بالبحث فى الأسانيد و يحرص على الأمانة، و يهتم بالبحث فيما يتصل بالأحاديث من صحه و ضعف و علل و بالرواه من توثيق و تعديل، أو تجريح و تضعيف، كما قلت إن عنايته بالحديث قد طبعت منهجه و عقله بحيث ظهر تأثيره به فى شتى نواحي دراسته.

و فى كتاب «المزهر» نجد محاولة من السيوطى لدراسة اللغة بتطبيق منهج المحدثين عليها، و قد صرح بذلك فى مقدمته حيث قال: «هذا علم شريف ابتكرت ترتيبه، و اخترعت تنويحه و تبويبه، و ذلك فى علوم اللغة و أنواعها، و شروط أدائها و سماعها، حاكيت به علوم الحديث فى التقاسيم و الأنواع، و أتيت فيه بعجائب و غرائب حسنة الابداع» «١».

و الواقع أن رواية الحديث قد حظيت منذ وقت مبكر بعناية المسلمين، و نالت من الاهتمام لاتصالها بالأحكام الشرعية التى تمس عبادات الناس و معاملاتهم ما لم يتح مثله للرواية اللغوية.

و قد اشتغلت طائفة كبيرة من المسلمين بنقل الحديث و روايته، كما ابتدأ تدوين الحديث منذ وقت مبكر و وضعت فيه المصنفات التى اعتمدت- فى الغالب- على ما دون فى عهد عمر بن عبد العزيز، و قد صنف فى الحديث من رجال القرن الثانى الهجرى الربيع بن صبيح (١٦٠ هـ)، و سعيد بن أبى عروب (١٥٦ هـ)، و تبعهم الامام مالك الذى صنف الموطأ و توخى فيه القوى من حديث أهل الحجاز، و صنف ابن جريج بمكة و الأوزاعى بالشام و سفيان الثورى (١) المزهر ج ١ ص ١.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٣٤

بالكوفة و حماد بن سلمة بالبصرة و هشيم بواسط و غيرهم، ثم تلاهم كثيرون ممن نسج على منوالهم، ثم صنف بعض الأئمة المسانيد كمسند أسد بن موسى الأموى (٢١٢ هـ)، و مسند نعيم بن حماد الخزاعى (٢٢٨ هـ)، ثم بعد فترة ظهر مسند الامام أحمد بن حنبل (٣٤١ هـ).

هـ، و تلا هذه الطبقة طبقة أصحاب الكتب الستة «١».

و إذا كانت العناية قد اتجهت إلى جمع الأحاديث و تدوينها فإن طريق ذلك كان الرواية الشفوية التى اعتمد عليها الحديث فترة من الزمن، ثم كان أصحاب الكتب يعتمدون أيضا على الرواية الشفوية و يهتمون بالنقل عن حفاظ الحديث و نقلته بعد التدوين و قد استدعى ذلك البحث عن الوسائل التى تضمن سلامة وصول الأحاديث إليهم.

و قد عرف عن الصحابة تشدهم و تحرجهم فى رواية الحديث، كما عرف عن بعضهم نقدهم لبعض الروايات، فلما حدثت الفتنة و ظهر أهل الأهواء الذين لم يؤمن كذبهم فى الحديث، ثم ظهر القصاص و أصحاب الأخبار بعد ذلك يحدثون الناس بأحاديث عن الكتب السابقة تفيض بالكذب و الأساطير، كما ظهر التزويد عند بعض الرواة، أصبحت الحاجة ماسة إلى الاهتمام بنقد رواية الحديث، و قد اتجه هذا النقد فى غالبه إلى الأسانيد و يتمثل فى بحث الرواة جرحا و تعديلا و ما يستتبعه من بحث أحوالهم، و البحث فى الأسانيد لمعرفة عللها و اتصالها أو انقطاعها، و من هنا كانت بداية ظهور علم أصول الحديث الذى عرف عند المتأخرين بعلم مصطلح الحديث.

و لكى نعطي صورة مجملّة عن تدرج مصطلح الحديث حتى وصل إلى ما وصل إليه عند المتأخرين نذكر أن الاهتمام بهذا العلم كما بينا كانت له جذوره الموعلة فى القدم، و قد تكلم فى الجرح و التعديل كثير من العلماء منذ وقت مبكر، و كان منهج الرواية فى ذلك الحين عرفا بين المحدثين.

و يبدو أن ابن شهاب الزهري، و شعبة بن الحجاج (١٦٠ هـ) قد صنفا فى (١) السيوطى: تنوير الحوالكك شرح موطأ مالك ج ١ ص ٥، ٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٣٥

نقد الرواية، و قد ظهر بعد حين مسلم (٢٦١ هـ)، الذى صنف فى علل الحديث، ثم صنف أبو محمد الراهزمي (٢٦٠ هـ) كتاب المحدث الفاصل بين الراوى و الواعى و تبعه الحاكم النيسابورى (٤٠٥ هـ) فتصدى للتأليف فى ذلك، لكنه لم يهذب و لم يرتب، و تبعه أبو نعيم الأصبهاني، ثم جاء من بعدهم الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ) فصنف فى قوانين الرواية كتاب «الكفاية»، كما صنف فى آدابها، و فى جميع فنون الحديث بحيث قيل: إن المحدثين بعده عيال على كتبه.

و يمكن أن نجد فى كتاب الكفاية مصداق ما نقول من قدم الكلام فى أصول الحديث و الاهتمام به حيث يورد الخطيب البغدادي نقولا بأقوال كثير من المتقدمين تتصل بأصول الحديث و نقد الرواية فهو يذكر مثلا فى «الخبر المتصل» نقلا يصل إلى قتادة و هو من التابعين و فيه يقول: «لا يحمل هذا الحديث عن صالح عن طالح، و لا عن طالح عن صالح، حتى يكون صالح عن صالح» «١»، و معظم الكتاب نقول كهذا ثبت لنا كثيرا من أسماء الذين اعتنوا بنقد الحديث منذ القدم و إن لم يصنفوا فيه.

و أشهر الذين صنّفوا فى المصطلح من المتأخرين ابن الصلاح (٦٤٢ هـ)، و مقدمته أشهر ما كتب فى المصطلح بحيث حظيت بعدد من الشروح و المختصرات، و قد لخص ابن حجر هذه المقدمة فى كتابه نخبة الفكر، و يمكن أن نعتبر هذه المقدمة نهاية التدرج الذى وصل إليه مصطلح الحديث بعد استقرار مصطلحات هذا العلم و لذلك سنحاول المقارنة بينها و بين كتاب السيوطى باعتباره نهاية التدرج فى الرواية اللغوية و نقدها.

اتضح لنا ما حظيت به رواية الحديث من اهتمام بالغ، و ما حظى به نقد روايته من توفر كثير من الباحثين فى الحديث منذ فترة مبكرة على التعرض لها و تناولها، ثم توفر كثرة منهم على التصنيف فيها، و الدافع إلى ذلك - كما هو معروف - هو اتصال الأحاديث بالدين و اعتماد التشريع عليها، و ظهور أهل (١) الكفاية فى علم الرواية ص ٢٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٣٦

الأهواء، و وجود الدواعى إلى الكذب التى حاول المحدثون الابتعاد عنها و تنقية أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم من شوائب

الوضاعين و الكذابين.

ذلك كان شأن رواية الحديث و شأن أصوله و نقد روايته حتى وصلت إلى مصطلح معروف لدى القوم حاول السيوطى أن يدرس اللغة و روايتها و أن يقسمها على نمطه فما ذا كان من أمر رواية اللغة و نقدها قبل السيوطى؟ ثم ما هو الجهد الذى قام به السيوطى؟ و إلى أى مدى من النجاح بلغت محاولته؟

و قد حظيت رواية الأدب و اللغة بعناية الرواة منذ القدم، و رواية الأشعار فى الجاهلية و الاسلام، و كثرة الرواة و قوة حفظهم أمور معروفة و مشهورة، أما نقد هذه الرواية فقد حدث بشكل ملحوظ فى عصور التدوين فقد لاحظ الخليل أن «النحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس فى كلام العرب إرادة اللبس و التعنيت» (١)، كما لاحظ القدماء افتعال الشعر من قبل بعض الرواة و نسبته إلى غير قائله، و يعطى ابن سلام فى مقدمته صورة للانتحال فى الشعر و ما قام به محمد بن إسحاق من تحمله لكثير من المصنوع المفتعل (٢)، و قد بين ابن سلام فى مقدمته دوافع انتحال الشعر و ذكر أن أهل البصيرة بالشعر يستطيعون أن يميزوا صحيحه من المصنوع الذى افتعله الرواة، و يعد ابن سلام بذلك من أقدم من تكلم فى نقد الرواية اللغوية.

و الواقع أن الذى يهيم اللغويين بعد حديث الافتعال و الانتحال فى الشعر و كذب بعض الرواة هو أن يثبتوا أن ما يحتجون به منسوب إلى الفترة التى يحتج بأشعار شعرائها و بأقوال متكلميها، و ليس من الضرورى عند اللغويين بعد ذلك تعيين القائلين بأعيانهم، و إنما ذلك بغية دارسى الأدب، و هذه الفترة قد استقر العرف بين اللغويين على أن تمتد إلى منتصف القرن الثانى فى الرواية عن فصحاء الحواضر، و إلى منتصف القرن الرابع فى الرواية عن أهل البادية.

و الواقع أنه إلى ذلك الحين لم يحظ نقد الرواية اللغوية و ما يتصل بها من (١) ابن فارس: الصحابى فى فقه اللغة ص ٣٠.

(٢) ابن سلام: مقدمة طبقات فحول الشعراء ص ٥، ٨، ٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٣٧

بحث الرواة و أحوالهم لمعرفة حقيقتهم جرحا و تعديلا، و لم تحظ أسانيد اللغة بدراسة اللغويين، و لم يكن نقد الرواية إلا عرفا متبعا غير مدون لا يبين عنه إلا نصوص متناثرة و ملاحظات قليلة فى كتب الأقدمين، فابن فارس يشير إلى اشتراط عدالة الرواة بقوله: «فليتحر آخذ اللغة و غيرها من العلوم أهل الأمانة و الثقة و الصدق و العدالة، فقد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا» (١).

و ابن جنى يتناول بعض ما يتصل بنقد الرواية فى كتابه الخصائص فيتحدث عما انفرد به واحد من أهل اللغة و حكمه (٢)، و سقطات العلماء يعنى أغلاط رواة اللغة (٣)، و ما يتصل به من تصحيف و تحريف، و صدق النقلة و ثقة الرواة و الحملة (٤)، و هو بمثابة تعديل لبعض ناقلى اللغة كالأصمعى و أبى زيد و أبى عبيدة و أبى حاتم و أبى الحسن الأخفش و الكسائى، و ما عدا ذلك فهو ملاحظات قليلة جدا تتصل بالرواية و نقدها.

و قد حاول ابن الأنبارى (٥٧٧هـ) أن يضع أصولا لنقد الرواية اللغوية فاعتمد فى محاولته على مصطلح أهل الحديث مقسما اللغة كنتقسيم الحديث إلى متواتر و آحاد (٥)، ثم تحدث عن شرط المتواتر فاشترط فيه نفس شروط المحذّثين، و تحدث بنفس عباراتهم (٦) و تناول الآحاد فاشترط عدالة ناقل اللغة كما يشترط فى الحديث (٧)، و تناول بالبحث قبول نقل أهل الأهواء (٨)، و تناول الأسانيد فتحدث عن المرسل و المجهول (٩)، كما تناول الاجازة، ثم تحدث عن معارضة النقل بالنقل أى الترجيح بين الروايات (١٠) و نلاحظ أن ابن الأنبارى قد اعتمد على ما وضعه المحذّثون من مصطلح بيد أنه لم يحاول أن يطبق ذلك على اللغة تطبيقا دقيقا حيث لم يكتر من الأمثلة لما وضع من أصول. (١) الصحابى فى فقه اللغة ص ٣٠.

(٢) الخصائص ج ٢ ص ٢١.

(٣) الخصائص ج ٣ ص ١٥٨.

(٤) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٠٩.

(٥) ابن الأنبارى: لمع الأدلة فى أصول النحو ص ٨٣.

(٦) ابن الأنبارى: لمع الأدلة ص ٨٤، ٨٥، انظر الكفاية للبغدادي ص ١٦، ١٧، و نخبه الفكر لابن حجر ص ٥.

(٧) لمع الأدلة ص ٨٥.

(٨) المصدر السابق ص ٨٦.

(٩) المصدر السابق ص ٩٠.

(١٠) نفس المصدر ص ١٣٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٣٨

و لا نكاد نجد بعد ابن الأنبارى من تناول نقد الرواية اللغوية علما له أصوله و أقسامه المحددة غير السيوطى، و كل ما قيل فيها قبل السيوطى عدا ما بيناه إنما هو أبحاث قليلة لبعض الأصوليين تناولوا فيها بعض الموضوعات، أو إشارات متناثرة للغويين مبثوثة فى ثنايا كتبهم، لذلك يعد ما قام به السيوطى عملا مبتكرا فقد استطاع أن يجمع شتات ما سبق به و أن يضم متفرقات شتى و يقيم منها أقساما لها كيانها، و يضع للغه منهجا متكاملًا فى نقد الرواية لا يكتفى فيه بالجانب النظرى وحده بل يقوم بتطبيقه على ألفاظ اللغه و ما نقل منها بحيث يمكن أن نعد كتابه أهم كتاب وضع فى نقد الرواية اللغوية علما له أصوله و مصطلحاته، و تصنيف اللغه على أساس هذا العلم، فهى محاولة جمع فيها بين النظر و التطبيق. حاول السيوطى أن يضع مصطلحا للغه يضاهى مصطلح الحديث، و قد طبق أقسامه على اللغه، و سنيين إلى أى حد كان هذا المنهج مطابقا لواقع الدرس اللغوى.

و يتضح لنا مقدار الجهد الذى بذله من نظرنا فى المباحث التى تناولها محاولا دراسة اللغه فى إطار منهج لنقد روايتها يضاهى منهج المحدثين بحيث إن الناظر فى مسرد عناوين الأقسام التى قسمها السيوطى و مسرد موضوعات كتاب فى مصطلح الحديث كمقدمه ابن الصلاح ليدرك مدى التشابه بينهما فى كثير من الأقسام.

و قد قسم السيوطى كتابه إلى خمسين قسما، كل مجموعة منها تتناول اللغه من جانب معين، فثمانية أنواع تناول فيها اللغه من حيث الإسناد و هى: الصحيح الثابت، و ما روى و لم يصح و لم يثبت، و المتواتر و الآحاد، و المرسل و المنقطع، و الأفراد، و من تقبل روايته و من ترد، و طرق الأخذ و التحمل، و المصنوع و هو الموضوع.

ثم تناول اللغه من ناحية ألفاظها فى ثلاثة عشر نوعا بيد أنه لم يحاول أن يدرج أبحاثها تحت مصطلحات المحدثين، و لذلك فبعض الأنواع يضاهى مباحث للمحدثين، و بعضها ليس لهم مباحث من قبيله، ثم تناول اللغه و ألفاظها من حيث المعنى فى ثلاثة عشر نوعا و نلاحظ فى دراسته لبعض هذه

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٣٩

الأنواع اعتماده الكبير على الأصوليين نظرا لاهتمامهم ببحث المعنى.

و قد تناول لطائف اللغه و ملحها فى خمسة أنواع، و قد استغرقت الأبحاث السابقة الجزء الأول من الطبعة التى نعتد عليها، و قد درس السيوطى ألفاظ اللغه و حاول ضبطها و حصر أبنيتها فيما سماه بالأشبه و النظائر، ثم عاد بعد ذلك لإكمال المنهج الذى وضعه لنقد اللغه على نمط منهج أهل الحديث، فتحدث عن آداب اللغوى فى مقابلة آداب المحدث عند أهل المصطلح «١»، ثم كتابة اللغه و قد تحدث فيه عن تاريخ الكتابة عند العرب و فضل تعلمها ... إلى آخره، ثم تناول التصحيف و التحريف فى اللغه كما يفعل أهل الحديث «٢»، ثم الطبقات و الحفاظ و الثقات و الضعفاء و قد ألف المحدثون فى ذلك المطولات و المختصرات و بحثوه فى مصطلحهم «٣»، ثم الأسماء و الكنى و الألقاب و الأنساب التى تتصل أيضا بنقله اللغه كما يفعل أهل الحديث «٤»، و المؤلف و المختلف المتصل بنقله اللغه كما يدرسه أهل الحديث متصلا بنقلتهم «٥»، و المتفق و المفترق «٦» و الموالي و الوفيات «٧»، و هذه المباحث تتصل برجال اللغه و روايتها.

و قد خصص السيوطى بعد ذلك قسما للحديث عن الشعر و الشعراء باعتبار الشعر يمثل جزء من مادة اللغة التى تنقل، و باعتبار الشعراء من قائلى اللغة الذين ينقل عنهم، و لم ينس أن يتناول أغلاط العرب فى آخر مباحثه.

و جدير بنا أن ننبه على أن كتاب السيوطى لم يقتصر على تقسيمات اللغة حسب منهج نقد الرواية الذى يحاكي مصطلح الحديث، بل إن كثيرا من الأقسام تتناول موضوعات لا تتصل بهذا المنهج لا سيما الموضوعات الثلاثة عشر التى تدرس اللغة من حيث المعنى و غيرها، كما أن بعض الموضوعات التى تناول فيها اللغة تحت أقسام أهل المصطلح احتوت كثيرا من الأبحاث اللغوية الهامة لا ينبئ عنوان البحث عنها كما فى القسم الأول: الصحيح من اللغة. و عدم (١) مقدمة ابن الصلاح ص ١١٨.

(٢) مقدمة ابن الصلاح ص ١٤٠.

(٣) المصدر السابق ص ١٩٣.

(٤) نفس المصدر ص ١٦٤.

(٥) نفس المصدر ص ١٧٢.

(٦) نفس المصدر ص ١٧٩.

(٧) نفس المصدر ص ٧، ٨.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٤٠

التقيد بالتزام جميع عناصر منهج المحدثين فى دراسة اللغة من الأمور التى نحمدها للسيوطى، إذ إنه يحاول أنه يعبر بذلك عن واقع الدرس اللغوى الذى يختلف فى كثير من المواضع بلا شك عن دراسة الحديث الشريف.

و ليس التشابه بين منهج المحدثين و بين عمل السيوطى بحاجة إلى التذليل عليه أكثر مما ذكرنا، فقد صرح به فى مقدمته، بالإضافة إلى ما رأيناه من تشابه بين تقسيماته و بين تقسيمات أهل المصطلح.

بعد هذا التعريف بالمنهج الذى وضعه السيوطى ليكون مصطلحا لعلوم اللغة يجدر بنا أن نقوم الجهد الذى قام به فى تكوين منهجه و إقامة دعائمه و تطبيقه على اللغة، فإلى أى مدى وفق فى ذلك؟ و ما مدى مناسبة منهجه للواقع اللغوى؟. و نقد الرواية فى الحديث أو فى غيره من العلوم النقلية يتعرض لمرحلتين من النقد أولاها: النقد الخارجى أو نقد السند، و هذه أهم المرحلتين، و قد حظيت ببحث مستفيض لدى المسلمين، و هى بالتالى يمكن أن يندرج البحث فيها تحت قسمين رئيسيين ترتد إليهما فروع البحث فى النقد و مصطلحاته، و أولهما: البحث فى الرواء جرحا و تعديلا و ما يتبع ذلك من معرفة تواريخهم و أحوالهم، و الآخر: البحث فى الأسانيد و اتصالها و عللها و ما يدخل فى ذلك من فروع.

أما المرحلة الثانية فهى النقد الداخلى أو نقد المتن، و هى تعنى بالترجيح بين الروايات المختلفة، و تتناول متون النصوص بالنقد، و لم يغفل تناولها أصحاب أصول الحديث، بيد أن العناية بها من عمل البيئات الاسلامية المختلفة التى تناولت النصوص لا سيما بيئات الفقهاء.

و لكنى نحدد دور السيوطى فى وضع منهج لنقد الرواية اللغوية سنبحث الموضوع حسب التقسيم السابق.

المرحلة الأولى: النقد الخارجى:

أ- رواة اللغة:

اشترط اللغويون منذ وقت مبكر العدالة فى راوى اللغة، و قد نقل عن

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٤١

الخليل ما يشير إلى ذلك «١»، كما كان لابن سلام ملاحظات نقدية هامة فى رواية الشعر اهتم فيها بوجوب تحرى من ينقل عنه و اشترط فيه العدالة و الضبط حيث أنكر على محمد بن إسحاق تحمله لكثير من الشعر، و عدم بصره به «٢»، و له ملاحظات هامة فيها يخص رواة الشعر، و قد حكى ابن سلام التزيد الذى أصاب رواية الشعر و دوافعه و بين أن أهل البصر بالشعر يستطيعون أن يميزوا صحيحه من منحوله، و إنما يشكل عليهم تميز ما زاده الرواة من أهل البادية.

و إذا كان هناك ما يحمل المولدين على الكذب لسبب أو لآخر فلقد صار من اللازم على اللغويين - و هم يبحثون عن الصحيح من اللغة - أن يشترطوا عدالة ناقل اللغة فابن فارس ينصح بذلك قائلا: «فليتحر آخذ اللغة و غيرها من العلوم أهل الأمانة و الثقة، و الصدق و العدالة، فقد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا» «٣».

و يوضح ابن الأنبارى ذلك بقوله: «اعلم أنه يشترط أن يكون ناقل اللغة عدلا رجلا كان أو امرأة، حرا كان أو عبدا، كما يشترط فى نقل الحديث، لأن بها معرفة تفسيره و تأويله فاشترط فى نقلها ما اشترط فى نقله، و ان لم تكن فى الفضيلة من شكله، فان كان ناقل اللغة فاسقا لم يقبل نقله، و يقبل نقل العدل الواحد، و لا يشترط أن يوافق فى النقل غيره» «٤».

و بالرغم من أن ابن الأنبارى قد اشترط عدالة ناقل اللغة و نص على أن ذلك مماثل لما يشترط الحديث فان موقف اللغويين بالنسبة لما يرويه أهل الأهواء أكثر تساهلا من موقف المحدثين إذ يقرر ابن الأنبارى نفسه أن «نقل أهل الأهواء مقبول فى اللغة و غيرها إلا أن يكونوا ممن يتدين بالكذب كالخطابية من الرافضة، و ذلك لأن المبتدع إذا لم تكن بدعته حاملة له على الكذب فالظاهر (١) الصحابى فى فقه اللغة ص ٣٠.

(٢) مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام.

(٣) الصحابى فى فقه اللغة ص ٣٠.

(٤) لمع الأدلة فى أصول النحو ص ٨٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٤٢

صدقه، و لهذا قال بعض أكابر العلماء: إذا قبلنا رواية أهل العدل و هم يرون أن من كذب فسق فكيف لا يقبل رواية الخوارج و هم يرون أن من كذب كفر، و الذى يدل على قبول نقلهم أن الأمة أجمعت على قبول صحيح مسلم و البخارى، و قد روي عن قتادة و كان قدريا، و عن عمران بن حطان و كان خارجيا و عن عبد الرزاق و كان رافضيا «١».

و يتضح من هذا أن اللغويين يحاولون أن تكون شروطهم مماثلة لشروط المحدثين حيث يحتج ابن الأنبارى لقبول نقل أهل الأهواء فى اللغة بما فعله البخارى و مسلم، بيد أن هذا فى الحقيقة لا يطابق الواقع، إذ المحدثون أكثر تشددا فى الرواية و تحرى الرواة من اللغويين نظرا لطبيعة نقولهم التى تتصل مباشرة بالدين، و لتوفر الدوافع إلى الكذب فى الحديث أكثر من توفرها فى اللغة، و هناك أمر ثالث و هو طول الاسناد فى الحديث و كثرة الرجال الذين يحتاج نقاد الحديث إلى ضبطهم و معرفة أحوالهم، و الأمر فى اللغة يختلف عن ذلك فقد تساهل اللغويون فى البحث عن أحوال نقله اللغة جرحا و تعديلا كما فعل المحدثون، و لا نكاد نجد محاولة جادة فى ذلك إلا عند أبى الطيب اللغوى فى كتابه «مراتب النحويين»، و إن كان هذا الكتاب فى ظاهره يبدو تعريفا بأئمة اللغة و رواتها. و قد أنكر الرازى على اللغويين هذا الإهمال، و برغم تعقب الأصبهاني له فإنه وافقه فى أنه كان من الواجب على اللغويين أن يبحثوا عن أحوال الرواة «٢»، و يحاول القرافى أن يجد عذرا لمسلك اللغويين بقوله: «إنما أهملوا ذلك لأن الدواعى متوفرة على الكذب فى الحديث بأسبابه المعروفة الحاملة للواضعين على الوضع، و أما اللغة فالدواعى إلى الكذب فيها فى غاية الضعف ... و لما كان الكذب و الخطأ فى اللغة و غيرها فى غاية الندرة، اكتفى العلماء فيها بالاعتماد على الكتب المشهورة المتداولة فإن شهرتها و تداولها يمنع من ذلك مع ضعف الداعية له، فهذا هو الفرق» «٣». (١) المصدر السابق ص ٨٦-٨٨.

(٢) المزهر ج ١ ص ١١٨، ١١٩.

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١١٩، ١٢٠.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٤٣

و الواقع أن طبيعة اللغة تخالف طبيعة الحديث كما تبين، و لقد كان من الطبيعي أن يكون المحدثون أكثر تشددا في الرواية، و قد كانوا أكثر بحثا في أحوال الرواة من اللغويين برغم ما يزعمه بعض اللغويين من أن شروطهم في نقله اللغة مماثلة لشروط أهل الحديث، فلكل بيئه ميزانها النقدي الخاص بها، فحيث لا يقبل المحدثون أهل الأهواء الذين لا يؤمن كذبهم ينقل اللغويون عنهم لعدم توفر دواعي الكذب في اللغة. كما أن نقد الرجال أنفسهم يختلف في بيئه عنه في الأخرى، و وضع نقله اللغة في ميزان أهل الحديث قد يجرح أكثرهم، و لم يكن عجيبا ما قاله إبراهيم الحربي المحدث:

«كان أهل العربية كلهم أصحاب أهواء إلا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سنة:

أبو عمرو بن العلاء و الخليل بن أحمد و يونس بن حبيب البصرى و الأصمعي» (١)، ذلك أنه قد وزن ناقله اللغة بميزان ناقله الحديث.

تلك خلاصة الأبحاث التي سبقت السيوطي و تناولت رواة اللغة، و قد اتضح منها محاولة الباحثين فيها وضع شروط مماثلة لشروط المحدثين بيد أن الرواية اللغوية- في واقع الأمر- كانت تجد تساهلا في قبولها أكثر من رواية الحديث، و الأمر الثاني أن اللغويين لم يبحثوا في أحوال نقلتهم جرحا و تعديلا كما فعل أهل الحديث باستثناء ما قام به ابن جنى، و مع ذلك فلم يتناول غير طائفة قليلة منهم بالتوثيق و أغفل الحديث عن سائر الرواة. و قد أنكر عليهم الرازي ذلك كما سبق، و اعترف بهذا التقصير القرافي بالرغم من تعقبه للرازي و اعتذاره عن اللغويين.

و من ثم فقد نصب السيوطي نفسه مدافعا عن اللغويين محاولا- أن يجد لديهم ما هوجموا بالتقصير فيه من بحث أحوال رواة اللغة فأجاب عن ذلك بأن «أهل اللغة و الأخبار لم يهتموا بالبحث عن أحوال اللغات و روايتها جرحا و تعديلا، بل فحصوا عن ذلك و بينوه كما بينوا ذلك في رواة الأخبار، و من طالع الكتب المؤلفة في طبقات اللغويين و النحاة و أخبارهم وجد ذلك، و قد ألف أبو الطيب اللغوي (١) ابن الأباري: نزهة الألباء ص ١٧.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٤٤

كتاب «مراتب النحويين» بين فيه ذلك، و ميز أهل الصدق من أهل الكذب و الوضع، و سيمر بك في هذا الكتاب كثير من ذلك في نوع الموضوع و نوع معرفة الطبقات و الثقات و الضعفاء و غيرها من الأنواع» (١).

و الواقع أن المعتذرين عن تقصير اللغويين في بحث أحوال الرواة بالنسبة لما فعله أهل الحديث قد أغفلوا أمرا هاما هو الفرق بين أسانيد الحديث و بين أسانيد اللغة، فأسانيد الحديث لا بد أن تصل إلى الرسول صلى الله عليه و سلم، و يلزم البحث عن روايتها ابتداء من التابعين فمن دونهم حتى يصل الخبر إلى طبقة جامعي الأحاديث و مدونه، و هذه الأسانيد كثيرة و مختلفة و نقلتها متعددون و طبقاتهم كثيرة مما يجعل رجال الحديث من الكثرة بحيث يلزم النقطة ضبطهم و معرفة أحوالهم، بينما الأمر في اللغة يختلف، إذ إن أسانيد روايتها أقصر، بل ربما تقتصر على راو واحد نقل عن الأعراب أو عن غيرهم من الفصحاء الذين يوثق بعربيتهم كالأصمعي و أبي زيد و غيره أو رواية راو عن الأصمعي، و بالجملة فإن سلسلة الاسناد قصيرة في الروايات اللغوية تجعل الرواة الذين ينبغي البحث عن أحوالهم عددا قليلا، و ذلك لأن المادة اللغوية الموثوق بها كانت إلى عهد التدوين لا تزال قائمة حية بالبادية كما أن الاحتجاج بفصحاء الحاضرة قد استمر إلى وقت متأخر نسبيا و هو منتصف القرن الثاني حيث ظهر التدوين، و قد وضع الخليل- في ذلك الحين- أو شرع في وضع كتاب العين ليجمع فيه المادة اللغوية.

و على أية حال فقد اتجه السيوطي- دفاعا عن اللغويين- إلى استدراك ما فاتهم من البحث عن أحوال الرواة محاولا ضم ما تناثر من ملاحظات لهم في ذلك و جمع أخبارهم من كتب الطبقات و غيرها و وضع ذلك في أقسام تحمل نفس الأسماء التي بحث تحتها

أهل الحديث رجالهم.

و أول هذه الأقسام التى تتناول الرواة الحديث عن آداب اللغوى و هو بحث لم يسبق السيوطى إليه فى بيئه اللغويين، و قد ترسم فيه خطى المحدثين فهم (١) المزهر ج ١ ص ١٢٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٤٥

يذكرون أن على المحدث تصحيح النية و إخلاصها «١»، و كذلك يبدأ السيوطى حديثه بأن يذكر أن أول ما يلزم اللغوى الاخلاص و تصحيح النية ثم التحرى فى الأخذ عن الثقات، و يمكن تلخيص ما ذكره السيوطى من هذه المبادئ التى يراها واجبة على اللغوى فيما يلى «٢»:

١- الاخلاص و تصحيح النية.

٢- الدءوب و الملازمة.

٣- كتابة كل ما يراه و يسمعه فذاك أضبط له.

٤- الرحلة فى طلب الفوائد و الغرائب كما رحل الأئمة.

٥- العناية بحفظ أشعار العرب.

٦- الثبوت فى الرواية.

٧- الرفق بمن يأخذ عنهم.

٨- عدم الافتاء بما لا يعلم و ليقول «لا أدرى».

٩- سؤال من هو أعلم إذا تعرض للسؤال الذى لا يعرفه.

١٠- عزو العلم إلى قائله.

١١- الرجوع إلى الصواب.

١٢- الرد على العلماء إذا أخطوا.

١٣- الثبوت فى تفسير غريب القرآن و الحديث.

١٤- التنبيه على الروايات المختلفة.

١٥- الامساك عن الرواية عند الطعن فى السن.

١٦- امتحان القادم لمعرفة درجته فى العلم.

و قد تحدث فى هذا الفصل أيضا عن الحافظ فى اللغة و وظائفه التى ينبغى عليه القيام بها و هى الاملاء و هى أعلاها، و قد أملى اللغويون القدماء أمثال ثعلب و ابن دريد و ابن الأنبارى و القالى و غيرهم و طريقتهم فى الاملاء كطريقة المحدثين. (١) مقدمة ابن الصلاح ص ١١٩.

(٢) المزهر ج ٢ ص ٣٠٢ - ٣٤١.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٤٦

و هذا الفصل - فى الواقع - يعد من مبتكرات السيوطى فى ميدان اللغة فقد استطاع أن يستنبط مما جرى عليه عرف اللغويين و ما أفادته ملاحظاتهم المتناثرة و ما حكى عن أئمتهم من أخبار، مترسما خطى أهل الحديث، استطاع أن يستنبط مجموعة من المبادئ تكون بمثابة القوانين التى ينبغى أن يأخذ اللغوى بها نفسه، و هى جزء من المنهج الكبير الذى وضعه، و لذلك نلاحظ عليه فى هذا الفصل صوغ هذه الأحكام بقلمه ثم ذكر ما يعضدها أو يسندها من آثار أو أخبار.

ثم تحدث عن كتابة اللغة «١»، لصلتها بما يجب على الرواة، بيد أنه بحثها من حيث تاريخها و الأخبار التى وردت فيها، و تناول بعد

ذلك مباشرة «التصحيح و التحريف» (٢) و بحثه بحثا متقنا، و قد وضعه بين ما يخص رجال اللغة لأن سبب التصحيح و التحريف أساسا هو أخذ اللغة عن الصحف و المنهج الصحيح فى تلقى اللغة أن تؤخذ سماعا و يحفظها الناقل عن شيخه، و يستعين بالكتابة فى ضبط ما حفظ، و لا يجب أن يستغنى بالكتابة عن الحفظ.

و قد عنى بهذا المبحث المحدثون لكثرة ما عرض لهم من التصحيح حتى أفرد بعضهم بالتأليف منذ القدم، و نبه عليه ابن الصلاح فى مقدمته «٣»، و من ثم فقد بحثه السيوطى مطبقا إياه على نصوص اللغة معتمدا على ما ورد بالكتب السابقة من أقوال تخصص الموضوع، و قد أورد عددا كبيرا من الأمثلة لما صحفه رواة اللغة شعرا و نثرا، و الواقع أن هذا المبحث من أهم المباحث التى تتصل بنقد الرواية اللغوية، و قد وفاه السيوطى حقه لما له من خطورة فى إمكان دخول ألفاظ غير صحيحة إلى اللغة لا سيما إذا كان التصحيح فى الألفاظ الغريبة التى ينفرد بروايتها بعض اللغويين.

ثم تناول بعد ذلك: الطبقات و الحفاظ و الثقافات و الضعفاء «٤»، أما الطبقات (١) المزهرج ٢ ص ٣٤١.

(٢) المزهرج ٢ ص ٣٥٣.

(٣) مقدمة ابن الصلاح ص ١٤٠-١٤٣، انظر ابن حجر: شرح نخبه الفكر ص ٥.

(٤) المزهرج ١ ص ٣٩٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٤٧

فقد سبق لكثير من اللغويين أن صنفوا فيها، و قد نص السيوطى على ذلك، بيد أن البحوث السابقة لم تتناول الطبقات من زاوية النقد للرواية اللغوية فلم تهتم بالحديث عن رجال اللغة جرحا و تعديلا بقدر ما كانت تهدف إلى التعريف المجمل بهم، كما أن بحث السيوطى للرواة مقسمين إلى حفاظ و ثقافت و ضعفاء لم يسبق إليه فى ميدان اللغة ببحوث مستقلة، و إنما كان ما سبقه عرفا جاريا بين اللغويين غير مكتوب، أو شذرات متناثرة و أقوالا متفرقة باستثناء ما قام به أبو الطيب اللغوى فى كتابه الذى وثق فيه كبار رجال اللغة كأبى عمر بن العلاء و أبى زيد و أبى عبيدة و غيرهم، و لذلك اعتمد السيوطى فى بحثه اعتمادا كبيرا على كتاب المراتب فنقل كثيرا من صفحاته الخاصة بتوثيق كبار الرواة و هى التى تناول فيها أبو الطيب التعريف بأئمة اللغة و نقلتها ابتداء من أبى الأسود و تلامذته و أبى عمرو إلى ابن قسطنطين، و قد وثق أبو الطيب جماعة كثيرة من رجال اللغة و ضعف آخرين، و قد لخص عنه السيوطى بطريقته التى سبق بيانها أخبار عدد منهم ينيف على الستين من رجال اللغة على ترتيبهم الزمنى الذى راعاه أبو الطيب.

و قد أتبع ما نقله عن كتاب المراتب بنقل آخر عن الخصائص لابن جنى الذى تحدث فيه تحت عنوان «صدق النقلة و ثقة الرواة و الحملة» «١»، حيث وثق رواة اللغة الأولين و أثنى عليهم، فبين صدق أبى عمرو بن العلاء و تحرجه فى الرواية، و صدق الأصمعى و ما عرف عنه من شدة تحرج فى الرواية، و كذلك حال أبى زيد و أبى عبيدة و أبى الحسن و الكسائى و أضرابهم، و قد أفاض ابن جنى فى الحديث عنهم نافيا كل ظنة و مبينا ما اتصفوا به من خلق قويم، و ما كانوا عليه من الثقة و الأمانة و الصدق.

و قد نقل السيوطى هذا المبحث بفضه و نصه هنا و قرنه بما نقله عن أبى الطيب، فهذا الفصل اعتمد فيه على هذين النقلين، و ليس له فيه غير ما علق به على عبارة لأبى الطيب فى نقد أبى عبيد صاحب الغريب المصنف حيث ذكر (١) الخصائص ج ٣ ص ٣٠٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٤٨

الأول أنه لم يسمع من أبى زيد، فذكر السيوطى أن صاحب الغريب المصنف قد صرح بسماعه من أبى زيد فى كتابه «١».

و يبدو أنه باقتصاره على ما نقل عن سابقه كان يريد أن يبين كما بين من قبل فى دفاعه عن اللغويين أنهم قد اهتموا ببحث رجال اللغة جرحا و تعديلا كما فعل المحدثون، و بالرغم من أن السيوطى لم يصف إلى سابقه شيئا يذكر فإن وضعه لهذين النقلين تحت عنوانه السابق الذى يضاهى مباحث المحدثين فيه شىء من الجدة و الابتكار.

و كان على السيوطى إكمالا للمنهج الذى يحاول إقامته و ترسما لخطى أهل الحديث فى بحث رجالهم أن يخصص للأسماء و الكنى

و الألقاب و الأنساب جانبا من كتابه، و كذلك فعل في النوع الخامس و الأربعين «٢»، و لم يقتصر على رواة اللغة و نقلتها بل جعل قسما لهم و آخر لشعراء العرب الذين يحتج بهم في العربية، و لم يسبق السيوطي بمثل هذا المبحث في ميدان اللغة فهو من مبتكراته فيها، إذ إن البحث في الأسماء و الألقاب و الكنى قد عني به المحدثون فيما يتصل برواة الحديث، و لهم في ذلك مصنفات و قد بينوا أهميته في نقد الرواية و تمحيصها، كما تناولوه في كتب أصول الحديث «٣» أما في اللغة فلا نعرف من سبق السيوطي بافراد هذا الموضوع بالبحث، و قد قسم السيوطي هذا المبحث إلى أربعة فصول تحدث في أولها عن اشتهر بكنيته أو لقبه أو نسبه، و قسم الأول إلى قسمين أولهما يتصل بأئمة اللغة و النحو فأخذ يسردهم ابتداء من أبي الأسود حتى انتهى إلى رضی الدين الصغاني و عدتهم تنيف على سبعين علما من أشهر رجال اللغة، ثم تناول في القسم الثاني شعراء العرب الذين يحتج بهم في العربية فبدأ بامرئ القيس و انتهى بالعجاج فذكر أربعة عشر ممن غلبت عليه كنيته أو لقبه أو نسبه، و خصص الفصل الثاني لبيان كنية من اشتهر باسمه أو لقبه أو نسبه، و تناول فيه رجال اللغة ثم شعراء العرب، و في الثالث بحث (١) المزهرج ١ ص ٤١٢.

(٢) المزهرج ١ ص ٤١٨.

(٣) انظر مقدمة ابن الصلاح ص ١٦٢ - ١٧٢.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٤٩

الألقاب و أسبابها فتناوله أيضا في قسمين أولهما لرجال اللغة و النحو و الآخر لشعراء العرب، و في الفصل الرابع تحدث عن الأنساب و أنواعها فالمنسوب إلى القبيلة صريحا كأبي الأسود أو ولاء كسيبويه، أو إلى بلد أو وطن أو إلى جد له، أو إلى لباسه، أو إلى اسمه أو اسم أبيه، و نحو ذلك.

و الحق أن السيوطي قد أحسن في ترتيب هذا البحث و تصنيفه، و قد كان البحث اللغوي بعامة و البحث في نقد الرواية بخاصة مفتقرا إلى ما قام به.

ثم تناول «المؤتلف و المختلف» «١»، من الأسماء، و هو ما يعنى به أهل الحديث زيادة في التعريف بأسماء الرواة، و احتياطا من اللبس، و قد حظى في بيئة المحدثين بعناية بالغة، و صنف فيه مصنفات مفردة منذ وقت مبكر، و قد عقد له ابن الصلاح فصلا في كتابه حدده فيه بأنه «ما يأتلف في الخط صورته و يختلف في اللفظ صيغته» «٢»، و نبه على أهميته قائلا إن «من لم يعرفه من المحدثين كثر عثاره، و لم يعدم مخجلا» «٢».

و قد تناول السيوطي هذا المبحث في أقسام ثلاثة أولها في أسماء رجال اللغة حيث سرد ثمانية أمثلة تتضمن ستة عشر رجلا يتشابه كل اثنين في صورة الاسم و يختلفان في صيغته و نطقه مثل الأبدى و الأندى، و الأنبارى و الأبيارى، و الزجاجى و الرجاجى ... إلى آخره و قد ضبط هذه الأسماء و ذكر أسماء أصحابها، و لا نكاد نظفر بمن اهتم قبل السيوطي ببحث أسماء اللغويين من هذه الزاوية، و إنما حدث ذلك فيما يخص رجال الحديث و الشعراء و القبائل، و لهذا فإنه لم ينقل في ذكره لهؤلاء الرجال عن كتب سبقت، و قد كان حريصا كعادته على ذلك إذا وجد من سبقه إلى طرق هذا الميدان، و حين تناول شعراء العرب في هذا المبحث نقل عن كتاب «المؤتلف و المختلف» للآمدى مثلا- واحدا، و فيما يتعلق بالقبائل نقل كثيرا من الأمثلة عن كتب السابقين كأمالى القالى و صحاح الجوهرى، و أكثر من النقل عن كتاب «متشابه القبائل» لمحمد بن حبيب الذى (١) المزهرج ١ ص ٤٤٧.

(٢) ابن الصلاح المقدمة ص ١٧٢ - ١٧٩.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٥٠

استوفى صاحبه بحث الموضوع من قبل، و البحث في الأسماء و تشابهها و اختلافها و محاولة ضبط ذلك قد جعل المحدثين يعنون إلى جانب ما سبق مما يتصل بضبط الأسماء و صورتها بشيء قريب من ذلك و هو الاشتراك في الأسماء و الألقاب و الكنى و الأنساب، في جميعها أو في بعضها، و هنا تبحث الأعلام التى تتفق فى الاسم و تختلف فى الأشخاص، أو الذين تتفق كناههم أو ألقابهم

أو مجموع ذلك مع افتراق أشخاصهم، و هو يختلف عن سابقه لأن الاتفاق هناك فى صورة الخط و الافتراق فى اللفظ فهو يأتلف شكلا و يختلف لفظا أو نطقا، أما هذا فيتفق خطأ و لفظا و يفترق من ناحية المسمى أو المكنى أو الملقب و قد اصطلح على تسمية هذا البحث «بالمتمقق و المفترق» (١).

و لم يسبق السيوطى فى ميدان اللغة بالعناية بهذا المبحث إلا فيما يتعلق بأسماء القبائل التى أفرد لها ابن حبيب من قبل كتابا، و قد تناول السيوطى ما يتعلق بأئمة اللغة و النحو ثم شعراء العرب ثم القبائل فذكر - مثلا - أن الأخفش اسم يطلق على أحد عشر نحويا، عدّد أسماءهم، و أن سيويه أربعة عددهم، ...

إلى آخر ذلك (٢). و قد اختتم هذا الفصل ببعض الملاحظات منها أن النحاة إذا أطلقوا أبا عمرو فمرادهم ابن العلاء، و أن البصريين إذا أطلقوا أبا العباس فالمراد به المبرد، و إذا أطلقه الكوفيون فمرادهم ثعلب، و حيث أطلق النحويون الأَخْفَش فالمراد الأوسط فإن أرادوا الأكبر أو الأصغر قيدوه (٣). ثم تحدث عما يتعلق بشعراء العرب فذكر جماعة كثيرة من الشعراء يسمون بامرئ القيس، و ذكر النوابع الأربعة، و من يشترك فى لقب الأعشى، و من اسمه الطرماح و نصيب، و قد اعتمد فيما أورد عما يتعلق بالقبائل على كتاب متفق القبائل لمحمد ابن حبيب.

و التعرف على الرجال يقتضى معرفة تواريخهم فى الميلاد و الوفاة لما لذلك من أهمية كبيرة فى معرفة طبقاتهم و روايتهم بعضهم عن بعض، و تمييز ما قد يحدث فى (١) مقدمة ابن الصلاح ص ١٧٩.

(٢) المزهج ج ١ ص ٤٥٣ - ٤٥٥.

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٤٥٥ - ٤٥٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٥١

بعض الأسانيد من سقط أو إرسال، و إظهار كذب بعض الرواة، و قد قال نقاد الرواية من المحدثين: «إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالنسب» (١)، أى سنه و سن من كتب عنه، و قد تبين لبعض نقاد الحديث زيف بعض الرواة بحساب التواريخ، و لذلك نبهوا على ضرورة العناية بمعرفة مواليده و وفيات رجالهم (٢).

و كما بحث رجال الحديث تواريخ رواتهم فإن السيوطى الذى يطبق منهجهم على اللغة قد تناول هذا الموضوع إتماما منه لعمله السابق الخاص برجال اللغة حتى يكون بذلك قد تناول هؤلاء الرجال من جميع الجوانب التى يتناولها أهل الحديث فى بحث أحوال رواتهم، و على ذلك الأساس أفرد فصلا لبحث «المواليده و الوفيات» (٣)، من رجال اللغة سرد فيه أسماء خمسة و سبعين من أئمة اللغة و النحو، و اقتصر على بيان ميلاد كل منهم و وفاته، أو وفاته فقط إن لم يكن ميلاده معروفا أو متفقا عليه، و قد ابتدأ بأبى الأسود الدؤلى (٦٩ هـ)، و انتهى بالفيروزآبادى صاحب القاموس (٨١٦ هـ).

و بالرغم من أن كتب الطبقات قد بينت ذلك من قبل السيوطى فإن تناول الرجال من هذه الزاوية التى تهدف إلى ضبط تواريخهم يعد أمرا جديدا فيما يخص الدرس اللغوى حاول به السيوطى أن يستكمل ما فات اللغويين من قبل حتى يتكون من مجموع هذه الأبحاث منهج متناسق متكامل فى نقد الرواية اللغوية يضاهاى منهج أصحاب الحديث. و إذا كنا قد بحثنا ما قام به السيوطى من دراسات تتصل برجال اللغة و رواتها فإن علينا أن نتناول القسم الثانى و هو الخاص بالأسانيد لنرى ما قام به.

ب - الأسانيد:

و البحث فى الأسانيد يشكل الشق الآخر لمنهج نقد الرواية سواء أ كان فى الحديث أم فى اللغة أم فى غيرها من العلوم النقلية، و جوانب البحث فى (١) مقدمة ابن الصلاح ص ١٩٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٩ - ١٩٣.

(٣) المزهر ج ١ ص ٤٦١.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٥٢

الأسانيد عديدة، منها ما يعني باتصال السند و يتفرع عن ذلك المرسل و المجهول و المنقطع، أو ما يعني بالترجيح بين الروايات و بيان عددها و يتفرع عن ذلك المتواتر و الآحاد و الأفراد، أو ما يعني بكيفية الرواية و هو ما يعرف بطرق الأخذ و التحمل و يتفرع عن هذه بعض البحوث الأخرى.

و الواقع أن البحث في الأسانيد قد حظى لدى المحدثين بعناية بالغة، و عرفت مصطلحات متنوعة لكل قسم من الأقسام منذ وقت مبكر بحيث قسموا الحديث باعتبار الاسناد إلى صحيح و حسن و ضعيف، و قسموا الأسانيد باعتبار اتصالها إلى متصل و مرفوع و موقوف و مقطوع و منقطع و مرسل و معضل، و باعتبار مقارنة الأحاديث بعضها ببعض نجد الشاذ و المنكر إلى غير ذلك، ثم هناك البحث في طرق الأخذ و التحمل و صيغها، و بيان من تقبل روايته و من ترد و غير ذلك من المصطلحات.

أما في اللغة فإن الأمر لم يكن يتجاوز عرفا بين اللغويين غير مكتوب، و ليس ذلك بغريب فقد وضعت أصول الفقه بعد ظهور أئمة الفقهاء و كان منهجهم عرفا يحرصون عليه و هو عرف غير مكتوب، و كذلك وضعت أصول رواية الحديث بعد فترة غير قليلة ظهر فيها كثير من أئمة الرواة الذين حرصوا على آداب خاصة في الرواية و التزموا منهجا محددًا و إن لم يكن مكتوبا، و استطاع واضعو الأصول بعد ذلك أن يستخلصوا من أقوالهم و أفعالهم منهجا محددًا انتهى به الأمر إلى أن أصبح مصطلحات دقيقة محددة المعالم، و طريقا بينا واضحا، و كذلك الأمر في الرواية اللغوية، كانت أصولها عرفا لدى أئمة اللغة لم يعمد أحدهم إلى بحثها و وضعها في قواعد محددة، و إنما هي أصول راعوها في التطبيق إلى حد كبير بحيث يمكن أن تستخرج الأطر النظرية من واقع مسلكهم العملي، ذلك أن القدماء بصفة عامة تقلّ عنايتهم بالتنظير، و لذا كانت البحوث النظرية عن الرواية اللغوية و نقدها لديهم قليلة، و قد بينت من قبل ما كان لديهم فيما يتصل بالرواية قبل السيوطي، و فيما يخص الأسانيد و بحثها لا نجد إلا بعض ملاحظات متناثرة لدى ابن فارس و أخرى لدى ابن جنى و لا نجد من عنى بها عناية فعلية غير ابن الأنباري الذي بحث اتصال الاسناد ففصلًا تحدث فيه

جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٥٣

عن المرسل و المجهول «١»، و المرسل «هو الذي انقطع سنده كأن يروى ابن دريد عن أبي زيد، و المجهول هو الذي لم يعرف ناقله نحو أن يقول أبو بكر بن الأنباري حدثني رجل عن ابن الأعرابي» «١»، و قد اشترط ابن الأنباري اتصال السند، و لذلك فهو يرفض قبول المرسل و المجهول، و بالرغم من ذلك فإن حديثه يوضح ميل غيره إلى قبوله، كما تناول المتواتر و الآحاد «٣»، و تحدث عن شروط المتواتر «٤»، و شروط الآحاد «٥»، و تناول الاجازة و جواز قبولها «٦».

و نجد من الأصوليين من تناول التواتر و الآحاد في اللغة، و على ذلك فإن البحث في الأسانيد في ميدان اللغة لم يحظ باهتمام كبير قبل السيوطي، و قد حاول من خلال الأنواع الثمانية التي تناولها في أول كتابه و وضع لها نفس مصطلحات أهل الحديث أن يستدرك ما فات البيئته اللغوية من هذه الأبحاث التي عنى بها أصحاب أصول الحديث، و التي تلزم لبناء منهج متكامل لنقد الرواية اللغوية.

و أول هذه الأنواع: «الصحيح أو الثابت و المحفوظ» «٧»، و قد وضع المؤلف هذه التسمية محاكيا ما يريده المحدثون عند تناولهم الصحيح حيث يذكرون الكتب التي عنيت بصحيح الحديث و غير ذلك، و لما كان الصحيح من اللغة يمثل غالبها فإن السيوطي قد فرغ هذا النوع إلى عديد من الأبحاث اللغوية التي تناول اللغة و نشأتها و الطريق إلى معرفتها، مما يبدو بعيد الصلة عن العنوان الذي وضعه لهذا الفصل إلا إذا كان اعتباره بحث ما صحّ من اللغة من وجوه متنوعة، و نأخذ عليه أيضا أنه لم يبدأ بتعريف الصحيح في اللغة كما يفعل المحدثون في تعريف الصحيح عندهم إذ إن الصحيح من اللغة في رأينا أعم من أن يشمل تعريف أهل الحديث المقيد بالشروط و قد أحس السيوطي بأنه لم يضع حدا للصحيح في اللغة عند بداية الموضوع و لذلك فقد وضع هذا الحد في ثنايا حديثه عن مأخذ اللغة فعرف الصحيح بأنه «ما اتصل سنده بنقل العدل (١) لمع الأدلة في أصول النحو ص ٩٠.

(٣) المصدر السابق ص ٨٣.

(٤) نفس المصدر ص ٨٤.

(٥) نفس المصدر ص ٨٥.

(٦) نفس المصدر ص ٩٢.

(٧) المزهر ج ١ ص ٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٥٤

الضابط عن مثله إلى منتهاه على حد الصحيح من الحديث» (١).

و تناول فى النوع الثانى «ما روى من اللغة و لم يصح و لم يثبت»، و ذكر أنه «يقابل النوع الأول الذى هو الصحيح الثابت، و السبب فى عدم ثبوت هذا النوع عدم اتصال سنده لسقوط راو منه أو جهالته أو عدم الوثوق بروايته لفقد شرط القبول فيه» (٢)، و قد مثل له بعدد من الأمثلة التى نقلها عن جمهرة ابن دريد و الغريب لأبى عبيد و الصحاح و التهذيب و غيرها، مما يتبين منه ما قلناه من أن المنهج النقدى للرواية كان عرفا متبعا لدى اللغويين و إن لم يحظ بتنظير كاف، و قد حاول السيوطى فى هذا المبحث و غيره أن يضع الأصول النظرية إلى جوار التطبيق العملى.

و حين بحث المتواتر و الآحاد مسبقا كما ذكرنا بابن الأنبارى اعتمد فى الجانب النظرى على سابقه، ثم نقل الاشكالات على التواتر عن الرازى، و الأجوبة عليها للرازى و شراحه كالأصبهاني و القرافى، و قد سبق أن أشرنا إلى بعض ما ناقشه هؤلاء حين تحدثنا عن إهمال اللغويين البحث فى روايتهم جرحا و تعديلا، و دفاع السيوطى عنهم، و تجنبنا للإطالة فإننى أكتفى بالاحالة إلى ما نقله السيوطى من إشكالات على التواتر و الآحاد فيما يخص اللغة و روايتها و الاجابة عن هذه الاشكالات (٣)، و تعد هذه المناقشات التى نقلها السيوطى عن الأصوليين من أهم ما كتب فى نقد الرواية اللغوية، و قد ختم السيوطى مبحثه بذكر عدد كبير من الأمثلة «مما تواتر على ألسنة الناس من زمن العرب إلى اليوم و ليس هو فى القرآن» (٤). و بهذا المجهود يعد الفصل الذى عقده السيوطى أكمل البحوث اللغوية فى الموضوع حيث استوفى فيه أقوال السابقين و طبقها على اللغة بالأمثلة و زاد عليها بإدلاء رأيه فى بعض الأحيان.

و كان على اللغويين نتيجة اشتراط اتصال السند أن يبحثوا الأسانيد التى سقط (١) المزهر ج ١ ص ٥٨.

(٢) المزهر ج ١ ص ١٠٣.

(٣) المزهر ج ١ ص ١١٥ - ١٢٠.

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٠ - ١٢٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٥٥

من روايتها راو أو أكثر، و قد تناول المحدثون من قبل هذا المبحث فذكروا أن الارسال «هو رواية الراوى عن من لم يعاصره أو لم يلقه» (١)، و لم يفرق الخطيب البغدادى بين المرسل و المنقطع بيد أن بعض المحدثين قد فرقوا بينهما حيث جعلوا المرسل خاصا بالتابعى أى ما سقط الصحابى من إسناده (٢)، و المنقطع «الذى فيه قبل الوصول إلى التابعى راو لم يسمع من الذى فوقه» (٣)، و هو نوعان: ما لم يذكر الساقط فيه معينا و لا مبهما، و ما ذكر فيه بعض الرواة بلفظ مبهم كرجل و شيخ أما ما سقط من روايته اثنان فصاعدا و هو من أنواع المنقطع فيسمونه المعضل (٤).

و قد تناول أهل المصطلح هذه الأنواع بالبحث و حدث بينهم الخلاف فى قبول الأخبار التى ترد و فى إسناده نوع من أنواع الانقطاع السابقة، و ذهب أكثرهم و منهم الخطيب إلى عدم قبول المرسل، أى كل ما به انقطاع فى إسناده، و لو كان الذى أرسله ثقات التابعين أو من الصحابة أنفسهم (٥).

و من قبل السيوطى تناول ابن الأنبارى اتصال السند فى بحثه للمرسل و المجهول (٦)، و الجدير بالذكر أن السيوطى تحدث عن

المرسل منفصلا عن حديثه عن المجهول على نحو ما يفعل أهل الحديث الذى يذكر المجهول بصددهم فيمن تقبل روايته و من ترد «٧»، و يبدو من بحث ابن الأنبارى أن اللغويين يقفون موقفا يبدو فيه الاضطراب و التردد بالنسبة للمرسل و إن جزم ابن الأنبارى بعدم قبوله، و قد تناول السيوطى هذا المبحث تحت عنوان «المرسل و المنقطع» «٨»، و نلاحظ أنه لا يفرق بين المرسل و المنقطع كما حدث عند بعض (١) الخطيب البغدادي: الكفاية فى علم الرواية ص ٣٨٤.

(٢) مقدمة ابن الصلاح ص ٢٥.

(٣) المصدر السابق ص ٢٧.

(٤) المصدر السابق ص ٢٨.

(٥) الكفاية فى علم الرواية ص ٣٨٧.

(٦) لمع الأدلة فى أصول النحو ص ٩٠.

(٧) مقدمة ابن الصلاح ص ٥٣ ضمن مبحث من تقبل روايته و من ترد روايته ص ٤٩ و ما بعدها، المزهر ج ١ ص ١٤١ ضمن مبحث من تقبل روايته و من ترد.

(٨) المزهر ج ١ ص ١٢٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٥٦

المحدثين، و إنما هما عنده اسمان لمسمى واحد حيث لم ينقل غير تعريف المرسل عن ابن الأنبارى و لم يعرف المنقطع، و كأنه بذلك يتبع الخطيب البغدادي و بعض المحدثين الذين لم يفرقوا بينهما، و قد أورد السيوطى أقوال ابن الأنبارى فى المرسل ثم أتبعها بكثير من الأمثلة لمراسيل الروايات عن كتب اللغة، و لم يطل فى هذه الأمثلة، و لم يبد تعليقات على أقوال ابن الأنبارى و كأنه بذلك يكتفى بأن يقف مثل موقف سابقه.

ثم أفرد بعد ذلك مبحثا للأفراد «١»، كما يفرد المحدثون له فى كتبهم «٢»، و قد حدّه و بين حكمه بقوله: «و هو ما انفرد به واحد من أهل اللغة، و لم ينقله أحد غيره، و حكمه القبول إن كان المتفرد به من أهل الضبط و الاتقان كأبى زيد و الخليل و الأصمعى و أبى حاتم و أبى عبيدة و أضرابهم، و شرطه ألا يخالفه فيه من هو أكثر عددا منه» «٣».

و لا نكاد نظفر لدى اللغويين قبل السيوطى بمثل هذا التحديد للأفراد، و بيان حكمها و شرط قبولها و إنما الذى نجده هو ما ينصون عليه فى كتبهم من تفرد أحد الرواة بلفظة معينة أو بعبارة من العبارات. فللسيوطى فى هذا المبحث فضل السبق فى تحديده و بيانه، ثم له فضل جمع ما تفرق فى كتب اللغة من أمثلة ما تفرد به الرواة و ذكرها مجموعة منسقة، فهو يمثل لأفراد أبى زيد ثم لأفراد الخليل ثم يونس، و هكذا. و ينبغى أن نشير إلى ملاحظة هامة هى أن اعتبار الأفراد إنما يكون بالنسبة إلى رواة اللغة كأبى زيد و الأصمعى و الخليل و أضرابهم، و هذا يخالف ما يتفرد به بعض القائلين الذين هم حجة فى اللغة، فهذا النوع الأخير هو ما تناوله ابن جنى ممثلا له بما انفرد به ابن أحمر الباهلى من ألفاظ لم تسمع من غيره من العرب «٤»، و على هذا فإن بحث الأفراد باعتبار الاسناد لم يتناوله ابن جنى. (١) المزهر ج ١ ص ١٢٩، النوع الخامس.

(٢) مقدمة ابن الصلاح ص ٤١.

(٣) المزهر ج ١ ص ١٢٩.

(٤) الخصائص ج ٢ ص ٢١-٢٨.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٥٧

و فى الفصل التالى تناول السيوطى - على طريقة أهل الحديث - بحث من تقبل روايته و من ترد «١»، و نلاحظ أنه تناول نفس العناصر التى يبحثها أهل الحديث فى هذا الموضوع «٢».

ولما كان مسبوqa هنا ببعض الملاحظات و الدراسات التي قام بها اللغويون السابقون كابن فارس و ابن الأنباري و غيرهما فإنه قد جمع في هذا الفصل ما سبقه من هذه الأقوال، و ضم إليها ما رآه مناسباً من الأمثلة التي استخرجها من كتب اللغة. و يعد هذا الفصل من أقيم الفصول التي كتبها السيوطي فيما يتصل بنقد الرواية اللغوية بصفة عامة فقد بين أن العدالة شرط في نقد اللغة، و أن نقل العدل الواحد يقبل و لا يشترط أن يوافقه في النقل غيره، و نجد بعد ذلك ملاحظة هامة لاحظها بعض اللغويين و أكدها و بينها السيوطي و هي التفرقة في اللغة بين ناقلها و بين قائلها، فالعدالة تشترط في الناقل و لا تشترط في القائل و لذلك اعتمد على أشعار العرب الجاهليين و هم كفار، كما أخذت اللغة عن الصبيان بل و عن المجانين ممن خلصت عربيتهم.

و قد وقف اللغويون من المجهول موقفاً مماثل موقف المحدثين في عدم قبوله، و المجهول هو الذي لا يعرف ناقله، أما الذي لا يعرف قائله فيختلف عن ذلك حيث يصح قبوله إذا نقله العدل، و من أمثله خمسون بيتاً أوردها سيويوه لا يعرف قائلوها و ليست من قبيل المجهول باعتبار الناقل، و قد وقع بعض اللغويين في هذا الخلط بين المجهول ناقله و بين المجهول قائله «١».

كما عرض السيوطي لمسألة التعديل على الابهام التي لم يقبلها كثير من أهل الحديث «٢»، حيث اشترطوا ضرورة تسمية الرواة حتى يمكن معرفتهم جرحاً و تعديلاً و لا يكفي بتعديل من يروى عنهم، بيد أن التعديل على الابهام قد وقع كثيراً في كتب أئمة اللغويين كسيويوه الذي كثيراً ما يذكر: «أخبرني الثقة، أو حدثني من أثق بعربيته دون أن يسمى المنقول عنه، و كتاب سيويوه مقبول موثق عند الجمهور، و هذا يدل على ما سبق أن لاحظناه من وجود بعض (١) المزهج ج ١ ص ١٤١، ١٤٢.

(٢) الخطيب البغدادي: الكفاية ص ٣٧٣، ٣٧٤، مقدمة ابن الصلاح ص ٥٢.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٥٨

التساهل في الرواية اللغوية. و يذكر السيوطي أن الشك في المنقول عنه يسقط الاحتجاج بالمنقول، و كذلك جهل عدالة أحد الراويين إذا قال: أخبرني فلان و فلان.

و هكذا فقد استطاع السيوطي ترسماً لخطى المحدثين و استقصاء لأقوال اللغويين السابقين أن يعرض هذا البحث عرضاً واضحاً و أن يمثل بالأمثلة المناسبة من اللغة، و أن ينبه على بعض الملاحظات الدقيقة التي تراعى في اللغة و لا نجدها لدى أهل الحديث.

و يتصل ببحث الأسانيد عند أهل الحديث بيان كيفية سماع الحديث و تحمله و ضبطه «١» و يتفرع عنه بيان طرق نقل الحديث و تحمله، و قد بحث الخطيب هذه الطرق و الصيغ فذكر أن «سمعت» هي أرفع هذه العبارات، و بين كيفية استعمال النقلة لهذه الصيغ و دلالاتها عندهم، و عرضه يبين إلى حد كبير تطور هذه العبارات إلى أن كادت تستقر مصطلحات لها حدودها المعلومة في بيئة المحدثين «٢»، و قد حصرها ابن الصلاح في ثمانية أقسام أولها السماع من لفظ الشيخ بما ينقسم إليه من إملاء أو تحديث بغير إملاء و تناول هنا صيغ التحمل مرتبة حسب التمكن في السماع، فأعلاها «سمعت» ثم «حدثنا» و «حدثني» ثم يتلو ذلك «أخبرنا» ثم يتلوه «أنبأنا» و «نبأنا» و أقل العبارات «قال فلان أو ذكر فلان».

و في ترتيب هذه الصيغ و الاحتجاج بها بعض الخلاف بين أهل الحديث بيد أن العرف الذي يكاد يستقر عليه غالب المحدثين هو ما ذكرنا «٣».

و القسم الثاني القراءة على الشيخ أو ما يسمى بالعرض «٤»، و ما يتصل به من صيغ تقال فيه «٤»، و الثالث الاجازة بأنواعها «٥»، خاصة كانت أو عامة و الخلاف (١) مقدمة ابن الصلاح ص ٦٠.

(٢) الكفاية في علم الرواية ص ٢٨٢ و ما بعدها.

(٣) مقدمة عين الصلاح ص ٦٢-٦٤.

(٤) مقدمة ابن الصلاح ص ٦٥، الكفاية ص ٣٠٢.

(٥) الكفاية ص ٣١١، المقدمة لابن الصلاح ص ٧٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٥٩

حول قبولها و العمل بها، فالخطيب ممن يرون قبولها بجميع أنواعها، و قد حكى بعض الخلاف فى قبولها، بينما أورد ابن الصلاح كثيرا من الأقوال فى عدم قبولها من قبل كثير من علماء الحديث.

و القسم الرابع المناولة «١»، و ما يقال فيها من عبارات، و الخامس المكاتبه «٢»، و السادس الاعلام من الشيخ للطلب بأن هذا الحديث أو الكتاب سمعه من فلان «٣»، و السابع الوصية «٤»، من الشيخ برواية كتاب عند موته أو سفره لشخص معين، و الثامن الوجادة «٥». و قد أفاض المحدثون منذ القدم فى بحث هذه الطرق من جميع وجوهها و أحكامها فى القبول أو الرد، و كل ذلك يحدد أهلية الراوى الذى يحق له أن ينقل الحديث عن غيره إلى سامعيه.

و قد حاول السيوطى أن يطبق هذا المبحث برمته على اللغة، و لم يكن قد سبق به من قبل اللغويين، فكل ما تحدثوا فيه مما يتصل بالموضوع هو مأخذ اللغة الذى تناوله ابن فارس «٦»، بيد أنه أجمل القول فيه، ثم نجد حديثا موجزا عن الاجازة عند ابن الأنبارى يهدف به إلى القول بصحة قبولها و الرواية بمقتضاها «٧»، و لا نكاد نظفر ببحوث نظرية لدى اللغويين عن أصول الأخذ و التحمل و صيغه و مراتب عباراته فى اللغة غير ما قدمنا، بيد أن كتب اللغويين تحرص على إيراد هذه الصيغ بما يبين أنهم عرفوا منهجا فى التحمل مفرقين بين أقسامه حيث تدل على ذلك عباراتهم فى الرواية، أى أنهم فى مجال التطبيق قد اتبعوا هذا المنهج إلى حد كبير، و لكنهم أهملوا البحث النظرى فى هذا الموضوع (١) مقدمة ابن الصلاح ص ٧٩، الكفاية ص ٣٣٠.

(٢) مقدمة ابن الصلاح ص ٨٣.

(٣) المصدر السابق ص ٨٤.

(٤) الكفاية ص ٣٥٢، المقدمة ص ٨٥.

(٥) الكفاية ص ٣٥٣، المقدمة ص ٨٦.

(٦) الصحابى فى فقه اللغة ص ٣٠.

(٧) لمع الأدلة فى أصول النحو ص ٩٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٦٠

بينما عنى به أهل الحديث عناية بالغة و السبب فى ذلك يرجع أيضا إلى الفارق الطبيعى بين المنقول فى اللغة و بين المنقول فى الحديث، و توفر الدواعى إلى الكذب فى الحديث و عدم توفرها فى اللغة إلا بقله، و استمرار الرواية عن الفصحاء إلى زمن متأخر، و استمرار الأخذ عن الأعراب إلى زمن أكثر تأخرا و هو ما جعل أسانيد اللغة- فى كثير من الأحيان- أقصر من أسانيد الأحاديث، بالإضافة إلى الأسباب التى سبق بيانها عند الحديث عن العناية ببحث الرواة جرحا و تعديلا.

و على أية حال فلقد أغفل اللغويون بحث طرق الأخذ و التحمل فى رواية اللغة، و قد حاول السيوطى أن يستدرك هذا النقص لديهم فى المبحث الذى خصصه لهذا الموضوع «١»، و ترسم فيه خطى المحدثين فقد ذكر أن هذه الطرق ستة أولها السماع من لفظ الشيخ أو العربى و قد أورد ما قاله ابن فارس عن مأخذ اللغة فى هذا الموضوع، ثم بين صيغ الأداء و الرواية، فأعلاها «أملى»، و قد مثل لها ببعض الأمثلة التى وردت بكتاب اللغة ككتاب القالى، و يليها «سمعت»، و يليها «حدثنى فلان و حدثنا فلان»، و يليها «أخبرنى و أخبرنا» ثم «قال لى» ثم «قال» ثم «زعم» و «عن» و قد مثل لكل صيغة ببعض ما ورد فى كتب اللغة من استعمالاتها، و ذكر أن الشعر يقال فيه: «أنشدنا و أنشدنى» و قد يستعمل فيه «حدثنا و سمعت». و الطريق الثانية هى القراءة على الشيخ و يقول عندها: «قرأت على فلان». و ثالثها السماع على الشيخ بقراءة غيره، و يقول عندها: «قرأت على فلان و أنا أسمع»، و الرابع الاجازة و ذلك فى رواية الكتب و الأشعار المدونة و قد نقل السيوطى قول ابن الأنبارى فيها و تجويزها، و خامسها المكاتبه، و سادسها الوجادة.

و قد مثل لكل من هذه الطرق ببعض ما وقع لها فى كتب اللغة من أمثلة حيث استعملت عبارات من قبل اللغويين تتم عن مراعاة لطرق

الأخذ و التحمل و دراية بها، و نرى أن هذه الطرق التى أوردتها السيوطى هى نفس (١) المزهر ج ١ ص ١٤٤، معرفة طرق الأخذ و التحمل.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٦١

الطرق التى يذكرها المحدثون، و إن يكن ابن الصلاح قد حصرها فى ثمانية فإنها ترد فى الواقع إلى ست طرق لأن المناولة فرع من الاجازة و الاعلام يندرج ضمن الوصية أو الوجادة.

و نظرا لطرافة هذا البحث النظرى فى ميدان اللغة فإن السيوطى لم يطل - لطبيعته النقليه - فى الجانب النظرى لقله ما كتب فيه من قبل، و اكتفى فى غالب الأحيان بذكر كل عنصر ممثلا له بعدد من الأمثلة اللغوية، و بعبارة أكثر بيانا فلقد انتزع السيوطى الهيكل العام لطرق الأخذ و التحمل من بيئه المحدثين و وضعه فى اللغة قالبا أجوف ثم صب فيه الأمثلة العديدة صبا، و كان الجدير به أن يعنى بالجانب النظرى أكثر من ذلك، و لكن حسبته أنه السابق إلى تناول هذا الموضوع فى اللغة.

و الهدف من بحث الرجال و بحث الأسانيد تمييز الصحيح من المفتعل و المصنوع، و قد عنى المحدثون بالموضوع من الأحاديث و نبهوا عليها، و ألفوا فيها المؤلفات، و قد ألف فيها السيوطى كتابه «الثالث المصنوع فى الأحاديث الموضوعه» و ألف فيها قبله عدد من أهل الحديث، و نبه عليه ابن الصلاح فى مقدمته و بين كيفية الوضع و الأسباب الداعية إليه، و مثل لذلك بما وضع على لسان ابن عباس و على لسان أبى بن كعب عن أحاديث فضائل القرآن سورة سورة «١».

و إذا كان الوضع قد عرف فى الحديث للأسباب الداعية إليه، فإن هنالك أسبابا قد توفرت و حملت على الوضع و الكذب فى اللغة، و لا سيما فى الشعر و الأخبار، و قد حظى نقد الشعر و الأخبار و تمييز صحيحها من زائفها بعناية أئمة اللغويين و العلماء منذ وقت مبكر و قد كتب ابن سلام الجمحى مقدمة قيمة فى نقد الشعر و تمييز صحيحه من زائفه و التنبيه على المصنوع من الأشعار «٢»، كما أشار كثير من العلماء فى كتبهم إلى ما وضع من الأشعار و الأخبار، و نبهوا فى (١) مقدمة ابن الصلاح: الموضوع ص ٤٧، ٤٨.

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام: المقدمة.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٦٢

روايتهم للشعر على المصنوع منه، حتى روى عن يحيى بن سعيد القطان المحدث أنه قال: «رواه الشعر أعقل من رواه الحديث، لأن رواه الحديث يروون مصنوعا كثيرا، و رواه الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه و يقولون هذا مصنوع» «١».

و نظرا لما قدمنا فقد جعل السيوطى خاتمة المباحث المتصلة بالاسناد عنده فى معرفة المصنوع «٢»، و قد نقل فيه عن ابن فارس ما روى عن الخليل من أن:

«النحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس فى كلام العرب إرادة اللبس و التعنيت»، ثم نقل نقولا مستفيضة فى هذا الموضوع عن ابن سلام و عن أمالى القالى و طبقات الزبيدى، ثم أتبع ذلك على عادته بكثير من الأمثلة للمصنوع من الأشعار، و له فضل جمع هذه المتفرقات و وضعها فى مبحث يحمل اسمها، و الواقع أن بحث المصنوع و التنبيه عليه أمر هام يخص اللغويين و النحويين الذين يحتجون بالروايات اللغوية فى اللغة أو فى النحو، فإذا ثبت لديهم كون بعض ما يحتجون به مصنوعا سقط الاحتجاج به.

و لم يفت السيوطى أن يجمع كذلك عددا من الألفاظ التى نبه اللغويون على أنها مصنوعة فمنها «عفشج» بمعنى ثقيل و قد ذكر الخليل أنها مصنوعة و غيرها من الأمثلة «٣».

و بختام هذا الفصل نكون قد عرضنا للمنهج العام الذى رسمه السيوطى لنقد الرواية اللغوية، و إذا كان ما عرضه يتناول الرواة و الأسانيد فانه بذلك يتصل بالمرحلة الأولى و الأهم من النقد و هى نقد السند أو ما سميناهما بالنقد الخارجى، فما ذا كان موقفه من نقد

المتن؟

المرحلة الثانية: النقد الداخلى أو نقد المتن:

حظى نقد السند كما بينا بعناية بالغة من المحدثين ثم من اللغويين، وهذه (١) المزهر ج ١ ص ١٧٥.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٧١.

(٣) المزهر ج ١ ص ١٨٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٦٣

العناية كفيلاً بأن توفر الثقة فى المنقول إلينا بعد اجتيازه لمرحلة النقد السابقة، بيد أن كلتا البيئتين لم تقتصر- فى الواقع- على هذه المرحلة، بل أتبعتهما بمرحلة أخرى من النقد تتناول المنقول نفسه، و هى ما نسميه بنقد المتن.

و قد ذهب بعض المستشرقين إلى أن المسلمين قد اقتصروا فى نقدهم على الأسانيد و لم يتناولوا المتون، و قد جازت هذه الفكرة إلى الشرق و تبعها أحمد أمين فى كتابه ضحى الاسلام، و قد رد أمين الخولى على هؤلاء مبيناً أن المسلمين اهتموا بنقد المتن كما اهتموا بنقد السند، و من الأدلة على ذلك اعطاؤهم الحديث ألقاباً اصطلاحية من صفات خاصة بالمتن دون السند كتسميتهم «الشاذ» و «المقلوب» و «المضطرب» و «مدرج المتن» و «المحرف» و «المصحف».

و كذلك وصفهم قواعد لنقد المتن تصل من الحرية العقلية إلى حد بعيد، و قد مثل لقيامهم بنقد متون بعض الأحاديث، ثم بين أن علم الحديث قسمان: علم الحديث دراية و هو أصول الحديث، و علم الحديث رواية و هو دراسة الحديث عند الفقهاء و المتكلمين و المفسرين، و لدى هذه البيئات نجد قيامهم بنقد المتن «١».

إذا كان هذا أمر نقد المتن فى بيئته المحدثين فما ذا كان من أمره فى بيئته اللغويين و قد تبين لنا فى المرحلة الأولى ترسم اللغويين- لا سيما السيوطى- لخطى أهل الحديث فى قواعد النقد و أصوله؟ ثم ما الدور الذى قام به السيوطى فى دراسة نقد المتن؟.

و قد حظى النظر فى النصوص اللغوية و نقدها بعناية اللغويين و النقاد منذ وقت مبكر، و قرر ابن سلام أنه «ليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة و لا ما وضعوا و لا ما وضع المولدون، و إنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الأشكال» «٢». (١) انظر مادة «أصول» فى دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية)، و التعليق عليها للأستاذ أمين الخولى.

(٢) طبقات فحول الشعراء ص ٤٠، و قد نقله صاحب المزهر ج ١ ص ١٧٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٦٤

و هو بهذا يعنى نظر النقاد فى المتون اللغوية و نقدها نقداً داخلياً بعد فحص الأسلوب و خصائصه فحواً يتبين لهم منه صحيحها من زائفها، و ابن سلام يقرر أن ذلك إنما يدركه أهل البصر بالشعر «و للشعر صناعة و ثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم و الصناعات منها ما تتقفه العين و منها ما تتقفه الأذن، و منها ما تتقفه اليد، و منها ما يتقفه اللسان» «١».

و قد تناول النحاة المادة اللغوية بالنقد، و نقدم لها شبيهه بصنيع علماء الحديث رواية من الفقهاء و غيرهم فيما يتصل بالحديث.

و يتمثل نقد النحاة فى الترجيح بين الروايات، فإذا وردت روايتان مختلفتان لنص واحد فإن النقد يتناول حينئذ النص المروى و ذلك بعرضه على الظواهر اللغوية المطردة و الأصول المعروفة، فتقبل الرواية التى توافق المطرد، و ترفض الأخرى، و ذلك مثل أن يستدل الكوفى على إعمال «أن» مع الحذف من غير عوض بقول الشاعر:

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى و أن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

فيقول له البصرى: الرواية أحضر بالرفع و هو القياس «٢».

و يتناول اللغويون بالنقد الداخلى ما ينفرد به عربى ممن يحتج بقولهم، و فى هذه الحال ينظر فيما تفرد به القائل بعد التأكد من

فصاحته و صحة الاحتجاج بقوله:

١- «فإذا كان ما تفرد به مما يقبله القياس إلا أنه لم يرد به استعمال فإن الأولى أن يحسن الظن به و أن يقبل» «٣».

٢- «إن لم يكن القياس مسوغاً له كرفع المفعول و جر الفاعل و رفع المضاف إليه فينبغى أن يرد، و ذلك لأنه جاء مخالفاً للقياس و السماع جميعاً، فلم يبق له عصمة تضيفه، و لا مسكئة تجمع شعاعه» «٤». (١) طبقات فحول الشعراء ص ٦.

(٢) ابن الأنبارى: الاغراب فى جدل الاعراب ص ٦٧.

(٣) الخصائص ج ١ ص ٣٨٥.

(٤) الخصائص ج ١ ص ٣٨٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٦٥

و نستطيع أن نجد أمثلة لهذا النقد الداخلى فى حديث ابن جنى عن أغلاط العرب و نجد إشارات كثيرة لدى غيره كلها يصف بعض المروى من الشعر و غيره من النصوص المعتمدة بالخطأ فى اللفظ أو فى التركيب أو فى المعنى، و قد جمع السيوطى معظم هذه النصوص عند حديثه عن أغلاط العرب «١».

يتضح مما تقدم أن اللغويين قد عرفوا نقد المتن الذى يتناول المادة اللغوية نفسها بالنقد و يستطيع بوسائله المختلفة و المتنوعة أن يثبت صحة نسبتها إلى قائلها أو زيف هذه النسبة و يحدد بالتالى إمكان قبولها أو رفضها.

و لا نجد من اللغويين من خصص لهذه المرحلة من النقد بحثاً نظرياً منفصلاً نستطيع منه وحده معرفة أصوله و قواعده، و لكن صدرت عنهم نصوص كالتى قدمناها يمكن منها التعرف على معالم هذا النقد و أصوله.

أما السيوطى فلم يفرد لهذا الموضوع بحثاً منفصلاً فى كتابه، و إنما تضمنت مباحثه فى بعض الأنواع التى قدمناها ما يتصل به، فقد نقل فى حديثه عن المصنوع من اللغة بعض ما يتصل بالنقد الداخلى، و حين تناول المفاريد «٢» نقل عن ابن جنى ما قدمناه من قبل فيما يتصل بهذه المرحلة من مراحل النقد.

و يبدو أن السيوطى قد اكتفى بالتعرض ضمناً لهذه المرحلة فلم يفرد لها قسماً مستقلاً لأنها متصلة بعدد من المباحث التى تناولها، و الحقيقة أن تناول السيوطى لألفاظ اللغة فى بعض المباحث التى سنتناولها فيما بعد كالفصح و الضعيف و المنكر و المتروك و نحوها، و الغرائب و الشواذ و النوادر، كل أولئك له صلة بالنقد الداخلى للرواية حيث أورد ما يتصل بفحص المنقول و بيان درجته من الفصاحة و الاستعمال و مرتبته فى اللغة، و تجنباً للإطالة فإننا سنشير إلى ذلك فيما بعد أثناء حديثنا عن ألفاظ اللغة عنده. (١) المزهر ج ٢ ص ٤٩٤.

(٢) المزهر ج ١ ص ٢٤٨.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٦٦

مفهوم اللغة عند السيوطى

نقل السيوطى حد اللغة فى كتابه عن ابن جنى الذى حدها بأنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم» «١»، و نقل عن ابن الحاجب فى تحديدها أنها «كل لفظ وضع لمعنى» «٢»، و عن الاسنوى أنها «الألفاظ الموضوعه للمعاني» «٢»، و لم يعقب بشيء على هذه الحدود و نحن نعتبر ذلك إقراراً منه لجميعها.

و ليس هناك اختلاف بين هذه الحدود الثلاثة فليس اللفظ إلا مجموعة من الأصوات المتألف بعضها إلى جانب بعض، و يبدو أن هذا التحديد للغة الذى عبر عنه ابن جنى هو الذى يعكس لنا التصور الشائع للغة عند العرب فهو «أشد التصورات تأثيراً فى نفوس الدارسين و فيما كتبه عن طبيعة اللغة، بل كان الموجه فيما بعد لتطور التأليف اللغوى و تنوعه، و ما عسى أن يكون فيه من شمول

يربط بين اللغة و بين الاتجاهات المختلفة فى دراستها» (٤).

و قد فهم السيوطى اللغة على أنها الألفاظ أو الأصوات الدالة على المعانى، و هو يشرح اللفظ بأنه «صوت معتمد على مقطع الفم» (٥)، و قد حاول أن يدرس العنصرين اللذين تتكون منهما اللغة و هما اللفظ و المعنى أو الأصوات و الدلالات فتناول الألفاظ فى ثلاثة عشر نوعا من كتابه ذكر أنها تبحث اللغة من حيث الألفاظ و تناول المعنى فى ثلاثة عشر نوعا كذلك و نبه على أنها راجعة إلى اللغة من حيث المعنى. (١) المزهر ج ١ ص ٧.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٨.

(٤) د. سيد خليل: التصور اللغوى عند العرب: مقال بمجلة كلية الآداب- مجلد ١٤ ص ١٧٩.

(٥) السيوطى: شرح ألفية ابن مالك، بداية الكتاب.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٦٧

و اللغويون المحدثون يرون وظيفة اللغة فى «أنها حلقة فى سلسلة النشاط الانسانى المنتظم، هى أنها جزء من السلوك الانسانى، أنها ضرب من العمل و ليس أداة عاكسة للفكر» (١)، و هم بذلك ينتقدون ما كان يراه اللغويون القدماء و بعض المحدثين أمثال سايبير من أن اللغة وسيلة للاتصال أو التوصيل أو النقل أو التعبير عن طريق الأصوات الكلامية، و أن ما توصله اللغة أو تنقله أو تعبر عنه هو الفكر بما يحتويه من انفعالات و رغبات و غير ذلك» (٢).

على أن انتقاد الرأى الشائع الذى يذهب إلى أن اللغة وسيلة لتوصيل الفكر لا يعتمد إلا على بعض المظاهر التى يرى فيها أصحابه أن الغرض الأساسى من استعمال اللغة ليس توصيل الفكر، أو عبارة أكثر دقة لا يكون توصيل الفكر هو هدف اللغة، و يمثلون لذلك بالكلام الانفرادى و بلغة الصلاة و العبادة و لغة التحية و اللعب بالأصوات و غير ذلك» (٣)، بيد أن هذه المظاهر لاستعمال اللغة لا تخرج فى حقيقة الأمر باللغة عن كونها ألفاظا متعارفا عليها تعبر عن معان متعارف عليها، فالذى يتحدث إلى نفسه يتحدث بلغة يفهمها و كأنه بذلك يعبر عن نفسه و يوصل أفكاره إليها، فالمتكلم و السامع هنا شخص واحد، و ليست اللغة التى نستعملها فى الصلاة أو العبادة أو التحية إلا ألفاظا معبرة عن معان معينة و معروفة فى جملتها، كما أنه ليس فى تحديد اللغة بأنها أصوات أو ألفاظ معبرة عن المعانى ما يفهم منه اغفال وظيفتها الاجتماعية و هى ما حاول المحدثون التنبيه عليه و الظهور بمظهر المستدركين له، فما ذا كان مفهوم وظيفة اللغة عند اللغويين العرب و منهم السيوطى؟.

لقد قدر اللغويون القدماء وظيفة اللغة فى المجتمع وصلتها به حتى اعتبر المعتزلة و غيرهم أصل اللغات اصطلاحا بمعنى أن المجتمع هو الذى اصطلاح و تعارف على اللغة، و حتى هؤلاء الذين قالوا بالتوقيف لا يترددون فى كثير من المسائل مع مذهبهم الذى نادوا به و يرون أن التوقيف ليس معناه الحجر عليهم (١) د. محمود السمران: اللغة و المجتمع ص ٧.

(٢) المصدر السابق ص ٥.

(٣) نفس المصدر ص ٨-١٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٦٨

حتى لا ينطق بسواه» (١)، و هم بذلك يرون جواز الاصطلاح، و بعض من قال بالتوقيف يراه فى بداية نشأة اللغة، أما فى مراحل نموها فهى اصطلاح، و المحققون من القدماء يتوقفون فى هذه المسألة فلا يقولون بالتوقيف و لا بالمواضع.

و قد نقل السيوطى فى بيان الحكمة الداعية إلى وضع اللغة ما يفيد تقدير المسلمين للوظيفة الاجتماعية للغة و إقراره لذلك فهو ينقل عن الكيا الهراسى أن اللغة إنما تنشأ فى المجتمع و أن الانسان مدنى بطبعه، و التوحش دأب السباع، و هو ينتهى إلى ما تنتهى إليه البحوث الحديثة من أن اللغة وظيفة انسانية و ظاهرة اجتماعية» (٢)، و هذا ما أكده بوضوح الفخر الرازى فيما نقله عنه السيوطى إذ يقول «السبب فى وضع الألفاظ أن الانسان الواحد وحده لا يستقل بجميع حاجاته، بل لا بد من التعاون، و لا تعاون إلا بالتعارف، و لا

تعارف إلا بأسباب كحركات أو إشارات أو نقوش أو ألفاظ توضع بإزاء المقاصد، و أيسرها و أعمها و أفيدها الألفاظ ... فلما كانت الألفاظ أيسر و أفيد و أعم صارت موضوعه بإزاء المعانى «٣». و الرازى بهذا يصل بين تحديد اللغة بالألفاظ الموضوعه للمعانى و بين وظيفة اللغة فى المجتمع وصلتها به.

أما عن طبيعة اللغة فقد فهم اللغويون العرب لغتهم على أنها كائن حى متطور و لذلك فقد قدروا حاجتها إلى الاختراع و التوليد و الاشتقاق بتجدد الحياة و تجدد المعانى، كما تحدثوا عن الممات من الألفاظ و المولد منها و ما ذلك إلا تقديرا لهذه الحياة الدافقة فى اللغة، و دراستهم للمجاز تمثل إدراكا واعيا للتغير الدلالى، و هكذا فإنهم قد تناولوا مظاهر التغير اللغوى المتنوعه بما يعنى إدراكهم لطبيعة اللغة.

و قد كان للمسلمين عناية تأميه بالدرس الصوتى باعتباره عاملا من أهم عوامل المحافظة على الأداء القرآنى، و لقد تطورت هذه الدراسة على أيدى (١) المزهر ج ١ ص ٢٦.

(٢) المزهر ج ١ ص ٣٦.

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٣٨.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٦٩

القراء الذين كانوا نحاة فى نفس الوقت، و كان للخليل أثر فى تقدم هذه الدراسة، و نتيجة لعنايته بالأصوات و مخارجها رتب معجمه «العين» ترتيبا صوتيا بحسب مخارج الحروف و تبعه فى هذا الترتيب الصوتى صاحب التهذيب.

و لعل من آثار العناية بالدرس الصوتى ما ظهر عند السيوطى فى محاولته الفصل فى الدراسة بين الألفاظ و المعانى و إن كان هذا الفصل غير موفق فى بعض الأحيان و سنيين ذلك فى دراستنا للألفاظ و المعانى كما وضعها السيوطى.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٧٠

الألفاظ

تناول السيوطى اللغة من حيث ألفاظها فى ثلاثة عشر قسما أولها عن الفصيح و قد تناول الفصيح فى قسمين أولهما باعتبار الألفاظ و الثانى باعتبار المتكلم. و أهم ما يستلفت النظر فى بحث الفصيح هو الآراء الصوتية القيمة التى عرفها اللغويون القدماء و تناولوا بها لغتهم، فقد حدّ البلاغيون الفصاحة فى اللفظ بأنها «خلوصه من تنافر الحروف و من الغرابة و من مخالفة القياس اللغوى» «١»، و يبدو فى عرض السيوطى لهذا المبحث أنه يميل إلى اختيار هذا الحد للفصاحة الذى ينظر إلى اللغة باعتبار صوتيتها، و لذلك نقل معنى التنافر و بينه كما نقل أن من شروط الفصاحة خلوص اللفظ من الكراهة فى السمع «فإن اللفظ من قبيل الأصوات، و الأصوات منها ما تستلذ النفس بسماعه، و منها ما تكره سماعه» «٢».

و هناك بالاضافة إلى ذلك شروط أخرى للفصاحة، و قد حاولت نقول السيوطى استيفاء هذا المبحث فعرض للضرائر وصلتها بالفصاحة، و للابتذال و الغرابة، بيد أنه اعتنى بالآراء الصوتية عناية توضح ما سبق ذكره عن مفهومه للجانب الصوتى من اللغة، فهو ينقل عن ابن دريد آراء فى ثقل الحروف و خفتها وصله ذلك بمخارجها «٣»، فالحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت، و فى هذه النقول ما يمكن اعتباره قوانين صوتية فى العريية فمنها أنه لا يكاد يجىء فى الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد فى كلمة واحدة، و أن أصعب ذلك حروف الحلق، و لا يمكن ائتلاف العين و الحاء ...

إلى آخره، و يبدو أن السيوطى قد أحس بأنه يريد الاستدراك على ما سبق فى (١) المزهر ج ١ ص ١٨٥.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٨٧.

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ١٩١.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٧١

التآلف و التنافر فنقل عن صاحب عروس الأفراح أن التنافر إما أن يكون لتباعد الحروف جدا أو لتقاربها، و قد بنى قائل ذلك على الملاحظة الوصفية للغة حيث إن هناك ألفاظا حروفها متقاربة و لا تنافر فيها كلفظ الشجر و الجيش و الفم، و قد يوجد البعد و لا تنافر كلفظ العلم و البعد.

ثم ينقل عن ابن جنى تقسيمه لتآلف الحروف و درجات التآلف، و هو تقسيم دقيق إلى حد كبير، ثم ينقل عن ابن الأنباري ما يتصل بتآلف الحروف حسب مخارجها و المفاضلة بين الألفاظ في ذلك، ثم يتناول الحروف و يذكر أن أكثرها استعمالا الواو و الياء و الهمزة ثم يبين أن أخف الحروف ما استعملته العرب في أصول أبيتهم من الزوائد لاختلاف المعنى، ثم ينقل السيوطي نقلا مستفيضا عن صاحب عروس الأفراح يبين فيه رتب فصاحة اللفظ باعتبار صوتي يتمثل في تآلف حروفه، فإن الكلمة تخف و تثقل بحسب الانتقال من حرف إلى حرف، ثم يعدد اثني عشر قسما للكلمة الثلاثية أولها الانحدار من المخرج الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى نحو «ع د ب»، و يعدد بقية أنواع التآلف ثم يصل من ذلك إلى ما يشبه القوانين الصوتية فيذكر أن أحسن التراكيب و أكثرها استعمالا ما انحدر فيه من الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى، ثم ما انتقل فيه من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى ثم من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط، ثم يبين صلة بعض هذه التآليف بكثرة الاستعمال و قلته «١».

و هناك غير ما قدمنا من النقول التي استطلنا أن نتناولها بالعرض و الدراسة، فما أقصد إليه هو بيان أن العرب قد فهموا اللغة كما قدمنا على أساس أنها أصوات تعبر عن المعاني و أن النظام الصوتي للغة له أحكام و قوانين تنتظمه، و أن لكل لغة خصائص صوتية مميزة، و عرض السيوطي لهذا البحث يدل على عنايته الكبيرة بالناحية الصوتية في دراسة الألفاظ، و يؤيد ما ذكرنا عن مفهومه الصوتي للغة. و يتضح الاهتمام بالناحية الصوتية في الحديث عن فصاحة الناطقين باللغة، (١) المزهر ج ١ ص ١٩٧-١٩٨.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٧٢

فقد فضلت قريش على غيرها من القبائل بخلو لغتها مما اعتبره اللغويون عيوباً صوتية فليس في كلامهم «عنعنة تميم و لا عجرية قيس و لا كشكشة أسد و لا كسكسة ربيعة و لا كسر أسد و قيس» «١».

و إذا كانت هناك درجات للفصاحة في الألفاظ فلا بد أن يكون من الألفاظ ما لم يبلغ درجة الفصاحة، و قد تناول السيوطي هذه الألفاظ في المبحث التالي تحت اسم «الضعيف و المنكر و المتروك من اللغات»، فالضعيف ما انحط عن درجة الفصيح، و المنكر أضعف منه و أقل استعمالاً بحيث أنكره بعض أئمة اللغة، و لم يعرفه و المتروك ما كان قديماً من اللغات ثم ترك و استعمل غيره «٢».

و قد أورد لكل منها أمثلة عديدة، و يعيننا هذا المبحث في تأكيد ما سبق أن قلناه عن النقد الداخلي للنصوص و هو النظر في المنقول نفسه و قبوله أو رده أو تضعيفه حسب بعض الاعتبارات اللغوية، و تناول المتروك يدل على فهم اللغة على أنها كائن حي متطور تتعرض ألفاظها لعوامل الحياة و الفناء التي تعترى الكائن الحي. و قد نبه في آخر الفصل على الفرق بين الضعيف من حيث اللفظ و بين الضعيف من حيث الاسناد و هو الذي تناوله من قبل بما يدل على تمييزه بين نقد السند و بين نقد المتن و احتفاله أيضاً بنقد المتن حيث يقول: «الفرق بين هذا النوع و بين النوع الثاني أن ذاك فيما هو ضعيف من جهة النقل و عدم الثبوت، و هذا فيما هو ضعيف من جهة عدم الفصاحة مع ثبوته في النقل، فذاك راجع إلى الاسناد و هذا راجع إلى اللفظ» «٣».

ثم يظهر الاعتبار الصوتي مرة أخرى حين يتحدث عن الرديء المذموم من اللغات، فالعيوب الصوتية التي تظهر لدى بعض القبائل العربية في الأداء اللغوي و التي خلت منها لغة قريش جعلت اللغويين يستكرونها ما يظهر منها في الأداء و يعدونه مذموماً، و قد عقد ابن فارس من قبل فصلاً عن اللغات المذمومة «٤»، قاصداً بها العيوب الصوتية التي تظهر في الأداء كالعننة عند تميم (١) المزهر ج ١ ص ٢١٠.

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٤.

(٤) الصحابى فى فقه اللغة ص ٢٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٧٣

و هى قلب الهمزة عينا، و الكشكشة عند أسد و هى إبدال الكاف شينا كإشادهم:

فيعناش عينها و جيدش جيدها و لونش إلا أنها غير عاطل

و غير ذلك من العيوب الصوتية المعروفة التى نبه عليها ابن فارس و درج اللغويون منذ وقت مبكر على التنبيه عليها.

عد السيوطى ما يظهر من هذه العيوب فى الأداء من اللغات الرديئة و قد أورد حديثا مفصلا عن هذه العيوب عن اللغويين السابقين يتضمن أمثلة توضح هذه العيوب، و قد تضمن الفصل الذى عقده إشارة إلى حديث ابن فارس الذى بيناه.

بيد أن جانبا آخر من الردىء يقوم اعتباره وضعه فى هذا القسم على ما سبق أن أشرنا إليه صدد النقد الداخلى للنصوص أو للألفاظ، فيوصف اللفظ بأنه ردىء إذا كان فى لغة قليلة و قد شاع لفظ من قبيله و نطق به عدد كبير من المتكلمين، و قد ذكر السيوطى عددا كبيرا من الأمثلة لهذا القسم جمعها من شتى مصنفاة اللغة السابقة فمنها يقال: هو أخير منه فى لغة رديئة، و الشائع هو خير منه بلا همز، و قال الخليل: أعلطنى لغة تميمية قبيحة فى أفلتنى، و تقول رابنى الرجل، و أما أرابنى فإنها لغة رديئة «١».

و على ذلك وضع السيوطى رتبا للألفاظ و تناولها تحتها و هى بالتدرج الأوضح فالفصح ثم الضعيف فالمنكر ثم الردىء، و هذا التصنيف يقوم على اعتبارات تتصل بالأصوات أو بالنقد الداخلى للألفاظ، و يأتى فى رتبة الضعيف ما تناوله السيوطى فى قسم آخر تحت عنوان «الحوشى و الغرائب و الشواذ و النوادر» «٢»، فقد ذكر أن «هذه الألفاظ متقاربة و كلها خلاف الفصح» «٢»، و الواقع أن اللفظ يمكن أن يوصف بأكثر من واحد من هذه الأوصاف فيمكن أن يوصف الحوشى بأنه غريب و بأنه نادر أيضا، فهذه الأقسام متداخلة و التفرقة بينها لا تكاد تتميز، و قد (١) المزهر ج ١ ص ٢٢٤.

(٢) المزهر: النوع الثالث عشر ج ١ ص ٢٣٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٧٤

مثل السيوطى لكل من هذه الأقسام بعدد من الأمثلة و يبدو أن محاولته محاكاة أهل الحديث فى مصطلحاتهم هى التى دفعته إلى التمييز بين هذه الأقسام على نحو ما يفعل المحذون، على حين أن اللغويين فى تعبيراتهم لم يراعوا على ما يظهر الفرق بين بعضها و بين بعض، و نلاحظ خلطهم بين هذه الأوصاف أو المصطلحات إلى حد كبير، فمنهم من يسمى الشاذ نادرا و منهم من يسميه قليلا و منهم من يسميه منكرا و الحوشى و الغريب بمعنى واحد كما نص على ذلك السيوطى و قد بين أن الحوشى هو ما نفر عن السمع فحده يرجع إلى اعتبارات صوتية، و الشوارد بنفس المعنى.

و يبدو الاعتبار الصوتى واضحا فى دراسة «المستعمل و المهمل» «١»، فقد نقل السيوطى فى أوائل كتابه عن ابن دريد و الخليل و الزبيدى عدة أبنية الكلام التى أحصاها اللغويون بطريقة رياضية فى تألف الحروف ثم أحصوا بعد ذلك المستعمل منها و المهمل «٢»، و قد أشار فى حديثه عن المستعمل و المهمل إلى ما أورده من قبل، ثم أخذ يورد النقول التى تدرس الاستعمال و الإهمال فنقل عن ابن فارس و ابن جنى ما يعلل الإهمال فى جملته بالاستثقال، و قد تناولت نقوله بعض الظواهر الصوتية التى تسود العربية فهناك حروف لا- يجوز ائتلافها كالجيم مع الكاف، و العين مع الغين و الحاء مع هاء أو غين .. إلى غير ذلك من التفصيلات التى أوردوها و عللوا بها ما أهمل من الألفاظ و الأبنية.

و قد تناول السيوطى «المعرب» «٣» و هو الألفاظ الأعجمية التى استعملها العرب الفصحاء فى لغتهم فى مبحث مستفيض نقل فيه خلاصة أقوال السابقين من اللغويين التى تتحدث عن وقوع المعرب فى القرآن الكريم، ثم تناول الألفاظ المعربة بالتقسيم فمنها ما

غيرته العرب و ألحقته بكلامها كدرهم، و منها ما غيرته و لم تلحقه مثل آجر و سفسير، و هناك ملاحظات يمكن بها الحكم على اللفظ بأنه غير عربى تتصل بتألف الحروف، أى أنها من الخصائص الصوتية التى تنفرد بها (١) المزهرج ١ ص ٢٤٠ النوع الرابع عشر. (٢) المزهرج ١ ص ٧١-٧٦.

(٣) المزهرج ١ ص ٢٦٨-٢٩٤، النوع التاسع عشر.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٧٥

العربية و تميزها عن غيرها من اللغات، فاجتماع الجيم و القاف فى لفظ يفيد أنه غير عربى كالمنجنيق، و خلو الخماسى و الرباعى من أحرف الذلاقة و هى الباء و الراء و الفاء و اللام و الميم و النون يفيد أنه غير عربى، و أمثال هذه الملاحظات، ثم تناول طريقة العرب فى تعريبها و كيفية نقلها للأعلام الأعجمية و الألفاظ إلى لغتها، و الحروف التى يطرد إبدالها و التى لا يطرد إبدالها، ثم مثل بعدد من الأمثلة للمعرب الذى ليس فى لغة العرب ألفاظ مماثلة له، ثم للمعرب الذى له اسم فى لغة العرب، ثم للألفاظ التى شك فى أنها معربة أو عربية الأصل كما نقل أن المعرب غير مشتق، بينما يصح الاشتقاق منه كما وقع فى كلمة «لجام» و اشتقاقها العديدة، هذا فى غير الأعلام، أما الأعلام فلها أحكام تختص بها فى الجمع و التصغير.

و قد حاول المجمعون أن يفيدوا من مسلك القدماء فى التعريب فيما يغونه من التوسع اللغوى و نقل بعض الألفاظ الأعجمية التى نستعملها إلى العربية بعد تغييرها على طريقة التعريب عند القدماء، و انتهوا من ذلك إلى قرار باجازه استعمال «بعض الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب فى تعريبهم» (١).

و لاتصال هذا الموضوع بحياة اللغة و زيادة ثروتها، و نظرا للحاجة الماسة إليه فيما يتصل بالمصطلحات العلمية، فقد دارت فى الحديث حوله بحوث عديدة و من أهم ما وضع فيه كتاب المصطلحات العلمية، فقد دارت فى الحديث حوله بحوث عديدة و من أهم ما وضع فيه كتاب المصطلحات العلمية لمصطفى الشهابى، و قد قدم له بمقدمه ذكر فيها طريقة القدماء فى تعريب المصطلحات و دعا إلى اتباعها فى وضعه المصطلحات الحديثه (٢).

و إذا كانت الألفاظ الدخيلة التى حظيت باستعمال العرب الفصحاء فى لغتهم قد عرفت بالألفاظ المعربة فإن جانبا من هذا الدخيل قد استحدث بعد عصر (١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ١ ص ٣٣، انظر الاحتجاج للقرار للأستاذ الاسكندرى ص ٢٠٠.

(٢) مصطفى الشهابى: المصطلحات العلمية فى اللغة العربية فى القديم و الحديث.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٧٦

الاحتجاج على ألسنة المولدين فغته اللغويون باسم «المولد» تميزا له عن النوع السابق الذى لم يدفعوا صحة استعمال ما ورد منه فى اللغة، و هذه التفرقة تبين لنا أن جمهور اللغويين يذهبون إلى أن المعرب سماعى، أى يصح استعمال ما استعمله منه الفصحاء، و لا يجوز القياس عليه و قد تبين أن هذا الموقف المتشدد قد خرج عليه كثير من الكتاب و المترجمين فى العصر العباسى، و أجاز المجمع أخيرا القياس فيه على طريقة العرب فى التعريب.

و قد تناول السيوطى «المولد» فى مبحث مستفيض وحده بأنه «ما أحدثه المولدون الذين لا يحتج بألفاظهم» (١)، و على ذلك فهو يعم الألفاظ الدخيلة و يعم غيرها مما استحدث على ألسنة المولدين و لم تستعمله العرب، أى ما أصابه تحريف صوتى أو دلالى، كما يدخل فيه ما نقله المولدون بطريق التجوز أو الاشتقاق عن معناه الوضعى اللغوى الذى عرف به عند العرب الخالص إلى معنى آخر تعورف عليه إما بين عامة الناس و إما بين خاصة منهم كطوائف أرباب العلوم و غيرهم.

و بحث الألفاظ المولدة من أهم البحوث التى شغلت اللغويين العرب على مر العصور ذلك أن اللغة بطبيعتها كائن حى متطور، و هذا التطور يحدث فى الألفاظ من ناحيتى الصوت و الدلالة، و قد حاول اللغويون العرب أن يقفوا فى وجه هذا التطور الذى كان يحدث آثاره فى لغة الأمصار الاسلامية بعد اختلاط العرب بالأعاجم، حيث أخذت الألفاظ المحرفة عن الفصحى فى الظهور، و بدأ أثر التطور

الدلالى فى جانب آخر من الألفاظ، حتى غدت الأمصار الاسلاميه فى منتصف القرن الثانى تنطق بلغة بعيدة و متميزة عن لغة أهل البادية، و عن اللغة التى نطق بها العرب الأولون.

حاول اللغويون جاهدين أن يقفوا فى وجه هذا التطور حفاظا على لغتهم التى نزل بها القرآن الكريم فكان التحديد المكانى و الزمانى للاحتجاج الذى كان مبعثه الأول تطرق الخلل إلى التصرف الاعرابى المتكامل الذى احتفظت به (١) المزهرج ١ ص ٣٠٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٧٧

العربية، ثم كان تطرق الخلل إلى الألفاظ و الأساليب عاملا- آخر، و يكفى أن نحيل هنا إلى دراسة فكرة تنقية اللغة العربية لدى اللغويين التى بسطها يوهان فك، و عرض فيها لتطور هذه الفكرة مبينا مواقف اللغويين من هذه الألفاظ التى أخذت فى الظهور «١».

و نعود إلى السيوطى فراه قد نقل عديدا من الأمثلة عن كتب اللغة تشمل أنواع الألفاظ المولدة فمنها ألفاظ أعجمية، و منها ألفاظ عربية محرفة فى أدائها الصوتى أى فى ألفاظها و منها ألفاظ عربية محرفة فى معناها، و منها بعض اشتقاقات و تصرفات فى ألفاظ لم يسمع من العرب نطقهم بها، و يبدو من هذا أن السيوطى يتوسع فى إطلاق صفة «المولد» على كثير من الألفاظ، و قد دلل على رأيه بما نقله عن ثعلب فى أماليه من أن التغيير هو كل شىء مولد، و على ذلك فقد استنتج ضابطا هاما هو أن «كل لفظ كان عربى الأصل ثم غيرته العامة بهمز أو تركه أو تسكين أو تحريك أو نحو ذلك مولد» «١»، ثم قال: «و هذا يجتمع منه شىء كثير» «٣».

و على هذا فقد ألحق بالمولد ما يهزم من الأفعال و العامة تدع همزه نحو:

طأطأت رأسى و أبطأت .. إلى آخره، و ما يهزم و العامة تبدل الهمز فيه أو تسقطه نحو آكلت فلانا و لا يقال واكلته، و ما لا يهزم و العامة تهمزه نحو رجل عذب، و خير و شر، و ما يشدد و العامة تخففه مثل الأترج و الإجاص، و ما يخفف و العامة تشدده كالرباعية للسن و الكراهية، و ما ورد ساكنا و العامة تخففه، أو ما يبدلون فيه حرفا بحرف إلى غير ذلك من الأمثلة التى نقلها عن السابقين.

و يتضح مما تقدم أن الأخطاء الشائعة فى الألفاظ سواء فى دوائر المثقفين أم غيرهم مما يدخل فى هذا المبحث، و نظرا لأهميته فى اللغة وصلته بتطورها و حياتها فقد تناوله المجمعيون بالبحث و انتهوا فيه إلى أنه قسمان: قسم جرى فيه (١) يوهان فك: العربية: دراسات فى اللغة و اللهجات و الأساليب، ترجمة الدكتور عبد الحلیم النجار.

(٣) المزهرج ١ ص ٣١١.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٧٨

المولدون على أقيسه كلام العرب من مجاز أو اشتقاق أو نحوهما كاصطلاحات العلوم و الصناعات و غير ذلك، و حكمه أنه عربى سائغ، و قسم خرجوا فيه عن أقيسه كلام العرب إما باستعمال لفظ أعجمى لم تعربه العرب،- و قد صدر عن المجمع فى شأن هذا القسم قرار خاص،- و إما بتحريف فى اللفظ أو فى الدلالة لا يمكن معه التخريج على وجهه صحيح، و إما بوضع اللفظ ارتجالا، و المجمع لا يجيز النوعين الأخيرين فى فصيح الكلام «١».

و مما يدخل فى مباحث التطور الدلالى ما تناوله السيوطى فى اللغة من حيث ألفاظها و هو الألفاظ الاسلاميه «٢»، ذلك أن الاسلام قد شاع فيه استعمال بعض الألفاظ فى معان خاصة تتعلق بالعبادة أو المعاملات أو غير ذلك من شئون الدين كالصلاة و الزكاة و الصوم و الحج، و المؤمن و الكافر و المنافق و الفاسق، و الركوع و السجود و أمثالها من الألفاظ التى كانت تحمل دلالات عامة ثم خصص الاسلام دلالاتها. فالصلاة فى الأصل الدعاء، ثم شاع استعمالها فى الاسلام للعبادة المعروفة لاشتمالها على الدعاء حتى أصبح اللفظ عند إطلاقه لا يدل على غير هذا المعنى الخاص و الحج معناه القصد ثم خصص بقصد البيت الحرام لتأدية الفريضة المعروفة فى الاسلام.

و قد قدر اللغويون منذ القدم هذا النوع من أنواع التطور الدلالى الذى يخصص مدلولات الألفاظ، فتحدث عنه ابن فارس حين تناول الأسماء الاسلاميه، و مثل للألفاظ التى خصصت مدلولاتها، و ذكر أن هذه الألفاظ مثلها مثل مصطلحات المعلوم كالنحو و العروض و

الشعر، و قد نقل السيوطي عن ابن فارس ما يتصل بهذا الموضوع كما نقل عنه حديثه عن الألفاظ التي هجر استعمالها بمجىء الاسلام، ذلك أن الاسلام قد أبطل كثيرا من نظم الجاهلية و أفكارها و تقاليدها فأما ذلك كثيرا من الألفاظ التي كانت مستعملة في الدلالة عليها، كما كره استعمال ألفاظ أخرى أو حرم استعمالها لتنافيها مع روح الاسلام و مبادئه و قد قدر اللغويون القدماء ذلك و هو من قبيل ما يتناوله (١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ١ ص ٣٣، ٣٤.

(٢) المزهر ج ١ ص ٢٩٤.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٧٩

المحدثون حين يدرسون التغييرات الدلالية التي تصاحب الثورات «١»، و بالرغم من صلة البحث هنا بالمعنى أكثر من اللفظ فقد وضعه السيوطي في قسم الألفاظ و نظرتة إلى هذه الألفاظ و هي نتاج التغيير الدلالي بعوامله المعروفة نظرة تكتفي بجانب واحد دون البحث فيما يتصل به من جوانب أخرى.

و قد نقل ما يتصل ببحث هذه الألفاظ عن الأصوليين، ثم اجتهد في نقل أمثلة كثيرة لها مخصصا جانبا من هذه النقول للألفاظ التي استحدثها الرسول صلى الله عليه و سلم و لم يتكلم بها أحد من قبله كقوله: «مات حتف أنفه» و «لا- ينتطح فيها عنزان» و «حمى الوطيس» و أمثال هذه العبارات التي لم تسمع من أحد قبله، كما نقل بعض العبارات التي سمعت عن بعض الصحابة أو التابعين و لم تسمع قبل ذلك، و هذا يدل على ما قلناه من تقديرهم للتطور اللغوي.

و قد تناول السيوطي في مبحثين منفصلين ما يتصل باللهجات العربية، فضلا عما يتصل ببحثها من نقول متناثرة في غيرهما، و أولهما عن مختلف اللغة حيث عرض أنواع الائتلاف بين اللهجات التي سبق لابن فارس أن حصرها في سبعة عشر وجها «٢»، و قد نقلها عنه السيوطي «٣»، ثم نقل ما يتصل بحجية اللهجات في الاحتجاج اللغوي عن ابن جنى و ابن فارس و غيرهما، ثم ما يتصل بمن تنتقل لغته حيث يكون الاحتجاج بعد النظر فيما انتقل إليه لسانه من اللغة، فإن كان فصيحاً مثل لغته أخذ بها و إن كان فاسداً لم يؤخذ و أخذ بالأولى.

كما نقل عن ابن فارس ما يتصل بالصور التي يمكن أن ترد بها الألفاظ تبعا لاختلاف اللهجات، فمن الألفاظ ما فيه لغتان كالحصاد و الحصاد بالكسر و الفتح في الحرف الأول، و فيها ما فيه ثلاث كالزجاج بالفتح و الضم و الكسر في الحرف الأول، و منها ما فيه أربع كالصِّدَاق بكسر الصاد و فتحها و الصَّدَقة بفتح الأول و الثاني في لغة و ضمهما في أخرى، و منها ما فيه خمس أو ست نحو (١) د. محمود السعران: اللغة و المجتمع ص ٤٧.

(٢) الصحابي في فقه اللغة ص ١٩-٢٣.

(٣) المزهر ج ١ ص ٢٥٥.

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٢٨٠

قسطاس، و لا تكون الزيادة عن ست لغات في اللفظ الواحد، ثم نقل السيوطي عن ابن فارس تقسيمه للألفاظ بحسب ما ورد فيها من اختلاف أو عدمه إلى أقسام أربعة: أولها المجمع عليه الذي لم يرد فيه اختلاف كالحمد و الشكر و هو الأكثر، و الثاني ما فيه لغتان و أكثر إلا أن إحدى اللغات أفصح، و الثالث ما فيه لغتان أو ثلاث أو أكثر و هي متساوية، و الرابع ما فيه لغة واحدة إلا أن المولدين غيره و شاع فيه استعمال المحرف.

و المبحث الآخر تناول فيه تداخل اللغات «١» و هو يبحث ما يرد على ألسنة من يحتج بهم من اختلاف في اللفظ الواحد، و مرد ذلك إلى التوسع في القول أحيانا، و الغالب أن يرجع إلى اختلاف لهجات العرب التي اعتبر اللغويون أن جميعها حجة في الأخذ عنها، و التي ذكروا أن الناطقين قد تعاوروا بعد انتشارها، و هذا المبحث هام في تفسير ما يرد على غير القياس في بعض التصريفات و الاشتقاقات التي يستعملها الناطقون، و مرجع ذلك إلى تداخل اللغات فنحو قلى يقلى بفتح اللام في الماضي و المضارع ماضيه من لغة

و مضارعه من لغة أخرى تخالف الأولى فى النطق بالماضى فمن يقول قلى بالكسر فى الماضى يقول يقلى بالكسر فى المضارع و الذى يقول يقلى بفتح اللام يقول قلى فى الماضى، و كذلك الأمر فى سلا فحدث تداخل بين اللغات نشأ عنه لغة ثالثة «٢».

و قد اعتمد السيوطى على ابن جنى فى عرض الفكرة السابقة ثم أورد أمثلة للتداخل فى اللغة الناتج عن اختلاف اللهجات نقلا عن بعض كتب اللغة الأخرى. (١) المزهج ج ١ ص ٢٤٢.

(٢) المزهج ج ١ ص ٢٤٣، و قد نقل عن الخصائص انظر ج ١ ص ٣٧٠-٣٧٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٨١

المعنى أو الدلالة اللغوية

إشارة

بعد أن عرضت لمفهوم السيوطى للغة و تطبيقه هذا المفهوم فى دراسة الألفاظ نحاول هنا بيان تطبيقه لهذا المفهوم فيما يتصل بالمعنى، و قد تناول السيوطى اللغة من حيث المعنى فى ثلاثة عشر نوعا سبق لنا تناول بعضها و بقى جانب آخر نحاول تناوله فى هذا المبحث.

و قضية المعنى و تحديده قد شغلت المفكرين من اللغويين و غيرهم منذ عصور بعيدة فى كثير من اللغات، و لعل من أوفى ما يتعلق بالمعنى اللغوى من حيث تحديده و دراسته ما أنتجته بيئة الأصوليين.

و فى العصر الحديث عرفت دراسة المعنى باسم علم الدلالة، scitnames وهو فرع من فروع علم اللغة يعد كما يقولون: «غاية الدراسات الصوتية و الفونولوجية و النحوية و القاموسية» «١»، و درس هؤلاء التطور الدلالي و عوامله، و ظهرت مناهج لدراسة المعنى اتجهت أخيرا إلى محاولة إدراك الظروف الخارجية التى تعين على تغير المعنى، بيد أنه من الانصاف أن تؤكد القول بأن كثيرا مما توصل إليه علم الدلالة «لم يصل بعد فى دقته و ضبطه و عمومته إلى المستوى الذى يستحق فيه اسم القوانين» «٢».

و لما كان اللغويون المحدثون يفصلون فى بحث اللغة بين الظواهر المتعلقة بالأصوات و بين الظواهر المتعلقة بالمعنى، بالإضافة إلى الظواهر النحوية و التركيبية على نحو ما هو معروف فى مستويات الدرس اللغوى الحديث، و لما كان القدامى لا يحددون البحث فى اللغة هذا التحديد القاطع فقد حدث عندهم (١) د. محمود السمران: علم اللغة ص ٢٨٥.

(٢) د. على عبد الواحد وافي: علم اللغة ص ٢٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٨٢

خلط فى بعض الأحيان بين موضوعات هذه المستويات بالرغم من إدراكهم للفروق بين هذه الأفرع الدراسية، و قد اقترب السيوطى من هذا التقسيم حين تناول الأبحاث المتصلة باللفظ فى أقسام محددة، و المتصلة بالمعنى فى أقسام أخرى و نبه على هذا التقسيم، بيد أننا وجدناه فى بعض الأحيان يتناول ما يتصل بالدلالة فى مباحث الألفاظ، و نراه هنا يورد بعض الأقسام التى كان من واجبه أن يضمها إلى مباحث الألفاظ، لا سيما تلك الأقسام التى تتعلق بالأصوات، فقد عد من الأنواع التى تبحث اللغة من حيث المعنى الابدال و القلب فى حين أنهما مبحثان يتصلان بصوتية اللغة أى بألفاظها، كذلك تناول تحت اسم المعنى البحث فى خصائص اللغة و فيه ما يدخل فى المعنى، و ما هو خارج عنه و قد أشرنا إلى تناوله لبعض المباحث التى كانت ألصق بالمعنى فى قسم الألفاظ فيما سبق.

تحدث السيوطى عن «خصائص اللغة» «١»، و هو حديث عام يشمل كثيرا من ظواهر العربية و يصفها وصفا دقيقا، و يعرض خصائصها التى تميزت بها، و هى خصائص صوتية و دلالية و إعرابية و صرفية و أسلوية و تركيبية، و قد نقل هذه الخصائص عن صاحبى لابن

فارس فأورد عدة أبواب منها ما سماه ابن فارس بسنن العرب فى كلامها، و نقل عن غيره بعض الأمثلة للمحاذاة فى الألفاظ أو ما يسمى بالازدواج كقولهم الغدايا والعشايا فإذا أفردوا لم يقولوا الغدايا، و كذلك هنأنى و مرأنى إذا أفردوا قالوا: أمرأنى، فالمزاوجة فى الكلام هى سب بعض التغيير الذى يطرأ فى بعض الألفاظ.

كما نقل بعض الخصائص عن ديوان الأدب للفارابى و أضاف إليها حديث الزمخشري عن الكنى باعتبارها مما اختص به العرب. و فى «الابدال» (٢)، و قد بينا أن صلته باللفظ أكثر من صلته بالمعنى إذ لا يعدو أن يكون ظاهرة صوتية تعترى الألفاظ فيرد اللفظ منطوقا بحرفين متقاربين (١) المزهر ج ١ ص ٣٢١.

(٢) المزهر ج ١ ص ٤٦٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٨٣

كقولهم مدحه و مدهه، و جذوت و جثوت، و فرس رقل و رقل للذى طال ذنبه ..

إلى غير ذلك، و قد ألف فيه أبو الطيب اللغوى و ابن السكيت، و قد ذهب أبو الطيب إلى أن الابدال لغات مختلفة لمعان متفقه تتقارب اللفظتان فى لغتين لمعنى واحد، و استدل على ذلك بأن القبيلة الواحدة لا تتكلم بكلمة طوراً مهموزة و طوراً غير مهموزة و لا بالصاد مرة و بالسین أخرى و هلم جرا على حين أن غيره من اللغويين لا يرى منشأ الابدال فى اختلاف القبائل، و إنما قد يقع فى القبيلة الواحدة، و هناك من الحروف ما يتعاقب فى بعض الألفاظ مثل الراء و اللام، و سواء أ كان الأمر هذا أم ذاك فإن هذه الألفاظ من اللغة الصحيحة التى يتعاورها الجميع و لا يخطأ أحد فى استعمالها لأنهم قرروا اختلاف اللغات مع كونها حجة، و من ثم فقد أورد السيوطى عددا كبيرا من أمثلة الابدال بين الحروف، و قد نقل جملها عن كتاب الابدال لابن السكيت، ثم نقل ما يشير إلى أن بعض اللغويين قد حاول أن يصل إلى بعض القوانين التى تحكم ظاهرة الابدال، ثم أشار إلى الخلاف بين اللغويين و النحويين إزاء هذه الظاهرة حيث يعمم اللغويون الابدال فى معظم الحروف بينما يقصر النحويون الابدال على حروف «طال يوم أنجده».

و يتصل ببحث الابدال ما تناوله السيوطى باسم «ما ورد بوجهين بحيث يؤمن فيه التصحيف» (١)، كالذى ورد بالباء و التاء أو بالباء و التاء أو بالتاء و التاء إلى آخره، و قد مثل له بأمثلة تحيط بصنوف هذا الابدال فمما ورد بالباء و التاء قولهم: رجل صلب وصلت بمعنى واحد، و بالباء و التاء البرى و الثرى: التراب إلى غير ذلك من أمثلة.

و يتصل به كذلك «ما ورد بوجهين بحيث إذا قرأه الألتع لا يعاب» (٢)، كالذى ورد بالراء و الغين أو بالراء و اللام، أو بالزاي و الذال، أو بالسین و التاء ... إلى آخره، و معظم أمثله يتردد ناقلوها فى كونها لغة أو لغة، فهى قد (١) المزهر ج ١ ص ٥٣٧ النوع السابع و الثلاثون.

(٢) المزهر ج ١ ص ٤٦٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٨٤

صح نقلها عن العرب و سمعت منهم، و لكن التردد ناتج عن عدم التمكن من بحث حال القائل، فمن أمثله اللهم لغة فى اللحت أو لغة، و فلان من جنتك و من جنسك أى من أصلك لغة أو لغة و هكذا، و قد اجتهد السيوطى فى كلا النوعين فى ذكر عدد كبير من الأمثلة و كأن مراده استقصاؤها.

و يتناول موضوع «القلب» (١)، الذى نراه ألتصق بمباحث الصوت و اللفظ منه بمباحث المعنى، فينقل عن ابن فارس أنه من سنن العرب كقولهم جذب و جذب ثم نقل كثيرا من الأمثلة عن الجمهرة لابن دريد مثل ربيض و رضب، و صاعقه و صاقعه و سحب مكفهرو مكرهف، و طريق طامس و طاسم و هلم جرا، كما نقل عن غير الجمهرة أمثلة يستزيد بها على ما سبق نقله، و يختتم حديثه عن القلب بما يشبه القانون الذى حاول النحاة وضعه لمعرفة المقلوب من غيره، فينقل عن السخاوى فى شرح المفصل أنهم: «إذا قلبوا لم يجعلوا للفرع مصدرا لئلا يلتبس بالأصل، بل يقتصر على مصدر الأصل ليكون شاهدا للأصالة نحو يئس ياسا، و أيس مقلوب منه و لا مصدر

له، فإذا وجد المصدران حكم النحاة بأن كل واحد من الفعلين أصل و ليس بمقلوب عن الآخر نحو جبد و جذب، و أهل اللغة يقولون إن كل ذلك مقلوب» (٢). و ما يذهب إليه اللغويون من القول بأن جميع ذلك مقلوب هو ما تسنده الملاحظات الصوتية الحديثة فى علم الأصوات اللغوية فيما يعرف بتفاعل أصوات الكلمة (٣).

و مما يتصل باللفظ أكثر من اتصاله بالمعنى و تناوله السيوطى فى مباحث المعنى «النحت»، و قد تناوله مقدرًا على ما يبدو ما قدره بعض المحدثين - فيما بعد - الذين جعلوه قسما من أقسام الاشتقاق فتلك صلته بالمعنى.

و قد عرض هذا المبحث ناقلا- عن الصحابى باب النحت ثم أشار إلى ما ألفه الظهير العماني الفارسى فى النحت و أورد نقولا أخرى بها أمثلة و حديث عن النحت، و يتضح من هذه النقول أن أكثر المتوسعين فى القول بالنحت ابن (١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٧٦. (٢) المزهر ج ١ ص ٤٨١.

(٣) د. على عبد الواحد وافي: علم اللغة ص ٢٧٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٨٥

فارس الذى يعد أكثر الزائد عن الثلاثى من المنحوت كقولهم للرجل الشديد ضبط من ضبط و ضبر.

بيد أن ابن فارس بالرغم من ذلك لم يؤثر عنه القول بقياسية النحت موافقا فى ذلك مذهب جمهور اللغويين و النحاة الذين يقفون عند الوارد عن العرب و لا يجيزون القياس فى غيره.

و قد أورد ابن فارس كثيرا من الأمثلة لما زاد على ثلاثة أصول و قال فيه بالنحت فى كتابه معجم المقاييس، و بالرغم من ذلك فقد اكتفى السيوطى بما نقله عنه من كتاب الصحابى مؤثرا ذكر ما شاع فى بيئة اللغويين من عدم التوسع فى القول بالنحت و التمثيل له بأمثله إن كثرت فهى لا تزيد على ستين مثلا، بينما أورد ابن فارس فى مقاييس اللغة نحو ثلاثمائة مثال (١).

و يتناول السيوطى ظواهر اللغة المتصلة بالمعنى و يتحدث عن كل منها فى مبحث مستقل فيتحدث عن «الاشتقاق» (٢)، و يتضح من نقوله التى أوردها عن ابن فارس أحد معانى الاشتقاق المتمثلة فى كونه ظاهرة لغوية مؤداها أن هناك صلة فى المعنى بين الألفاظ المشتركة فى الحروف و هيئة التركيب فالجن مشتق من الاجتنان، و هذه الفكرة هى التى بنى عليها ابن فارس معجم المقاييس حيث يورد أصلا أو أصلين للمادة اللغوية ثم يرد إلى هذين الأصلين جميع المشتقات من هذه المادة و يبين المناسبة فى المعنى بين المشتق و الأصل و هو ما يسميه بالفرع و الأصل، و يعد ابن فارس هذا الاشتقاق غير قياسى.

و المعنى الثانى للاشتقاق هو ما تناوله ابن جنى فى مقدمته الخصائص أيضا حيث حاول أن يرد الكلمات المشتركة فى مادة واحدة دون مراعاة لهيئتها إلى أصل واحد، و لم يطبقه ابن جنى إلا فى أمثلة محدودة لا يمكن طردها فى سائر مواد اللغة و لذلك فهو غير معتمد عند اللغويين. (١) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، انظر دراسات فى فقه اللغة لصبحى الصالح ص ٢٧٧.

(٢) المزهر ج ١ ص ٣٤٥، النوع الثالث و العشرون.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٨٦

و المعنى الثالث للاشتقاق هو «أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقها معنى و مادة أصلية و هيئة تركيب لها ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلافا حروفا أو هيئة، كضارب من ضرب و حذر» بكسر الذال «من حذر» (١).

و قد نقل السيوطى ما حاوله صاحب شرح التسهيل من الوصول إلى بعض القوانين التى تحكم الاشتقاق بمعناه الأخير، فالتغيرات بين الأصل المشتق منه و الفرع المشتق خمسة عشر، و هناك وجوه يرجح بها رد الكلمة إلى أصل دون أصل إذا تردت بينهما، ثم هناك ملاحظات أخرى تتصل باشتقاق الأعلام و الأصل فى الاشتقاق و غير ذلك فضلا عن الخلاف حول تقسيم الكلام إلى مشتق و غير مشتق و ذهاب الجمهور إلى صحة هذا التقسيم.

و الواقع أن البحث فى الاشتقاق بأنواعه المختلفة إنما هو بحث فى الدلالة اللغوية المعبر عنها بالأصوات، و تقدير لمناسبة الأصوات

للمعاني، فالزيادة فى الصوت أى اللفظ يقابلها زيادة فى المعنى، و قد فهم اللغويون القدماء ذلك و قدروه و راعوه فى مباحثهم. و يتصل بالتطور الدلالى الذى يلحق معنى الكلم ما بحثه السيوطى فى ثلاثة أنواع هى الحقيقة و المجاز، و الخاص و العام، و المطلق و المقيد.

و بحث الحقيقة و المجاز من الموضوعات التى عنى بها الأصوليون و اللغويون و البلاغيون بيد أن السيوطى قد اعتمد فيه على أقوال اللغويين و الأصوليين فحسب، و كان اعتماده أكثر على الأصوليين.

و الواقع أن النظر فى أقوالهم عن الحقيقة و المجاز يمكن أن يوضح لنا تقديرهم للتغير الدلالى و عوامله و مظاهره، و تقديرهم كذلك لحياء اللغة و نموها و اتساعها حتى يمكن التعبير بألفاظها عن دلالات لم تكن معروفة من قبل فالرازى يذكر فيما ينقله عنه السيوطى أن سبب العدول عن الحقيقة إلى المجاز يكون لأجل اللفظ أو المعنى أو لأجلها «فالذى لأجل اللفظ أما لأجل جوهره بأن تكون الحقيقة ثقيلة على اللسان إما بثقل الوزن، أو تنافر التركيب، أو ثقل الحروف، (١) المزهر ج ١ ص ٣٤٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٨٧

أو عوارضه بأن يكون المجاز صالحاً لأصناف البديع دون الحقيقة، و الذى لأجل المعنى إما لعظمته فى المجاز أو حقاؤه فى الحقيقة، أو لبيان فى المجاز، أو للطف فيه، أما العظمة فكالمجلس، و أما الحقاؤه فكقضاء الحاجة بدلاً عن التغوط، و أما زيادة البيان فإما لتقوية حال المذكور كالأسد للشجاع، أو للذكر و هو المجاز فى التأكيد» (١).

ثم يبين التلطف بقوله إن «التعبير بلوازم الشئ الذى هو المجاز لا- يفيد العلم بالتمام فيحصل دغدغة نفسانية فكان المجاز أكد و ألطف» (٢)، و قد بين أن التعبير بالحقيقة يفيد العلم بالتمام و أن التعبير بالمجاز مثير للتشوق إلى معرفة الحقيقة، ثم نقل السيوطى حديث اللغويين و الأصوليين عن الحقيقة و المجاز و بين مواقفهم منها و اتضح أن ابن جنى من الذين يتوسعون فى إطلاق المجاز على كثير من تعبيرات اللغة و عنده أن المجاز يعدل إليه عن الحقيقة «معان ثلاثة و هى الاتساع و التوكيد و التشبيه فإن عدت الثلاثة تعينت الحقيقة»، بيد أنه يعد أكثر اللغة مجازاً لا حقيقة.

و ينقل السيوطى عن الرازى محاولة حصر معظم وجوه المجاز فى اثني عشر وجهاً، ثم ينقل كيفية التفرقة بين الحقيقة و المجاز. و من الآراء الغريبة ما نسب إلى الأسفرايينى من إنكاره وقوع المجاز فى اللغة، و قد تعقبه ابن برهان فى الأصول فيما نقله عنه السيوطى، كما رجح إمام الحرمين و الغزالي نفى هذا الرأى عن الأسفرايينى، و قد نسب إلى أبى على الفاريسى إنكار المجاز و هنا علق السيوطى بأن هذا «لا يصح أيضاً، فان ابن جنى تلميذ الفاريسى و هو أعلم الناس بمذهبه، و لم يحك عنه ذلك، بل حكى عنه ما يدل على إثباته» (٣).

و يتضح من هذا موقف السيوطى فهو من القائلين بوقوع المجاز فى اللغة شأن (١) المزهر ج ١ ص ٣٤٠.

(٢) المزهر ج ١ ص ٣٤١.

(٣) المزهر ج ١ ص ٣٤٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٨٨

جمهور الأصوليين و اللغويين، و هو الرأى الصائب، و قد اتضح من نقوله تهافت حجج المنكرين للمجاز الذين يرون أن جميع اللغة حقائق، و يتضح موقف السيوطى من الحقيقة و المجاز بصراحة فيما أجاب به على سؤال ورد إليه فى «العام المراد به الخصوص» هل هو حقيقة أو مجاز؟ فأجاب بأنه مجاز قطعاً (١).

و لما كان مبنى المجاز على النقل و المناسبة، و نظراً لأهميته فى حياء اللغة و اتساعها فلقد لجأ إليه المجمعون فى محاولة إمداد اللغة ببعض ما تحتاج إليه فى عصرها الحديث من ألفاظ عن طريق النقل مع مراعاة المناسبة كما حدث فى إطلاق اسم «القطار» و «البرق» و غيرهما مما كان له دلالة قديمة خاصة على بعض المخترعات الحديثة (٢).

و فى مبحث «العام و الخاص» (٣) حاول السيوطى تصنيف ألفاظ اللغّة بحسب عموم الدلالة أو خصوصها مقدرا تغيير المعنى الذى يعترى الدلالات فينتقل بها من العموم إلى الخصوص أو من الخصوص إلى العموم، و قد قسم هذا المبحث إلى فصول خمسة و هو تقسيم لم يسبق إليه أولها ما وضع عاما و استعمل عاما كالسما لكل ما علا و الصعيد لكل أرض مستوية، و ذكر أن ما يسميه اللغويون بالكليات من الألفاظ فهو من هذا القبيل.

و فى الفصل الثانى تناول ما وضع عاما ثم خصص فى الاستعمال ببعض أفرادها و قد مثل له بلفظ «السبت» الذى يعنى فى اللغّة الدهر ثم خص بأحد أيام الأسبوع، و أورد عديدا من الأمثلة غير ذلك، ثم تناول من الألفاظ ما اعتراه تغيير نحو التعميم أى ما وضع فى الأصل خاصا ثم استعمل عاما، فالنجعة- مثلا- أصلها طلب الغيث ثم كثر فصار كل طلب انتجاعا، و القرب طلب الماء ثم صار يقال لكل طلب، و الوغى اختلاط الأصوات فى الحرب، ثم كثر فصارت الحرب و غى، و هناك كثير من الأمثلة التى جمعها السيوطى من كتب (١) الحاوى للفتاوى ج ٢ ص ٥٥٥، الأسئلة الوزيرية و أجوبتها.

(٢) انظر مقال المجاز و النقل و أثرهما فى حياة اللغّة للشيخ محمد الخضر حسين مجلة مجمع اللغّة العربية ج ١ ص ٢٩١.

(٣) المزهر ج ١ ص ٤٢٦ النوع التاسع و العشرون.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٨٩

اللغّة بما يبين فهمه و إدراكه لهذا النوع من التغيير الدلالى.

و تناول فى الفصل الرابع ما وضع عاما و استعمل خاصا، ثم أفرد لبعض أفرادها اسم يخصه و مثل له بما أورده الثعالبى تحت عنوان العموم و الخصوص، فالبغض عام، و الفكك فيما بين الزوجين خاص، و التشهى عام و الوحم للجبلى خاص و غير ذلك. و فى الفصل الخامس أورد ما وضع خاصا و استعمل خاصا فالتابع التهافت و لم تسمع إلا فى الشر، و أولى له: تهديد و وعيد و هلم جرا.

و يدل المبحث السابق على حسن تقسيم السيوطى، و تقديره لتغيير الدلالة، و جهده الصائب فى وضع الأمثلة فى مواضعها الصحيحة. و هناك جانب من الأسماء فى اللغّة نص اللغويون على أن مسمياتها لا بد أن تتوفر فيها شروط معينة حتى تستحق إطلاق هذه الأسماء عليها، و قد تناولها السيوطى باسم «المطلق و المقيد» (١)، فنقل عن ابن فارس الفصل الذى عقده للأسماء التى لا تكون إلا باجتماع صفات، فالمائدة لا يقال لها مائدة حتى يكون عليها طعام و إلا فاسمها خوان و الطعينة لا تكون طعينة حتى تكون امرأة فى هودج على راحلة... و نحو ذلك من الأمثلة، و نقل عن الثعالبى ما سماه بأشياء تختلف أسماؤها و أوصافها بحسب أحوالها فلا يقال كأس إلا إذا كان فيها شراب و إلا فهى زجاجة و نحو ذلك، كما نقل أمثلة أخرى من هذا القبيل.

و على الرغم من أن كثيرا من هذه الأمثلة يسندها الاستعمال اللغوى الفصيح الذى عول عليه هؤلاء اللغويون فإن جانبها غير قليل منها لم يستعمل مشروطا بهذه الشروط التى وضعوها، و لم يراع المتكلمون هذه القيود فيه، فالكأس تستعمل سواء أ كان فيها ماء أم كانت فارغة، و الطعينة تطلق على المرأة و لو فارقت هودجها، و هناك دلائل فى الاستعمال الفصيح تسند ما نذهب إليه، و كان ينبغى على هؤلاء مراعاة التغيير الدلالى الذى يعترى الألفاظ فينتقل بها من الخصوص إلى العموم أو العكس و ألا يهملوا عامل التطور و أثره فى اللغّة. (١) المزهر ج ١ ص ٤٤٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٩٠

و قد أشار السيوطى إلى مبحث يعد من طرائف اللغويين يتصل بدلالات الألفاظ و يعتمد على المشترك اللفظى هو «المشجر» (١)، الذى أفرد له أبو الطيب اللغوى كتابا سماه «شجر الدر» (٢)، و قد اعتمد السيوطى فى مبحثه على كتاب أبى الطيب، و قد نقل عنه ممثلا ما سماه الأول بشجرة العين بفروعها، و اختتم السيوطى نقوله بقوله «ان هذا النوع يناظر من علم الحديث نوع المسلسل» (٣).

و قد تناول السيوطى عددا من المباحث المتصلة بالدلالة أشرت من بينها إلى المشترك اللفظى حين الحديث عن كتاب «حسن السير

فيما فى الفرس من أسماء الطير» الذى مر ذكره، كما أشرت إلى الاتباع صدد دراسه كتابه «الإلماع» و إلى الترادف صدد الحديث عن منظومه «التبرى من معره المعرى» فلا حاجه بنا إلى أن نكرر ما سبق و لنعد إلى تناول بقية مباحث الدلالة التى لم يسبق الإشارة إليها.

الأضداد:

و التضاد من الملاحظات الصادقة على أكثر اللغات إن لم يكن على جميعها، و قد تناول السيوطى هذه الظاهرة فى أحد فصول كتابه، و مرد التضاد فى اللغة إلى أننا نفكر فى كل صفة مع ما يقابلها فعند ما أقول «أبيض»، فأنا أفكر غير واع فى غير الأبيض و فى ضده أى فى الأسود، و قد عبر عن هذه الحقيقة جوسست تراير الألمانى بقوله: كل كلمة تلفظ تثير معناها المضاد «(٤)».

و أكثر اللغويين على أن الكلمة التى تستعمل بمعنيين متضادين سبق لها أن استعملت فى أحدهما فقط ثم استعملت للدلالة على المعنى الآخر فى عصر تال، فعرف لها الاستعمالان، فكأن الكلمة بذلك قد اعترها تغير دلالى فيما آلت إليه. (١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٥٤.

(٢) اسم الكتاب: شجر الدر فى تداخل الكلام بالمعانى المختلفة (مطبوع).

(٣) المزهر ج ١ ص ٤٥٩.

(٤) د. محمود السعران: علم اللغة ٣١١.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٩١

و البحث فى التضاد و حصر الألفاظ الدالة عليه من أقدم البحوث اللغوية عند العرب و قد أُلّف فى الأضداد غير واحد من اللغويين القدماء، كما أدلى فيه أهل الأصول بدلوهم، و قد عقد له السيوطى كما قلناه مبحثا مستقلا «(١)».

و الأضداد نوع من المشترك اللفظى و لذلك أشار إليه بعض الأصوليين ضمن مبحث المشترك، و قد نقل السيوطى عنهم و عن اللغويين ما يتصل بالأضداد، و قد عد ابن فارس الأضداد من سنن العرب التى تحدث عنها فالجون للأسود و الجون للأبيض، و قد نقل بعض محاولات القدماء فى تصنيف الألفاظ باعتبار دلالتها على المعانى و اتفاقها أو اختلافها و تقاربها أو تباعدها و هو ما تحدث عنه فى كتاب ما اتفق لفظه و اختلف معناه و سماه ابن فارس أجناس الكلام فى الاتفاق و الافتراق، حيث صنف الألفاظ إلى ثمانية أقسام بهذا الاعتبار، و قد أورد السيوطى عددا كبيرا من الأمثلة للتضاد نقلا عن كتب اللغة، و قد نبه السيوطى على أن ابن درستويه ممن أنكر الأضداد، ثم نقل كثيرا من الأقوال فى مبحثه عن كتاب الأضداد لأبى بكر بن الأنبارى.

أما و قد انتهينا من عرض مباحث الدلالة التى تناولها السيوطى فإننا نختم بملاحظة نلاحظها على دراسه المعنى و هى أن الأصوليين قد اهتموا بهذا النوع من الدراسه و كانت عنايتهم به بالغة، و قد أفاد السيوطى من دراساتهم و من دراسات اللغويين، و أخرى أن هؤلاء و هؤلاء كان منهجهم فى دراسه اللغة أصواتا أو دلالات منهجا و صفا يعتمد على النظر فى اللغة و نصوصها و ألفاظها و يدرس دلالاتها، ثم يستخرج بعد ذلك ملاحظاته أو قوانينه، و يصنف الظواهر المدروسة، و هذا هو المنهج الذى ينادى به اللغويون المحدثون، و هو المنهج الذى حاول السيوطى عن طريق نقوله و عرضها أن يبرزه. (١) المزهر ج ١ ص ٣٨٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٩٢

ضبط اللغة

و هو مبحث صرفى معجمى دلالى يهدف إلى حصر أبنية اللغة و تصنيفها، و الخروج ببعض الضوابط و التفسيرات و الملاحظات الخاصة بهذا الشأن تناوله السيوطى بعنوان «الأشبه و النظائر» «(١)»، و قد قسمه السيوطى تقسيما مبتكرا صب فيه مواد اللغة التى جمعها

من شتى المظان فبدأ بحصر أبنية الأسماء مقسما إياها إلى ثلاثى و رباعى و خماسى، و الثلاثى ينقسم بدوره إلى مضعف و غير مضعف، ثم هناك مزيد من الثلاثى المضعف و مزيد من الثلاثى غير المضعف، ثم تحدث عن الرباعى المجرد و المزيد، و الخماسى مجردة و مزيدة ذاكرة فى كل من هذه الأنواع الأبنية التى وردت فى اللغة، ثم تناول الأسماء التى ألحق بها فى الوزن غيرها، و عمد بعد ذلك إلى الأفعال و أبنيتها، و بعد أن فرغ منها تناول بعض الظواهر العامة فى أبنية اللغة باسم «ضوابط و استثناءات فى الأبنية» و نقل هنا الملاحظات التى لاحظها اللغويون من قبل على هذه الأبنية، فمن ذلك - مثلا - قول سيويه: «ليس فى الأسماء و لا فى الصفات فعل» بضم الفاء و كسر العين «و لا تكون هذه البنية إلا للفعل» (٢).

و قد ذكر غير سيويه أنه لم يأت على هذه البنية إلا: الدئل اسم دويبة صغيرة و زاد غيره لفظين، و قد عرض السيوطى تحت هذا العنوان لعدد كبير من الأبنية التى وردت بقله فى اللغة أو التى كان ورودها على وتيرة ما قليلا، و هنا يتضح تفتيش اللغويين القدماء فى اللغة و استدراك بعضهم ما فات على بعض.

كما تناول عددا من الضوابط و الملاحظات اللغوية التى تتصل بالأبنية و الجموع و المصادر و الصفات، و ما يستعمل من الألفاظ معرفة لا يدخله الألف (١) المزهر ج ٢ ص ٣.

(٢) المزهر ج ٢ ص ٤٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٩٣

و اللام، و ما لا يستعمل إلا فى النفى، و ما ورد فى اللغة بالثنية، و غير ذلك من الملاحظات و الضوابط التى جمعها و استخراجها من متفرقات شتى، و التى أراد بها اللغويون أن يخرجوا بجملة من الأحكام يحتديها الاستعمال اللغوى و لا يحيد عنها.

و الواقع أن جملة كبيرة من هذه الملاحظات تعد وصفا لما هو كائن فى اللغة لا ضبطا لما ينبغى أن يكون بعد، و اللغويون بذلك ينهجون فى لغتهم منهجا و صفا يعتمد على النظر فى أبنيتها و استعمالاتها، و لذلك فليس ما يلاحظه أحدهم بملزم لغيره إذا لاحظ الآخر ما يعدل الملاحظات السابقة أو ينفىها، و المتتبع لحصرهم لبعض الأبنية و الاستعمالات يرى خير دليل على ما نقول.

و تشهد هذه الدراسة التى قام بها السيوطى بتجره فى النظر فى اللغة التى حاول بعقليته الجامعة المستقصية المنسقة أن يحصر أبنيتها و يصنف شواردها و يضبط متفرقاتها، و نستأنس على هذا القول بما ذكره عن نفسه بعد عرضه للمعاجم العربية و حديثه عن القاموس بقوله: «و مع كثرة ما فى القاموس من الجمع للنوادير و الشوارد فقد فاتة أشياء ظفرت بها فى أثناء مطالعتى لكاتب اللغة حتى هممت أن أجمعها فى جزء مديلا عليه» (١). (١) المزهر ج ١ ص ١٠٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٩٤

نشأة اللغة

لعل أول ما ينصرف إليه ذهن الباحث اللغوى قديما و حديثا هو أن يتساءل كيف تكون للانسان لغة؟ أتوصل الانسان إلى هذا النظام العجيب عن طريق الوحي؟ أم توصل إليه بنفسه؟.

هذه الأسئلة و أمثالها عرفها الناس فى القديم و الحديث، و انتهى علم اللغة أخيرا إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية كسائر الظواهر الاجتماعية و معنى ذلك أنها من صنع المجتمع.

و لكن علم اللغة على الرغم من كثرة ما كتبه علماءه حول هذا الموضوع لم يستطع أن يصل إلى رأى قاطع فى كيفية نشأة اللغة، و ما هى أول لغة كانت؟

و هل ترجع اللغات كلها إلى أصل واحد أم إلى أصول متعددة، و من ثم تنادى كثير من اللغويين المحدثين بنتيجة البحث فى نشأة اللغة عن أبحاث علم اللغة لأنه أقرب إلى الميثافيزيقا منه إلى العلوم، و على الرغم من ذلك فكثير من كتب اللغويين المحدثين لا

تنفك تحفل بهذا الموضوع و بحثه و إن كانت توفن سلفا بنتائج السليبة، بل و تحرص على تأكيدها «١».

كان طبيعيا أن يتناول السيوطى بحث هذا الموضوع و أن يجعله أول موضوعات كتابه فيعرضه بطريقته النقلية الغالبة عليه.

و النظر فيما أورده من نقول مختلفة عن اللغويين و الأصوليين تدلنا على حيرة (١) انظر: اللغة لفندريس تعريب الدواخلى و القصاص، ص ٢٩ - ٤٢، علم اللغة للدكتور محمود السعراى ص ٥٥ - ٥٧، د. على عبد الواحد وافي: علم اللغة ص ٨٨ - ٩٧. ٤٣٤ - ٤١٢

«JottO:nesrepseL:egaugnaI:nstI:DerutaNstI:poleveDerutaNstI:nigirOehT:hceepSfo nigrOehT»

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٩٥

القوم جميعا فى تحديد نشأة اللغة، و باستثناء ابن فارس من اللغويين نستطيع أن نقول إن جميعهم لم يجزموا بكون اللغة حيا و توقيفا، و بالرغم من أن القول بالتوقيف قد نسب إلى الأشعرى فإن رأيه لم يحظ بتأييد أتباعه فإمام الحرمين ينقل عنه «أن العقل يجوز ذلك كله» «١»، أى كون اللغة توقيفا أو اصطلاحا، و الغزالي يرى جواز القول بالتوقيف و الاصطلاح، و لا يرى حجة قاطعة للقائلين بالتوقيف فى قوله تعالى: وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا «٢»، و من ثم فالرازى يذكر أن المحققين لا يقولون بالتوقيف و لا بالاصطلاح و إنما هم «متوقفون فى الكل» «٣».

و ابن جنى الذى رجح كون اللغات اصطلاحية، و ذكر بعض النظريات فى تفسير نشأة اللغة من كونها من أصوات المسموعات كدوى الريح و حفيف الأشجار و نحوها لا يستطيع أن يدلى برأى قاطع، بل ينتهى إلى التوقف و عدم ترجيح أى قول من هذه الأقوال. و يتضح أن المعتزلة يقولون بالمواضعه و الاصطلاح و يحاجون عن مذهبهم، و أن القول بالتوقيف لم يصرح بنسبته إلى أهل السنة «٤»، بل أنكر بعضهم نسبته إلى الأشعرى «٥».

استطاع السيوطى أن ينقل خلاصة ما يتصل بهذا الموضوع عن اللغويين و الأصوليين و أن يعرضه عرضا يتضح منه جميع المذاهب، و إذا كان المحدثون كما رأينا قد مالوا بعد طول البحث و الدرس إلى تنحية هذا الموضوع عن أبحاثهم، فقد توصل بعض القدماء من قبل إلى نفس النتيجة، و قد نقل السيوطى عن صاحب رفع الحاجب «أنه لا فائدة لهذه المسألة، و هو ما صححه ابن الأنبارى و غيره، و لذلك قيل ذكرها فى الأصول فضول» «٦».

بيد أن السيوطى - لطبيعته النقلية - لم يصرح بموقفه من هذا المعترك، و لم (١) المزهر ج ١ ص ٢١.

(٢) المزهر ج ١ ص ٢٣.

(٣) المزهر ج ١ ص ١٦.

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢٠.

(٥) نفس المصدر ج ١ ص ٢٤.

(٦) نفس المصدر ج ١ ص ٢٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٩٦

ينتصر لفريق على غيره، و لم يعقب على هذه النقول بما يبوح بموقفه، و قد أورد عقب هذه النقول بعض المرويات التى نذهب إلى أن الله تعالى علم آدم اللغات و معظمها ينتهى إلى ابن عباس بصدد تفسير قوله تعالى: وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، و لم يعقب السيوطى بشيء على هذه النقول تصحيحا أو تضعيفا أو توجيها، فإذا قلنا: إن اختيارات الرجل فى نقوله جزء من عقله، و السممة الغالبة التى يدركها الناظر فى هذه النقول هى روح التردد أو التوقف عن القول بالتوقيف أو الاصطلاح، و هو كما عبرت عنه كثير من نصوصهم مذهب المحققين، فلعل السيوطى كان يختار التوقف، مع ميل إلى القول بالتوقيف، و نراه فى موضع آخر يلخص هذه الأقوال الثلاثة فى نشأة اللغة و ينسب إلى ابن جنى استحسان بعضها و الميل إلى بعض، و لا يصرح عن موقفه بشيء «١»، و الذى يجعلنا نذكر ميله إلى القول بالتوقيف بعض الميل ما أورده من نقول بصدد تفسير الآية السابقة، و هذه النقول ترجح كون اللغة توقيفية. (١) الاقتراح ص

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٩٧

الصلة بين اللفظ و المعنى

قدر اللغويون العرب أن هناك مناسبة طبيعية بين اللفظ و مدلوله، أى بين الأداء الصوتى للكلمة و كيفية هذا الأداء و بين معنى الكلمة، و قد بينا عند حديثهم فى الاشتقاق ربطهم الزيادة فى حروف اللفظ أو حركاته أو النقص فيها بالزيادة أو النقص فى المعنى، و هنا تبدو هذه الفكرة التى تهتم بصوتية اللغة أكثر جلاء حيث يتناولها ابن جنى موضحة الصلة بين أصوات الكلمة و بين معناها و ذاكرة سبق الخليل و سيويه إلى التنبيه إلى هذه الفكرة «١»، و قد أشار سيويه من قبل إلى أن المصادر التى اشتركت فى معنى واحد، و هو الحركة و الاضطراب قد اشتركت فى مقال واحد هو الفعلان، و يتضح من حديث سيويه أن التقارب فى المعنى يؤدى إلى الاشتراك فى المثال الذى يأتى عليه المصدر «٢».

و قد نقل ابن جنى عن سيويه بعض ما ذكره، و توسع فى إيراد الأمثلة التى تعضد هذا التصور فذكر أن الأفعال الرباعية المضعفة تأتى للتكرير كالزعة و القلقلة و غيرها، فالمثال المكرر للمعنى المكرر، و بين المناسبة بين استعمال صيغة «استفعل» للطلب و بين معنى الطلب، و المناسبة بين تضعيف العين فى مثل فُرح و بَشْر و بين تقوية المعنى فكأنهم جعلوا قوة اللفظ لقوة المعنى، بالاضافة إلى الأمثلة العديدة التى استعملت فيها الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فالخضم لأكل الرطب، و القضم لليابس ... إلى آخر ما أورده. و قد نقل السيوطى خلاصة هذا الباب عن ابن جنى، و يبدو لديه الميل إلى هذه الفكرة التى تذهب إلى وجود المناسبة بين اللفظ و مدلوله، و لذلك فقد أتبع ما نقله عن ابن جنى بذكر مجموعة كبيرة من الأمثلة التى تؤيد ما ذهب إليه (١) الخصائص ج ٢ ص ١٥٢-١٦٨، امساس الألفاظ أشباه المعانى.

(٢) كتاب سيويه ج ٢ ص ٢٢٨، ٢٢٩ (طبعة باريس).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٩٨

سابقه و قد ذكر نسبة هذا القول إلى عباد بن سليمان من المعتزلة، و بين أن جمهور اللغويين يكادون يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ و بين المعانى، و الفرق بين مذهبهم و بين مذهب عباد أنه يراها ذاتية موجبة بخلافهم «١». و القائلون بهذه النظرية و زعيمهم ابن جنى يذهبون إلى وجود هذه الصلة فى جميع ألفاظ اللغة فهو يقول: «فإن أنت رأيت شيئاً من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسمناه، و لا يتابعك على ما أوردناه فأحد أمرين: إما أن تكون لم تنعم النظر فيه فيقع بك فكرك عنه، أو لأن لهذه اللغة أصولاً و أوائل فقد تخفى عنا، و تقصر أسبابها دوننا كما قال سيويه» «٢». و هذا القول يعنى وجود مناسبة بين اللفظ و المعنى قد تقرب فيمكن إدراكها لكونها ظاهرة، و قد تبعد فيمكن إدراكها بالتأمل، أو لا يمكن إدراكها لإمكان تطور هذه الألفاظ عن أصول كانت تتضح فيها هذه المناسبة بين اللفظ و مدلوله و أحدث التطور فيها بعض التغيير الذى جعل إدراك هذه المناسبة بعيداً.

و هذه النظرية تتصل فى الواقع بالقول بنشأة اللغة عن الأصوات الطبيعية، و لكن ذلك لا يعنى أن القائلين بوجود المناسبة بين اللفظ و مدلوله يقولون بنشأة اللغة عن هذه الأصوات، فجمهور اللغويين يرون هذه الصلة بين اللفظ و مدلوله بينما يذهبون فى نشأة اللغة مذهباً آخر، و ابن جنى نفسه الذى حكى نظرية نشأة اللغة على هذا النحو لم يقطع بقبوله لها و إنما ذكر أنه «وجه صالح و مذهب متقبل» و أتبع ذلك مستدركا بما يبين توقفه و عدم ترجيحه أحد القولين «٣».

و يتضح مذهب السيوطى فيما عقب به على الأمثلة التى نقلها إذ يقول:

«فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها، و كيف فاوتت العرب فى هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة فى المعانى، فجعلت الحرف

الأضعف فيها و الأليين و الأخرى و الأسهل و الأهمس لما هو أدنى و أقل و أخف عملا أو صوتا، و جعلت الحرف (١) المزهر ج ١ ص ٤٧.

(٢) الخصائص ج ٢ ص ١٦٤.

(٣) الخصائص ج ١ ص ٤٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٩٩

الأقوى و الأشد و الأظهر و الأجهر لما هو أقوى عملا و أعظم حسا، و من ذلك المدّ و المطّ، فان فعل المطّ أقوى، لأنه مدّ و زيادة جذب، فناسب الطاء التى هى أعلى من الدال «١»، ثم اختتم الأمثلة الكثيرة التى نقلها للتدليل على المناسبة بين اللفظ و المعنى بقوله: «فانظر إلى هذه الفروق و أشباهها باختلاف الحرف بحسب القوة و الضعف و ذلك فى اللغة كثير جدا، و فيما أوردناه كفاية» (٢).

نستخلص من هذا أن السيوطى قد استوعب نظرات السابقين فى هذا المبحث أيضا، و قد ذهب إلى إثبات المناسبة بين اللفظ و المعنى، على النحو الذى بينه ابن جنى، أى أنّ ثمة صلة بين الألفاظ و المعانى لكنها ليست ذاتية أو طبيعية، و أقوال الأصوليين (علماء أصول الفقه) و التى نقل السيوطى جانبا منها تتخذ موقفا واضحا من هذه القضية، إذ يرون أن هذه الصلة عرفية اعتبارية بحيث لو أطلق لفظ الكفر على الإيمان و لفظ الإيمان على الكفر لكان ذلك ممكنا.

و الواقع أن فكرة الصلة بين اللفظ و المعنى قد شغلت الباحثين فى اللغة- ذلك النظام الصوتى العجيب- فى القديم و الحديث، فقد تصور بعض اليونانيين القدماء وجود صلة طبيعية ذاتية بين اللفظة و معناها، و ذهب آخرون إلى أنها لا تحدو أن تكون صلة اصطلاحية عرفية «٣».

و قد رأينا من انتصر- فى العربية- لفكرة الصلة الذاتية و هو عباد بن سليمان الصيمرى.

و يكاد جميع اللغويين العرب يطبقون على ثبوت نوع من المناسبة بين اللفظ و المعنى على النحو الذى بين مظاهره ابن جنى بيد أنهم يخالفون عبادا فى كون هذه الصلة موجبة و هو مرتبط بقول المعتزلة بمراعاة الأصلح فى أفعال الله تعالى و جوبا، و أهل السنة يقولون بمراعاة الأصلح فى أفعال الله تعالى منا منه و فضلا و ليس وجوبا «٤»، كما ينكرون كون هذه المناسبة ذاتية لأن اللفظ لو دل بذاته (١) المزهر ج ١ ص ٥٣.

(٢) المزهر ج ١ ص ٥٥.

(٣) د. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ ص ٥٨.

(٤) المزهر ج ١ ص ٤٧، ٤٨.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٠٠

لفهم كل واحد كل اللغات لعدم اختلاف الدلالات الذاتية، و اللازم باطل فالملزوم كذلك «١».

و كثير من أبحاث القدماء تسير على هدى من هذه الفكرة التى يتلمس أصحابها المناسبة و الصلة بين اللفظ و مدلوله، فأبحاثهم فى الاشتقاق بنوعيه و بحث الاشتقاق الكبير الذى تناوله ابن جنى، و الذى توسع فيه ابن فارس فى معجم المقاييس و حاول إرجاع المواد المشتركة فى الحروف على الرغم من هيئاتها المختلفة و فروعها المتنوعة إلى أصل واحد أو إلى أصلين لاشتراكها أصلا فى مجموعة من الأصوات المعينة، و قد بدا فى كثير من هذه المواد كثير من التعسف فى محاولة ردها إلى أصول مشتركة، كذلك ما قام به ابن دريد الذى حاول فى كتابه الاشتقاق تحليل الأسماء العربية كأسماء القبائل و الأمكنة و إيجاد المعانى التى ترجع إليها هذه الألفاظ، و كثير من الأبحاث غير ما قدمنا تراعى هذه المناسبة و تحاول إثباتها أو تلمس بعض جوانبها أو مظاهرها.

و فى الحديث نجد يسبرسن يتناول هذه الفكرة «٢»، فيعرض رأى همبلى الذى يذهب إلى أن اللغات بوجه عام تؤثر التعبير عن الأشياء عن طريق ألفاظ أثرها فى الأذان يشبه أثر تلك الأشياء فى الأذهان، و يتضح من عرض يسبرسن و حديثه ميله لفكرة المناسبة الطبيعية

بين اللفظ و مدلوله، إلا أنه حذر من المغالاة فى هذا إذ إن هذه الظاهرة لا تكاد تطرد فى لغة من اللغات، كما أن بعض الكلمات تفقد هذه الصلة على مر الأيام. و قد تناولها إبراهيم أنيس فعرض أفكار السابقين من اليونان و العرب و علماء اللغة من الأوربيين المحدثين، و ذكر ممن عارضها بشدة دى سوسير إذ رأى هذه الصلة اعتباطية لا تخضع لمنطق أو نظام مطرد، و قد بين الباحث الأسباب التى تدفع إلى التفكير فى وجود الصلة الطبيعية بين اللفظ و مدلوله، و مال إلى القول ببطلان هذه النظرية، و أورد بعض (١) المزهر ج ١ ص ١٦.

(٢)

٣٩٦. :egaugnaL :nigirOdnatnem poleveDerutaNstI ,msilobmySdnuoS :XXretpahc P ,nesrepseJottO

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٠١
الأدلة التى تدعم وجهة نظره و بين أن ما تثيره الألفاظ فى أذهان السامعين من دلالات إنما يرجع إلى اعتبارات كثيرة متنوعة، و ليست هناك صلة طبيعية كما يقولون «١». (١) د. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ ص ٥٨ - ٧٠.
جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٠٢

الوضع اللغوى

يرتبط بحث القدماء فى الوضع اللغوى بأفكارهم عن نشأة اللغة، و لذلك بحث السيوطى نشأة اللغة و القول بكونها توقيفاً أو اصطلاحاً تحت اسم «بيان واضع اللغة». و سواء أ كانت اللغة إلهاً أم اصطلاحاً أم مزيجاً منهما معاً بطريقه أو بأخرى، - عندهم - فلا بد من وضع يجعل لفظ كذا بإزاء معنى كذا، و قد تناول بعض المسائل المتصلة بالوضع اللغوى فى كتابه و هى بحوث نظرية أفاض فيها الأصوليون بيد أنها تقوم - فى غالبها - على الاحتمالات الفرضية، و الصور الذهنية الامكانية، و لكن بعض هذه المسائل يمس جوانب هامة فى البحث اللغوى.

فقد تحدث عن الحكمة الداعية إلى الوضع فنقل عن الكيا الهراسى و عن الفخر الرازى ما يبين فهمهما للغة و صلتها بالمجتمع، و أن حاجة الإنسان إلى غيره من بنى جنسه هى التى دفعت إلى وضع اللغة «١».

ثم تحدث عن حدّ الوضع فنقل عن السبكى أنه «تخصيص الشىء بالشىء بحيث إذا أطلق الأول فهم منه الثانى» «٢»، و تناول بعد ذلك الخلاف الذى نشأ و مؤداه: هل وضع الواضع المفردات و المركبات الاسنادية أو المفردات خاصة دون المركبات الاسنادية؟ و قد نقل السيوطى عن الأصوليين و النحويين و اللغويين أقوالهم و اختلافهم فى ذلك، فذكر أن الرازى و ابن الحاجب و ابن مالك و غيرهم يذهبون إلى أن الواضع قد وضع المفردات دون المركبات الاسنادية و حجتهم فى ذلك أنه لو كان الواضع قد وضع المركبات الاسنادية لتوقف استعمال الجمل على النقل عن العرب كالمفردات. (١) المزهر ج ١ ص ٣٦ - ٣٨.
(٢) المزهر ج ١ ص ٣٨ - ٤٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٠٣
و رجح القرافى و التاج السبكى أن المركبات موضوعه كالمفردات.

و لم يوضح السيوطى موقفه من هذا الخلاف، و الواقع أن بحوث النحويين فى الجملة و ترتيبها و جواز التقديم و التأخير و ما يتصل بنظام الجملة و تركيبها استناداً إلى ما نقل عن العرب يدل على أن القول بأن المركبات موضوعه كالمفردات أقرب إلى الصواب، و هو ما ترسمه النحاة فى بحث نظام الجمل و تركيبها. و قد نقل السيوطى عن أبى حيان فى شرح التسهيل ما يؤكد هذه الفكرة حيث يقول: «العجيب ممن يجيز تركيباً ما فى لغة من اللغات من غير أن يسمع من ذلك التركيب نظائر، و هل التراكيب العربية إلا كالمفردات اللغوية، فكما لا يجوز إحداث لفظ مفرد، كذلك لا يجوز فى التراكيب، لأن جميع ذلك أمور وضعية و الأمور الوضعية تحتاج إلى

سماع من أهل ذلك اللسان، و الفرق بين علم النحو و بين علم اللغة أن علم النحو موضوعه أمور كليه و موضوع علم اللغة أشياء جزئية، و قد اشتراكا معا فى الوضع» (۱).

و يشتد الجدل حول كون المركبات موضوعه أم لا، و سبب الخلاف - كما يبدو - عدم تحديد المعنى المراد بالوضع و ما يترتب عليه، فبعض من لا يرى أن المركبات موضوعه إنما ينفى ذلك لأن القول بكونها موضوعه يعنى أن استعمالها و فهم معناها متوقف على النقل عن العرب كالمفردات، و قد نقل السيوطى عن صاحب البحر المحيط هذه الخلافات، و قد حاول الزركشى أن يتوصل إلى قول يحسم به الخلاف حيث ذهب إلى أن العرب إنما وضعت أنواع المركبات، أما جزئيات الأنواع فلا (۲).

و يكاد ابن جنى يقف على الجادة حين يتصور تطور اللغة و أثر كثرة الاستعمال فى تطور الصيغ، و لكن رغبته فى نسبة الحكمة إلى العرب واضعى اللغة ترجعه عن ترجيح هذه النظرية الصادقة ليقول بأن «ما غير لكثرة استعماله، إنما تصورته العرب قبل وضعه، و علمت أنه لا بد من كثرة استعمالها إياه فابتدءوا بتغييره علما (۱) المزهر ج ۱ ص ۴۲، ۴۳. (۲) المزهر ج ۱ ص ۴۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۰۴

بأن لا بد من كثرة الداعية إلى تغييره و هذا فى المعنى كقوله:

رأى الأمر يفضى إلى آخر فصيّر آخره أولا

و قد كان أيضا أجاز - أى أبو الحسن - أن يكون «قد كانت قديما معربة، فلما كثرت غيرت فيما بعد، و القول عندى هو الأول لأنه أدل على حكمتها و أشهد لها بعلمها بمصاير أمرها» (۱). هذا عن بحث الوضع اللغوى و تطور هذا الوضع.

و تأسيسا على هذا فهم يفسرون ظاهرة اختلاف اللهجات العربية باختلاف الوضع الأول فما وضع فى الأصل وضع مختلفا ثم أحدثوا من بعد أشياء كثيرة للحاجة إليها غير أنها على قياس ما وضع فى الأصل مختلفا (۲)، و نجد السيوطى حين يتحدث عن هذه الفكرة ينقل بعض حديث ابن جنى و لا يعقب بشيء فكأنه يتابعه فى فكرته (۳).

و قد أنكر أمين الخولى على القدماء بحثهم فى الوضع بهذا المنهج، و أنكر فكرة ابن جنى و غيره التى دفعت اللغويين إلى أن يردوا كل شيء فى «اللغة» إلى الوضع الذى وضعه الواضع الأول بحكمة استقبلت من أمر الحياة ما استدبر، و تعرفت المستقبل فصيرت الآخر أولا» (۴).

و قد انتهت من حديثه فى الوضع اللغوى و ما عرف عند القوم بعلم الوضع إلى نتائج مضمونها عدم التسليم بأن العربية قد تكونت بالوضع على النحو الذى بينوه، و أن علم الوضع يقوم على أساس مناقض لطبيعة اللغة الاجتماعية، فهو عمل عقلى صناعى لا لغوى، و أن التطور أصل أصيل فى حياة اللغة (۵).

و قد رأينا إدراك القدماء لهذا التطور فى حياة اللغة، بيد أنه قد شابه عندهم و ألقى عليه كثيرا من الظلال ما أرادوه من نسبة الحكمة إلى العرب، بالإضافة إلى بعض الأفكار غير الصحيحة التى حالت دون ظهور التصورات الواقعية و سيادتها. (۱) الخصائص ج ۲ ص ۳۱.

(۲) الخصائص ج ۲ ص ۲۹.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۵۵، ۵۶.

(۴) مشكلات حياتنا اللغوية ص ۳۴.

(۵) المصدر السابق ص ۴۱، ۴۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۰۵

المعاجم اللغوية

عنى السيوطى بالحديث عن جمع اللغة، و عرض فى هذا الحديث بدراسة لأهم المعاجم اللغوية، بحيث تعد دراسته أقدم دراسة للمعاجم العربية، و قد اعتمد عليها بعض من تناول الموضوع من بعده «١».

و قد بدأ السيوطى بالحديث عن كتاب العين فهو أول معجم لغوى، و قد أورد انتقادات اللغويين له، و إنكار نسبته إلى الخليل لما تخلله من خلل أو تصحيف، و قد قام السيوطى كما حكى عن نفسه بمطالعة كتاب العين فرأى «وجه التخطئة فيما خطئ فيه غالبه من جهة التصريف و الاشتقاق كذكر حرف مزيد فى مادة أصلية أو مادة ثلاثية فى مادة رباعية و نحو ذلك، و بعضه ادعى فيه التصحيف، و أما أنه يخطأ فى لفظه من حيث اللغة بأن يقال: هذه اللفظة كذب أو لا تعرف فمعاذ الله، لم يقع ذلك» «٢».

و نحن هنا نلاحظ اهتمام السيوطى نظرا لطبيعته النقلية الحديثية بناحية الثبوت الصحيح للغة، و من هنا فهو يوثق كتاب العين من هذه الناحية، و هذه النظرة هى التى تحكم دراسته لجمع اللغة، و قد تحدث عن كتاب العين و ترتيبه، و اهتم بالحديث عن رواته و من تحمله عن الخليل، ثم خلص بعد ذلك إلى تناول معجم الجمهرة لابن دريد و قد نسج صاحبه على منوال العين، و قد نقل السيوطى بعض مقدمة الكتاب التى يبين فيها صاحبه هدفه من مؤلفه، ثم أورد انتقاد ابن جنى لكتاب الجمهرة لاضطرابه من حيث أبنية التصريف، و نبه السيوطى على أن مقصود ابن جنى أن الاضطراب «من حيث أبنية التصريف و ذكر المواد فى غير محالها كما تقدم فى العين» «٣»، و هو بذلك يريد أن يدفع توهم (١) د. حسين نصار: المعجم العربى نشأته و تطوره ص ٤.

(٢) المزهر ج ١ ص ٨٦.

(٣) المزهر ج ١ ص ٩٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٠٦

الاضطراب من حيث وثاقه المادة اللغوية، و لذلك نجده يدافع عن ابن دريد و يرد على هجوم الأزهرى الذى رماه بافتعال اللغة قاتلا: «معاذ الله هو برىء مما رمى به، و من طالع الجمهرة رأى تحزيه فى روايته ... و لا يقبل فيه طعن نفظويه لأنه كان بينهما منافرة عظيمة و قد تقرر فى علم الحديث أن كلام الأقران فى بعضهم لا يقدر» «١».

و السيوطى بذلك يصب عنايته على وثاقه المادة اللغوية و صحتها، و قد جره ذلك إلى الحديث عن نسخ الجمهرة، و ذكر أنه ظفر بنسخة منها قرئت على ابن خالويه بروايته لها عن ابن دريد، و السيوطى بذلك قد وقف على نسخة صحيحة من الجمهرة «٢». ثم أشار السيوطى إلى كتب اللغة: ما كان عاما فى أنواع اللغة و ما كان خاصا فى نوع منها كالأجناس للأصمعى و النوادر و اللغات لأبى زيد، و النوادر للكسائى و التهذيب للأزهرى و المجمل لابن فارس، و قد ذكر عددا كبيرا من هذه الكتب، ثم ذكر أن أول من التزم الصحيح من اللغة مقتصر على هو الجوهرى فى كتابه الصحاح و قد ذكر السيوطى أنه فى اللغة يقابل الصحيح فى الحديث للبخارى «٣»، و قد تحدث السيوطى عن هذا الكتاب و ما قيل فيه، و ما وضع عليه من الحواشى، ثم ذكر أن ابن فارس معاصر الجوهرى قد اقتصر أيضا على الصحيح فى المجمل «٤»، ثم ذكر أن أعظم ما ألف فى اللغة بعد عصر الصحاح كتاب المحكم لابن سيده يتلوه كتاب العباب للصغاني، يليهما القاموس «٥» للفيروز آبادى و قد نقل السيوطى بعض مقدمة القاموس.

و قد عرض السيوطى بذلك - على طريقته - للمعاجم اللغوية و تدرجها التاريخى حتى عصره، و قد حاول أن يجمع فى حديثه بين الترتيب الموضوعى (١) المصدر السابق ج ١ ص ٩٣، ٩٤.

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٩٥.

(٣) المزهر ج ١ ص ٩٧.

(٤) المزهر ج ١ ص ٩٩.

(٥) المزهر ج ١ ص ١٠٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٠٧
و الترتيب الزمنى كما أنه كان يعنى العناية الكبرى بوثاقه المادة اللغوية و صحتها نظرا لطبيعه منهجه الثقلى الحديثى الذى يصب عنايته على النقول و صحة الأسانيد، و هذه النظرة إلى اللغة إنما أتتها من كونها لغةً يعتمد عليها فى تفسير القرآن و الحديث و استنباط الأحكام الشرعية، و نظرا لصلتها الوثيقة بالدين بصفة عامة، مما جعل القوم يهتمون بالحديث عن صحتها و ثبوتها و وثاقتها.
جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٠٨

اثبات الأسماء بالقياس

تناولت فى بحثى عن ظاهرة القياس هذا الموضوع بشىء من التفصيل و قد بينت أنه من مباحث الأصوليين الهامة، كما وجدت له إشارات هامة لدى اللغويين، و هو يقوم على أمرين: أولهما النظر فى بعض الأسماء لمعرفة المعنى الذى اشتق منه الاسم أو وضع له، و ثانيهما إذا ما تحقق هذا المعنى فى اسم غير الاسم السابق أمكن إطلاق الاسم الأول على الاسم الثانى على اعتبار أن هذه التسمية حقيقية و ليست من قبيل المجاز.

و هم يمثلون لهذا القياس باثبات اسم الخمر للبيذ على أساس أنها تسمية حقيقية لغوية، و ليست تسمية مجازية، ذلك أن الخمر إنما سميت خمرا لأنها تخمر العقل، و قد تحقق هذا المعنى فى النبيذ فأمكن إطلاق اسم الخمر عليه «١».

و قد تبين لى أن جمهور الأصوليين و اللغويين ينكرون ثبوت اللغة بالقياس على النحو السابق حتى ابن فارس - الذى حاول أن يطرد الاشتقاق فى اللغة و أن يرد ألفاظها إلى معان مشتركة، فقرر أن «للغة العرب قياسا و أن العرب تستق بعض الكلام من بعض .. إلى آخره» «٢»، و طبق هذه الفكرة فى معجمه مقييس اللغة - لم يجز هذا النوع من القياس بل قرر أنه «ليس لنا اليوم أن نخترع فى اللغة و لا أن نقول غير ما قالوه و لا أن نقيس قياسا لم يقيسوه لأن فى ذلك فساد اللغة و بطلان حقائقها، و نكتة الباب أن اللغة لا تؤخذ قياسا نقيسه الآن نحن» «٣».

و قد أورد السيوطى فى الحديث عن هذا الموضوع نقولا عن بعض الأصوليين توضح إنكارهم لثبوت اللغة بالقياس و هجومهم على من يقول بهذا الرأى، (١) المستصطفى ج ١ ص ٣٢٢.

(٢) الصحابى فى فقه اللغة ص ٣٣

(٣) الصحابى فى فقه اللغة ص ٣٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٠٩

فنقل عن الكيا الهراسى و ابن برهان و إمام الحرمين و الغزالى نقولا ينكر فيها أصحابها ثبوت اللغة على هذا النحو.
و الواقع أن موقف هؤلاء صحيح تماما، و هو ما كانت له السيادة فى البيئتين الأصولية و اللغوية، ذلك أنهم لاحظوا أن اللغة لا يطرد فيها تسمية الأشياء بحسب المعانى، فالبنج لا يسمى خمرا و إن كان يخامر العقل، و الدار لا تسمى قارورة و إن كانت الأشياء تستقر فيها، كما أن الواقع اللغوى الذى يرى اللغة ظاهرة اجتماعية قائمة على الاصطلاح و المواضع بين أبناء المجتمع يثبت أن معانى الألفاظ إنما حددها ما تعارف عليه المجتمع، و أن تطور الدلالات أو تغييرها تعميما أو تخصيصا أو تضادا يخضع لقوانين معينة ليس من بينها هذا القياس العقلى النظرى المجرد، و لذلك فلقد أصاب القدماء فى إنكارهم ثبوت اللغة على النحو السابق لأنه تعميم للدلالة أو تغيير لها دون وضع اعتبار لما تعارف عليه المجتمع الناطق لها من تعيين كل لفظ بازاء دلالة معينة، و دون أن يكون هذا التغيير حادثا عن طريقه الطبيعى، و لذلك فقد نص هؤلاء المنكرون على أن اللغة إنما تثبت نقلا عن العرب.

و ليس هذا المبحث كما يبدو مبحثا نظريا عقليا تماما، بل هو مبحث عملى يهتم به الأصوليون لصلته بالحكم الشرعى و احتمال تغييره

تبعاً لتغير مدلول اللفظ أو تعميم هذا المدلول أو تخصيصه، فمن يسمى النبيذ خمراً للتحقق معنى المخامرة فيه يدخله فى عموم قوله صلى الله عليه و سلم: «حرمت الخمر لعينها»، و لذلك فانكارهم ضرورى لتفسير نصوص القرآن و السنة المتصلة بالأحكام الشرعية بحسب الدلالات التى كانت لألفاظها أو ان البعثة و قبل أن يطرأ تغير أو تطور لهذه الدلالات، ذلك أن هذا القياس مبناه على تعميم دلالات خاصة فكأنه يعطى بعض الألفاظ ما لم يكن لها و ما لم يعرفه المجتمع الناطق لها، و فى ذلك خطورة على النص الشرعى.

و يتصل بحث هذا الموضوع بنشأة اللغة فقد يتصور أن من يقول بكونها مواضعه و اصطلاحاً يمكن أن يجيز هذا النوع من القياس، و من يقول بالتوقيف لا يجيزه، و لكن الحقيقة أننا لا نرى من بين القائلين بالمواضعه أو المتوقفين فى

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣١٠

نشأة اللغة من ينتصر لهذا القياس و يرى ثبوت الألفاظ به، و هو ما عبر عنه السيوطى بانكار جواز قلب اللغة «١»، و فى هذا دلالة على النظرة الواقعية إلى حد كبير فى اللغة، ذلك أن حقيقة إنكار هذا النوع من القياس فضلاً عن صلته بالأحكام الشرعية تكمن فى أن هذه الألفاظ لم يتح لها من تعارف مجتمع الناطقين بها ما يسوغ استعمالها، فاللغة مواضعه بين جميع الناطقين و هى من صنع المجتمع، و ليست من صنع فرد أو مجموعة من الأفراد.

إن بحث القدماء لا سيما الأصوليين لهذا الموضوع يؤكد إدراكهم الصحيح لعرفية اللغة، و أن دلالات ألفاظها عرفية لا يجوز للعقل أن يتدخل فى تغييرها أو تبديلها و لذلك يكثر عند الأصوليين أن يقولوا «لا مجال للعقل فى اللغات» أو «لا قياس فى اللغات» و هم يعنون ما بيناه من تأكيد هذه العرفية، و يدحض ما يتوهمه بعض الدارسين المحدثين الذين يتصورون أن المعنى عند الأصوليين عقلى. (١) الاقتراح فى علم أصول النحو ص ٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣١١

الفصل الثانى

النحو

إشارة

أريد بهذا الفصل أن يكون إكمالاً لحديثنا السابق عن لغوية السيوطى، فالصلة بين اللغة و النحو جد وثيقة، و قد فهم النحاة العرب هذه الصلة التى يتضح منها أن النحو يبدأ عمله من حيث ينتهى اللغوى، و لكنهما يلتقيان فى مرحلة من المراحل، و يكاد يكون بحثهما واحداً، و قد حدد عبد اللطيف البغدادى الفرق بينهما بقوله: «اعلم أن اللغوى شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب و لا يتعداه، و أما النحو فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوى و يقيس عليه، و مثالهما المحدث و الفقيه، فشان المحدث نقل الحديث برمته، ثم ان الفقيه يتلقاه و يتصرف فيه، و يبسط فيه علله، و يقيس عليه الأمثال و الأشباه» (١).

و قد أغفل هذا التحديد جانبا هاماً من عمل اللغوى، و هو وصف الظواهر اللغوية المتعلقة بالأصوات و الدلالات و الأبنية و غيرها مما سبق لنا بيانه و الحديث عنه، كما أن مهمة النحو تبدأ بالثبوت من صحة المنقول من اللغة، و كأنه بذلك يشارك اللغوى نفس مهمته، و قد عرف عن كثير من النحاة مشاركتهم فى رواية اللغة و بصرهم بها فضلاً عما قاموا به من جهود نحوية كبيرة.

و إذا كان ثمة تداخل بين ما يقوم به اللغوى و بين ما يقوم به النحو، و إذا كان مفهوم الدراسة اللغوية فى عصرنا قد أصبح أعم و أوسع من مفهوم هذه الدراسة عند القدماء، حيث أصبح اللغويون المحدثون يتناولون نحو معظم اللغات تحت موضوعين أساسيين هما المورفولوجيا ygolohprom و النظم xatnys، و هما فرعان أو مستويان من مستويات الدراسة اللغوية التى تضم (١) المزهرج ١

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣١٢
إليهما الدراسات الصوتية و المعجمية و الدلالية، بالإضافة إلى القضايا اللغوية العامة، إذا كان هذا هو مفهوم الدراسة اللغوية الحديثة فإننا نريد بهذا الفصل دراسة المستوى النحوى الذى يشمل أيضا الدراسة الصرفية. و سنبداً بالتعريف بآثاره النحوية بصفة عامة لنصل بعد ذلك إلى دراسة جهوده فى النحو و أهمها دراسته لأصول النحو التى كان له فيها جهد كبير و فضل لا ينكر، ثم نحاول تبين مذهبه النحوى من خلال آرائه المتناثرة فى كتبه فضلاً عما نسترد به من أفكار تتصل ببيئته و شيوخه و تكوين منهجه مما عرضنا له من قبل.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣١٣

آثاره النحوية

إشارة

عدد السيوطى لنفسه ثلاثين مصنفاً فى فن العربى و تعلقاته «١»، بيد أنه لم يستوف بذلك جميع ما نسب إليه، و قد وقفت على جملة صالحه من هذه الآثار ما بين مطبوع و مخطوط، و لا أرى بأساً فى أن أتناول هذه الآثار بالتعريف، و يبدو أن ما لم يذكره مما نسب إليه قد أتمه بعد كتابه ترجمته التى سرد فيها أسماء كثير من مصنفاته.
و يضرب السيوطى بمؤلفاته النحوية أمثلة لجميع أنواع التصنيف التى عرفت فى عصره، فقد نظم النحو فى ألفية أراد بها أن يفوق ألفية ابن مالك، و له موشحة فى النحو، و جملة من الحواشى و الشروح بعضها على متون أو منظومات له، و بعضها على منظومات أو متون لغيره، بالإضافة إلى جملة من المصنفات و الرسائل فى بعض المسائل الجزئية.
و قد حاول بمؤلفاته أن يطرق جميع الجوانب النحوية، و أن يسد الفراغ الذى رآه فى بعض هذه النواحي، فقد صنف فى الأصول، و فى نشأة النحو، و حاول أن يجارى سابقه فى بعض المصنفات كشرح الألفية، و أن يستقل عنهم فى بعضها كجمع الجوامع و شرحه همع الهوامع، كما وضع مصنفاً نحويًا على نمط مصنفات الفقه و هو الأشباه و النظائر و سنعرض فيما يلى لهذه الآثار:

١- الأخبار المروية فى سبب وضع علم العربية:

(طبعت مع مجموعة التحفة البهية و الطرفة الشهية من ص ٤٩-٥٣).

رسالة صغيرة له أورد فيها الروايات التى تتحدث عن بداية اللحن فى زمن الصحابة، و بداية التفكير فى وضع أصول لضبط القراءة و الكلام، و هذه النقول (١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٣-١٩٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣١٤

بعضها ينسب إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه بداية التفكير فى وضع النحو، و بعضها ينسب هذه النشأة إلى أبى الأسود أو إلى غيره من طبقة تلاميذه، و قد اختتم بالحديث عن وضع الصرف و نسبة أوليته إلى معاذ بن مسلم الهراء.

و تبدو فى هذه الرسالة عناية السيوطى بمحاولة تحديد نشأة النحو، بيد أنه يطبق منهجه النقلى فى هذه الرسالة فهو لا يبدى تعليقا على أحد هذه النقول، و لم ينتقد سوى الوهم الذى وقع فيه شيخه الكافيجى من نسبة الصرف إلى معاذ بن جبل رضى الله عنه، حيث ذكر السيوطى أن صحة هذه النسبة أن تكون إلى معاذ بن مسلم الهراء.

٢- الأشباه و النظائر فى النحو:

(مطبوع: حيدرآباد ١٣١٨ هـ).

بين السيوطى فى مقدمته كتابه أن السبب الحامل له على وضع هذا الكتاب هو أن يسلك بالعربية سبيل الفقه على مثال ما صنفه المتأخرون من الفقهاء من كتب الأشباه و النظائر، و قد تحدث السيوطى عن أنواع الموضوعات الفقهية التى تناولتها المصنفات الفقهية، و بين أن هذه الأنواع قد اجتمعت فى كتاب «الأشباه و النظائر» لتاج الدين السبكى، و قارنه بغيره من مصنفات الفقهاء التى لم تستوف جميع الموضوعات. و قد أراد السيوطى لكتابه هذا أن يسير على منهج كتاب السبكى الموضوع فى الفقه و قد صرح بذلك فى قوله: «و هذا الكتاب الذى شرعنا فى تحديده فى العربية يشبه كتاب القاضى تاج الدين الذى فى الفقه فإنه جامع لأكثر الأقسام، و صدره يشبه قواعد الزركشى، من حيث إن قواعده مرتبة على حروف المعجم» (١).

و قد رتب السيوطى كتابه على سبعة فنون الأول: فن القواعد و الأصول التى ترد إليها الجزئيات و الفروع و هذا مرتب على حروف المعجم، و هو معظم الكتاب، و قد تناول فيه كثيرا من مباحث النحو كالاشتقاق و الشرط و الاضافة و غير ذلك، و هذا القسم يستغرق الجزء الأول من الكتاب.

و قد وضع لكل قسم من هذه الأقسام السبعة عنوانا مستقلا قدم له بخطبة (١) الأشباه و النظائر ج ١ ص ٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣١٥

فسمى القسم الأول «بالمصاعد العلية فى القواعد النحوية» و قد اكتفى فى التقديم له بالخطبة الأولى للكتاب.

و الثانى: فن القواعد الخاصة و الضوابط و الاستثناءات و هو مرتب على الأبواب لاختصاص كل ضابط ببابه فبدأ بباب الكلمة ثم باب الاسم فباب الفعل و هكذا، و وضع له اسما هو «التدريب» و قد استغرق- فى هذه الطبعة- من بداية الجزء الثانى إلى صفحة ١٠٣ من الجزء نفسه.

و الثالث: بناء المسائل بعضها على بعض و قد سماه «بسلسلة الذهب فى البناء من كلام العرب»، و يستغرق هذا القسم من ص ١٥٣ بالجزء الثانى إلى ص ١٧١ و قد أشار فى المقدمة إلى أنه ألف من قبل فى هذا الموضوع تأليفا لطيفا سماه «السلسلة» مقتفيا أثر الجوينى الذى صنف فى الفقه فى هذا الموضوع بنفس الاسم و الزركشى الذى صنف فى الأصول باسم «سلاسل الذهب»، و لا نشك فى أن ما أورده السيوطى هنا هو نفس مصنفه القديم مع بعض زيادات قد أضافها.

و قد بدأ السيوطى هذا الفن بالكلام على بناء فعل الأمر فهو مبنى عند البصريين و معرب مجزوم بلام محذوفه عند الكوفيين، و الخلاف هنا مبنى على الخلاف فى ثلاث مسائل الأولى: هل الاعراب أصل فى الفعل؟، و الثانية: هل يجوز إضمار لام الجزم؟ و الثالثة: هل الأمر صيغة مستقلة بنفسها مرتجلة ليس أصلها المضارع أو هى صيغة مغايرة و أصلها المضارع؟.

الرابع: فى الجمع و الفرق و قد سماه «اللمع و البرق فى الجمع و الفرق»، و يستغرق من ص ١٧١ من الجزء الثانى إلى ص ٢٤٤ من نفس الجزء، و قد بين فيه جملة فروق كالفرق بين ضمير الشأن و سائر الضمائر.

الخامس: الألغاز و الأحاجى و المطارحات و الممتحنات و قد سماه «الطراز فى الألغاز»، و يشمل من ص ٢٤٥ إلى آخر الجزء الثانى ص ٣٢٣.

السادس: فى الأفراد و الغرائب، و قد سماه «التبر الذائب فى الأفراد و الغرائب» و يستغرق من بداية الجزء الثالث إلى ص ١٤ منه.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣١٦

و السابع: المناظرات و المجالسات و المذاكرات و المراجعات و المحاورات و الفتاوى و الوقاعات و المكاتبات و المراسلات، و يشمل من ص ١٥ بالجزء الثالث ثم جميع الجزء الرابع إلى نهاية الكتاب.

والذى يعيننا مما سبق بيان تأثير السيوطى بالعلوم الاسلاميه تأثرا كبيرا بحيث تركت هذه العلوم أثرها فى عقله و منهجه فى التفكير و التأليف، و قد سبق أن بينت أن الحديث و الفقه و العربية هى الفنون الثلاثة التى أجادها السيوطى و بلغ فيها درجة الاجتهاد، و قد تبين لنا من قبل أثر الحديث و مناهج المحدثين فى كتابه المزهر الذى حاول فيه وضع أصول لتقيد الرواية اللغوية تحاكي أصول الحديث، و هنا يتبين جانب آخر من آثار هذه العقلية الاسلامية الخالصة التى تمثلت العلوم الاسلامية فى محاولة تصنيف المسائل النحوية على نمط المسائل الفقهية.

و لقد كان السيوطى يدرك الصلة بين النحو و الفقه و سنتحدث بعد قليل عن جهوده فى أصول النحو التى تحاكي أصول الفقه، و هو هنا يطبق هذه الصلة بين فروع النحو و بين فروع الفقه، و قد نقل عن ابن الأبارى ما يؤكد هذه الفكرة، و هى أن «النحو معقول من منقول كما أن الفقه معقول من منقول» (١).

و تطبيق السيوطى منهج المحدثين فى رواية اللغة، و منهج الأصوليين فى وضع أصول للنحو، و منهج الفقهاء فى تصنيف فروع اللغة و مسائلها و ربطه فى جميع ذلك بين اللغة و بين علوم الحديث و الفقه و الأصول يلفتنا إلى فكرة هامة سبق أن أشرنا إليها و هى أن نظرتة و نظرة القوم إلى اللغة كانت تحمل فى طياتها كثيرا من التحرج و العناية و التحقيق الذى نجده فى نظرتهم إلى العلوم الدينية، و كان تناول اللغة يتخذ منطلقه من هذه الزاوية.

٣- الاقتراح فى علم أصول النحو:

(مطبوع، رجعت إلى الطبعة الثانية حيدرآباد ١٣٥٩ هـ).

يعد أهم مصنفات السيوطى فى النحو، و من أهم مصنفاته على الاطلاق، (١) الأشباه و النظائر ج ١ ص ٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣١٧

و سنتناوله بشيء من الدرس المفضل بعد قليل حين نتحدث عن علم أصول النحو لتبين دور السيوطى فى إقامة دعائم هذا العلم

٤- الفريدة:

(و هى الألفية النحوية للسيوطى، طبعت بالقاهرة عام ١٣٣٢ هـ)، و بصدرها عبارة منسوبة للسيوطى و هى «هذه الألفية لخصت فيها ما فى ألفية ابن مالك فى ستمائة بيت و زدتها أربعمائة بيت من القواعد و الزوائد ما لا يستغنى طالب العلم عنه»، و قد وضح ما زاد، فى منظومته على ابن مالك بوضعه بين قوسين، و يبدو أن ذلك التقييم منقول عن النسخة الأولى التى كتبها السيوطى، و قد وقفت على صحة نسبة العبارة السابقة إليه (١).

أراد السيوطى لمنظومته أن تزيد على منظومة ابن مالك التى قدّر لها من الشيوخ و الشهرة ما لم يقدر لغيرها من المنظومات النحوية، و قد قدم لها بمقدمة منظومة حمد الله فيها و صلى على نبيه و أشار إلى أهمية علم النحو ثم قال:

فهذه ألفية فيه حوت أصوله و نفع طلاب نوت

فائقة ألفية ابن مالك لكونها واضحة المسالك

و جمعها من الأصول ما خلت عنه و ضبطت مراسلات أهملت

ترتيبها لم يحو غيرى صنعه مقدمات ثم كتب سبعة

و هكذا صرح بأنه أراد أن يفوق ما قام به ابن مالك ثم بين ترتيب المنظومة فى مقدمات ثم سبعة أبواب يشمل كل منها جملة من

الفصول، و يتفق هذا الترتيب مع ترتيب ألفية ابن مالك فى كثير من الأحيان، و لا يتخلف إلا فى أحيان قليلة، ففى المقدمات تناول السيوطى الكلام و ما يتألف منه، و المعرب و المبنى، و النكرة و المعرفة، و العلم و أسماء الاشارة، و المعرف بالأداة، و الموصول، ثم الموصول الحرفى، و هذه الفصول هى نفس ما تناوله ابن مالك فى الألفية بيد أنه تحدث عن الموصول قبل المعرف بالأداة، كما أنه لم يتناول الموصول الحرفى، فهو من زيادات السيوطى على ابن مالك فى ألفيته. (١) ذكر السيوطى هذه العبارة أثناء شرحه على الألفية: المطالع السعيدة (مخطوط) ورقة ٥ ص ١٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣١٨
و خصص السيوطى الكتاب الأول للعمد و هى المرفوعات و المنصوبات بالنواسخ، و الثانى للفضلات، و الثالث للمجرورات و المجزومات و ما يتبعها، و الرابع للعوامل، و الخامس للتوابع، و السادس للأبنية، و السابع للتصارييف، و اختتم الألفية بخاتمه فى الخط، و نلاحظ أن هذا الترتيب هو نفس ما وضعه السيوطى فى كتابه جمع الجوامع الذى شرحه بهمع الهوامع.
و قد اقتضى هذا الترتيب من السيوطى ألا يتبع نفس ترتيب ألفية ابن مالك، بيد أنه تناول نفس الأبواب التى تناولها ابن مالك فى منظومته مع اختلاف يسير فى تسمية بعضها، و زيادة فصول قليلة.

و قد أراد السيوطى بمنظومته أن يستدرك ما فات ابن مالك أو أن يفصل ما أجمله فهو يزيد على ما أوضحه ابن مالك فى حديثه عن أقسام الكلمة إلى اسم و فعل و حرف يقول:
فان على معنى بها قد دلت و اقترنت بأحد الأزمنة
فعل و إلهى اسم و التى بغيرها حرف وسم بالفضلة
و ليس السيوطى سابقا بهذا فكثير من شروح الألفية التى سبقته قد نصت عليه، و لكن منظومه ابن مالك لم تنص على هذا المعنى.
و الحق أن هذه المنظومة تدل على شخصية السيوطى النحوية و قد عنى هذه الزيادات و الاستدراكات أو التغييرات التى قام بها عناية تامة و واعية، و قد نبه على ذلك فى شرحه الذى وضعه لهذه الألفية، كما نبه عليه فى كتابه «النكت»، و إكمالاً للقول فى ألفية السيوطى يحسن أن نعرف بشرحها الذى وضعه لها و عنوانه:

٥- المطالع السعيدة فى شرح الفريدة:

(مخطوط ضخمة الحجم بالخزانة التيمورية برقم ٥٨١ نحو، بدار الكتب المصرية).
بدأ السيوطى شرحه بحمد الله و الصلاة على نبيه ثم بين أنه تعليق على ألفيته المسماة بالفريدة و وصفه بأنه «كثير الفوائد العديدة و جم الفوائد المفيدة» (١)، ثم (١) المطالع السعيدة ورقة ١ ص ٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣١٩

أورد البيهين اللذين افتتح بهما ألفيته و هما:

أقول بعد الحمد و السلام على النبى أفصح الأنام

النحو خير ما به المرء عنى إذ ليس علم عنه حقا يغتنى

ثم أتبعهما بشرح مستفيض للبيت الأخير تناول فى هذا الشرح ثلاثة موضوعات أولها فى فضل النحو و الحث على تعلمه فأورد جملة من الآثار فى ذلك، ثم تحدث عن نشأة النحو و أول من نسب إليه وضع النحو، و قد نقل كثيرا من الروايات و ذكرها بأسانيدها، و كثير منها هى نفس النقول التى أوردها فى رسالته السابقة عن سبب وضع علم العربية، ثم تحدث عن الحاجة إلى تعلم النحو، و أن المفسر يشترط أن يكون مجيدا لعلم النحو و كذلك المحدث و الفقيه و الأصولى و البلاغى و الأديب، و استشهد على ذلك بجملة

من النقول، و عقب عليها بقوله: و بهذا الذى بيناه عرف تقدير قولى: «إذ ليس علم عنه حقا يغتنى»، و قد استغرقت هذه الموضوعات التى تعد مقدمة لشرحه النحوى نحو عشر صفحات تميز أسلوبه فيها بالوضوح و السلاسة، و تميزت نقوله بالتعبير المصيب المناسب. و أخذ السيوطى يورد أبيات الألفية مجزأة، و أتبعها بالشرح و البيان، و الحق أن أسلوبه فى شرحه أسلوب سهل شديد الوضوح ليس فيه جفاف أساليب بعض النحاء، مع عناية بالحصر و التفصيل و الاستدراك على السابقين، و تنسيق الأقوال المختلفة، و قد نص فى شرحه على ما سبق ذكره من تلخيصه جميع ما فى ألفية ابن مالك فى ستمائة بيت و زاد عليها بأربعمائة بيت: «فيها من القواعد و الفوائد و الزوائد ما لا يستغنى طالب النحو عنه، فبذلك فاقت ألفية ابن مالك، و فاقتها أيضا بالتنبيه على قيود أهمل ابن مالك ذكرها، و بكونها أوضح عبارة من عبارة الألفية» (١).

و الواقع أن السيوطى ليس مدعيا فيما يذهب إليه، فقد زادت ألفيته تفصيل بعض ما أغفله ابن مالك، كما أن نظمه أقرب إلى الفهم من نظم ابن مالك. (١) المطالع السعيدة ورقة ٥ ص ١٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٢٠

و الشرح- بطبيعة الحال- يتبع الأصل المنظوم فى تقسيمه إلى مقدمات و سبعة كتب، و قد جنح السيوطى إلى هذا التقسيم تيمنا بالحديث: «إن الله و تر يحب الوتر، أما ترى السّماوات سبعا و الأيام سبعا و الطواف سبعا» (١)، و سنراه يكرر نفس التقسيم فى كتابه جمع الجوامع الذى شرحه بهمع الهوامع.

و يميل السيوطى فى هذا الشرح إلى البسط و الاطناب فى القول فحين يشرح عبارته «كلامنا لفظ مفيد يقصد» يبدأ ببيان الدلالة اللغوية للكلام فيذكر أن الكلام يطلق على ستة أشياء هى الخط و الاشارة المفهومة، و ما يفهم من الحال، و التكليم، و ما فى النفس من المعانى، و اللفظ و إن كان غير صالح للسكوت عليه، و بازاء كل عنصر من هذه العناصر يفيض فى الشرح و الاستشهاد بالأقوال شعرا و نثرا، ثم يحدّ الكلام فى الاصطلاح و يذكر أن أحسن الحدود أنه «قول مفيد مقصود»، و يناقش ما يتصل بهذا الحد بأسلوبه كما يستشهد بغيره (٢)، و كل ذلك يتصل بتعريف الكلام فى اللغة و الاصطلاح، أما تعريف الكلمة فيتناوله بعد أن يذكر قوله: «و عندنا الكلمة قول مفرد»، و يذكر بيتين بعده نص على أنهما و هذا الشطر من زياداته على الألفية، و هنا يبدأ ببيان ما تطلق عليه «الكلمة» فى اللغة و الاصطلاح، ثم يشرح البيتين اللذين يحد بهما الاسم و الفعل و الحرف.

و لا تفتأ بين حين و آخر ترى مزج السيوطى الدرس النحوى الذى يعنى بوضع القواعد و الضوابط و مناقشة الحدود و المصطلحات و العلل بما أفاده من درس اللغة و النظر فى صيغها و أبنيتها و وصف ظواهرها، و محاولة حصر بعض الفصائل اللغوية، فحين يتحدث عما يلزم البناء على الكسر يذكر من بين ذلك ما كان على وزن «فعال» و هو اسم فعل أمر كترال و دراك، أو فعال و هو علم مؤنث كحذام و قطام، و فعال و هو نسب للمؤنث مثل يا خباث، حين يتحدث عن هذه الصيغة يذكر أن الصغاني قد ألف كتابا فيما ورد من فعال المبنى على الكسر من الأنواع الثلاثة فى اللغة، و أنها بلغت مائة و ثلاثين لفظة، و قد أوردها (١) المطالع السعيدة ورقة ٥ ص ١٠.

(٢) المطالع السعيدة ورقة ٥، ٦ ص ١٠-١٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٢١

السيوطى مصنفة بحسب الأقسام السابقة (١).

و هذا الاتجاه نحو الحصر اللغوى فى مثل هذه الحالات لا- نكاد نجده فى كتب النحو المعروفة لدينا، و هناك عديد من الأمثلة يلاحظها القارئ بالشرح تفيد و تؤكد هذا الاتجاه عنده من ذلك ما ذكره فى المثنى من ألقاظ التغليب التى تصلح للتجريد و لا يصح عطف مثلها عليها كالقمرين للشمس و القمر، و العمرين لأبى بكر و عمر، و العمرين لعمر بن جابر و بدر بن عمر... إلى آخر ما أورده محاولا حصره فى اللغة (٢)، و حين تحدث عن الأعلام الأعجمية تطرف إلى كيفية معرفة عجمة الاسم و هو ما سبق أن عرضه بالمزهر ببحث المعرب (٣).

و يتضح فى هذا الشرح تأثره بالنحاة المتأخرين لا سيما نحاة مصر الذين سبقوه بقليل فقد تأثر بأبى حيان و نقل عنه كثيرا، كما تأثر غاية التأثر بابن هشام، و له اختيارات يميل فيها إلى ما ينسب لهما، و هذا يدلنا على تأثر نحاة مصر المتأخرين بمذهب الأندلسيين، و اتجاه النحو فى مصر وجهه ذات طابع خاص يحس بها من ينظر فى كتب هذه الطائفة من النحاة، و سنين ذلك بعد.

و قد أفاد فى شرحه بما قام به ابن هشام فى مصنفاته فنراه مثلا يتبعه فى تقسيم المبنى و يصرح بذلك قائلا: «اعلم أنى سلكت فى هذه الألفية أحسن المسالك، و أوردت فيها محاسن كل كتاب، و قد قسم ابن هشام فى الشذور المبنى تقسيما غربيا لم يسبق إليه و جعله على أقسام، و قد تبعته على ذلك الباب» (٤)، بيد أن أسلوب السيوطى فيما عرضه يتميز بالوضوح و السلاسة و الإيجاز و كثرة الأمثلة، على حين يكثر ابن هشام فى هذا الباب من الاستطراد.

و بالرغم من كثرة النقول التى تعود للسيوطى أن يوردها فى مصنفاته فاننا (١) المطالع السعيدة ورقة ١٠ ص ١٩.

(٢) المطالع السعيدة ورقة ١٣ ص ٢٥.

(٣) المطالع السعيدة ورقة ١٨ ص ٣٦.

(٤) المطالع السعيدة ورقة ٨ ص ١٦، شذور الذهب ص ٦٨ و ما بعدها.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٢٢

نحس هنا بصفة خاصة انتقاءه لهذه النقول و انتقاده لها، و وضوح موقفه منها، أو نقدها من حيث صحتها، فحين ينقل عن البدر الدمامينى رأيا فى «غير» منسوباً للسيرافى لا يلبث أن يذكر أنه رأى فى كلام السيرافى ما يخالفه (١).

و إذا كان ضيق المكان يحتم علينا أن نجمل حكمنا على هذا الشرح، فانه لا يسعنا بعد ما قدمنا من أوصافه إلا أن نقرر أنه من أبسط الشروح النحوية و أوفاهها، و أكثرها وضوحا و استيفاء، مع ما يتميز به من تناول كثير من المسائل التى أغفلها النحويون و بالرغم من حرصه على ذكر كثير من العلل النحوية فانه يوردها بأسلوب واضح قريب المأخذ.

٦- شرح ألفية ابن مالك،

يسمى «التهجئة المرضية فى شرح الألفية» سبق لنا أن بينا فى حديثنا عن الحياة الثقافية فى مصر عناية القوم بالمتون و الشروح، و ذكرنا أن مما حظى بتوفر الشراح عليه منظومة ابن مالك المعروفة بالألفية، و قد ترسم السيوطى خطى هذا العرف السائد فى عصره، فتناول هذه المنظومة التى شرحها من قبل كبار النحاة، و أشهر شراح الألفية قبل السيوطى ابن عقيل (٧٦٩هـ) و يمتاز شرحه بالسهولة و الوضوح و البعد عن التعقيد، و قد تتبع فى شرحه نظم ابن مالك بالبيان منبها فى قليل من الأحيان على ما يخالفه، و فى أكثر الأحيان يوافق ابن مالك و يدفع عنه هجوم ابنه عليه، و قد عاصره ابن هشام (٧٦١هـ) الذى ألف كتابه «أوضح المسالك» و لم يلتزم فيه بنص الألفية بل تناول موضوعاتها، و نبه فى حديثه على ما يوافق ابن مالك فيه و ما يخالفه، و قد نص فى مقدمته على ذلك فى قوله: «و ربما خالفته فى تفصيله و ترتيبه» (٢).

و ثم شروح أخرى سبقت السيوطى و شروح لحقته كشرح الأشمونى (٩٢٩هـ)، و لولا ضيق المقام لتناولنا بعضها بالمقارنة بشرح السيوطى، و إنما نكتفى بأن نبين ما تميز به شرحه، و يمتاز هذا الشرح بالتوسط بين الإيجاز و الإطناب، و يعتمد فيه صاحبه إلى بيان مقصود الناظم بعباراته الواضحة مع (١) المطالع السعيدة ورقة ١٠ ص ٢٠.

(٢) شرح أوضح المسالك المسمى بمنار السالك ج ١ ص ٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٢٣

إكثار من الأمثلة، منبها فى بعض الأحيان على بعض ما فات الناظم، و لكنه بصفة عامة لا يخالف الناظم إلا قليلا.

و قد عبر السيوطى عن منهجه فى شرحه بقوله: إنه شرح «يبين مراد ناظمها، و يهدى الطالب إلى معالمها، و لأبحاث منها ربح التحقيق تفوح، و جامع لنكت لم يسبقه إليها غيره من الشروح» (١).

و قد كتب هذا الشرح قبل أن يكتب شرحه على ألفيته التى حاكى بها ألفية ابن مالك و حاول فيها الاستدراك عليه، و لذلك نلاحظ التشابه الكبير بين الشرحين، و يمكن أن نقول إنه فى شرحه المتأخر قد أفاد من شرحه لألفية ابن مالك، و لهذا فإن شرحه المسمى بالمطالع السعيدة جاء فى صورة أقوى و أوضح و أكثر دقة من شرحه على ألفية ابن مالك، و سبب ذلك قيامه به بعد أن استحصدت قوته و قويت ملكته بحيث أفاد من جهوده السابقة، و لا يغض هذا من شأن شرحه على الألفية.

٧- جمع الجوامع و شرحه همع الهوامع:

يعدّ أجمع كتب السيوطى فى النحو، و من أجمع الكتب النحوية على الاطلاق ان لم يكن أجمعها و أوفاهها، فقد احتوى كثيرا من المسائل التى أغفلتها الكتب النحوية كما حرص على ذكر الآراء المختلفة و الأقوال المتنوعة، و لا يكاد يترك موضوعا إلا بعد استيفائه و ذكر جميع الآراء فيه، و بالرغم من حشده بكثير من الأقوال فشخصية صاحبه تبدو واضحة فى عرض الموضوع و تلخيصه و نسبة الأقوال و اختيار أرجحها و تعليقاته لاختياراته المتنوعة.

و مما يدل على ما بذل السيوطى فيه من جهد قوله فى مقدمته: «و جمعته من نحو مائة مصنف فلا غرو أن لقبته جمع الجوامع» (٢).

و قد قسم كتابه إلى مقدمات ثم سبعة كتب، و هو نفس التقسيم الذى اتبعه (١) التهجئة المرضية ص ٢.

(٢) همع الهوامع شرح جمع الجوامع ج ١ ص ٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٢٤

فى «المطالع السعيدة»، و قد نص هنا أيضا على ما ذكره هناك من أنه حذا فى هذا الترتيب حذو كتب الأصول، و فى جعله سبعة أقسام مناسبة لطيفة مأخوذة من حديث ابن حبان «إن الله و تر يحب الوتر ... الحديث» (١).

و قد درج فى كتابه على أن يورد نص متنه منبها عليه بأنه الأصل ثم يتناوله بالشرح، أى أنه يفصل بين المتن و الشرح، و استمر على ذلك إلى بداية الكتاب الثالث فى المجرورات (٢)، فعدل عن هذه الطريقة إلى طريقة المزج و قد نبه على ذلك بما يوضح طريقة شرحه فى سائر الكتاب بقوله: «و اعلم أنى لما شرعت فى شرحه كنت بدأت أولا بشرح النصف الثانى فكتبت من أول الكتاب الثالث إلى أثناء جمع التفسير على طريقة المزج، ثم بدا لى أن أغير الأسلوب، فشرحت من أوله على النمط المتقدم، و كان فى نيتى الاستمرار على هذه الطريقة إلى آخر الكتاب، و الغاء القطعة التى كتبتها أولا ممزوجة، ثم لما ضاق الزمن عن ذلك أبقيت كل قطعة على حكمها، و ضمنت هذه القطعة إلى تلك و وصلت بينهما، و لا يضر كون الشرح على أسلوبين نصفه بلا مزج، و نصفه ممزوج، و نعود هناك إن شاء الله إلى تكملة بقية الكتاب من جمع التفسير إلى آخره على طريقة أوله» (٣).

و هذا الكتاب يمثل بحق نهاية التدرج فى التأليف النحوى، فهو يعد مجسما لعلم النحو بما آل إليه أمره فى البيئه المصرية فى أواخر عهد ازدهارها و نشاطها، و قد احتوى جهود السابقين و أفاد من تجاربهم و درسهم، و عرض به صاحبه محصلة الدرس النحوى بمدارسه السابقة و نحاته المتعددين عرضا متأثرا بالبيئه التى نشأ فيها، و بما آل إليه أمر الدرس النحوى فيها، و بطبيعة هذه البيئه و خصائصها، و ما تفرضه من الوضوح و البسط و حسن التنسيق فى التأليف و ما تؤديه بوصفها وارثه علوم الأجيال السالفة، قائمه على حفظها و تمثيلها و حسن تعهدها. (١) همع الهوامع ج ١ ص ٣.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٩.

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ١٩.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٣٢٥

٨- النكت على الألفية لابن مالك، والكافية والشافية لابن الحاجب، و شذور الذهب و نزهة الطرف لابن هشام:

(مخطوط ضخمة الحجم يقع في ٣٢٨ ورقة أى يستغرق ٦٥٦ صفحة، بدار الكتب برقم ٥٨١٥هـ).

يعد هذا الكتاب دراسة نقدية لهذه المؤلفات النحوية، و لكن هذا النقد يتسم بروح العصر و طابعه، و لذلك فهو حريص على انتقاد التعريفات و الحدود النحوية و المقارنات بينها في محاولة للوصول إلى أكثرها جمعا و منعا، أو أصحها و أدقها و أنسبها من وجهة نظر السيوطي.

و قد وصف السيوطي عمله و منهجه و نظام كتابه بقوله: إنه «نكت حررتها على كتب في علم العربية عم النفع بها و كثر تداولها و هي ... أذكر ما يرد على العبارة مع جوابه إن كان، و أنه على ما اختلف فيه كلام مصنفها في سائر كتبهم المختصرة كالتسهيل و الكافية الكبرى و العمدة و سبك المنظوم لابن مالك، و الوافية لابن الحاجب و القطر الجامع لابن هشام، و أشيع في الكلام بأقصر عبارة، و الأخص فيه متفرقات كلام شراح هذه الكتب، و ما وقفت عليه من تعاليق ابن هشام على الألفية و التسهيل معزوا إليه، و أشير فيه إلى مقاصد الشرح الوجيز الذى وضعته على الألفية، و اتبع فيه ترتيب الألفية في المسائل و الأبواب» (١).

و يتسم الكتاب بطابع الملاحظات الدقيقة التى ينبه عليها السيوطي، و تدل تسميته بالنكت على ذلك، فهو لا يفتأ يفضل عبارة مؤلف على عبارة مؤلف آخر، و لا يفتأ يفضل حدا من الحدود النحوية لمصنف على ما ذكره مصنف آخر معللا ذلك تعليلا يبين أوجه النقص و الكمال، و تبدو شخصية السيوطي واضحة في مناقشة هؤلاء الأئمة من النحاة، و تظهر ثقته بعلمه و أقواله، فهو مثلا بعد أن تناول باب «الكلام و ما يتألف منه» و انتقد حدود النحاة السابقين نقدا مفصلا لا يلبث أن يقول: «إذا علمت ما تقدم تقريره في هذا الباب علمت حسن قولى فى ألفيتى التى سميتها الفريدة: (١) النكت ورقة ١ ص ٢.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٣٢٦

كلامنا لفظ مفيد يقصد و عندنا الكلمة قول مفرد» (١)

ثم يورد أبيات هذا الباب التى ذكرها هناك إلى آخرها منبها بذلك على ما تحراه من الدقة و الصواب فى الحد و العبارة الأمر الذى لم يتسن لأئمة النحاة من قبله.

و فى بعض الأحيان يوجه السيوطي نقده إلى ابن الحاجب و ابن مالك و ابن هشام جميعا و فى أخرى يخص بالنقد أحدهم، فهو مثلا يضع فصلا باسم «أفعال المقاربة» ثم يقول: «هكذا ترجم الثلاثة و فيه أمران: أن فى الترجمة بذلك تغليبا لأن من أفعال الباب ما هو للرجاء، و ما هو للشروع، قلت: و ان الأولى أن يترجم بكاد و أخواتها مناسبة لسائر النواسخ» (٢)، و الأمر الثانى ينتقد فيه وضع ابن مالك هذا الباب عقب بابى التعجب و نعم و بس فى كتابه العمدة، و كان الحق أن يوضع فى النواسخ.

و لا يقتصر نقده فى كتابه على الحدود النحوية و العبارات بل يتجاوزها إلى تقسيمات هؤلاء المصنفين و آرائهم النحوية فى أحيان كثيرة، فقد تعقب فى باب أفعال المقاربة تصنيف هؤلاء المؤلفين لهذه الأفعال و انتقدهم فى كثير من المواضع، و خص بالنقد صاحب الكافية، و من بين ما وجهه إليه اعتباره «كرب» من أفعال الشروع، و المشهور خلافه، كما انتقده فى كونه لم يذكر فى أفعال الشروع سوى ثلاثة أو خمسة ... و غير ذلك من وجوه النقد (٣).

و الواقع أن هذا المؤلف يدل على شخصية السيوطي النحوية و اعتداده البالغ بآرائه، و حسن مناقشته و تعليه الذى لم ينس فيه أن يعتمد على النقول مؤيدا أفكاره و لكن هذه النقول لا تطغى على شخصيته كما عهد عليه كثيرا، بل يسوقها للاستدلال و الاحتجاج لما يريد.

و قد استغرق الكتاب جهدا كبيرا من صاحبه، و قد عبر عن ذلك فى آخره (١) النكت ورقة ٢٦ ص ٥٢.

(٢) المصدر السابق ورقة ٩٩ ص ١٩٩.

(٣) نفس المصدر ورقة ١٠٠ ص ٢٠١.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٢٧

حيث ذكر أنه ابتدأه سنة ٨٦٧هـ، فكتب منه إلى نهاية المعرب و المبنى، ثم عاود الكتابة عام ٨٧٦هـ، فكتب من حروف الجر إلى آخر عطف البيان، ثم فتر العزم عنه إلى سنة ٨٨٥هـ فكتب مما بعد المعرب و المبنى إلى حروف الجر، و قد أتمه بصفه كامله عام ٨٩٥هـ «١»، و قد اختتمه بمنظومه من سبعة أبيات تبين اعتداده به و الجهد الذى بذله يقول فيها «٢»:

ثلاثين عاما ظلت أرقب جمعه و أجمع فيه ما تفرق فى النقل

يحرر كتبنا عم فى الناس نفعها و سارت بها الركبان فى الوعر و السهل

يقيد اطلاقا و يوضح مبهما و يفتح أغلاقا لما كان فى قفل

و كم فيه من نقل عزيز وجوده يعز على من رام إلا على مثلى

فدونك تأليفا مفيدا محررا من الناس لم يسمح بذا أحد قبلى

و قد عرف هذا الكتاب فى عصر السيوطى و من بعده، فالصبان فى حاشيته ينقل عنه فى بعض الأحيان «٣»، و يستدرک بنقله عنه أحيانا ما فات الأشمونى شارح الألفية «٤»، أو ما لم يوفق فيه الناظم «٥».

٩- الفتح القريب على مغنى اللبيب:

حاشية له على المغنى لم أقف عليها، و قد ذكرها بكتابه الذى خصصه لشرح شواهد المغنى فى قوله: «فإن لنا حاشية على مغنى اللبيب لابن هشام مسماة بالفتح القريب، أودعتها من الفوائد و الفرائد و الغرائب و الزوائد ما لو رامه أحد غيرى لم يكن له إلى ذلك سبيل و لا فيه نصيب» «٦».

و قد ذكر السيوطى هذا المصنف بحسن المحاضرة، و ذكره صاحب هدية العارفين و قد خلط سر كيس فى معجمه بين هذا الشرح أو هذه الحاشية و بين (١) النكت ورقة ٣٢٧ ص ٦٥٥.

(٢) المصدر السابق ورقة ٣٢٨ ص ٦٥٦.

(٣) حاشية الصبان على شرح الأشمونى ج ١ ص ٥٣.

(٤) حاشية الصبان على شرح الأشمونى ج ١ ص ٦٢.

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ٩٦.

(٦) شرح شواهد المغنى ص ٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٢٨

شرح الشواهد الذى سنعرف به بعد، و هما كما حدد السيوطى كتابان مستقلان، و لم أتمكن من الوقوف على هذا المصنف مطبوعا أو مخطوطا.

١٠- شرح شواهد المغنى:

كان السيوطى فى شرحه على المغنى قد تناول الشواهد على وجه مختصر، ثم خطر له - كما حكى عن نفسه - أن يفرد الكلام على الشواهد، و هو يوضح منهجه و يحدده تحديدا واضحا اتبعه و التزم به فى كتابه بقوله: «أورد أولا البيت المستشهد به، ثم أتبعه بتسمية قائله، و السبب الذى لأجله قيلت القصيدة، ثم أورد من القصيدة أبياتا استحسناها، إِمَّا لكونها مستشهدا بها فى مواضع آخر من الكتاب، فأوردها ليعلم أن الجميع من قصيدة واحدة، أو لكونها مستشهدا بها فى غيره من كتب العربية و البيان، أو لكونها مستعذبة النظر مستحسنة المعنى لاشتمالها على حكمة أو مثل أو نادرة أو وصف بليغ أو نحو ذلك، و إن كان البيت من مقطوعة و هى ما لم يزد على عشرة أبيات ذكرتها بكمالها، و قد أذكر قصيدة بكمالها لقله أبياتها و كونها مما يستحسن كقصيدة السموأل التى أولها: إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه، أو لكون المصنف استشهد بكثير من أبياتها كقصيدة الأعشى التى أولها: أ لم تغتمض عيناك ليله أرمدا، ثم أتبع ما أورده من الاستشهادات العربية و النكت الشعرية، و ما يتعلق بها من فائدة و نادرة، و أتبع ذلك بالتعريف بقائلها و ذكر نسبة و قبيلته و عصره، و هل هو جاهلى أو مخضرم أو إسلامى؟ مراعىا فى كل ذلك الطريق الأوسط لا مجحفا فى الاختصار، و لا مبالغا فى الاطناب و الاكثار» (١).

و قد التزم السيوطى بهذا المنهج الذى اختطه لنفسه التزاما دقيقا، و نبه فى مقدمته كذلك على جملة صالحة من شروح الدواوين و كتب الأدب و اللغة التى اعتمد عليها فى شرحه. و الواقع أن هذا الشرح يعبر عن ذوق السيوطى الأدبى فى اختيار ما يستحسنه من الأشعار، فهو حريص على إيراد الجيد من الشعر من القصائد التى تؤخذ (١) شرح الشواهد المغنى ص ٢، ٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٢٩

منها الشواهد، و فى بعض الأحيان يدفعه كلفه الأدبى إلى إيراد قصة تتصل من قريب أو من بعيد بما هو فيه ليذكر بعض ما يستحسن من الشعر، ثم يأخذ فى شرحه و بيان معانيه، أو نقل ما يتصل به من أخبار، و لذلك فالشواهد الأولى لا تخطى بعنايته و كأنه إنما يوردها لتكون سببا يتوصل به إلى إنشاد ما يستعذب من الشعر و يقع اختياره فى أكثر الأحيان على أبيات النسيب و الغزل الرقيق. و فضلا عن ذلك فهو دراسة لهذه المادة اللغوية التى استخرجت منها المقاييس النحوية و تناول لمعظم الشواهد التى وردت بكتب النحاة.

١١- الشمعة المضية فى علم العربية:

(مخطوط بدار الكتب بالخزانة التيمورية برقم ١٢٧ نحو، فى ثمانى صفحات بخط جميل).

يعد هذا المصنف متنا موجزا يبدو أنه وضعه للمبتدئين فى علم النحو، و كذلك فقد حاول أن يعرف فيه بكثير من المصطلحات النحوية موجزا بعض الأحكام، و قد فاته بالطبع كثير من المصطلحات دون أن يشير إليها، فهى لا تعدو أن تكون عجاله سريعة تمس بعض أطراف الأبواب النحوية، تناول فيها الكلام و الاعراب و المعرفة و النكرة و الأفعال ثم تحدثت عن بقية الأبواب تحت اسم المرفوعات و المنصوبات و المجرورات ثم اختتم المتن بالحديث عن التوابع، و يبين لنا إيجازه الشديد الذى اتبعه فى هذا المتن حديثه عن الأفعال و ما يتصل ببنائها و إعرابها فى قوله: «الأفعال ماض مفتوح، و أمر ساكن، و مضارع فى أوله أحد حروف نأيت مرفوع إذا جرد عن ناصب و هو لن و إذن و كى ظاهرة و أن كذا، أو مضمر بعد اللام و حتى و أو، و جازم و هو لم و لما و لام الأمر و لا فى النهى، و إن و إذ ما و من و مهما و أى و متى و أيان و أينما و أنى و حيثما و كيفما للشرط» (١).

١٢- الموشح فى علم النحو:

(مخطوط بدار الكتب برقم ١٩١ نحو بالخزانة التيمورية، و ثمه نسخه أخرى، و عدد صفحاته سبع صفحات من المقطع الكبير). (١) الشمعة المضية ص ٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٣٠

ابتدأ السيوطى موشحه النحوى بقوله:

إلى اله الأنام من نحلا أفضاله كلّ أمل أملا أرغب

ثم صلى على نبيه و بين فضل علم النحو، و شرع فى حد الكلام بقوله:

فحدنا للكلام قد نقلا قصد مفيد للقصد قد شملا كاشرب

ثم تتبع فى عجل المعرب و المبني و النكرة و المعرفة ثم تناول المرفوعات فالمنصوبات فالمجرورات فالمجزومات، ثم تحدث عن التوابع بنفس الایجاز الذى اتبعه فى المتن السابق، بيد أنه هنا يتحدث عن المجزومات أكثر تفصيلا من حديثه فى متن الشمعة، و هنا يحتم عليه النظم و الایجاز الشديد أن يعرض لمعالم الموضوعات دون تفصيل كبير، كما يبدو نظمه غير مبين للمعنى فى نفسه فى بعض الأحيان.

تلك أهم مؤلفات السيوطى فى النحو و يتضح منها الجهد العظيم الذى أسداه إلى هذا العلم و المقدره الفائقة على تمثل مسائله و تصنيفها و دراستها، كما توضح موقفه من المدارس النحوية السابقة و من النحاة السابقين.

و إذا كان النحو يعنى بربط مسائله بالحياة العامة من نواحيها المختلفة حيث يستفيد منه المشرع و الفقيه و المتناول للنصوص و كاتب الديوان، و قد اتضحت بعض مظاهر هذا المفهوم فى مؤلفات السيوطى السابقة، فإن له مجموعة من الآثار تمثل هذا المفهوم، أى دراسة النصوص نحويا أو بعبارة أخرى العناية بالجانب التطبيقى فى دراسة النحو، و تتمثل فى إبراز وظيفة النحو فى فهم النصوص باعتباره عنصرا من أهم عناصر المعنى الكلى، و هذه الآثار تتمثل فى الفتاوى النحوية التى أفتاها، و فى ثلاث رسائل أوردها بكتاب الحاوى.

الفتاوى النحوية:

و الفتاوى النحوية تطلعنا على تقدير السيوطى و أهل عصره لوظيفة النحو و أهميته فى فهم النصوص أو ما يمكن أن نطلق عليه وصل النحو بالحياة، فهى مجموعة من الأسئلة التى وردت إلى السيوطى نثرا أو نظما و أجاب عنها معللا

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٣١

أجوبته بعلل مقنعة و هى تنيف على عشرين مسألة «١»، توضح عناية السيوطى بدراسة النصوص و توجيهها نحويا بحيث يتفق الإعراب أو التحليل النحوى للنصوص مع المعنى السياقى الذى يفهم من عناصر و قرائن متعدّدة، و كأنه ينبه على أهمية السياق فى توجيه الإعراب حتى لا يكون التحليل الخاطى سببا فى توجيه خاطى للمعنى.

فمنها أحاديث طلب إليه ضبط نصوصها فضبطها و وجه ضبطه، أو طلب إليه إعرابها و توجيه قوله، فقد سئل - مثلا- عن «الجنة» فى قوله صلى الله عليه و سلم: «من شهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله و الجنة حق و النار حق»، هل الجنة بالرفع أو النصب؟ فأجاب بأنه «بالنصب لا يجوز غيره لأنه الذى يستقيم به المعنى و لا ينافى هذا قول النحاة: يجوز الرفع بعد استكمال الخبر لأنه حيث جاز أن يكون مستأنفا، و الاستئناف هنا يخل بالمعنى إذ يصير المراد الإخبار بأن الجنة حق، و ليس مرادا، و إنما المراد إدخاله فى المشهود به فتعين النصب» «٢».

و من هذه المسائل أبيات من منظومات علمية فى العروض، أو نصوص من كتب فقهية أو نصوص شعرية أو نصوص من خطب أو

أقوال تفوه بها بعض أهل العلم فى عصره. و لم تقتصر فتاواه على الناحية الاعرابية بل تناولت بنية الألفاظ و بعض المسائل الأخرى. و نلاحظ على إجابات السيوطى أنها أجوبة قاطعة- فى الغالب- يقطع فيها بصحة رأى واحد و يعلل مذهبه تعليلا واضحا محكما يعتمد أولا- على المعنى و يضع فى الاعتبار الأصول النحوية، و لا- يغرب فى تعليقاته، و يحاول وضع قواعد دقيقة للنظر فى النصوص و توجيهها، حيث ينبغى أن يكون الإعراب مناسبا للمعنى الذى يفهم من عناصر و قرائن متعدّدة، فالإعراب أحد عناصر الوصول إلى المعنى و ليس هو جميع العناصر.

و تبين لنا هذه الفتاوى بعض معالم مذهب السيوطى النحوى، و قد تبينت فى (١) الحاوى للفتاوى ج ٢ ص ٤٦١-٤٧٥.
(٢) الحاوى للفتاوى ج ٢ ص ٤٦١.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٣٢

إحداها موقفه من الاحتجاج بالحديث فى اللغة، و المعروف أن النحاة الأقدمين لم يستشهدوا بالحديث نظرا لوفرة المادّة اللغوية التى انصرفوا إليها و منها البادية التى كانت معنا لا ينضب من اللغة المنطوقة الفصيحة إلى منتصف القرن الرابع الهجرى، أما المتأخرون من النحاة فتنوعت مواقفهم، فمنهم من يجيز الاحتجاج مطلقا كابن مالك، و منهم من يمنعه مطلقا كأبى حيان، و منهم من يتوسط بين المذهبين كالشاطبى فيقيد الاحتجاج بأحاديث لها شروط معينة تضمن سلامتها.

و قد وقف السيوطى موقفا وسطا يبدو منه أنه يبيح الاحتجاج بالحديث فى نفس الوقت الذى يضع فيه اعتبارا لما حدث لبعض الأحاديث من تحريف من قبل الرواة يجعلها غير مقبولة فى الاحتجاج، فقد أجاب عن حديث: «كما تكونوا يولى عليكم» حيث سئل عن حذف النون دون ناصب أو جازم بتخريجه على ثلاثة أوجه: «أحداها أنه على لغة من يحذف النون دون ناصب و جازم كقول الشاعر:

أبيت أسرى و تبيتى تدلكى، و خرج على هذه اللغة من الحديث قوله صلى الله عليه و سلم:

«لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، و لا تؤمنوا حتى تحابوا»، الثانى: و هو رأى الكوفيين و المبرد أنه منصوب أورده شاهدا على مذهبهم أن «كما» تنصب و عدوها من نواصب المضارع و هو مذهب ضعيف، و الثالث: أنه من تغيير الرواة» (١).

و إذا كان السيوطى هنا يتردد بين تأويل هذا الحديث و توجيهه و بين نفي صحة عريته فهذا يعنى أنه لا يحتج بالأحاديث مطلقا و إنما يقف فيها موقفا وسطا، و لو كان ممن يحتجون بها مطلقا لاكتفى بذكر الوجهين الأول و الثانى أو بأحدهما، فالنحاة إنما يتأولون من النصوص ما هو معتمد عندهم فى الاحتجاج.

و نستطيع أن نلمح مظاهر الاتساق فى مذهب السيوطى النحوى من اتفاق أقواله و تعاضدها فى كتبه المتنوعة، و فى إحدى هذه الفتاوى ينتقد تعريف اللفظ بأنه «الصوت المشتمل على بعض الحروف» لأنه تعريف غير جامع يخرج عنه الحرف الواحد كواو العطف و فائه و باء الجر و لامه، و الأحسن تعريف اللفظ بأنه (١) الحاوى للفتاوى ج ٢ ص ٤٧٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٣٣

«الصوت المعتمد على مقطع» (١) و قد ذكر هنا أنه عبر به فى شرحه على الألفية، و قد سبق لنا الإشارة إلى هذا الحد.

رسائل الحاوى:

إشارة

للسيوطى بكتابه «الحاوى» أربع رسائل نحوية ذكر منها ثلاثا بين أسماء مؤلفاته التى أوردها عقب ترجمته، و الرسالة التى لم يذكرها

هى «ألوية النصر فى خصيصى بالقصر».

و تتميز هذه الرسائل بأنها تعالج المشاكل النحوية المتصلة بالنصوص اللغوية المختلفة، فمثلها مثل فتاواه، بيد أنه هنا يتوسع فى بسط البحث و مناقشة مسائله، و يعرض لكثير من الدقائق التى تتصل بالأصول النحوية، و طريقة فهم النصوص فهما سليما، و كيفية تخريجها على القواعد النحوية تخريجا يعين على إدراك المعنى و لا يكون سبيلا إلى إيهامه أو تغييره أو الاخلال به، و هذه الرسائل تؤكد ما قلناه من عناية نحاة البيئه المصرية بالربط بين النحو و الحياه حيث يستعينون به على تفهم الأحاديث و كتب الفقه و العبارات المأثوره و سائر النصوص المختلفه التى تهتمهم فى حياتهم، و سنعرف هنا بهذه الرسائل باعتبارها أدله على الفكرة السابقة، و لما بها من بعض الملاحظات التى سنتبينها.

١- فجر التمد فى إعراب أكمل الحمد «٢»:

تعقب السيوطى فى هذه الرسالة ما أفتى به شيخه الكافيجى عام ٨٧٤هـ، من ترجيح جرّ «أكمل» فى قول القائل: «الحمد لله أكمل الحمد» على أن اللفظ وصف سببى محول أصله: أكمل حمده، فحول بالاضافه، و هو نظير قولك: «مررت بالرجل قائم الأب» فأصله «مررت برجل قائم أبوه»، و قد أفتى السيوطى بأن «المتعين فى هذا التركيب النصب و لا يجوز الجر، و وجهه أنه نائب مناب المصدر المحذوف الذى هو فى الأصل وصف له تقديره حمدا أكمل الحمد»، و قد علل رأيه بعلل نحوية واضحة تدعم صحه ما ذهب إليه، و بين (١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٧٠. (٢) طبعت بالحاوى ج ١ ص ٤٧٦-٤٧٨.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٣٤

أن ما مثل به الكافيجى و هو «مررت بالرجل قائم الأب» يخالف العربية من وجوه أربعة عددها، و الذى يعيننا أن السيوطى فى فتواه و تخريج النصوص على القواعد النحوية يضع المعنى و السياق الثقافى فى اعتباره و يستدل به فى إثبات رأيه فهو يقول: «و أما امتناع الجر فيكاد يكون بديها لا- يقام عليه دليل فان «أكمل» صفة للحمد قطعا لا لله، أما أولا فلأن أوصافه تعالى توقيفيه، و لم يرد هذا الوصف فيها، و أما ثانيا فلأن الأصل عدم إطلاق أفعل التفضيل فى حق الله إلا- ما ورد مثل أكبر، و أحسن الخالقين لما يشعر بالمشاركه، و أما ثالثا: فلأن المقصود وصف الحمد المثبت بالأكملية و البلوغ نهاية التمام، لا وصف الله بذلك، و أما رابعا فلأن العلماء عبروا بما يدل على أنه وصف للحمد لا لله، ألا ترى إلى قول النووى فى المنهاج أحمده أبلغ حمد و أكمله و أزكاه و أشمله، فأتى بالجميع صفات للحمد و مصادر له».

و الذى نريد أن ننبه عليه من ذلك هو أن السيوطى كان يضع فى اعتباره الأول استقامة المعنى و صحته إلى جانب الأصول النحوية، فلكل منهما اعتباره و لكنه كان يقدم اعتبار المعنى على غيره من الاعتبارات، و هذا مناسب لما سبق أن عرفناه عنه من ميله إلى الوضوح و البساطه و البعد عن التعقيد و ما يستتبعه من الفلسفه العقلية المجردة التى تبعد عن الواقع اللغوى، كما نرى عنايته بربط النحو بالحياه عن طريق النظر فى النصوص المختلفه.

٢- ألوية النصر فى «خصيصى» بالقصر «١»:

سبق أن أشرت إلى هذه الرسالة مثلا لما كان يحدث بين السيوطى و بين خصمه السخاوى، و هى تؤكد ما نقوله عن الربط بين النحو و الحياه فهى تتصل بضبط كلمه «خصيصى» التى صححها السيوطى موجه القول إلى من قرأ عليه بالشيخونية «و يخصنا بخصيصى

زمره نبينا و جماعته» حيث قرأ القارئ بالياء الساكنة معتبرا الكلمة مثناء مضافة لما بعدها.

و قد قرر السيوطى مؤكداً رأيه أن أئمة اللغة و العربية، قد أطبقوا على أن (١) طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٤٧٨ - ٤٧٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٣٥

«خصيصى» بألف القصر، و قد تمد شدوذا فيقال «خصيصاء»، و قد أورد عددا كبيرا ممن نص على هذا القول من أئمة اللغة كسيويه و السيرافى و القالى و ابن دريد و غيرهم، و قرر أنه لم يرد «خصيص» البتة حتى يقال فى تثنيته «خصيصان» و ذكر أن ابن دريد قد قرر أنه ليس لمولد أن يبنى «فَعِيلا» إلا- ما بنت العرب و تكلمت به، و لو أجزى ذلك لقلب أكثر الكلام. و هكذا يؤيد السيوطى الوقوف عند السماع فى بناء «فَعِيل»، و لا يبيح فيه القياس.

٣- الرّند الورى فى الجواب عن السّؤال السكندرى «١»:

تتناول هذه الرسالة البحث فى قوله صلى الله عليه و سلم: «و الذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودىّ أو نصرانىّ، ثم يموت و لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا- كان من أصحاب النار»، حيث يتضح بجلاء ما قلناه من تقدير السيوطى صحة المعنى و استقامته و تقديمها على بعض الأصول النحوية التى قد لا يفهم بواسطتها المقصود من العبارة و تكون سببا فى تحريف المعنى، ذلك أن الإعراب الصحيح ينبغى أن يكون مناسباً للمعنى خادماً له باعتباره أحد عناصره، و للمعنى عناصر كثيرة منها السياق المقامى و الثقافى.

و الرسالة تعطى صورة للصراع بين فهم المعنى و أدائه و بين بعض الأصول النحوية، و قد عبر عن ذلك السيوطى فى قوله: «و قد أشكل هذا الحديث على بعض الناس من جهة تنزيل المقصود منه على القواعد النحوية، فإن المقصود من الحديث أنه من سمع نبينا عليه الصلاة و السلام ممن شملته بعثته العامة، ثم مات غير مؤمن بما أرسل به كان من أصحاب النار، و فى تنزيل لفظ الحديث على هذا المقصود قلق كما سيأتى، و هذا الاشكال يعرض كثيرا فى غير لفظ الحديث أيضا». و هنا تتضح هذه الفجوة التى حدثت بين اللغة و بين بعض الأصول النحوية المجردة التى أقيم بعضها نتيجة فلسفة عقلية بعيدة عن الواقع اللغوى، و قد تنبه السيوطى لهذه الفجوة بصدد مجموعة من الأمثلة الأخرى التى ساقها فى رسالته من باب الاستثناء أيضا، و يعرض لبعض التخريجات النحوية (١) طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٤٨٠.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٣٦

المحتملة فى الحديث، و قد رجح كون الجملة الواقعة بعد «إلا» حالا، و علل رأيه باطراد الحالية فى جميع الأمثلة المشابهة، و قد حاول أن ينتصر للفكرة الصائبة التى ترى أن القواعد النحوية ينبغى أن تتصل باللغة و واقعها لا أن تنبت عن العقل، فأنكر على من يخالفه فيما قرره قائلا: «و كم من قاعدة نحوية قدّرت و لم يبال بمخالفتها للقواعد العقلية فإن كلا من النحو و الفقه معقول من منقول كما ذكر ابن جنى، فتارة يلاحظ فيها الأمر العقلى و تارة يلاحظ فيها الأمر النقلى» (١).

و هكذا فإن السيوطى قد توصل إلى ما تنادى به علماء اللغات فى عصرنا الحديث من أن منطق اللغة يخالف منطق العقل، و أن فى تحكيم العقل فى اللغة ضروريا من التعسف، و أنه قد بات من المقرر فساد إقامة الفلسفة اللغوية على أساس المنطق العقلى.

٤- رفع السنة فى نصب الرّنة «٢»:

سئل السيوطى عن وجه النصب فى قوله صلى الله عليه و سلم: «سبحان الله و بحمده زنة عرشه، و رضا نفسه، و عدد خلقه، و مداد

كلماته»، فأجاب بأن هذه الكلمات الأربع منصوبات على تقدير الظرف، و التقدير: قدر زنة عرشه، و كذا البواقى فلما حذف الظرف قام المضاف إليه مقامه فى إعرابه، و نص على أن هذا الاعراب هو المتجه المطرد السالم من الانتفاض.

و لما كان السؤال يستفسر عن جواز النصب على المصدر أو الحال أو على حذف الخافض فقد بحث السيوطى هذه الحالات و بين عدم إمكانها لفساد التقدير، و ذكر أن نزع الخافض قريب من المصدر، و حاول أن يعضد وجهة نظره بكثير من الأمثلة و الشواهد المناظرة التى تدل على انتصاب كلمة «قدر»، أو ما فى معناها على الظرفية، ثم جواز حذفها و إقامة المضاف إليه مقامها.

و نلاحظ أيضا سير السيوطى على نفس منهجه السابق فى تقدير المعنى، فالمعنى هو الذى يحدد الاعراب و يوجهه، و لذلك يميل إلى ترجيح إعراب واحد به (١) الرسالة السابقة ج ٢ ص ٤٨٤.

(٢) الحاوى ج ٢ ص ٤٨٥-٤٩٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٣٧

يكمل المعنى و يستقيم و يتضح، و قد نبه على بعض الوجوه الممكنة فى الاعراب غير ذلك بيد أنه وصفها بأنها «لا يعول عليها و العمدة الأول»، أى نصب هذه الكلمات على الظرفية.

بقية الآثار:

ثمة مجموعة من آثار السيوطى النحوية فضلا عما قدمناه جلاها لم يصل إلينا، و بعضها تضمنته آثاره السابقة، و كثير من هذه الآثار مسائل جزئية أو مختصرات، و بعضها توحى أسماؤه بضخامته، و أرى أن أسرد هذه الآثار لنختتم بها ما يتصل بهذا الموضوع، و ننتقل إلى موضوع آخر.

١- المصاعد العلية فى القواعد النحوية: ذكره بين مؤلفاته فى ترجمته بحسن المحاضرة، و هو نفس الباب الأول من كتاب الأشباه و النظائر الذى تحدث فيه عن القواعد و الأصول التى ترد إليها الجزئيات و الفروع و هو يشمل الجزء الأول من الكتاب، و قد نص عليه فى حسن المحاضرة لأنه إلى ذلك الحين الذى كتب فيه الترجمة لم يكن قد أتم كتاب الأشباه و النظائر الذى ضمن فيه هذا المؤلف و غيره على ما يبدو، و يؤيد ما نقول أنه لم يذكر كتاب الأشباه و النظائر بين مؤلفاته، مما يدل على تأخر تصنيفه.

٢- مختصر الملححة فى الاعراب: (ذكرت بحسن المحاضرة و كشف الظنون، و هى منظومة، و لم أقف عليها).

٣- شرح الملححة (ذكرت بحسن المحاضرة و هدية العارفين).

٤- شرح كافيّة ابن مالك (ذكرها بحسن المحاضرة).

٥- در التاج فى إعراب مشكل المنهاج (ذكر بحسن المحاضرة و هدية العارفين).

٦- مسألة: ضربى زيدا قائما (ذكرت بحسن المحاضرة).

٧- المسلسلة الموشحة (ذكرت بحسن المحاضرة، و قد ضمنها فى كتابه الأشباه و النظائر فى الفن الثالث و هو بناء المسائل بعضها على بعض، و الذى سماه هناك

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٣٨

سلسلة الذهب فى البناء من كلام العرب، و قد قال فى مقدمه الأشباه و النظائر:

«و قد ألقت فيه قديما تأليفا لطيفا يسمى بالسلسلة» (١).

٨- شذا العرف فى إثبات المعنى للحرف (ذكره بحسن المحاضرة).

٩- التوشيح على التوضيح (ذكره بحسن المحاضرة).

١٠- السيف الصقيل فى حواشى ابن عقيل (ذكره بحسن المحاضرة).

- ١١- حاشية على شرح الشذور (ذكرها بحسن المحاضرة).
 - ١٢- شرح القصيدة الكافية فى التصريف (ذكره بحسن المحاضرة).
 - ١٣- قطر الندى فى ورود الهمزة للندا (ذكره بحسن المحاضرة).
 - ١٤- شرح تصريف العزى (ذكره بحسن المحاضرة).
 - ١٥- تعريف الأعجم بحروف المعجم (ذكره بحسن المحاضرة).
 - ١٦- نكت على شرح الشواهد للعينى (ذكره بحسن المحاضرة). (١) الأشباه و النظائر ج ١ ص ٦.
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٣٩

السيوطى و علم أصول النحو

رأينا أن السيوطى قد وضع أصولاً لنقد الرواية اللغوية تحاكي أصول المحدثين و هو عمل يعد من مبتكراته، و قد حاول تصنيف المادة اللغوية تصنيفاً يضاهى تصنيف المحدثين و قد استطاع أن يتناول بالبحث النظرى فى أصول اللغة بعض المسائل التى لم تكن قد استقرت الاستقرار الكافى، أو الأصول التى لم تحظ إلى ذلك الحين بأن توضع فى إطار محكم منظم كما هو الحال لدى أهل الحديث.

و نحن هنا بصدد محاولة رائعة قام بها السيوطى فيما يتصل بالنحو، فقد حاول فى كتابه «الاقتراح» أن يقيم بناء شامخاً يمثل أصول النحو، و يكون المنهج الذى يتبعه النحاة فى استنباطهم و استقرارهم، و معبراً عما سلكوه فى درس النحو من قبل. و الواقع أن المنهج النحوى أو مجموعة القواعد و النظم التى يتبعها النحويون فى الاستقراء و الاستنباط ظلت إلى وقت متأخر عرفاً غير مكتوب، يلاحظه النحاة و يشيرون إلى التزامه و اتباعه فى عبارات قليلة مبتسرة، و لم يعتمد أحد إلى وضع هذه النظم و القواعد فى إطار علم معين.

و البحث فى الأصول و هو يعنى البحث فى المناهج يأتى متأخراً بعد استقرار العلم الذى يدرج عليه أوائل الباحثين فى علم من العلوم، هكذا كان الحال فى العلوم الإسلامية، فوضع أصول الحديث إنما جاء بعد أن قامت أجيال متعاقبة من العلماء برواية الحديث و التحرج فى روايته، و كان لهم عرف ملتزم، و عبارات متداولة لم تلبث أن أخذت تتجمع شيئاً فشيئاً، حتى وضع منها المتأخرون علماً فى نقد الرواية.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٤٠

و قد عرف الاجتهاد الفقهي منذ عصر الصحابة، و وجد كثير من الفقهاء الذين استنبطوا كثيراً من الأحكام، و عملوا بالقياس، و كانت لهم طرق متميزة فى الاستدلال و الاستنباط، و كانت هذه الطرق و الأصول بمثابة العرف الذى يحرص عليه الفقهاء و يشيرون إليه فى عبارات مختصرة، و لم يتح لهذه الأصول أن تتخذ شكلها العلمى التنظيرى الوافر إلا بعد أن أملى الشافعى (٢٠٤ هـ) رسالته التى أحاط فيها بجوانب هذا العلم، و لذلك فقد اشتهر الشافعى بأنه واضع علم الأصول، و ليس يعنى هذا أنه مخترع هذه الأدلة أو الموضوعات، و لكن يعنى أنه أول من استطاع أن يتجرد لصياغة هذه الأفكار المتعارف عليها فى إطار نظرى محدود يكون بمثابة تخطيط يترسمه الفقيه فى اجتهاده الفقهي.

إذا كان هذا ما حدث فى علمى الحديث و الفقه فهو نفس ما حدث فى البيئه النحوية. لقد وجد النحاة منذ وقت مبكر، و تمت الملاحظات النحوية، و استطاع النحو أن يتخذ شكلاً متكاملًا فى كتاب سيبويه، و قد تعارف النحاة فى استقرارهم و استنباطهم و وضع مقاييسهم على عرف محدد التزموا به سواء فيما يتصل بمن يأخذون عنهم أم بالمادة اللغوية أم بطريقة استخراج القوانين، و بالرغم من وضع الضوابط النحوية منذ وقت مبكر فإن التجرد لبحث هذا المنهج النحوى لم يبدأ التفكير فيه إلا بعد وقت طويل. ذلك أن القدماء

كانت عنايتهم بالتطبيق أغلب من عنايتهم بالتنظير، و العناية بالتطبيق أو الجوانب العملية من البحث هو ما تدعو إليه الحاجة فى أول الأمر، ثم يأتى التنظير فى المراحل التالية.

و قد قدر لأصول الفقه أن توضع منذ وقت مبكر كما رأينا، و قد أخذ علم الأصول طريقه فى التدرج شيئا فشيئا، و وضعت فيه التقسيمات و التفرعات المختلفة، بيد أننا ننظر فى البيئته اللغوية فلا نرى من حاول وضع أصول للنحو، حتى إذا ما قدر لهذه البيئته أن تتجه إلى هذه الوجهة فإنها تقوم بصنيعها مترسمة خطى البيئته الفقهية فى أصولها، فأتى ابن جنى فى القرن الرابع الهجرى و يحاول أن يضع بعض الأصول النحوية فى كتابه الذى ذكر أنه وضعه نتيجة لأنه لم ير «أحدا من علماء البلدين تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٤١

و الفقه» (١)، و قد أشار ابن جنى إلى عمل قام به أبو الحسن الأخفش (٢١٠هـ) يعد ممهدا لما قام به ابن جنى.

و قد ربط النحويون بين أصولهم و بين أصول الفقه، و عبارة ابن جنى الآنفه، تدل على شروعه فى إقامة الأصول النحوية على نمط الأصول الفقهية، و تأثره بأصول الفقه واضح فى حديثه عن القياس و الاستحسان و الاجماع، و فى حديثه المسهب عن العلل النحوية و هل هى أقرب إلى علل المتكلمين أم إلى علل المتفقهين؟، و قد استمر تأثير أصول النحو بأصول الفقه بعد ابن جنى فظهر هذا الأثر عند ابن الأنبارى كما ظهر عند السيوطى.

و الواقع - و هو ما سبق أن نبهت إليه فى بحثى عن القياس - أنه كان على هؤلاء النحاة حين حاولوا رسم منهج للنحو أى حين قاموا بوضع أصول للنحو أن ينظروا إلى القياس النحوى الذى قامت عليه الأحكام النحوية فيحددوا ما ينبغى أن يقاس عليه، ثم كان عليهم أن يرسموا للمجتهد فى اللغة طريقا واضحة المعالم فى استنباط الأحكام النحوية الناتجة عن الاستقراء اللغوى، و ليس بهم بعد ذلك أن تجيء هذه الأصول موافقة فى بعضها لأصول الفقه و مغايرة فى بعض، فالأهم أن يكون المنهج معبرا عن الواقع الذى يتناوله و يعيش فيه و يخطط له، مراعى طبيعته و مقرراته، و أهدافه، فما الذى حدث لأصول النحو نتيجة ربطه بأصول الفقه؟

لقد نتج عن هذا الربط أمران يتصل أولهما بموضوع أصول النحو التى روعى فيها أن تطابق التقسيمات المتعارف عليها عند الفقهاء، و الثانى: تطور التأليف فى أصول النحو تبعا لتطور التأليف فى أصول الفقه، و هو ما سنلاحظه عند المقارنة بين وضع السيوطى لأصول النحو و بين ما قام به سابقوه و أهمهم ابن جنى (٣٩٢هـ)، و ابن الأنبارى (٥٧٧هـ)، و قد استمر الربط بين أصول النحويين و أصول الفقه منذ بدايات الحديث فى أصول النحو على يد ابن جنى و قليل من سابقه، إلى نهاية مراحل التأليف فى أصول النحو عند السيوطى.

(١) ابن جنى: الخصائص ج ١ ص ٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٤٢

و قد بينت فى بحثى عن القياس معالم التأثير و دوافعه التى أدت إلى تأثر أصول النحو بأصول الفقه، و لا أرى لزاما أن أعيد هذا الحديث وإنما أبغى هنا شيئا آخر هو بيان الدور الذى قام به السيوطى فى أصول النحو، و إذا كان هذا ما نهدف إليه فقد كان من الضرورى أن نبين الارتباط بين أصول النحو و بين أصول الفقه و فيما قدمناه غناء، و ضرورة ذلك تنبع من أن تدرج أصول الفقه و تطور التأليف فيه أحدث أثره فى أصول النحو.

و لبيان دور السيوطى نرى لزاما أن نتبين الجهود التى سبقته ليتضح بالمقارنة بين عمله و عمل السابقين معالم دوره و حدوده.

و أهم من تحدث عن أصول النحو قبل السيوطى ابن جنى فى القرن الرابع، و يبدو أنه كان مسبقا ببعض المحاولات التى قام بها أبو الحسن الأَخفش فى كتابه المقاييس. بالإضافة إلى الإشارات و العبارات الموجزة المتناثرة المبعثرة فى كتب النحو و أهمها كتاب سيبويه و الشروح عليه، بيد أنها لا تمثل تنظيرا كافيا أو مناسبة لأصول النحو.

و يظهر بعد ابن جنى ابن الأنبارى فى القرن السادس، و لا نجد غيرهما من النحويين الذين سبقوا السيوطى من حاول أن يتناول أصول

النحو بصفة عامة كصنيعهما و أهم ما هنالك غير ذلك طرق بعض الموضوعات التى تتصل بأصول النحو كبحث العلل النحوية و قد درسها الزجاجى (٣٣٧ هـ)، فى كتابه الايضاح و يبدو أنه أول من أفرد للتصنيف فى العلل، و هو مسبق بكثير من الأبحاث فى العلة النحوية، فهم ينسبون إلى ابن أبى إسحاق أنه «أول من بعج النحو و مدّ القياس و العلل» (١) ثم بحث الخليل العلل النحوية و قرر أنه اعتلّ بما يرى أنه علة لما علل و ربما يسنح لغيره ما هو علة أخرى أليق (٢)، فهو بذلك يجعل العلل النحوية أمرا عقليا اجتهاديا، و قد انفسح المجال بذلك أمام النحاة فى محاولة استخراج العلل النحوية إلى أن صنّف فيها الزجاجى مؤلفه. (١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ص ١٣.

(٢) الزجاجى: الايضاح فى علل النحو ص ٦٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٤٣

و فى حديث الزجاجى عن العلل نستطيع إدراك تطور دراسة العلل النحوية عند النحاة حيث يورد الزجاجى بصدد بعض المسائل ما احتج به أوائل النحاة كالخليل و سيويه، ثم ما احتج به من بعدهم، و نلمس من هذا الحديث تعقد دراسة العلل شيئا فشيئا بعد بساطتها على ضوء ما ثقف النحاة من الفقه و علم الكلام و ما مارسوه من أساليب الجدل.

و قد قسم الزجاجى فى كتابه العلل النحوية إلى ثلاثة أقسام (١): العلل التعليمية، و العلل القياسية، و العلل الجدلية، فالعلل التعليمية و تسمى بالعلل الأولى هى التى يتوصل بها إلى تعلم كلام العرب فعلة نصب «زيدا» فى «إن زيدا قائم» هو مجيء «إن» قبلها لأنها تنصب الاسم و ترفع الخبر ليس غير، و علة رفع «زيد» فى «قام زيد» أنه فاعل.

و العلل القياسية هى العلل الثانوى التى تأتى بعد العلل الأولى كأن يسأل سائل عن العلة فى نصب «إن» لفظه «زيدا»، فيجيب النحاة بأنها هى و أخواتها أشبهت الفعل المتعدى إلى مفعول به واحد فعملت عمله، و تلاها منصوب كأنه مفعول مقدم و مرفوع كأنه فاعل مؤخر، فهى من هنا تشبه من الأفعال ما قدّم مفعوله على فاعله.

و العلل الجدلية و تسمى بالعلل الثالث هى كل ما يأتى من العلل بعد ذلك، فكل ما يعتلّ به فى باب «إن» بعد ما قدمنا هو من قبيل العلل الثالث، كأن يسأل سائل: بأى الأفعال شبهت «إن» و أخواتها: أم بالماضية أم المستقبل؟ أو يسأل آخر لما ذا لم يجرز فى «إن» و أخواتها أن يتقدم مرفوعها على منصوبها كما يحدث ذلك فى الفعل؟ فكل ما يعتلّ به النحاة جوابا عن هذه الأسئلة و نحوها هو من قبيل العلل الثالث.

و لا- يخفى أن العلل التعليمية هى التى تمس الحاجات العملية لدارس النحو و الناطقين باللغة، أما العلل الثانوى و الثالث فليست إلا من قبيل الفلسفة اللغوية التى تحاول تعليل ما هو كائن بالفعل فى اللغة بعلل يخترعها النحاة بعد (١) المصدر السابق ص ٦٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٤٤

طول النظر و التأمل و هذه الفلسفة تحاول جاهدة تلمس وجوه الحكمة فى أوضاع اللغة، و لذلك فهى لا تفيد الحاجات العملية للناطقين، و قد كانت سببا فى ثورة ابن مضاء القرطبي الذى دعا إلى إسقاط هذه العلل من النحو (١).

و قد تطور درس العلل النحوية بعد الزجاجى، فأسهب ابن جنى فى الحديث عنها و تبعه ابن الأنبارى، و نجد فى كتابه «الانصاف» كثيرا من الأمثلة لهذه العلل الثانوى و الثالث التى تعقد درسها شيئا فشيئا، و نرى بعد ذلك صورة لما آل إليه أمر هذه العلل النحوية التى حاول بعض المتأخرين حصرها فى أربع و عشرين علة (٢)، و هى علل يقصد منها تعليل الصور النحوية بربطها بأسبابها و حمل بعضها على بعض على نحو ما يصنع الفقهاء (٣).

و نعود ثانية إلى تفصيل الجهد الذى قام به ابن جنى و ابن الأنبارى، ثم ننظر فى عمل السيوطى.

الواقع أن ابن جنى بالرغم من ضخامة كتابه الخصائص الذى ذكر فى أوله أنه وضعه فى أصول النحو فإنه خارج فى أكثر أبوابه عن «الأصول» بالمعنى الذى تقرر فيما بعد و قد تناول فيه بعض أدلة النحو فتحدث عن السماع و الاجماع و القياس، و تناول العلل النحوية

بحديث مفصل، بيد أن كثيرا من مباحث الكتاب تخرج عن مباحث علم الأصول و تتناول موضوعات أخرى متصلة باللغة، بل إن حديث ابن جنى عن الموضوعات التى أشرنا إليها لم يكن حديثا مركزا، و بالرغم من وقوفه على كثير من الحقائق الهامة فى الأصول فإن كتابته تعد بداية لمن بعده، و تأتى أهميته من أنه أول من تناول بالبحث المسهب بعض المسائل التى عرفت فى علم أصول النحو معتمدا على أوليات قام بها أبو الحسن الأخفش و من قبله الخليل و سيويه، و يعد وصف السيوطى لعمل ابن جنى فى الأصول أصدق الأوصاف حيث يذكر أنه «وضعه فى هذا المعنى و سماه أصول النحو لكن أكثره خارج عن هذا المعنى، و ليس مرتبا، و فيه الغث و السمين (١) ابن مضاء القرطبي: الرد على النحاة ص ١٥١.

(٢) الاقتراح ص ٤٧، ٤٨.

(٣) د. سيد خليل: مصر فى تاريخ النحو، مقال بمجلة كلية الآداب مجلد ١٣ ص ٦٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٤٥ و الاستطرادات» (١).

و من الطبيعى أن تكون أولية التأليف غير متكاملة و غير متناسقة، و هذا شأن جميع العلوم فلا عجب أن يختلف متناولو أصول النحو بعد ابن جنى عنه، و يكتسب حديثهم نوعا من التقسيم و التنظيم الذى نلاحظه دائما فى تدرج العلوم و نموها حيث تدرج الملاحظات شيئا فشيئا لتأخذ شكل القوانين أو الأصول الثابتة المقررة، و تستقر للعلم بعض المصطلحات و يتحدد معناها. فإذا ما نظرنا فى صنيع ابن الأنبارى (٥٧٧هـ) و لا نعرف من تكلم بعد ابن جنى فى أصول النحو قبله وجدنا ذلك العلم قد أخذ يستقر شيئا من الاستقرار، و قد حمل ابن الأنبارى النحو و أصوله على الفقه و أصوله، فتأثر بصنيع الفقهاء و الأصوليين، و حاول تطبيق ذلك فى اللغة، فإذا كانت هناك مسائل فى الخلاف معروفة بين الفقهاء فإن ما يناظرها فى البيئه النحوية هو مسائل الخلاف بين البصريين و الكوفيين التى رتبها مؤلفها على نمط المسائل الخلافية بين الشافعى و أبى حنيفة، و هذه محاولة لا نشاء فن الخلاف فى النحو كما هو معروف لدى الفقهاء، كما تأثر ابن الأنبارى أيضا بعلمى الكلام و الفقه فى وضع فن «الجدل» الاعرابى فى كتابه الاغراب فى جدل الاعراب، و بعض مسائله تتصل بمباحث أصول النحو.

أما علم أصول النحو فقد ترك ابن الأنبارى فيه كتابه «لمع الأدلة» الذى حاول فيه وضع الأصول النحوية على نمط الأصول الفقهية، بيد أنه قد تكلم بايجاز شديد فى جميع موضوعات أصول النحو، و قد قسم كتابه تقسيما أكثر ملاءمة للأصول، و أكثر مشابهة لتقسيمات أصول الفقه مما وجدناه عند ابن جنى، و قد جعل كتابه فى ثلاثين فصلا، و لا يهولنك ذلك فأغلب هذه الفصول لا يتجاوز صفحة واحدة و كان يحسن به أن يسميها مسائل بدلا من تسميتها بالفصول، و قد تناول فى هذه الأقسام تعريف أصول النحو فحده بأنه «أدلة النحو التى تفرعت منها فروعه و أصوله، كما أن أصول الفقه أدلة الفقه التى (١) الاقتراح ص ٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٤٦

تنوعت عنها جملته و تفصيله» (١)، كما بين فائدته، ثم قسم هذه الأدلة إلى أقسام ثلاثة هى النقل و القياس و استصحاب الحال، و تناول النقل و تقسيمه إلى متواتر و آحاد و شروط كل منهما، و ما يتصل بنقد الرواية و عدالة الرواة، ثم انتقل إلى الحديث عن القياس فى الفصل العاشر و احتج لثبوته فى النحو، و سنتين أن كثيرا من الحديث عن القياس إنما هو حديث نظرى عقلى مستمد من الفقه و أصوله بعيد عن اللغة و طبيعتها و مقتضياتها، ثم تناول أقسام القياس و هى أقسام شابهت أقسام القياس الفقهى، و لم تحك الواقع اللغوى، ثم تحدث عن العلة و شروطها و جواز التعليل بعلتين و أمثال هذه المسائل التى نجدتها عند الأصوليين، ثم تناول وجوه الاستدلال فذكر الاستدلال بالتقسيم و الاستدلال الأولى و الاستدلال ببيان العلة ثم تحدث عن الاستحسان و تعارض الأدلة، و استصحاب الحال، و الاستدلال بعدم الدليل.

و نلاحظ على تقسيمات ابن الأنبارى أنها مستفاهة مما وصل إليه علم أصول الفقه فى عهده حيث تميزت هذه الأقسام، و اتضحت و

أفاض فى الحديث عنها الأصوليون، و قد حاول ابن الأنبارى نقلها من البيئه الفقهيّه إلى البيئه النحويّه، فأفلح فى كثير من الجوانب، و تعسف و أخفق فى جوانب غير قليله حيث بدت بحوثه غير معبره عن الواقع اللغوى و غير مستقاء من المسلك النحوى الأصيل الذى اختطه أئمة النحو و اللغه و سلكوه فى العصر الأول، و حينئذ فإنها لا تعدو أن تكون حديثا نظريا عقليا يعتمد على منطق ذهنى مجرد بعيد عن اللغه.

و أتى السيوطى و رأى انصراف القوم- فى عصره- عن أصول النحو و التأليف فيه، كما أنه لم يسبقه على مدى قرون طويله غير هذين الرجلين اللذين لم يتمكنوا من إرساء بناء قوى لعلم أصول النحو يكون بالنسبه للنحو كأصول الفقه بالنسبه للفقه، و كل ما أثر عن غيرهما إنما هو شذرات متناثره و عبارات مقتضبّه فى ثنايا كتب اللغه و النحو و الأدب. و قد نظر السيوطى فى صنع القوم قبله و حاول الافاده منه بما يناسب علم الأصول نافيا عنه ما هو خارج عنه، و يصف عمله و صفا دقيقا بقوله: «و اعلم أنى قد استمددت فى هذا الكتاب كثيرا من (۱) لمع الأدله فى أصول النحو ص ۸۰.

جلال الدين السيوطى عصره و ميّاته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۴۷

كتاب الخصائص لابن جنى فإنه وضعه فى هذا المعنى، و ليس مرتبا و فيه الغث و السمين و الاستطرادات، فلخصت منه جميع ما يتعلق بهذا المعنى بأوجز عبارة و أرسقها، و أوضحها معزوا إليه، و ضمنت إليه نفائس أخر ظفرت بها فى متفرقات كتب اللغه و العرييه و الأدب و أصول الفقه، و بدائع استخراجها بفكرى و رتبته على نحو ترتيب أصول الفقه فى الأبواب و الفصول و التراجم» (۱). و لم يغفل السيوطى الحديث عن ابن الأنبارى الذى سبقه فى هذا الميدان، فقد ذكر كتابيه فى الأصول و الجدل، و بين موضوعات الفصول التى تناولها الكتابان، ثم بين إفادته منهما بقوله: «و قد أخذت من الكتاب الأول- يقصد لمع الأدله فى أصول النحو- اللباب، و أدخلته معزوا إليه فى خلل هذا الكتاب، و ضمنت خلاصه الثانى فى مباحث العله، و ضمنت إليه من كتاب الانصاف فى مباحث الخلاف جمله و لم أنقل من كتبه حرفا إلا مقرونا بالعزو إليه ليعرف مقام كتابى من كتابه» (۲).

و توضح لنا العبارة الأخيرة إدراك السيوطى أن أهم من تناول أصول النحو قبله ابن الأنبارى، و أنه أراد بكتابه أن يفوق صنع سابقه. و يتميز عمل السيوطى عن سابقه بما يأتى:

أولا: الفهم الدقيق و المحدد لعلم أصول النحو، و موضوعه و أهدافه، فقد حدّه بأنه «علم يبحث فيه عن أدله النحو الاجماليه من حيث هى أدلته، و كفيّه الاستدلال بها، و حال المستدل» (۳)، و هو حد أكثر بيانا و تفصيلا من حد ابن الأنبارى الذى ذكر أن «أصول النحو أدله النحو التى تفرعت منها فروع و فصوله» (۴).

و قد حدد ابن جنى أدله النحو بثلاثه أدله هى السماع و الاجماع و القياس، و حددها ابن الأنبارى بأنها النقل و القياس و استصحاب الحال، فخلص السيوطى من ذلك إلى تحديدها بأربعه هى السماع و الاجماع و القياس (۱) الاقتراح ص ۲.

(۲) الاقتراح ص ۴.

(۳) المصدر السابق ص ۴.

(۴) لمع الأدله ص ۸۰.

جلال الدين السيوطى عصره و ميّاته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۴۸

و الاستصحاب، و ذكر أن هناك أدله أخرى تأتى فى مرتبه دون ذلك.

و قد بين السيوطى معنى الأدله الاجماليه و بين أن الأدله الاجماليه هى التى يتناولها بالبحث علم الأصول، أما الأدله التفصيليه كدليل جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار و أمثال ذلك فمجاله علم النحو نفسه، و ليس من مباحث أصوله.

و بين أن قوله: من حيث هى أدلته «بيان لجهه البحث عنها أى البحث عن القرآن بأنه حجه فى النحو لأنه أفصح الكلام سواء كان متواترا أم آحادا، و عن السنه كذلك بشرطها الآتى، و عن كلام من يوثق بعربيته كذلك، و عن اجتماع أهل البلدين كذلك، أى أن

كلا مما ذكر يجوز الاحتجاج به دون غيره، و عن القياس و ما يجوز من العلل فيه و ما لا يجوز» (١).

ثم شرح معنى كيفية الاستدلال مبينا أنه عند تعارض الأدلة و نحوه «كتقديم السماع على القياس و اللغة الحجازية على التميمية إلا لمانع، و أقوى العلتين على أضعفهما، و أخف الأقبحين على أشدهما قبحا» (١)، ثم بين معنى قوله «و حال المستدل» بأنه يتناول البحث في المستنبط للمسائل من الأدلة المذكورة: صفاته و شروطه و ما يتبع ذلك» (١).

ثانيا: ترتيب الكتاب بحسب ما يقتضيه علم الأصول، و هو ما لم يقم به ابن جنى فكتابه يحوى ما يتصل بالأصول و ما هو خارج عنها، كما أن ابن الأنباري لم يوفق في ترتيب كتابه، و أهم ما يميز كتاب السيوطي ترتيبه الموافق للموضوع، فإذا كان علم الأصول يبحث عن الأدلة الاجمالية و كيفية الاستدلال بها و حال المستدل، فقد تناول السيوطي كلا من هذه الأدلة في فصل مستقل سماه كتابا، فالكتاب الأول في السماع، و الثاني في الاجماع، و الثالث في القياس، و الرابع في الاستصحاب و الخامس في أدلة شتى، و السادس في التعارض و الترجيح، و السابع في أحوال مستنبط النحو.

و يعد هذا الترتيب على هذا النسق أو في ترتيب و أكثره دقة فيما يتصل بأصول (١) الاقتراح ص ٥.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره وجهوده في الدرس اللغوي، ص: ٣٤٩

النحو، و هو ما لم ينتبه إليه ابن الأنباري الذي ألف في الأصول من قبل.

و الواقع أن التدرج التاريخي و استقرار علم أصول الفقه بحيث درج الفقهاء على أن يبدؤوا مؤلفاتهم بالمقدمات اللغوية التي تهتم الأصوليين، ثم يتحدثون بعد ذلك عن الأصول الأربعة القرآن و السنة و الاجماع و القياس ثم يتبعون ذلك ببقية الأدلة، هو الذي حدا بالسيوطي إلى أن يرتب كتابه على النحو الذي انتهى إليه الفقهاء في أصولهم، و لعل هذا الترتيب لم يكن قد استقر عند وضع ابن الأنباري كتابه، و قد عبر السيوطي عن سبقه و ابتكاره في هذا الكتاب قائلا: إن «جمعه و ترتيبه صنع مخترع، و تأصيله و تبويبه وضع مبتدع» (١).

ثالثا: المقدمات التي قدم بها السيوطي لكتابه لم يتناولها ابن الأنباري، و قد تشتت و تفرقت بعضها في مباحث ابن جنى، بينما جمعها السيوطي و جعلها بمثابة المقدمات لهذا الكتاب، و قد تناول فيها باختصار شديد بين فهمه أنها مقدمات لهذا العلم و ليست من أصوله، تناول فيها حدود النحو و اللغة و القول في نشأة اللغة و مناسبة الألفاظ للمعاني، و الدلالات النحوية، كما تناول الحكم النحوي و قسمه كتقسيم الفقهاء للحكم الفقهي إلى واجب و ممنوع و حسن و قبيح و خلاف الأولى و جائز على السواء «فالواجب كرفع الفاعل و تأخيره عن الفعل، و جر المضاف إليه و تنكير الحال و التمييز و نحو ذلك، و الممنوع كأضداد ذلك، و الحسن كرفع المضارع الواقع جزاء بعد شرط ماض، و القبيح كرفعه بعد شرط المضارع، و خلاف الأولى تقديم الفاعل في نحو «ضرب غلامه زيدا»، و الجائز على السواء كحذف المبتدأ أو الخبر و إثباته حيث لا مانع من الحذف و لا مقتضى له» (١).

و هذا التقسيم تحت هذه المصطلحات الأصولية لا نجده عند ابن جنى و لا عند ابن الأنباري، و قد قسمه أيضا إلى رخصة و غيرها، فالرخصة ما جاز استعماله لضرورة الشعر و متفاوتات ضرورة حسنا و قبحا، و قد بين السيوطي مراتب الحسن و القبح في الضرورة الشعرية ممثلا بالأمثلة (٣). (١) الاقتراح ص ١٠.

(٣) الاقتراح ص ١١، ١٢.

جلال الدين السيوطي عصره وحياته و آثاره وجهوده في الدرس اللغوي، ص: ٣٥٠

كما تحدث عن تعلق الحكم بشيئين فصاعدا، و هو نفس ما تحدث عنه ابن الأنباري في جواز تعليل الحكم بعلتين (١)، و قد بحثه السيوطي في مباحث العلة بيد أنه في المقدمات عنى بما يتعلق به الحكم من أشياء قد يجوز أن تجتمع كمسوغات الابتداء بالنكرة فكل منها مسوغ على انفراده، و لا يتمتع اجتماع اثنين فأكثر، و منها ما لا يجوز اجتماعه كالتنوين مع الاضافة فهما خاصتان للأسماء و لا يجوز اجتماعهما، و قد أورد هنا أيضا بعض الأمثلة لكلا النوعين.

ثم يتحدث عن العربى و العجمى من الكلام فيتضح من حديثه أنه يطلق على المعرب اسم العجمى متابعا أبا حيان الذى قال: «العجمى عندنا هو كل ما نقل إلى اللسان العربى من لسان غيره» (٢)، ثم لخص السيوطى كيفية معرفة عجمة الاسم، و يعد ذلك خلاصة حديثه عنه فى كتابه المزهر.

ثم نقل السيوطى تقسيم الألفاظ إلى واجب و ممتنع و جائز و هو تقسيم عقلى نظرى لا تدفع إليه الحاجة اللغوية الحقيقية، و إنما يدفع إليه الكلف بتصنيف ظواهر اللغة أو ألفاظها تحت أقسام و بمصطلحات فقهية.

رابعا: تناول السيوطى الأدلة النحوية بالبحث التفصيلى من الناحية التى حددها و التى يعنى بها علم الأصول و هى البحث فى حجية هذه الأدلة و كيفية الاستدلال بها، فعقد الكتاب الأول للسمع و هو المصدر الذى اعتمد عليه النحاة و قد حدده بأنه «ما ثبت فى كلام للسمع و هو المصدر الذى اعتمد عليه النحاة و قد حدده بأنه «ما ثبت فى كلام من يوثق بفصاحته فشمّل كلام الله تعالى و هو القرآن، و كلام نبيه صلى الله عليه و سلم، و كلام العرب قبل بعثته، و فى زمنه و بعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين نظما و نثرا عن مسلم أو كافر» (٣).

ثم أخذ فى تفصيل الحديث عن حجية كل نوع من أنواع المادة اللغوية، و لم يقم ابن جنى و لا ابن الأنبارى بمثل هذا العمل، و لم نجده عند غير السيوطى إلا فى بعض إشارات يسيرة و مقتضبة استطاع السيوطى أن يجمعها و أن يدخلها ضمن حديثه، فضم شملها بعد تفرق فى كتب اللغويين، و قد نظّم هذا الفصل (١) ابن الأنبارى: لمع الأدلة ص ١١٧.

(٢) الاقتراح ص ٢٣.

(٣) الاقتراح ص ١٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٥١

تنظيما دقيقا ضم خلاصة المنقول عن القدماء فيما يتصل بالمادة اللغوية و كيفية الاحتجاج بها، و من يوثق به و من لا يوثق، و كيفية تصنيفها، و أحوال الناطقين، و ما لا يجوز الاحتجاج به.

و فى بقية فصول الكتاب نرى للسيوطى ابتكارات جديدة تم عن فهم عميق لنصوص السابقين و محاولته لتهديب علم أصول النحو و تحديد مسائله تحديدا قاطعا فنراه يقرر القاعدة فى أحيان كثيرة ثم يورد من النقول ما يدل عليها.

و قد استطاع بعمله هذا أن يجمع خلاصة أقوال السابقين و أن يتمثلها ثم يرتبها ترتيبا يتناسب مع علم الأصول مضيفا إليها بعض أفكاره، كما استطاع أن يضم إليها مباحث جديدة أغفلها من تحدث فى أصول النحو قبله، و مما أغفله ابن جنى و ابن الأنبارى معا فضلا عما قدمنا البحث عن أحوال مستنبط النحو الذى عقد له السيوطى الفصل السابع من كتابه (١).

و يعد كتاب السيوطى من هذه الناحية أهم الكتب التى تناولت أصول النحو، بل إننا لا نكون مغالين إذا قلنا إن أصول النحو بالمعنى العلمى الدقيق لم يوضع فيها غير كتاب السيوطى.

و نستطيع من خلال هذا الكتاب تبين المنهج النحوى بصورة جلية، و الفروق بين البصريين و الكوفيين فى المنهج.

كما نستطيع تبين مواقف السيوطى من بعض القضايا الهامة فى الأصول فله موقف حاسم تجاه الاحتجاج بالقرآن الكريم و قراءاته حيث ذهب إلى أن: «كل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به فى العريية سواء كان متواترا أم آحادا أم شاذ، و قد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة فى العريية إذا لم تخالف قياسا معروفا، بل و لو خالفته يحتج بها فى مثل ذلك الحرف بعينه، و إن لم يجز القياس عليه، كما يحتج بالمجمع على وروده و مخالفته القياس فى ذلك الوارد بعينه و لا يقاس عليه نحو «استحوذ»، و ما ذكرته من الاحتجاج بالقراءات الشاذة لا أعلم فيه خلافا بين النحاة، و إن اختلف فى الاحتجاج بها فى الفقه، (١) الاقتراح ص ٨٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٥٢

و من ثم احتج على جواز إدخال لام الأمر على المضارع المبدوء بباء الخطاب بقراءة: «فبذلك فلتفرحوا»، كما احتج على إدخالها على

المبدوء بالنون بالقراءة المتواترة: «و لنحمل خطاياكم»، واحتج على صحة قول من قال: ان «الله» أصله «لاه» بما قرئ شاذًا: «و هو الذى فى السماء لاه و فى الأرض لاه» (١).

وقد خطأ السيوطى قوما من النحاة كانوا يعيرون على عاصم و حمزة و ابن عامر قراءات بعيدة فى العربية، و ذلك لأن معول ثبوت القراءات إنما هو على الرواية و ليس على موافقة الأصول النحوية (٢).

و الذى نلاحظه أن موقف المتقدمين من النحاة فيه غير قليل من التعسف تجاه الاحتجاج بالقراءات القرآنية لا سيما ما خالف القواعد النحوية، و نلاحظ تغير النظرة عند المتأخرين الذين جوزوا بعض الاستعمالات مستندين إلى بعض القراءات كاعتماد ابن مالك على قراءة ابن عامر «قتل أولادهم شركائهم» فى تقرير جواز الفصل بين المضاف و المضاف إليه بمعمول المضاف، و هى القراءة التى أنكرها البصريون و الزمخشري (٣) و قد تبع المتأخرين من النحاة ابن مالك فيما ذهب إليه، و هناك أمثلة أخرى تدل على تغير موقف المتأخرين من النحاة عن موقف المتقدمين على النحو الذى بيناه.

و يتخذ السيوطى موقفا وسطا فى الاحتجاج بألفاظ الحديث الشريف و تراكيبه بين المجيزين مطلقا و المانعين مطلقا و قد عبر عن ذلك بقوله: «و أما كلامه صلى الله عليه و سلم فيستدل منه بما ثبت أنه قاله على اللفظ المروى، و ذلك نادر جدا» (٤).

وقد نقل عنه هذا رأى البغدادي فى مقدمة خزانه الأدب (٥)، و قد رأينا اتساق موقف السيوطى مع ما قرره فى أصوله فى تناوله لبعض الأحاديث و فى كتبه النحوية المختلفة. و فيما يتصل بكلام العرب الذين يحتج بهم تبع السيوطى (١) الاقتراح ص ١٥، ١٦.

(٢) الاقتراح ص ١٦.

(٣) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ج ٢ ص ٢٧٦، حاشية الصبان ج ٢ ص ٢٧.

(٤) الاقتراح ص ١٦.

(٥) خزانه الأدب ج ١ ص ٢٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٥٣

التحديد المتعارف عليه عند اللغويين و هو اختتام الشعراء الذين يحتج بهم بابن هرمه، بيد أنه زاد على هذه المادة اللغوية مصنفات الامام الشافعى و هو ما لم يشر إليه أحد من النحاة قبله، و قد اعتمد فى ذلك على قول ابن حنبل: كلام الشافعى فى اللغة حجة (١)، و قد وجدنا محقق رسالة الشافعى فى عصرنا يعتمد على هذا القول محاولا استخراج بعض الأبيسة النحوية الجديدة من استقراء أسلوب الشافعى و عباراته.

و يتسم موقف السيوطى فى بعض الأحيان بالتساهل فى قبول المرويات فهو لا ينتقد موقف الزمخشري الذى احتج فى تفسيره بيت لأبى تمام بل يقره فى ذلك (٢)، حيث ذهب الزمخشري إلى أن أبا تمام و إن كان محدثا لا يحتج بشعره فى اللغة إلا أنه من علماء اللغة فنجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، و يبرر السيوطى ذلك بأن ما تقرر من إجماعهم على أنه لا يحتج بكلام المولدين و المحدثين فى اللغة و العربية خاص بغير أئمة اللغة و روايتها.

وقد قوبل مسلك الزمخشري السابق بانكار شديد لدى النحاة، و قد ردّ البغدادي على تعليقه بأن «قبول الرواية مبنى على الضبط و الوثوق، و اعتبار القول مبنى على معرفته أوضاع اللغة العربية و الاحاطة بقوانينها، و من البين أن إتقان الرواية لا يستلزم إتقان الدراية» (٣).

على أن ما ساد فى البيئة النحوية هو عدم الاحتجاج بأقوال المولدين سواء أ كانوا من رواة اللغة و علمائها أم من غيرهم، و ما أجازته السيوطى لم يطبقه أحد من النحاة. و قد اعتمد البغدادي فى حديثه عن اللغة التى يصح الاستشهاد بها فى كثير من الأحيان على ما أورده السيوطى بكتابه، و إن أغفل العزو فى النقل إليه.

بيد أننا للانصاف نأخذ على السيوطى و سابقه ابن الأنبارى و ابن جنى أن (١) الاقتراح ص ٢٠.

(٢) الاقتراح ص ٢٦، ٢٧.

(٣) خزائن الأدب ج ١ ص ٢١.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٥٤

ربطهم أصول النحو بأصول الفقه قد ساقهم إلى بحث بعض المسائل بأسماء أى مصطلحات فقهية ليس لها واقع فعلى فى اللغة، أو تناول أخرى بطريقة عقلية جدلية لا تتصل أيضا باللغة، و هم بذلك قد وضعوا فى أصول النحو ما ليس منه، و أهم هذه المسائل التى دخلت أصول النحو أثرا من آثار أصول الفقه ما يأتى:

١- بعض المسائل المتصلة بالقياس، و التى ضخم بها هؤلاء بحث القياس دون حاجة داعية إليه فى اللغة، حيث أرادوا أن يكون للنحو قياس شبيه بالقياس الفقهى يحدونه بأنه «حمل فرع على أصل بعلة و إجراء حكم الأصل على الفرع»، أو «إلحاق الفرع بالأصل بجامع»، أو «حمل غير المنقول على المنقول إذا كان فى معناه» أو غير ذلك من الحدود التى تطابق حد القياس الأصولى «١». و إذا كان الأصوليون قد حددوا أركان القياس بأربعة أركان هى الأصل و الفرع و العلة الجامعة و الحكم فقد نقل ابن الأنبارى و تبعه السيوطى هذا التحديد إلى القياس النحوى، و مثل ابن الأنبارى لهذا القياس قائلا: «و ذلك مثل أن تركب قياسا فى الدلالة على رفع ما لم يسم فاعله فتقول: اسم أسند الفعل إليه مقدما عليه فوجب أن يكون مرفوعا قياسا على الفاعل، فالأصل هو الفاعل و الفرع هو ما لم يسم فاعله، و العلة الجامعة هى الاسناد و الحكم هو الرفع، و الأصل فى الرفع أن يكون للأصل الذى هو الفاعل، و إنما أجرى على الفرع الذى هو ما لم يسم فاعله بالعلة الجامعة التى هى الاسناد، و على هذا النحو تركيب قياس كل قياس من أقيسة النحو» «٢»، و قد نقل السيوطى هذا النص عن ابن الأنبارى خلال حديثه عن القياس «٣»، و لم يعقب عليه بما يبين أنه نوع مخالف للقياس النحوى الحقيقى الذى تستخرج به الأحكام النحوية، فالواقع أن القياس بهذا المعنى حادث من العرب أنفسهم، و نحن لم نستخرج الحكم النحوى عن طريقه، فالرفع فى نائب الفاعل إنما استفدناه عن طريق (١) ابن الأنبارى: لمع الأدلة ص ٩٣، السيوطى: الاقتراح ص ٣٨.

(٢) ابن الأنبارى: لمع الأدلة ص ٩٣.

(٣) الاقتراح ص ٣٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٥٥

استقراء المنقول عن العرب إذ استفاض عنهم رفع الاسم مع الفعل المبنى للمجهول بصورة تبين أنهم يريدون لهذا الاسم الرفع فى كل موضع، فالقياس السابق قياس متكلف مصنوع لا- يفيد إثبات الحكم و إنما يحاول تعليل ما جاء عن العرب، فهو ليس إلا ضربا من ضروب التعليل التى تحاول تلمس الحكمة و استخراجها من صور اللغة و أوضاعها.

و بالرغم من أن السيوطى لم يفرض فى الحديث عن هذا النوع من القياس فإننا نأخذ عليه وضع هذا النقل بين بحثه المستفيض الذى تناول به القياس اللغوى الحقيقى مينا شروطه و أحكامه.

و مما أدخله السيوطى فى القياس اللغوى تأثرا بأصول الفقه و ليس له ثمرة عملية تقسيمه القياس إلى أربعة أقسام: «حمل فرع على أصل، و حمل أصل على فرع، و حمل نظير على نظير، و حمل ضد على ضد، و ينبغى أن يسمى الأول و الثالث قياس المساوى، و الثانى قياس الأولى و الرابع قياس الأدون» «١»، و قد مثل له بأمثله تدلنا على أنه لم يكن ينبغى أن يوضع مع مبحث القياس الحقيقى الذى تستنبط به الأحكام النحوية، و إنما مكانه الفلسفة النحوية التى تحاول تعليل الصور اللغوية و ارتباطها ببعضها ببعض، حيث يحاول هؤلاء النحاة التدليل على أن اللغة تسير فى ذلك مراعية منهجا قياسيا معروفا. فهى ليست غير محاولات لإقامة أشكال قياسية مما هو كائن فى اللغة، و لا تفيدنا أحكاما نلحق بها ما لم يسمع بما سمع أو نحو ذلك مما هو شأن القياس النحوى الحقيقى.

و استخراج هذه الأشكال القياسية أشبه ما يكون بصنيع الفقهاء الذين يتلمسون ضروبا من هذه الأقيسة فى نصوص الكتاب و السنة، و يستدلون بذلك على حجية استخدام القياس فيما بعد أصلا من أصول التشريع «٢».

٢- بعض ما يتعلق بالعلل النحوية، و نلاحظ أن دراسة العلل النحوية عند (١) الاقتراح ص ٤٢.

(٢) ابن القيم: إعلام الموقعين ج ١ ص ١١٤-١٧٢.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٥٦

ابن جنى و ابن الأنبارى و السيوطى متأثرة بالعلّة الفقهيّة و العلة الكلامية، و قد طرقوا لذلك نفس الموضوعات التى طرقها الفقهاء من قبلهم، و بدا أن بعض ما يفيضون فيه لا يعبر عن واقع اللغّة كحديث ابن الأنبارى عن الحكم فى محل النص و ثبوته: أ بالنص أم بالعلّة «١»؟، و قد نقل عنه السيوطى ذلك، بينما لا نرى لهذا المبحث ثمرة عملية فى اللغّة، و حديث السيوطى عن مسالك العلة «٢»، الذى أفاض فى بحثه و ترسم فيه خطى الفقهاء، و قد سبقه ابن جنى ببحث مستفيض فى العلل النحوية.

٣- اعتبار ابن جنى الاجماع دليلا من أدلّة النحو، و تابعه السيوطى فى ذلك، و قد عدّه السيوطى الدليل الثانى بعد السماع، و هم يريدون به إجماع نحاة البلدين، و ليس هنا برهان واقعى يمكن أن نستند إليه فى اعتبار الاجماع حجة فى اللغّة، و بالرغم من شعور ابن جنى و السيوطى بذلك فإنهما تأثرا بالفقه و ترسما له قد اعتبرا من أدلّة النحو، و زاد السيوطى بأن جعله الدليل الثانى، و خصص له الفصل الثانى من كتابه «٣».

و بالرغم مما شاب كتاب الاقتراح من الخلط بين نوعى القياس، و من تناول بعض المسائل التى لا تعبر عن الواقع اللغوى السليم، و لا تؤدى إليه فائدة، فإننا نجد فيه كذلك تعبيراً عن المنهج النحوى بحيث يعد أهم الكتب التى تمثل علم أصول النحو فى نهاية تدرجه عند القدماء.

و قد تناوله ابن علان بشرح كبير نلاحظ فيه أنه لم يخالف السيوطى فى غالب أقواله، بل يدل حديثه أثناء الشرح على إكباره الشديد له، فهو يذكر عن السيوطى أنه «مخض لبان علم العربية حتى أخرج بحسن صنيعه هذه الزيادة فجعلها أصلا لما تفرعت عنه و خرجت منه، و قد تدرك العناية الأخير فينال ما يجبر و صمّة التأخير» «٤».

و هو يريد بقوله أن عمله قد فاق به المتقدمين، و أبدع فيه ما لم يبدعوا. (١) لمع الأدلّة ص ١٢١، الاقتراح ص ٥١.

(٢) الاقتراح ص ٥٨.

(٣) الاقتراح ص ٣٥.

(٤) شرح ابن علان على الاقتراح (مخطوط) ص ٥، ٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٥٧

مذهب النحوى

السيوطى نحوى متأخر نشأ فى البيئّة المصريّة التى سبق لنا الحديث عن معالمها الثقافية و الاجتماعية و السياسية، و لقد كانت هذه البيئّة. و ارثه الحضارة الاسلاميّة بصفة عامّة كما بنا، و قد آل إليها ذلك التراث الثقافى الذى ازدهر فى الأمصار الاسلاميّة المختلفة، فقامت هذه البيئّة على تمثله و حفظه و دراسته و تنميته.

كان طبيعيا أن تتأثر دراسة النحو فى مصر بهذا التراث الذى قامت على حفظه، و نحن نعرف أن هذه البيئّة قد سبقتها بيئات أخرى توفرت على دراسة النحو.

و قد درج الباحثون على تسمية هذه البيئات النحوية بالمدارس، بالرغم مما فى هذه التسمية من بعض التجوز حيث نلاحظ الفروق الفردية فى بعض الأحيان أكثر ظهورا من الفروق المدرسية، فالأخفش البصرى مثلا نراه يوافق الكوفيين فى كثير من آرائه، و يخالف البصريين سلفه و خلفه، كما نرى الفراء الكوفى يتابع سيبويه فى أحيان غير قليلة، على حين يتابع المبرد الكسائى فى أحيان أخرى، و بالرغم من ذلك فلا بأس أن نتناول هذه البيئات أو المدارس بالتعريف بمميزات العامة لنخلص إلى البيئّة المصريّة التى ورثت هذه

الدراسات و كان السيوطى أحد نحاتها.

و قد وضع النحو العربى بالبصرة، و كان للخليل و سيبويه الفضل فى إرساء أركانه، و وضع أصوله، و ليس من المبالغة أن نقول: ان جهود النحاة بعد سيبويه تدور فى محوره أو مجاله و تعتمد عليه، و الكوفيون الذين عاصروه و استمروا بعده قد أفادوا من جهوده التى نقلها إليهم تلميذه الأخفش، و ربما يكون بحث هذه الطبقة من النحاة و تبين آرائها النحوية أكثر تشويقا و جدوى جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٥٨

من بحث المتأخرين الذين ورثوا علم النحو بعد أن نضح و كاد يحترق.

و يمكننا أن نجمل ما امتازت به المدرسة البصرية التى وضع أوائلها النحو و استمرت جهودها متضافرة حقبة من الزمن حتى أواخر القرن الثالث الهجرى فيما يأتى:

١- التثبت فى المادة اللغوية التى يحتج بها، و تحديد القبائل، فليس كل ما يروى يصح الاستشهاد به، و قد أنكروا على الكوفيين اعتمادهم على الأعراب المقيمين فى سواد الكوفة و هجاهم اليزيدى البصرى منكرًا عليهم ما يحتجون به «١».

٢- يقيم البصريون أقيستهم على الكثير الشائع عن العرب، و يغفلون القليل و الشاذ، و من ثم وصفوا بأنهم «أصح قياسا لأنهم لا يلتفتون إلى كل مسموع و لا يقيسون على الشاذ» «٢».

٣- أنهم لا يعولون على قياس التمثيل و هو القياس عند انعدام الشاهد أى انعدام المنقول و ذلك بقياس باب على باب آخر الا فيما ندر.

فمذهب البصريين يتسم بالتنظيم و محاولة تعميم الأقيسة و طردها، و هو كذلك يمثل مذهب اللغويين المتشددين الذين لا يبيحون القياس إلا على ما ورد بكثرة و يمنعون القياس على الأمثلة القليلة، و يقفون فيما ورد منها على السماع، و تمثل العقلية البصرية العقلية العلمية الصحيحة التى تحاول وضع القوانين المطردة، و نجد لديها القدرة على التعميم و التعريف و وضع القواعد و المصطلحات العلمية، و هذا هو السر فى سيطرة النحو البصرى على المدارس النحوية التالية:

فإذا ما اتجهنا نحو بيئة الكوفة و مذهبها رأينا نظرة أخرى فى اللغة و أساليبها، فأهم خصائصهم:

١- أنهم أقل تثبتا و تشددا فى قبول المادة اللغوية التى تتخذ مصدرا للقياس، (١) ابن الأنبارى: نزهة الألباء ص ٥٥.
(٢) الاقتراح ص ٨٤.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٥٩

كما أن الأعراب الذين سمعوا منهم متهمون فى نظر البصريين، يضاف إلى ذلك أنهم وقفوا على قدر أكبر من المادة اللغوية لما عرف عنهم من عنايتهم القديمة برواية الأشعار فهم كما وصفوا «أوسع رواية» «١». كما أنهم كانوا أكثر عناية بالقراءات القرآنية و ربما كان ذلك سببا فى كونهم أكثر توسعا فى القياس.

٢- أنهم أكثر توسعا فى القياس و إباحة له، و لذلك فهم يقيسون على القليل و على ما يعده البصريون شاذًا لا يجوز القياس عليه، قال الأندلسى: «الكوفيون لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شىء مخالف للأصول جعلوه أصلا، و بوبوا عليه بخلاف البصريين» «٢».

٣- أنهم يعولون أكثر من البصريين على قياس التمثيل و هو القياس على ما لم يرد به نقل كإجازتهم «قام زيد لكن عمرو» مع أنه لم يرد به نقل قياسا على ما ورد فى باب آخر و هو «بل» من نحو «قام زيد بل عمرو»، و قد منع البصريون ذلك «٣».

تلك أهم الخصائص التى ميزت كل مدرسة عن صاحبها، و يتضح منها أن الاختلاف بين المدرستين ينحصر فى كمية الاستقراء، و كمية المادة اللغوية، ثم فى قبول هذه المادة تبعا لاعتبارات نقد الرواية، ثم الاختلاف فى المذهب النحوى القياسى الذى يبيح القياس على القليل أو لا يرضى إلا بالكثير المستفيض، و يتضح من ذلك أن عقلية البصريين أكثر جنوحا إلى التنظيم و طرد الأقيسة.

و قد عللت كلتا المدرستين ما استنبطته من أقيسة نحوية. و خالفت به المدرسة الأخرى بعقلية و نقلية تدل فى كثير من الأحيان

على فهم عميق للأسرار اللغوية و التركيبية لا سيما ما نراه من هذه العلل فى كتاب سيويه قبل أن يتعقد التعليل و تتشعب به السبل، أى عند ما كان موصول الأسباب باللغّة و ظواهرها و خصائصها غير مشروط فى التجريد العقلى. (١) الاقتراح ص ٨٤.

(٢) الاقتراح ص ٨٤.

(٣) همع الهوامع ج ٢ ص ١٣٧.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٦٠

و لم يبق أمام المدارس التالية فى الغالب سوى الترجيح بين المدرستين السالفتين و اختيار ما يتجه منه فى أنظار النحاة، أو استخراج بعض الأقيسة الجديدة بناء على إعادة النظر فى بعض الاستقراءات، أو استحضار مادة لغوية جديدة.

فإذا نظرنا فى عمل البغداديين الذين عرفتهم بغداد منذ أواخر القرن الثالث الهجرى وجدناهم يمزجون بين المذهبين السابقين بعد أن مرّ عليهم حين من الدهر ينتصر كل منهم لمذهب من المذاهب، و لذلك فالطبقة الأولى من البغداديين يغلب على رجالها التحيز إما إلى مدرسة البصرة أو إلى مدرسة الكوفة، و كأنها بذلك ليست غير امتداد لهاتين المدرستين، و قد كان ذلك نتيجة لانتقال رجال المدرستين السابقتين إلى بغداد، فقد انتقل إليها المبرد شيخ البصريين، و ثعلب شيخ الكوفيين.

و أشهر من عرف من البغداديين بمالأة البصريين و نصرتهم أبو إسحاق الزجاج (٣١٠ هـ) و قصته مع ثعلب و انتقاده كتاب الفصيح انتصافا لسيويه مشهورة و متناقلة فى الكتب «١»، و ابن السراج (٣١٦ هـ)، و الزجاجى (٣٣٧ هـ)، و ممن غلبت عليهم النزعة الكوفية أبو موسى الحامض (٣٠٥ هـ)، و أبو بكر بن الأنبارى (٣٢٧ هـ)، و هناك علماء جمعوا بين النزعتين كابن كيسان (٢٩٩ هـ)، و الأخصف الصغير (٣١٥ هـ).

و لم يلبث أن قوى اتجاه الجامعين بين النزعتين دون تعصب، مما أدى إلى المزج بينهما و الترجيح و التفضيل فنشأ مذهب جديد يعتمد على الترجيح و النظر فى المذهبين السابقين مع زيادات و فروق قليلة و هو المذهب البغدادى، و قد كانت البادية إلى ذلك الحين لا تزال معينا لا ينضب للمادة اللغوية الأصلية مما أدى إلى استقراء مادة جديدة كانت ذات أثر فى استخلاص بعض الأقيسة التى لم تعرف من قبل أو ترجيح بعضها على بعض.

و هناك قواعد ركن فيها البغداديون إلى المذهب الكوفى، و أخرى ركنوا فيها (١) السيوطى: المزهج ج ١ ص ٢٠٢-٢٠٧، و قد نقلها عن معجم الأدباء لياقوت.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٦١

إلى مذهب البصريين، و جانب ثالث استدر كوه على المذهبين «١».

و من الملاحظ أن مذهب البغداديين فى أول أمره كان ينزع منزع الكوفة لغلبة الكوفيين على بغداد و ارتفاع شأنهم فيها، نظرا لصلاتهم القوية بالدولة فى حين أن المتأخرين من البغداديين قد فضلوا المذهب البصرى، و يتضح ذلك عند أبى على الفارسى و ابن جنى اللذين قد ينسبان نفسيهما فى بعض الأحيان إلى البصريين كما يظل ذلك شأن من خلفهم كابن الشجرى (٥٤٢ هـ)، و تلميذه ابن الأنبارى (٥٧٧ هـ)، الذى يتضح فى إنصافه تفضيله للمذهب البصرى.

فإذا ما يمنا و جوهنا ناحية المغرب وجدنا بيئة الأندلس التى بدأ النشاط النحوى فيها خافتا، و كان فى أول أمره تابعا لما يحدث بالمشرق، و معتمدا عليه، و لم تلبث دراسة النحو بالأندلس أن أخذت تستقل بطابع يميزها عن تبعيتها للمشرق فمنذ أواخر القرن الخامس ازدهرت هذه الدراسة، و عكف النحاة على ما لديهم من مادة لغوية يستقرونها، و ينظرون فيما أنتجت المدارس الثلاث السابقة فيرجحون بينها، و يختارون ما يتجه عندهم، و يزيدون ما تؤديه لهم استقراءاتهم الجديدة لا سيما أن المادة اللغوية قد أصبحت فى ذلك الحين بالمشرق و المغرب مقصورة على ما روى و حفظ فى بطون الكتب حيث نصب معين البادية منذ تنادى العلماء فى منتصف القرن الرابع الهجرى بوجوب ترك الأخذ عن أهل الوبر كما ترك الأخذ عن أهل المدر «٢».

وقد عرفت الأندلس كثيرا من الأعلام الذين حملوا لواء النحو بها كالأعلم الشنتمرى (٤٧٦هـ)، و ابن السيد البطلوس (٥٢١هـ)، و السهيلي (٥٨١هـ)، و غيرهم، و أهمهم على الاطلاق ابن مالك (٦٧٢هـ) و أبو حيان (٧٤٥هـ)، و الشاطبي (٧٩٠هـ)، و قد رحل بعضهم إلى المشرق و أثر فى نحاء البيئه المصرية إلى حد كبير.

و قد توسع ابن مالك فى الاستشهاد بالحديث و أباح ذلك مطلقا، و قد أنكر (١) محمد الطنطاوى: نشأة النحو ص ١٤٦، ١٤٨. (٢) ابن جنى: الخصائص ج ٢ ص ٥.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٦٢
عليه هذا الاتجاه، فى حين أنكر أبو حيان الاستشهاد بالحديث مطلقا، و توسط الشاطبي فأباح الاستشهاد فى الأحاديث التى يعلم أن العناية فيها متجهة إلى نقلها بألفاظها.

و قد أحدث ابن مالك لفته نحوية شغلت القوم بمنظومته التى وضعها و توفر على شرحها معظم النحاء من بعده، و كان له اختيارات من مذاهب البصريين و الكوفيين و البغداديين و سابقيه من الأندلسيين، بالاضافة إلى اجتهاده الفردى، و قد وقف موقفا جديدا تجاه الشاذ الذى يجعله الكوفيون أساسا صالحا للقياس عليه، و يمنع البصريون القياس عليه و يعمدون إلى تأويله و لو كان فى ذلك من التكلف غير قليل، أما ابن مالك فانه «يحكم بوقوع ذلك من غير حكم عليه بقياس و لا تأويل بل يقول إنه شاذ أو ضرورة ... قال ابن هشام: و هذه الطريقة طريقة المحققين و هى أحسن الطريقتين» (١).

لذلك لقي مسلك ابن مالك استحسانا من النحاء المتأخرين و منهم السيوطى، و قد أثر الأندلسيون بصفة عامة، و ابن مالك بصفة خاصة فى البيئه المصرية حيث رحل كثير منهم إلى مصر أو إلى الشام، و أقاموا عاكفين على الدرس بعد أن أخذت دوله الأندلس فى الذبول.

و يهمننا الحديث عن البيئه المصرية فى عصر المماليك الذى ظهر السيوطى فى أواخره، و النشاط النحوى فى هذا العصر متميز عنه فى العصور السابقة، فبالرغم مما عرفته مصر من ألوان هذا النشاط قبل ذلك، و من ظهوره كثير من النحاء بها فانهم فى الغالب كانوا تابعين للمدارس الثلاث الأول مع ترجيح بين آرائها، و بعض اجتهادات خاصة.

و قد وفد على مصر فى القرنين السابع و الثامن للهجرة بعض نحاء المغرب و الأندلس الذين أحدثوا بالبلاد نشاطا كبيرا، و نبغ على أيديهم أئمة النحو فى مصر، فمنهم ابن معط المغربى (٦٢٨هـ) صاحب المنظومه التى أشار إليها ابن مالك، و ابن مالك و أبو حيان و غيرهم، و لا تلبث البيئه المصرية فى ذلك الحين (١) الاقتراح ص ٨٦.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٦٣

أن تصيح ملاذ علماء المشرق و المغرب بعد سقوط بغداد و ايدان شمس الأندلس بالمغيب.

و تنشط الدراسة النحوية، و يرى العلماء بالبلاد أن عليهم مسئولية القيام على تراث المشرق و المغرب.

و نلاحظ أن بعض النابيين من نحاء مصر قد جمع بين دراسة الأصول و دراسة النحو كابن الحاجب (٦٤٦هـ) و غيره، و قد وصل هؤلاء جميعا النحو بغيره من العلوم التى درسوها، و حاولوا الافادة منه فى دراسة النصوص، و هذا الاتجاه و ان كان أصيلا فى طبيعة البحث النحوى فان المصريين قد توسعوا فيه (١).

و أهم نحوى ظهر فى مصر بعد ذلك ابن هشام (٧٦١هـ)، و قد خلف مصنفات عديدة أهمها «المغنى»، و قد اختط منهجه معتمدا على الترجيح بين البصريين و الكوفيين و من تبعهم من النحاء، و اختيار الأصلح فى نظره، و كانت له قدرة كبيرة على التعليل و التخريج، و كثيرا ما يتكرر آراء جديدة لم يسبق إليها لا سيما فى توجيهاته الاعرابية، و الجدير بالذكر أن السيوطى كان يقول عن نفسه: إنه لم يظهر بمصر بعد ابن هشام من يستحق أن يوصف بالاجتهاد فى العربية غيرى. و كان ابن هشام يميل إلى المذهب البصرى. و أكثر المتأخرين ترجيحاً للمذهب الكوفى و متابعه له ابن مالك، و قد خالفه أغلب نحاء مصر الذين ناصرُوا فى كثير من الأحيان آراء

سيبويه و المدرسة البصرية، و نلاحظ ذلك لدى ابن عقيل فى شرحه على الألفية.

ظهر السيوطى فى أوج ازدهار النشاط النحوى مسبقا بهذا الركام الضخم من المؤلفات النحوية، و قد آل إلى بيئته تراث البيئات السالفة، و قد تأثر السيوطى بالنحاة السابقين له لا سيما الذين أثروا فى البيئته المصرية كابن مالك و أبى حيان، و بنحاة هذه البيئته كابن هشام، و قد تابع السيوطى عرف النحويين فى عصره فى تصنيف مؤلفاته، فقد درجوا على شرح منظومة ابن مالك فأفرد لها شرحا، كما راجت لديهم مصنفات ابن الحاجب و ابن مالك و ابن هشام و قد كان (١) د. سيد خليل: مصر فى تاريخ النحو ص ٦٩، مقال بمجلة كلية الآداب مجلد ١٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٦٤

كتاب «النكت» الذى وضعه السيوطى استجابة لهذا الاتجاه، بيد أن السيوطى قد ظهرت شخصيته الواعية و عقليته النحوية المحددة فى هذا الكتاب إلى أكبر حد.

و لم يكتب السيوطى بأن يعكف على دراسة كتب المتأخرين من الأندلسيين و المصريين، و ينتقدها أو يشرحها، و لكنه أراد- كما هو شأن العصر- أن يصنف فى النحو موسوعة تشمل جميع أبوابه و مباحثه، و قد فعل ذلك بنجاح فى كتاب «جمع الجوامع» الذى شرحه «بهمع الهوامع»، و مصنفات السيوطى التى عرضنا لها آنفا تبين لنا جهوده الخصبه و الوفيرة فى الدرس النحوى.

على أن هذه الكتب تمثل بحق ذلك العصر الذى عنى بالجمع و الترتيب و التنسيق، و تنوع المصنفات ما بين مختصر و مطول و متن و شرح و منظوم و منشور و موشح. و لكن ذلك لا يعنى انصراف عنايته إلى النواحي الشكلية دون المضمون، و لا يغض ذلك منه نحويا كبيرا عرفته البيئته المصرية، و أسهم بدور كبير فى العمل النحوى.

و الحقيقة أنه إنصافا لهؤلاء النحاة ينبغى أن نقول إن النحويين جميعا بعد الخليل و سيبويه لم يكن إبداعهم و ابتكارهم إلا فى حدود ضيقة إذا ما قورنت بصنيع الرجلين من قبل، و يمكن أن نقول: إن النحاة جميعا بعد مدرستى الكوفة و البصرة قد قلت لديهم الابتكارات النحوية و أصبحت مذاهبهم فى غالبها ترجيحاً لآراء احدى المدرستين السالفتين، و مع ذلك فلا يمنع هذا من تناول كل منهم منفردا لبيان مقدار جهوده و استيضاح منهجه و الوقوف على اجتهاداته.

و يتميز السيوطى بتقصى الموضوعات النحوية التى يعرض لها، و محاولة استيفاء جزئياتها و الاستدراك على النحاة بعض ما فاتهم، كما أنه فى منهجه يتبع ما تميزت به المدرسة المصرية فى التخير من آراء المدارس السابقة مع شىء من التغليب لمذاهب الأندلسيين، و يتخير من آراء النحاة السابقين عموما ما تتجه عله، و تستبين براهينه، و من حين إلى آخر نظفر بآراء خاصة له أو مفاهيم جديدة تجاه بعض المسائل.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٦٥

فمن اختيارات السيوطى أن الأسماء قبل تركيبها فى الجمل لا مبنية و لا معربة، و البناء رأى ابن الحاجب و ابن مالك، و الاعراب رأى الزمخشري، و القول بالواسطة رأى أبى حيان و اختيار السيوطى «١».

و قد يخالف السيوطى سيبويه و الجمهور و يرجح آراء غيرهم كاختياره إعراب «أى» الموصولة فى جميع حالاتها فى حين يذهب سيبويه و الجمهور إلى بنائها على الضم إذا أضيفت و حذف صدر صلتها مستدلين بقوله تعالى: **ثُمَّ لَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْتَهُمْ أَسْدٌ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْتًا**، و قد تبع فى ذلك الأخفش و الزجاج و احتج لرأيه بقول الجرمى: «خرجت من الخندق يعنى خندق البصرة حتى صرت إلى مكة لم أسمع أحدا يقول: اضرب أيهم أفضل بل كلهم ينصب و لا يضم»، و ببعض القراءات التى نصبتها، و يؤكد قوة إعرابها ما ذهب إليه ابن مالك و احتج به السيوطى من أنها تعرب فى باب الشرط و الاستفهام «٢»، و إعرابها أيضا استظهر السيوطى أنه قول الخليل و يونس «٣» و الكوفيين.

و من المتفق عليه فى الممنوع من الصرف أنه يجر بالكسرة إذا أضيف أو دخلت عليه «ال» و اختلف: هل هو مصروف فى هذه الحالة

أم أنه باق على منعه من الصرف؟، و قد رجح السيوطى رأى السيرافى و الزجاج فى كونه مصروفاً لأنه دخله خاصية من خواص الاسم فضعف فيه شبه الفعل «٤».

و يختار السيوطى رأى الكوفيين الذى يتوسع فى القياس و هو إجازة بناء سداس و مسدس و سباع و مسبع و ثمان و مئمن و تساع و متسع قياساً على المسموع من ذلك و هو أحاد و موحد إلى خماس و مخمس، و عشار و معشر «٥».

و قد تبع السيوطى ابن هشام فى تقسيم المبنيات و تناول البناء على الفتح و هو (١) المطالع السعيدة (مخطوط) ص ١٦، همع الهوامع ج ١ ص ١٩.

(٢) المطالع السعيدة ص ٢١.

(٣) همع الهوامع ج ١ ص ٩١.

(٤) المطالع السعيدة ص ٤٨.

(٥) المطالع السعيدة ص ٢٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٦٦

اسم «لا» النافية للجنس إذا كان مفرداً، و على الياء إذا كان اسم «لا» مثنى أو جمع مذكر سالماً «١»، و لكن السيوطى قد انفرد دون ابن هشام و دون النحويين بقوله: ان المثنى قد يبنى على الألف نيابة عن الفتحة على لغة بلحارث بن كعب كقوله صلى الله عليه و سلم: «لا وتران فى ليلة» «١»، و قد احتج كما نرى بهذا الحديث و هو يتبع فى ذلك منهج المتأخرين فى إمكان اعتبار الحديث حجة، و يتفق مع مذهبه الذى سبق لنا أن شرحنا أصوله، و قد قوى السيوطى اللغة التى تلزم المثنى الألف فى حالات الاعراب الثلاث فذكر أنها «لغة معروفة عزيزة لكنانها و بنى الحارث بن كعب و بنى العنبر و بنى الهجين و بطون من ربيعة، و بكر بن وائل، و زيد و خنعم و همدان، و مزادة و عذرة و خرج عليها قوله تعالى: إن هذان لساحران و قوله صلى الله عليه و سلم: «لا وتران فى ليلة»، و أنشد عليها قوله: تزود منا بين أذناه طعنة، و قوله: قد بلغا فى المجد غايتها «٣».

و يتميز السيوطى بجمعه للأراء المختلفة و حكمه عليها فى أحيان كثيرة مبيناً أصحابها و أشهرها و أضعفها، و ينعت كل رأى بما يبين موقفه منه، فهو يورد أقوالاً شتى فى إعراب الأسماء الستة فيذكر أن أشهرها قول قطرب و الزجاجة من البصريين و هشام من الكوفيين بأنها معربة بالحروف، بينما يذكر أن أصح هذه الآراء رأى سيويوه و جمهور البصريين و بعض المتأخرين كابن مالك و أبى حيان و ابن هشام الذين يذهبون إلى أنها معربة بحركات مقدرة فى الحروف، و أنها أتبع فيها ما قبل الآخر للآخر، و قد ذكر السيوطى اعتلالهم لمذهبهم «٤».

و حين يضعف السيوطى رأياً من الآراء لغرابته و عدم إمكان اتجاهه فانه ينعت بالزعم كقوله: «زعم الزجاج أن المثنى مبنى لتضمنه معنى الحرف و هو العاطف» «٥»، و قوله: «و زعم الأَخفش بناء جمع المؤنث نصباً و غير المتصرف جراً» «٥». (١) ابن هشام: شذور الذهب ص ٨٣، ٨٤، السيوطى: المطالع السعيدة ص ١٨.

(٣) همع الهوامع ج ١ ص ٤٠.

(٤) همع الهوامع ج ١ ص ٢٣٤.

(٥) همع الهوامع ج ١ ص ٣٨، ج ١ ص ١٩.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٦٧

و أنكر السيوطى على الكوفيين و جماعة من النحويين كالأَخفش و أبى حاتم و النحاس و ابن مضاء عدّهم «لا-سيما» من أدوات الاستثناء لأن ما بعدها يشارك ما قبلها فى الحكم و لعدم صلاحية «إلا» مكانها بخلاف سائر الأدوات «١».

و قد خالف ما شاع عند كثير من النحويين من أن نفي «كاد» إثبات لخبرها، و إثباتها نفي للخبر مستدلين على ذلك بقوله تعالى:

فَدَبَّحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ وَ قد ذبحوا، و بقوله: يَكادُ زَيْتُها يُضَيءُ و لم يضىء، و ذهب إلى أن «التحقيق أنها كسائر الأفعال نفيها نفى، و إثباتها اثبات، إلا أن معناها المقاربة لا وقوع الفعل فنفيها نفى لمقاربة الفعل و يلزم منه نفى الفعل ضرورة أن من لم يقارب الفعل لم يقع منه الفعل، و إثباتها إثبات لمقاربة الفعل و لا يلزم من مقاربتة وقوعه فقولك: «كاد زيد يقوم» معناه قارب القيام و لم يقم و منه «يكاد زيتها يضىء» أى يقارب الاضاءة إلا أنه لم يضىء، و قولك: «لم يكد زيد يقوم معناه لم يقارب القيام فضلا عن أن يصدر منه» (٢).

و إذا كان ما يذهب إليه السيوطى فى هذا الرأى متجها فى الشواهد و الأمثلة التى أوردها فإنه لم يتجه فى قوله تعالى: فَدَبَّحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ وَ قد أجاب عنها بأنها محمولة على وقتين، أى فذبحوها بعد تكرار الأمر عليهم بذبحها، و ما كادوا يذبحونها قبل ذلك و لا قاربوا الذبح (٢).

و قد خطأ السيوطى ابن هشام و أبا حيان فيما نقلاه و اقراه من أن «لو» التى ترد للتمنى تحتاج إلى جواب، و الأصح أنه لا جواب لها (٤).

و قد خالف معظم النحاة متقدميهم و المتأخرين فيما ذهب إليه من إعراب «الآن» لأنه «لم يثبت لبنائه على معتبرة، فهو منصوب على الظرفية، و إن دخلته «من» جر «و خروجه عن الظرفية غير ثابت» (٥).

و عنده أن الأصح جواز تعدد الخبر و النعت و هو رأى الجمهور خلافا لابن عصفور و كثير من المغاربة (٦). (١) نفس المصدر السابق.

(٢) همع الهوامع ج ١ ص ١٣٢.

(٤) همع الهوامع ج ٢ ص ٦٦.

(٥) همع الهوامع ج ١ ص ٢٠٨.

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٨.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٦٨

و يمضى السيوطى فى التخير من آراء النحاة السابقين ما تستقيم حجته و تتضح علته مؤثرا من الآراء ما هو قريب من العقل بعيد عن التأويل و التقدير الذى يوغل أحيانا فى الاغراب، كما يحرص قبل ذلك على دقة المعنى و سلامته فهو محك الصحة و الخطأ عنده، فنراه مثلا- يذهب فى تخريج «لا- أبا لك» إلى أن «أبا» مفردة جاءت على لغة القصر و المجرور باللام هو الخبر، و قد تبع فى ذلك الفارسى و ابن الطراوة، و قد اختار هذا الرأى «لسلامته من التأويل و الزيادة و الحذف و كلها خلاف الأصل» (١)، و هو بذلك يخالف رأى الجمهور الذى يذهب إلى أنها مضافة إلى المجرور باللام الزائدة.

و يهتدى السيوطى باستقراء المادة اللغوية فى بعض الأحيان إلى ما يخالف أقوال النحاة السابقين أو يصحح أحكامهم، فقد رد ما ذهب إليه ابن مالك و ابن الصائغ من أن النداء بالهمزة قليل و ذكر أنه وقف لذلك على أكثر من ثلاثمائة شاهد، و أنه أفردا بتأليف (٢)، و هو ما سماه بقطر النداء فى ورود الهمزة للندا.

و يعلل السيوطى اختياراته و آراءه بعلة قوية واضحة تراعى سلامة المعنى، و هى علة قريبة المأخذ بعيدة عن التكلف، و يؤثر من الأحكام ما يدفع اللبس عن الأساليب فقد أجاز النحاة تنوين المنادى المبنى فى الضرورة ثم اختلفوا فى أن الأولى بقاء ضمه أو نصبه و الأول مذهب الخليل و سيبويه و المازنى علما كان أو نكرة مقصودة، و الثانى رأى أبى عمرو و غيره، و اختيار ابن مالك بقاء الضم فى العلم و النصب فى النكرة المقصودة لأن شبهها بالمضمّر أضعف، و خالف السيوطى ابن مالك و اختار العكس أى «النصب فى العلم لعدم الالباس فيه، و الضم فى النكرة المعينة لئلا يلتبس بالنكرة غير المقصودة إذ لا فارق حينئذ إلا الحركة لاستوائهما فى التنوين (٣)، و قد نبه السيوطى إلى أنه انفرد بهذا الرأى دون سائر النحويين، و هو كما ذكرنا يميل إلى دفع اللبس فى الأساليب، و الباسها ثوبا

من الوضوح و الجلاء، و تجنّب اللبس من الاعتبارات الهامية التى تراعيها اللغة و تحرص عليها فى كثير من أوضاعها، و لذلك فإن تعليل السيوطى لاختياره (١) همع الهوامع ج ١ ص ١٤٥.

(٢) همع الهوامع ج ١ ص ١٧٢.

(٣) همع الهوامع ج ١ ص ١٧٣.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٦٩

بتجنب اللبس يبدو مقبولا متفقا مع المنطق اللغوى السليم.

تلك نماذج من اختيارات السيوطى و آرائه الخاصة و تعليقاته أردت بها أن ألقى الضوء على مذهبه النحوى، و هو فى الحقيقة نحوى مصرى يجرى فى اتجاه مدرسته متخيرا من الآراء المختلفة ما تستقيم حججه و براهينه، و نراه يستشهد فى أحيان غير قليلة بالحديث الشريف، و موقفه كما ذكرنا موقف وسط فى الاحتجاج بالحديث، و يورد فى أحيان أخرى الأحاديث أمثلة يوضح بها الأحكام التى سبق تقريرها، و بالرغم مما قرره نظريا من أن ما يحتج به من الحديث نادر جدا فانه يميل إلى ذكر كثير من الشواهد الحديثية عند التطبيق و لكنه لا ينسى أن يعرضها بشواهد أخرى من المادة اللغوية المعتمدة فى الاحتجاج قرآنا أو شعرا أو نثرا.

و نستطيع أن نقول ان السيوطى فى دراساته النحوية قد استطاع أن يلائم بين منهجه الذى غلب عليه الطابع النقلى و بين المنهج العقلى الاستنباطى، فهو يحشد معظم الآراء النحوية و لكنه يختار أحدها و يعلل اختياره بالحجج و البراهين المعتمدة على الأصول النحوية و اللغوية المقررة، و لا- يعاب بمخالفة مشاهير النحاة إذا أداه اجتهاده إلى مخالفتهم، و قد كان صادقا حينما ذكر عن نفسه أنه بلغ درجة الاجتهاد فى العربية و أنه ليس بعد ابن هشام نحوى مثله، هذا الحكم لا نستطيع بعد ما قدمنا أن ننكره على السيوطى.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٧١

خاتمة

و بعد، فلقد عنيت فى هذا البحث ببيان دور السيوطى فى حياة الدرس اللغوى، و مكانه فى تاريخ هذا الدرس، و أثره فيه، و قد فرض ذلك على أن أتناول بالدراسة شخصيته و حياته و منهجه الفكرى و أصول هذا المنهج، و قد أردت أن أقيم هذه الدراسة على أساس من دراسة البيئة المصرية بعامه و بيئة القاهرة بخاصة فى الفترة التى عاش فيها السيوطى، و من هنا بدأت بتحديد الاطار السياسى و الاجتماعى لهذه البيئة و نبهت إلى أهم الظواهر الاجتماعية التى تركت أثرها فى حياة المجتمع و حياة أفرادهم و عقولهم كمظاهر نشاطها فى هذه الفترة، و وصفت وصفا دقيقا نظم الدراسة و مثلت لأنواع المراكز العلمية بعد تقسيمها تقسيما دقيقا، و نبهت إلى عوامل نشاط هذه الحركة و بواعثها، ثم أشرت إلى جملة من الملاحظات الهامة التى لاحظتها فيما يتصل بالتأليف و المؤلفات، و قد بينتها بالتفصيل لأنها تفسر لنا ألوان مؤلفات السيوطى التى حاول فيها أن يجارى أشكال التأليف المتنوعة فى عصره، كما تأثر بطابعها، و أهم ملاحظاتي على التأليف اتجاه جانب كبير من المؤلفات اتجاها موسوعيا فرضته ظروف البيئة السياسية و الاجتماعية نتيجة الاحساس بقيامها على صيانة التراث و حفظه، و تقديرها ما منيت به من خسارة على أيدي الغزاة من المغول، ثم شيوع التقليد فى المؤلفات و ظاهرة المتون و الشروح و المنظومات التعليمية و الاكاملات و التذييلات.

و بالرغم من أن النواحي الشكلية فى التأليف قد حظيت بعناية بالغة فان ذلك لم يقض على العناية بالقيمة العلمية و ان كان قد أثر فيها بطبيعة الحال.

على أن هذا العصر يتميز إلى حد كبير بنضج العلوم و استقرار المصطلحات العلمية و تنسيق الأفكار و الموضوعات و ترتيبها، و قد تعاقبت جهود شتى خلال

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٧٢

هذه الفترة نلاحظ لديها العناية التامة بالتنسيق والتنظيم، ولا ينفى ذلك درايتها التامة بالنواحي العلمية والموضوعية، وما أسهمت به فى تدرج حياة العلوم المختلفة.

وقد ظهرت العناية بالناحية الشكلية فى الأدب بصورة جلية فى حرص الشعراء والكتاب على البديع وإسرافهم فى استخدام المحسنات اللفظية على حساب المعنى فى كثير من الأحيان، وقد نهبت على أساليب التعبير فى الشعر والنثر، والأنواع الأدبية النثرية التى وجدت أمثلة لها فى إنتاج السيوطى العلمى والأدبى فهو صورة لهذا العصر تشرب بثقافته، وامتزجت نفسه بروحه، فتأثر به بطريقة ما ثم أثر فيه.

وقد تناولت حياة السيوطى بالدراسة، وكان قصدى تحديد المراحل المتميزة فى حياته، وهى أربع مراحل تبدأ الأولى بولادته وتستمر فترة حفظه القرآن ودراسته بعض المختصرات والكتب المتعارف عليها فى البيئة المصرية آنذاك فى الفقه والنحو وغيرهما ثم تلقيه بعض العلوم وتنتهى بحصوله على إجازة بتدريس العربية حين كان فى السابعة عشرة من عمره، والثانية تبدأ منذ ذلك الحين الذى أمكنه فيه أن يتخذ طريقه فى الحياة العملية مع استمراره فى الطلب والدرس إلى حين بلوغه السابعة والعشرين وحصوله على إجازة بالتدريس والافتاء وتصديره، ومنذ ذلك التاريخ تألق نجم السيوطى بالحياة العامة بالقاهرة، وتميزت حياته العلمية والعملية بحركة غير عادية ونشاط واسع، وقد تولى خلالها عددا من الوظائف، وفى المرحلة الثالثة يتجه الرجل إلى الهدوء وحب العزلة مع عكوف على البحث والإنتاج، وعدم انقطاع عن المشاركة فى الحياة العامة، وتمثل هذه الفترة فى المدّة التى قضاها شيخا للبيبرسية كبرى الخوانق فى عصره، والمرحلة الأخيرة فى حياته تتسم بالعزلة التامة والانقطاع إلى العبادة والتأليف وتبدأ من عام (٩٠٦ هـ) وتستمر خمسة أعوام إلى أن وافاه أجله، وقد نهبت فى عرضى لمراحل حياته وتحديداتها على بعض الأوهام التى وقعت للمترجمين له من القدماء والمحدثين.

وقد ألقى الضوء على صلته بالمجتمع ومكانه فيه لما وجدت له من آثار

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٧٣

وفتاوى تناول فيها مجتمعه بالنقد والعلاج وترك بها أثرا واضحا فى حياة المجتمع، وقد جرت عليه مكانته العلمية والاجتماعية خصومات عنيفة لمست أثرها فى كثير من كتاباته، وقد ألقى الضوء عليها لما لها من صلة بتحديد شخصيته وخلقها، ثم تناولت بالدراسة شخصه وخلقها وأمانته العلمية، وكان ذلك مقدمة لما قصدت إليه من دراسة منهجه فى التفكير وأصول هذا المنهج، وقد تبين لى أن الرجل بالرغم من تعدد جوانبه العلمية فإن بعض العلوم قد طبعت عقله ووجهتها، وأولها علوم الحديث التى استنفذت جلّ اهتمامه، وترك فيها أكبر قدر من آثاره، وعاشها أطول مدّة من حياته حيث مكث بالشيخونية مدرسا للحديث مدّة طويلة، وقد كان لعلوم الحديث أثرها فى غلبة المنهج النقلى على طريقته فى التأليف والبحث فى معظم ميادين المعرفة فهو حريص على ذكر من ينقل عنه وعلى ذكر أسماء المصادر التى يستمد منها نقوله مع تحرج شديد وأمانة بالغة يدركها من يتتبع هذه النقول، وهو فى تلخيصه أيضا حريص على أن يلتزم ألفاظ المنقول عنهم إلى أكبر حد.

والجانب الثانى الذى أثر فى السيوطى هو سلوكه مسلک التصوف علما وعملا، وقد عرف الصوفية بتساهل فى قبول الرواية، وكان منهجه كان يتنازع مؤثران أحدهما ينظر إلى الرواية والنقول نظرة علمية جادة، والآخر يميل إلى قبولها والاستئناس بها وبذلك نستطيع تفسير جانب من النقول التى تساهل فى قبولها.

والعلم الثالث الذى ترك أثرا فى منهجه هو الفقه، الذى بلغ فيه درجة الاجتهاد المطلق، والفقه يطبع عقل صاحبه بالطابع العملى الذى يلمس الواقع ويحس به، ويحاول إدراك حاجات الناس فى الحياة ويبحث لهم عن حكم الله تعالى فيما يستجد من أحداث، وعلى الفقيه أن يعمل عقله وفكره فى النصوص والأدلة فى محاولة استنباط الحكم والوقوف عليه، فهو كما قالوا: «معقول من منقول».

وقد تركت هذه العلوم أثرها فى منهج السيوطى وطبعت عقله بطابع يغلب عليه المنهج النقلى الذى يعنى أولا بالنقد الخارجى

للقول من حيث ثبوتها

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٧٤

و صحتها ثم يعنى بعد ذلك بترتيبها و تنسيقها، ثم يكون اهتمامه الأخير بنقدها و التعليق عليها و مخالفتها أو موافقتها، ثم إنه قد يتساهل فى إيراد بعض الأخبار و الروايات الضعيفة مع نصه على درجتها من الصحة و الحسن و الضعف، و فى بعض الأحيان يغفل حكمه عليها من حيث الوثوق.

على أن منهج السيوطى الذى غلب عليه فى معظم دراساته يمكن أن نصفه باجمال بأنه يقوم على محاولة استقصاء أكبر قدر من النقول التى بحث الموضوع من قبل و اختيار أخصرها و أوفاهها، ثم جمعها و ترتيبها ترتيبا يراعى التاريخة و الموضوعية فى كثير من الأحيان، و قد لا يلتزم بهما فى بعض الأحيان، ثم يتبع نقوله بكثير من الأمثلة التى يجتهد فى جمعها و يراها موافقة لما ساق من نقول، و قد يصرح باختياره لبعض الأقوال، و قد يسرد موضوعا بأكمله دون أن يصرح بمذهبه أو رأيه، و فى بعض الأحيان نجد له آراء مبتكرة، فان كان يميل إلى ترجيح أحد الآراء التى نقلها أو إلى اختياره اجتهد فى ذكر النقول التى تسند مذهبه.

و يعنى السيوطى فى مصنفاته بالاستدراك على من قبله ممن طرق نفس الموضوعات و يحاول الأضافة إلى ما قدموا، و قد يكون ذلك سببا فى التحكم أو التعسف فى بعض الأحيان، كما يغفل فى أحيان غير قليلة التنبيه على التعارض بين النقول التى يوردها. و يظهر بوضوح اجتهاده العقلى فى دراسته للنحو و الفقه و قد قالوا ان النحو معقول من منقول كما أن الفقه معقول من منقول. و قد حاولت أن ألقى الضوء على الجانب الأدبى عند السيوطى بغية تبين ملامح أسلوبه و خصائصه مع التعريف بالأنواع الأدبية التى ترك فيها آثارا، كما عرفت به شاعرا تبلغ مقدرته التنظيمية أوجها فى نظم العلوم، فله منظومات فى شتى ألوان المعرفة، و فى الموضوعات و المسائل الجافة.

و قد بحث آثار السيوطى بصفة عامة و وجدت اختلاف المصادر القديمة و الحديثة فى تقدير عددها، و قد حصرت منها ستمائة مصنف بها جانب من

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٧٥

المطولات و بعض المنظومات، و بعضها متوسط الحجم، و بينها عدد كبير من الرسائل الصغيرة، و له بعض المقامات، بعضها لا يتجاوز بضع صفحات، و قد وقفت على جانب كبير من هذه الآثار يمثل معظم ما وصل إلينا، و يمثل نماذج لجميع الأنواع السابقة. و بعض كتب السيوطى لا سيما المطولات ألفها فى مراحل متفرقة يعاود النظر فيها بين الحين و الحين ثم يصدرها بعد أعوام طويلة من بداية شروعه فيها، و الجانب الأكبر منها لم يكن يستغرق وقتا طويلا، على أنه قد عرف بسرعة الكتابة و التأليف، و لم يكذب يترك موضوعا دون أن يطرق أبوابه بقلمه، و قد نبهت على بعض النصوص التى زيدت على بعض كتب السيوطى، و ان كان ذلك لم يضعف عندى من وثاقه نسبة هذه الآثار جميعها إليه.

و بعد أن أرسيت فى الباب الأول الأسس التى يمكننى الاعتماد عليها فى بيان دور السيوطى فى حياة الدرس اللغوى اتجهت إلى بحث جهوده اللغوية، و بدأت بالحديث عن جهوده فى فقه اللغة و قصدت به تناول الجهود التى تتصل بمستويات الدرس اللغوى غير النحوية، و لما كنت أهدف إلى بيان مكانه بين اللغويين، و مكان دراساته فى تاريخ الدرس اللغوى، فقد بدأت بإجمال الملامح الرئيسية لتدرج الدرس اللغوى و أنواع الدراسات التى سبق بها اللغويون و كانت مصدرا اعتمده عليه السيوطى، ثم تناولت بالدراسة آثاره اللغوية، و رتبها ترتيبا موضوعيا لتعذر الترتيب التاريخى، و بعض هذه الآثار يمس عريضة القرآن و هى تطلعتنا على موقف السيوطى الذى يقبل وجود ألفاظ غير عربية فى القرآن الكريم، بل يتوسع فى إحصاء هذه الألفاظ، و يجتهد فى نقل أكبر عدد منها، و هو مخالف لرأى الشافعى و الطبرى و أبى عبيدة و ابن الطيب و ابن فارس و غيرهم، و قد ناقشت فكرة عريضة القرآن بين المنكرين لوجود ألفاظ أعجمية و القائلين بوجودها، و من حاول التوفيق بين كلا المذهبين، و تبين لى أن أقرب هذه الآراء إلى الصواب رأى

الموفقين بين المذهبين كأبى عبيد القاسم بن سلام وغيره، كما نبهت على أن كثيرا من الألفاظ التى نقل السيوطى نسبتها إلى لغات غير العربية هى ألفاظ عربية و لا دلالة على عجمتها لا سيما ما نسب منها إلى

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٧٦

بعض اللغات السامية، كما نبهت على عيوب منهجه الثقلى الذى جعله ينسب بعض الألفاظ الواردة بالقرآن الكريم إلى بعض اللغات الأجنبية ثم لا- يلبث حين يتناول «ما ورد فى القرآن ببعض لغات العرب» أن ينسب هذه الألفاظ إلى بعض اللهجات العربية، و هكذا تتعارض نقوله دون أن ينبه على هذا التعارض أو يتناوله بالدراسة.

و تناولت رسالته عن أصول الكلمات و بينت أهميتها فى درس التطور الدلالى، و أشرت إلى جهود القدماء و المحدثين حول فكرة التطور، و استنتجت من هذه الرسالة تنبه السيوطى لفكرة مادية اللغوة فى نشأتها و هى الفكرة التى تجعل الدلالات الحسية أسبق فى الوجود من الدلالات المجردة.

ثم تناولت منظومة له فى أسماء الكلب و بعض الآثار الأخرى المناظرة حول موضوع الترادف و قد وجهت النقد إلى صنيع السيوطى فى بعض هذه الآثار و محاولته الجمع و التقصى دون مراعاة لما تفرضه طبيعة الموضوع و واقعه، و قد كان ذلك أثرا من آثار المنهج الثقلى.

و درست «الاتباع» فى اللغوة بصدد بعض الآثار، و رأيت أنه قد غلب عليه طابعه الثقلى فلم يصرح بموقفه و لم يذكر تعليقا واحدا، و قد بينت أنه يقر هذه النقول و أنها تعبر عن رأيه، كما عرضت لموضوع «المشترك اللفظى» ثم قارنت شرحه لقصيدة كعب بن زهير بشرح ابن هشام و قد بينت ما امتاز به شرح السيوطى من عناية بالمعنى، و سهولة الأسلوب و وضوح العبارة، و يعد أفضل شروح هذه القصيدة، و تناولت بعض الآثار الأخرى بالدراسة، و قد بلغت جملة الآثار التى عرضتها ستة عشر تمكنت من الوقوف على تسعة منها تعد أهمها، و بعض الآثار الباقية حملت ما فيها على نظائره فى آثاره الأخرى أو فى كتابه المزهر، بعد أن تبين لى تشابه أبحاثه حول الموضوع الواحد إذا تناوله فى أماكن متفرقة من كتبه بحيث لا تكاد تختلف إلا فى مقدار الاسهاب أو الايجاز.

و قد بينت قيمة أهم آثاره اللغوية و هو كتابه «المزهر» الذى جمع شتات مباحث فقه اللغوة، و لم يسبق السيوطى بمؤلف جامع مثل مؤلفه، و يتميز بوقوفه على دراسات الأصوليين الهامة للغة و الافادة منها، و يعد أجل الأعمال اللغوية التى

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٧٧

قام بها و التى أحجم عنها اللغويون من قبل بالرغم من غلبة الطابع الثقلى عليه.

على أن أهم ما تفرده به السيوطى فى البحث اللغوى هو إقامته منهج لنقد الرواية اللغوية أو التنظير الوافر له، و هو ما أغفل اللغويون من قبل أفراده بالبحث، و ما تنبه إليه السيوطى نتيجة لتأثره بعلوم الحديث، و قد شرحت هذه المحاولة و قارنت الأصول التى وضعها السيوطى لنقد الرواية اللغوية بما وضع من قبل من أصول لنقد رواية الحديث عرفت باسم أصول الحديث و مصطلحه.

و بحث مفهوم اللغوة عند السيوطى، و هو المفهوم الذى حدده ابن جنى من قبل، و الذى ساد عند العرب بصفه عامة، و قد بينت إدراكهم لماهىة اللغوة من حيث كونها أصواتا يعبر بها عن المعانى و تقديرهم لهذه الصوتية، و ادراكهم لوظيفة اللغوة فى المجتمع، و أثر هذا المفهوم فى دراساتهم.

و قد عرضت لمجموعة من مباحث السيوطى تحت عنوان «الألفاظ» و نبهت فيها على الآراء الصوتية القيمة التى عرفها العرب فى درسهم للغة بصدد دراسة الفصيح و المذموم من اللغات، و العيوب الصوتية، و قد رأيت محاولة السيوطى تصنيف ألفاظ اللغوة على أساسين أولهما أساس صوتى، و الآخر يتصل بالرواية و أصول نقدها.

و بينت دور السيوطى فى بحث المعرب و المولد من الألفاظ، و وصلته بما قام به المجمعيون فى عصرنا، و أهم ما توصل إليه اللغويون القدماء فى بحث المعرب ما نقله السيوطى فى كيفية معرفه عجمة الاسم حيث يتصل ذلك بالخصائص الصوتية للغة العربية، فعجمة

الاسم تعرف بخروجه عن أوزان الأسماء العربية نحو «ابريسم» أو أن يكون أوله نون ثم راء، أو أن يكون آخره زاي بعد دال، أو أن يجتمع فيه الصاد و الجيم أو الجيم و القاف، أو أن يكون خماسيا أو رباعيا عاريا من حروف الذلاقة و هى الباء و الراء و اللام و الميم و النون.

و قد بينت أهمية دراسته لمختلف اللغات و تداخلها فى الدرس اللغوى و تفسير بعض الظواهر اللغوية.

ثم عرضت لمجموعة أخرى من مباحثه تحت عنوان «الدلالة اللغوية» و قد

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٧٨

نبتت إلى أن بعض ما عدده السيوطى بحثا فى اللغة من حيث المعنى، كان ألصق بمباحث اللفظ كالإبدال و القلب و النحت، و قد أورد فيها آراء صوتية قيمة للغويين تشهد بصحتها الدراسات الحديثة.

و تناول الاشتقاق ببحث لخص فيه أقوال السابقين و قسمه تقسيما جامعا حاول به أن يستوعب الدراسات السابقة.

و يتصل بالتطور الدلالي بحثه فى الحقيقة و المجاز و الخاص و العام و المطلق و المقيد و يمتاز كتاب السيوطى باعترافه من منابع الأصوليين الذين درسوا هذه الموضوعات أدق و أوفى من درس اللغويين، و جمعه بين أقوالهم و أقوال اللغويين، و قد حاول أن يقسم ألفاظ اللغة باعتبار عموم الدلالة و خصوصها إلى خمسة أقسام، و هو تصنيف لم يسبق إليه، و هو يفيد إلى حد كبير فى دراسة التغير الدلالي، فقد وضع قسما لما وضع عاما و استعمل عاما أى لما لم يحدث فيه تغير دلالي كالسما لكل ما علا و الصعيد لكل أرض مستوية، و الثانى ما وضع عاما ثم خص فى الاستعمال ببعض أفرادها، و الثالث الألفاظ التى اعترها تغيير نحو التعميم أى ما وضع خاصا ثم استعمل عاما، و الرابع ما وضع عاما و استعمل خاصا، و أفرد لبعض أفرادها اسم يخصه، و الخامس ما وضع خاصا و استعمل خاصا، و يدل هذا المبحث على ابتكار السيوطى فى هذا التقسيم و عنايته بالتغير الدلالي، و جهده الصائب فى جمع الأمثلة و وضعها فى مواضعها، على أن مباحث الدلالة قد حظيت بعناية الأصوليين أكثر مما حظيت به عند اللغويين.

و قد وضع السيوطى تصنيفا مبتكرا لأبنية اللغة حاول به حصرها و ضبطها فى المبحث الذى سماه بالأشباه و النظائر.

و الحقيقة أنى قد خلصت من هذه المباحث إلى أن عبقرية السيوطى تتجلى فى الاستقصاء و التتبع الدقيق و حسن التصنيف و التقسيم و الترتيب، و هو بذلك يعبر عن الروح السائدة فى عصره و لكنه يبلغ مبلغا كبيرا.

و قد حاولت تبين موقفه من بعض القضايا اللغوية كالمبحث فى نشأة اللغة، و المناسبة بين اللفظ و المعنى، و هو من اللغويين الذين يدافعون عن وجود مناسبة

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٧٩

بين اللفظ و المعنى لكنها عندهم مناسبة غير ذاتية، و قد وجدت هذه الفكرة من المحدثين من يميل إليها، كما أشرت إلى جهده فى دراسة المعاجم اللغوية و عنايته فيها بناحية الثبوت و الوثاقة، كذلك دراسته لفكرة إثبات الأسماء بالقياس التى أنكرها متابعا المحققين من الأصوليين و اللغويين، و فيها دلالة على اتجاههم إلى أن الصلة بين اللفظ و المعنى عرفية و ليست عقلية.

و فى بحثى عن جهوده النحوية تبين لى أنه قد طرق بكتبه جميع أنوار الدراسات النحوية، فقد ألف فى أصول النحو، كما ألف فى سبب وضع علم النحو، كما كتب عددا من الكتب فى الفروع النحوية، و له إلى جانب ذلك فتاوى و دراسات تطبيقية تتناول النصوص.

و ليس تنوع مباحثه النحوية مقصورا على ناحية الموضوع، بل تنوعت مصنفاته من ناحية الشكل حيث حاول فيها أن يستوعب جميع الأشكال التأليفية المعروفة، فله شرح على ألفية ابن مالك، و له ألفية مستقلة و شرح عليها، ثم له متن مطول هو جمع الجوامع و شرح عليه هو همع الهوامع، و له موشح فى النحو، و شرح على المغنى و شرح لشواهد، و له دراسة نقدية نحوية قيمة لبعض الكتب النحوية التى اشتهرت فى عصره و هى كتابه «النكت»، و قد تناولت بالدراسة أهم هذه الكتب، و جانب منها لا يزال مخطوطا.

و الواقع أن شخصية السيوطى فى الدرس النحوى أكثر وضوحا منها فى فروع الدرس اللغوى الأخرى و يتميز بأنه تنبه إلى وظيفة النحو فى الحياة و أهميته فى فهم النصوص القرآنية و الحديثية و الفقهية و الأدبية، و سائر النصوص، و يتضح ذلك فى فتاواه النحوية و فى بعض رسائله، على أن أهم أعمال السيوطى النحوية تتمثل فى كتابه «الاقتراح» الذى تناول فيه علم أصول النحو، و تأتى أهميته من أنه لم يحظ بعناية الباحثين فى النحو، فأهم المحاولات التى سبقت السيوطى فى ذلك ما قام به ابن جنى، و ما قام به ابن الأنبارى و قد بينت قيمة عمليهما، و خلصت إلى أن السيوطى قد تميز عمله عن سابقيه بالفهم الدقيق لعلم أصول النحو و موضوعه و أهدافه، و بحسن الترتيب الذى يراعى به موضوع العلم، و بزيادة بعض المباحث التى أغفلها سابقاه، و من ثم فإن علم أصول النحو لم

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٨٠

يتحدد علما مكتوبا له أصوله و حدوده فى البيئة النحوية إلا بعمل السيوطى، و لم أنس أن أنتقد صنيع السيوطى و من سبقه من أصوليى النحاة و أنه على بعض المآخذ التى أخذتها عليهم نتيجة ربطهم أصول النحو بأصول الفقه.

ثم حاولت فى ختام البحث تحديد المذهب النحوى له، و تبين لى أنه نحوى مصرى تأثر بروح المدرسة المصرية التى كان أفرادها يتخيرون من أقوال النحاة ما تستقيم لهم حجته كابن مالك و أبى حيان، و للسيوطى اختيارات يرجح فيها مذهب البصريين فى كثير من الأحيان، و مذهب الكوفيين فى أحيان أخرى، أو يرجح آراء بعض النحاة المتأخرين تبعا لما يمليه عليه اجتهاده اللغوى، و يعد السيوطى - بحق - أفضل نحوى أنجبته مصر بعد ابن هشام.

و الحمد لله رب العالمين

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٨١

ثبت المصادر و المراجع

أولا - أسماء مؤلفات السيوطى

أورد فيما يلى أسماء آثار السيوطى التى أشرت من قبل إلى أنى سأذكرها ضمن مسرد المصادر، و ما أشرت إلى أنه مطبوع أو مخطوط فهو من المصادر التى اعتمدت عليها فى البحث و تمكنت من الرجوع إليها، و ما لم أذكر ذلك فهو ما لم أتمكن من الوقوف عليه، و قد اعتمدت فى سرد ما لم أقف عليه من آثاره على ما ورد بحسن المحاضرة له، و كشف الظنون لحاجى خليفة، و هدية العارفين لاسماعيل البغدادى.

١- أبواب السعادة فى أسباب الشهادة (مخطوط بدار الكتب برقم ٢١٨٣٩ ب ضمن مجموعة مخطوطة).

٢- الابتهاج فى مشكل المنهاج (ذكره صاحب الهدية).

٣- إتحاف الفرقة برغو الخرقه (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ١٩١، ضمن مخطوط بدار الكتب برقم ٢٥ قوله، ورقة ٣٢٣).

٤- إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء (ضمن مخطوط قوله ورقة رقم ٢٤١).

٥- الإتيقان فى علوم القرآن (رجعت إلى طبعة مطبعة حجازى بالقاهرة، نشر المكتبة التجارية، ١٣٦٨ هـ).

٦- إتمام الدراية لقراء النقاية (بهامش كتاب مفتاح العلوم للسكاكى - مطبعة التقدم العلمية بمصر).

٧- إتمام النعمة فى اختصاص الاسلام بهذه الأمة (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٢١٣).

٨- الأجر الجزل فى الغزل (ذكر بكشف الظنون).

٩- الأجوبة الزكية عن الألغاز السبكية (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٤٩٣).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٨٢

- ١٠- الأحاديث الحسان فى فضل الطيلسان (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ١١- الأحاديث المنيفة فى السلطنة الشريفة (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ١٢- أحاسن الاقتباس فى محاسن الاقتباس (ذكر بحسن المحاضرة و الكشف و الهدية).
- ١٣- الاحتفال بالأطفال (طبع بالحاوى ج ١ ص ٣١١، مخطوط بدار الكتب برقم ٢٣٢٧٣ ب، ضمن مخطوط قوله ورقة رقم ١٤٨).
- ١٤- إحياء الميت بفضائل أهل البيت (ضمن مخطوط (رقم ٢٥) قوله ورقة رقم ٧٤).
- ١٥- الأخبار المأثورة فى الاطلاع بالنورة (طبع بالحاوى ج ١ ص ٥٢٤، ضمن مخطوط قوله ورقة رقم ١١٣).
- ١٦- الأخبار المروية فى سبب وضع علم العربية (رسالة طبعت ضمن مجموعة بعنوان التحفة البهية و الطرفة الشهية، مطبعة الجوائب، القسطنطينية عام ١٣٠٢ هـ).
- ١٧- أخبار الملائكة (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).
- ١٨- آداب الفتوى (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).
- ١٩- آداب الملوك (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٢٠- أدب القاضى على مذهب الشافعى (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٢١- أدب المفرد فى الحديث (ذكر بهدية العارفين).
- ٢٢- اذكار الأذكار مختصر حلية الأبرار (ذكر بهدية العارفين).
- ٢٣- أربعون حديثا فى رفع اليدين فى الدعاء (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ٢٤- أربعون حديثا فى فضل الجهاد (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).
- ٢٥- أربعون حديثا من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر (ذكر بحسن المحاضرة و كشف الظنون).
- ٢٦- الأرج فى الفرج (القاهرة، المطبعة الشرقية، ١٣١٨ هـ).
- ٢٧- إرشاد المهتمدين إلى نصره المجتهدين (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٨٣
- ٢٨- إزالة الوهن عن مسألة الرهن (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).
- ٢٩- الأزدهار فيما عقده الشعراء من الآثار (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٣٠- أزهار الآكام فى أخبار الأحكام (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).
- ٣١- أزهار العروش فى أخبار الجيوش (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٣٢- الأزهار الفائحة على الفاتحة (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).
- ٣٣- الأزهار الغضة فى حواشى الروضة (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٣٤- الأزهار المتناثرة فى الأخبار المتواترة (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٣٥- الأساس فى مناقب بنى العباس (ضمن مخطوط قوله ورقة رقم ٧٣).
- ٣٦- أسباب الاختلاف فى الفروع (ذكر بهدية العارفين).
- ٣٧- أسباب الحديث (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٣٨- إسبال الكساء على النساء (مخطوط بدار الكتب برقم ٢٠١٨٠ ب).
- ٣٩- اسجال الاهتداء بابطال الاعتداء (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٤٠- إسعاف الطلاب من مختصر الجامع الصغير بترتيب الشهاب (ذكر بهدية العارفين).

- ٤١- إسعاف المبطلأ برجال الموطأ (حيدرآباد ١٣٢٠ هـ).
- ٤٢- الأسئلة الوزيرية و أجوبتها (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٥٥٢).
- ٤٣- أسماء المهاجرين (مخطوط بدار الكتب برقم ٤٣٦٤ ج ضمن مجموعة).
- ٤٤- الأشباه و النظائر فى الفقه (مطبوع، مكة ١٣٣١ هـ).
- ٤٥- الأشباه و النظائر فى النحو (حيدرآباد، طبعه دائرة المعارف النظامية ١٣١٦، ١٣١٧ هـ).
- ٤٦- أطراف الأشراف بالاسراف على الأطراف (ذكر بالهدية).
- ٤٧- الاعتماد و التوكل على ذى التكفل (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٤٨- أعذب المناهل فى حديث: من قال أنا عالم فهو جاهل (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٤٥، مخطوط بدار الكتب برقم ٢١٨٣٩ ضمن مجموعة،
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٨٤
- ضمن مخطوط قوله ورقة رقم ٣١١).
- ٤٩- الإعراض و التولى عمن لا يحسن أن يصلى (ذكر بهدية العارفين).
- ٥٠- إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٥١- الاعلام بحكم عيسى عليه السلام (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٢٧٧، مخطوط بدار الكتب برقم ٢٢٩٦٨ ب، ضمن مخطوط قوله ورقة رقم ٢٢٧).
- ٥٢- الأعلام الحسنى بمعانى الأسماء الحسنى (ذكر بالهدية).
- ٥٣- أعلام النصر فى إعلام سلطان العصر بمسألة البروز على شاطئ النهر (يبدو أنه لا يزيد على رسالته: الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر و منظومته النهر، انظر الحاوى ج ٢ ص ٢٢٦).
- ٥٤- إعمال الفكر فى فضل الذكر (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٢٠).
- ٥٥- إغائنة المستغيث فى حل بعض إشكالات الحديث (ذكر بالهدية).
- ٥٦- الإغضاء عن دعاء الأعضاء (ذكر بكشف الظنون).
- ٥٧- إفادة الخبر بنصه فى زيادة العمر و نقصه (ذكر بالهدية).
- ٥٨- الإفصاح فى أسماء النكاح (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٥٩- الإفصاح فى زوائد القاموس على الصحاح (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٦٠- الإفصاح على تلخيص المفتاح (ذكر بالهدية).
- ٦١- الاقتراح فى علم أصول النحو (رجعت إلى طبعه دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد، الطبعة الثانية ١٣٥٩ هـ).
- ٦٢- الاقتناص فى مسألة التماس (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).
- ٦٣- آكام العقيان فى أحكام الخصيان (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٦٤- الاكليل فى استنباط التنزيل (مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية برقم ٣٥٩١ ج).
- ٦٥- التقاط لقط المرجان فى أحكام الجان (ضمن مخطوط قوله ورقة رقم ٩٥).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٨٥
- ٦٦- إلقام الحجر لمن زكى سباب أبى بكر و عمر (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).
- ٦٧- الإلماع فى الإتياع (ذكر بكشف الظنون و بالهدية، و قد أشار إليه السيوطى فى المزهر بصدد حديثه عن الإتياع).

- ٦٨- ألوية النصر فى «خصيصى» بالقصر (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٤٧٨).
- ٦٩- أمالى على الدرّة الفاخرة (ذكرت بكشف الظنون و بالهدية).
- ٧٠- الأمالى على القرآن (ذكرت بكشف الظنون و بالهدية).
- ٧١- الأمالى المطلقة (ذكرت بكشف الظنون و بالهدية).
- ٧٢- الأناقه فى رتب الخلافة (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٧٣- إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٢٦٤، بمخطوط قوله ورقه رقم ٢٥، حيدرآباد ١٣١٦ هـ).
- ٧٤- الانتصار بالواحد القهار (ذكرت بكشف الظنون و بالهدية).
- ٧٥- إنجاز الوعد بالمنتقى من طبقات ابن سعد (ذكر بالهدية).
- ٧٦- انشاب الكتب فى أنساب الكتب (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٧٧- الانصاف فى تمييز الأوقاف (طبعت بالحاوى ج ١ ص ٢٤٠).
- ٧٨- أنموذج اللبيب فى خصائص الحبيب (مخطوط بدار الكتب برقم ٢١٥٦٥ ب، نسخه أخرى برقم ٢٣٢٠٠ ب).
- ٧٩- الأنوار السنية فى تاريخ الخلفاء و الملوك لمصر السنية (ذكر بالهدية).
- ٨٠- الأوج فى خبر عوج (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٥٧٣، ضمن مخطوط قوله ورقه رقم ١٠٤).
- ٨١- الآيه الكبرى فى شرح قصه الاسرا (دمشق - مطبعة الترقى ١٣٥٠ هـ).
- ٨٢- الايضاح فى علم النكاح (القاهرة، طبع حجر ١٢٧٩ هـ).
- ٨٣- الباحة فى السباحة (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٨٤- البارع فى اقطاع الشارع (طبعت بالحاوى ج ١ ص ١٩٨).
- ٨٥- البارق فى قطع يد السارق (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٨٦- الباهر فى حكم النبى صلى الله عليه و سلم فى الباطن و الظاهر (مطبعة حجازى بالقاهرة ١٣٥١ هـ، بمخطوط قوله ورقه رقم ٤٩).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٨٦
- ٨٧- بدائع الزهور فى وقائع الدهور (ذكر بكشف الظنون و بالهدية و لم يذكر بحسن المحاضرة، و قد ذكر فى دائرة المعارف الاسلاميه أنه تاريخ عام مطبوع بالقاهرة عام ١٢٨٢ هـ).
- ٨٨- البدر الذى انجلى فى مسألة الولا (طبعت بالحاوى ج ١ ص ٢٧٤).
- ٨٩- البدور السافرة فى أمور الآخرة (مخطوط بدار الكتب برقم ٢٣١٩١ ب، و طبع بالهند ١٣١١ هـ).
- ٩٠- البحر الذى زخر فى شرح نظم الدرر (ذكر بالهدية).
- ٩١- بذل المسجد لسؤال المسجد (طبعت بالحاوى ج ١ ص ١٣٨، و بمخطوط قوله ورقه رقم ٢٧٥).
- ٩٢- بذل المجهود لخزانة محمود (ذكر بالهدية).
- ٩٣- بذل الهمه فى طلب براءة الذمه (طبعت بالحاوى ج ١ ص ١٧٠، و بمخطوط قوله ورقه رقم ١٠٨).
- ٩٤- برد الظلال فى تكرار السؤال (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٩٥- البرق الوامض فى يائيه ابن الفارض (مطوع).
- ٩٦- بزوغ الهلال فى الخصال الموجبة للظلال (بمخطوط قوله رقم ٢٨٧).
- ٩٧- بسط الكف فى إتمام الصف (طبعت بالحاوى ج ١ ص ٧٧، بمخطوط قوله ورقه رقم ٢٠٣).
- ٩٨- بشرى الكتيب بلقاء الحبيب (المطبعة الميمنيه بالقاهرة ١٣٠٩ هـ، بمخطوط رقم «٢٥» قوله ورقه رقم ١٢٤).

- ٩٩- بغية الرائد فى الذيل على مجمع الزوائد (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).
- ١٠٠- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين و النحاة (الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٢٦ هـ).
- ١٠١- بلبل الروضة (ضمن مجموعة مقامات له، مطبعة الجوائب، القسطنطينية عام ١٢٩٨ هـ).
- ١٠٢- بلغة المحتاج فى مناسك الحاج (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٨٧
- ١٠٣- بلوغ الأمانة فى الخانقاه الركنية (ذكر بكشف الظنون و الهدية).
- ١٠٤- بلوغ المآرب فى قص الشارب (بمخطوط قوله و رقة رقم ١١٢).
- ١٠٥- بلوغ المآرب فى أخبار العقارب (ذكر بكشف الظنون و الهدية).
- ١٠٦- بلوغ المأمول فى خدمة الرسول (طبع بالحاوى ج ٢ ص ٢٠٤).
- ١٠٧- البهجة المرضية فى شرح الألفية (رجعت إلى طبعه مؤرخه بعام ١٢٧٢ هـ، و لم يذكر بها مكان الطبع)، و يبدو أن صحه العنوان «التهجة» بالنون، و ليس البهجة بالباء، و قد أوردته تبعا لعنوان المطبوع.
- ١٠٨- بهجة الناظر و نزهة الخاطر (مخطوط بدار الكتب برقم ٣٢ مجاميع).
- ١٠٩- تأخير الظلامة إلى يوم القيامة (مخطوط بدار الكتب برقم ٢٢٧٢٩ ب، بمخطوط «٢٥» قوله و رقة رقم ٢٩٠).
- ١١٠- تاريخ الخلفاء (طبعة إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة ١٣٥١ هـ).
- ١١١- تأييد الحقيقة العلية و تشييد الطريقة الشاذلية (ذكر بحسن المحاضرة و كشف الظنون و الهدية).
- ١١٢- التبر الذائب فى الأفراد و الغرائب (ذكر بالهدية).
- ١١٣- التبرى من معرة المعرى (منظومة له فى أسماء الكلب رجعت إليها مطبوعة ضمن كتاب تعريف القدماء بأبى العلاء، القاهرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م).
- ١١٤- تبيض الصحيفة بمناقب الامام أبى حنيفة (حيدرآباد ١٣١٧ هـ، الهند ١٣٢٤ هـ ضمن مخطوط قوله و رقة رقم ١٨٧).
- ١١٥- التثبيت عند التبييت (منظومة له فى سؤال القبر، المطبعة الحسينية، القاهرة ١٣٢٨ هـ).
- ١١٦- التحبير فى علوم التفسير (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية، و يبدو أنه قد أدرجه فى كتاب الاتقان).
- ١١٧- تحذير الخواص من أكاذيب القصاص (مطبعة المعاهد، القاهرة ١٣٥١ هـ، طبع بعد ذلك بتحقيق الأستاذ محمد لطفى الصبّاغ).
- ١١٨- تحرير المنقول و تهذيب الأصول (ذكر بالهدية).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٨٨
- ١١٩- تحفة الآثار فى الأدعية و الأذكار (ذكر بالهدية).
- ١٢٠- تحفة الأبرار بنكت الأذكار (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ١٢١- تحفة الأنجاب بمسألة السنجاب (طبع بالحاوى ج ١ ص ١٣).
- ١٢٢- تحفة الجلساء بروية الله تعالى للنساء (طبع بالحاوى ج ٢ ص ٣٤٨).
- ١٢٣- تحفة الحبيب بنحاه مغنى اللبيب (ذكر بالهدية).
- ١٢٤- تحفة الظرفاء بأسماء الخلفاء (ذكر بالهية و حسن المحاضرة و كشف الظنون).
- ١٢٥- تحفة الكرام بأخبار الأهرام (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ١٢٦- تحفة المجالس و أنس المجالس (مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٢٦ هـ).
- ١٢٧- تحفة المجتهدين فى أسماء المجددين (مخطوطه فى ورقة واحدة برقم ٨٢٦٠ ح بدار الكتب).

- ۱۲۸- تحفة المذاكر فى المنتفى من تاريخ ابن عساكر (ذكر بحسن المحاضرة و الهدية).
- ۱۲۹- تحفة النابه بتلخيص المتشابه (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ۱۳۰- تحفة الناسك بنكت المناسك (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ۱۳۱- تحفة النجبا فى قولهم: هذا بسرا أطيب منه رطبا (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ۱۳۲- تخريج أحاديث شرح العقائد (ذكر بحسن المحاضرة).
- ۱۳۳- تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى (القاهرة المطبعة الخيرية، مخطوط برقم ۷ مصطلح حديث- قوله بدار الكتب).
- ۱۳۴- تذكرة المؤتسى فيمن حدث و نسى (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ۱۳۵- التذنيب فى الزوائد على التقريب (ذكر بالكشف و بالهدية).
- ۱۳۶- التذليل و التذنيب على نهاية الغريب (ذكر بالهدية).
- ۱۳۷- ترجمان القرآن فى التفسير المسند (القاهرة ۱۳۱۴ هـ، عدة مجلدات).
- ۱۳۸- ترجمة النووى و البلقينى (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ۱۳۹- تزيين الأرائك يارسال النبى صلى الله عليه و سلم إلى الملائك (طبع بالحاوى ج ۲ جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۸۹ ص ۲۵۱، بمخطوط قوله ورقة رقم ۴۱).
- ۱۴۰- تزيين الممالك بمناقب الامام مالك (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ۱۴۱- تشنيف الأسماع بأحكام السماع (ذكر بالهدية).
- ۱۴۲- تشنيف الأسماع بأحكام الاجماع (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ۱۴۳- تشنيف السمع بتعديد السبع (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ۱۴۴- تشييد الأركان فى ليس فى الامكان أبدع مما كان (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ۱۴۵- التصحيح لصلاة التسبيح (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ۱۴۶- التضلع بمعنى التفتع (ذكر بالكشف و بالهدية).
- ۱۴۷- التطريف فى التصحيف (ذكر بالكشف و بالهدية).
- ۱۴۸- تعريف الأعجم بحروف المعجم (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ۱۴۹- التعريف بآداب التأليف (مخطوط بدار الكتب برقم ۳۲ مجاميع).
- ۱۵۰- تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة (طبع بالحاوى ج ۲ ص ۵۰۹).
- ۱۵۱- التعظيم و المنة فى أن أبوى النبى صلى الله عليه و سلم فى الجنة (الطبعة الأولى حيدرآباد ۱۳۱۷ هـ، بمخطوط قوله ورقة رقم ۳۴۳).
- ۱۵۲- تعقبات السيوطى على موضوعات ابن الجوزى (طبع حجر لاهور ۱۸۸۶ م).
- ۱۵۳- التعلل و الإطفاء لنار لا تطفأ (ذكر بالكشف و بالهدية).
- ۱۵۴- تعليقه على السنن الكبيرة (ذكر بالهدية).
- ۱۵۵- تعليق الشص فى حلق اللص (ذكر بالهدية).
- ۱۵۶- تفسير الجلالين (أكمل السيوطى العمل الذى قام به شيخه المحلى فى التفسير ففسر من أول البقرة إلى نهاية الإسراء، ثم وضع تفسير الفاتحة الطبعة الأولى القاهرة ۱۳۲۴ هـ).

١٥٧- تقدير أيام الدجال (بمخطوط قوله ورقة رقم ١١٩).

١٥٨- تقريب القريب فى الحديث (ذكر بحسن المحاضرة و كشف الظنون و الهدية).

١٥٩- تقرير الاسناد فى تفسير الاجتهاد (ذكر بالهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٩٠

١٦٠- تلخيص الأربعين لابن حجر فى المتباين (ذكر بالهدية).

١٦١- تمهيد الفرش فى الخصال الموجبة لظل العرش (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف).

١٦٢- تناسق الدرر فى تناسب السور (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

١٦٣- التنبه بمن يعثه الله على رأس كل مائة (ذكر بالهدية، و فكرته نفس ما ورد بمنظومته تحفة المجتهدين بأسماء المجددين).

١٦٤- تنبيه الغبى بثرته ابن عربى (ذكر بالهدية).

١٦٥- تنزيه الاعتقاد عن الحلول و الاتحاد (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٢٣٦).

١٦٦- تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأعياء (طبعت بالحاوى ج ١ ص ٣٥٩، حيدرآباد ١٣١٦ هـ، بمخطوط قوله ورقة رقم ٨٧).

١٦٧- التنفيس فى الاعتذار عن ترك الافتاء و التدريس (تسمى المقامة اللؤلؤية، رجعت إليها مخطوطة بدار الكتب برقم ٢١١٧٤ ب).

١٦٨- التنقيح فى مسألة التصحيح (ذكر بكشف الظنون و الهدية).

١٦٩- تنوير الحلوك فى إمكان رؤية النبى و الملك (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٤٣٧، بمخطوط قوله ورقة رقم ٣٠).

١٧٠- تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك (مطبعة الحلبي ١٣٤٩ هـ).

١٧١- توجيه العزم فى اختصاص الاسم بالجر و الفعل بالجزم (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

١٧٢- التوشيح على التوضيح (ذكر بحسن المحاضرة و الكشف و الهدية).

١٧٣- التوشيح على الجامع الصحيح للبخارى (ذكر بحسن المحاضرة و الهدية).

١٧٤- توضيح المدرك فى تصحيح المستدرک (ذكر بالهدية).

١٧٥- تهذيب الأسماء (ذكر بالهدية).

١٧٦- التهذيب فى أسماء الذيب (ذكر بالكشف و بالهدية).

١٧٧- الثبوت فى ضبط ألفاظ القنوت (مخطوط برقم ٢٣٠٣٧ ب بدار الكتب).

١٧٨- الثغور الباسمة فى مناقب السيدة فاطمة (بمخطوط قوله ورقة رقم ٧٨).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٩١

١٧٩- تلج الفؤاد فى أحاديث لبس السواد (طبعت بالحاوى ج ١ ص ١١٧، بمخطوط «٢٥» قوله ورقة رقم ٢٧٨).

١٨٠- الجامع الصغير لأحاديث البشير النذير (الطبعة الثالثة بعنوان السراج المنير شرح على الجامع الصغير للشيخ على العزيزى الشافعى،

١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م القاهرة).

١٨١- جامع المسانيد (ذكر بالهدية).

١٨٢- جامع الفرائض (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

١٨٣- جرّ الذيل فى علم الخيل (ذكر بالكشف و بالهدية).

١٨٤- جزء فى السلام على سيد الأنام (ذكر بالهدية).

١٨٥- جزء فى السلام من سيد الأنام (بمخطوط قوله ورقة رقم ٣٠).

١٨٦- جزء فى صلاة الضحى (طبعت بالحاوى ج ١ ص ٥٨، بمخطوط قوله ورقة رقم ٢٠٧).

- ١٨٧- جزء الوزير (ذكر بالهدية).
- ١٨٨- جزء الهاشمى (ذكر بالهدية).
- ١٨٩- جزيل المواهب فى اختلاف المذاهب (مخطوط بدار الكتب برقم ٣٥ مجاميع).
- ١٩٠- جمع الجوامع فى الحديث (كتاب ضخيم قصد به السيوطى استيعاب الأحاديث النبوية، قسمه قسمين الأول ساق فيه لفظ الحديث بنصه يذكر من خرجه و من رواه، و الثانى جعل به الأحاديث الفعلية المحضة أو المشتمة على قول و فعل، و قد رتبته الشيخ علاء الدين الهندى على أبواب الفقه و أخرجه باسم كثر العمال فى سنن الأقوال و الأفعال، و قد شرع مجمع البحوث الاسلاميه أخيرا فى إخراج الكتاب، و قد صدر منه العدد الأول).
- ١٩١- جمع الجوامع فى النحو (انظر همع الهوامع).
- ١٩٢- الجمع و التفرع فى أنواع البديع (ذكر بالكشف و بالهدية).
- ١٩٣- جنى الجنان (ذكر بالكشف و بالهدية).
- ١٩٤- الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر (طبع بالحاوى ج ١ ص ٢٠٨).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٩٢
- ١٩٥- الجواب الأرشد فى تنكير الأحد و تعريف الصمد (ذكر بالهدية).
- ١٩٦- الجواب الحاتم عن سؤال الخاتم (طبع بالحاوى ج ١ ص ١١٤، بمخطوط قوله ورقة رقم ٢٨٣).
- ١٩٧- الجواب الحزم عن حديث: التكبير جزم (طبع بالحاوى ج ١ ص ٥٣٥).
- ١٩٨- الجواب الزكى عن قمامة ابن الكركى (ذكر بالكشف و بالهدية).
- ١٩٩- الجواب المصيب عن اعتراض ابن الخطيب (ذكر بالكشف و بالهدية).
- ٢٠٠- جواب فى أسماء الملائكة (بمخطوط قوله ورقة رقم ٢٧٧).
- ٢٠١- جياذ المسلسلات (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٢٠٢- حاطب ليل و جارف سيل (كتاب جمع فيه شيوخه و رتبهم على حروف المعجم، و قد ذكره بحسن المحاضرة، و ذكر بالكشف و بالهدية).
- ٢٠٣- الحاوى للفتاوى (الطبعة الثالثة بتحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد مطبعة السعادة- القاهرة- شوال ١٣٧٨ هـ، ١٩٥٩ م).
- ٢٠٤- الحبايك فى أخبار الملائك (القاهرة مطبعة دار التأليف).
- ٢٠٥- الحبل الوثيق فى نصره الصديق (طبع بالحاوى ج ١ ص ٥٠٤، بمخطوط قوله ورقة رقم ١٩٩).
- ٢٠٦- الحجج المبينة فى التفضيل بين مكة و المدينة (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٢٠٧- حديقه الأديب و طريقة الأريب (ذكر بالهدية).
- ٢٠٨- الحرز المنيع فى أحكام الصلاة على الحبيب (القاهرة ١٣٢٥ هـ).
- ٢٠٩- حسن التخليص لتالى التلخيص (ذكر بالكشف و بالهدية).
- ٢١٠- حسن التسليك فى حكم التشييك (طبع بالحاوى ج ٢ ص ٤٨).
- ٢١١- حسن التصريف فى عدم التحليف (طبع بالحاوى ج ١ ص ٣٨٥).
- ٢١٢- حسن التعهد فى أحاديث التسمية و التشهد (ذكر بالهدية).
- ٢١٣- حسن السميت فى الصمت (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

- ٢١٤- حسن السير فيما فى الفرس من أسماء الطير (ذكر بالكشف و بالهدية).
- ٢١٥- حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة (مطبعة إدارة الوطن، القاهرة جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٩٣ ١٢٩٩هـ).
- ٢١٦- حسن المقصد فى عمل المولد (طبع بالحاوى ج ١ ص ٢٩٢، بمخطوط قوله ورقة رقم ١).
- ٢١٧- حسن النية فى خانقاه البيبرسيه (ذكرت بالهدية).
- ٢١٨- الحصر و الاشاعة لأشراط الساعة (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ٢١٩- حصول الرفق بأصول الرزق (مخطوط برقم ٢٠١٤٦ ب بدار الكتب ضمن مجموعة، بمخطوط قوله ورقة رقم ٢١٧).
- ٢٢٠- حصول النوال فى أحاديث السؤال (ذكر بالكشف و بالهدية).
- ٢٢١- الحظ الوافر من المغنم فى استدراك الكافر إذا أسلم (طبع بالحاوى ج ١ ص ٣٩، بمخطوط قوله ورقة رقم ٩٣).
- ٢٢٢- الحكم المشتهرة من عدد الحديث من الواحد إلى العشرة (ذكر بالهدية).
- ٢٢٣- الحكم الواردة على الأعداد الزائدة (ذكر بالهدية).
- ٢٢٤- حل عقود الجمان فى علمى المعانى و البيان (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٢٢٥- حلية الأولياء فى طبقاتهم (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٢٢٦- الحماسة (ذكر فى كشف الظنون أنها رسالة فى تفسير الألفاظ المتداولة).
- ٢٢٧- خادم النعل الشريف (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٢٢٨- الخبر الدال على وجود القطب و الأوتاد و النجباء و الأبدال (طبع بالحاوى ج ٢ ص ٤١٧، بمخطوط قوله ورقة رقم ٣٠٣).
- ٢٢٩- الخصائص الكبرى أو كفاية الطالب اللبيب فى خصائص الحبيب (تحقيق الدكتور محمد خليل هراس، القاهرة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م).
- ٢٣٠- الخلاصة فى نظم الروضة (ذكرت بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٢٣١- خمائل الزهر فى فضائل السور (ذكرت بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٢٣٢- خواص الأسماء الحسنى (ذكر بكشف الظنون).
- ٢٣٣- داعى الفلاح فى أذكار المساء و الصباح (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٢٣٤- الدرارى فى أبناء السرارى (بمخطوط قوله ورقة رقم ١٦٥).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٩٤
- ٢٣٥- درّ السحابة فىمن دخل مصر من الصحابة (طبع بكتاب حسن المحاضرة بالجزء الأول ص ٩٩ - ١٤٢).
- ٢٣٦- الدر المنظم فى الاسم الأعظم (طبع بالحاوى ج ٢ ص ٣١، بمخطوط قوله ورقة رقم ٢١٩).
- ٢٣٧- الدرّ المنثور فى التفسير بالمأثور (نشر مكتبة الجعفرى، طهران ١٣٧٧ هـ، ٤ أجزاء فى ٤ مجلدات).
- ٢٣٨- الدرّ النثر فى تلخيص نهاية ابن الأثير (بهامش النهاية، المطبعة العثمانية، القاهرة ١٣١١ هـ).
- ٢٣٩- الدرّ النثر فى قراءة ابن كثير (ذكر بالهدية).
- ٢٤٠- درة التاج فى إعراب مشكل المنهاج (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٢٤١- الدرّة التاجية على الأسئلة الناجية (طبع بالحاوى ج ٢ ص ١٠٧).
- ٢٤٢- الدرّة الفاخرة (ذكرت بالهدية و كشف الظنون).

- ٢٤٣- درج المعالى فى نصره الغزالي على المنكر المتغالى (ذكرت بحسن المحاضرة).
- ٢٤٤- الدرر المنيقة فى الآباء الشريفة (الطبعة الأولى بدائرة المعارف النظامية، حيدرآباد ١٣١٦ هـ).
- ٢٤٥- درر البحار فى الأحاديث القصار (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ٢٤٦- الدرر الحسان فى البعث و نعيم الجنان (المطبعة العثمانية بالقاهرة ١٣١٠ هـ).
- ٢٤٧- الدرر فى فضائل عمر الغرر (ذكر بالهدية).
- ٢٤٨- درر الكلم و غرر الحكم (بمخطوط قوله ورقة رقم ١٧٠).
- ٢٤٩- الدرر المنتشرة فى الأحاديث المشتهرة (مخطوط بدار الكتب ضمن مجموعة برقم ٢٣٤٣٨ ب).
- ٢٥٠- دفع الأسى فى تلخيص إسبال الكساء (ذكر بالهدية).
- ٢٥١- دفع التشنيع فى مسألة التسميع (طبعت بالحاوى ج ١ ص ٥٢).
- ٢٥٢- دفع التعسف فى إخوة يوسف (طبعت بالحاوى ج ١ ص ٤٨٠).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٩٥ بمخطوط قوله ورقة رقم ٩١).
- ٢٥٣- الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج (مخطوط برقم ١١٣ حديث قوله بدار الكتب).
- ٢٥٤- ديوان الحيوان (مختصر حياة الحيوان للدميرى، مخطوط مصور برقم ٨٣ ب بدار الكتب).
- ٢٥٥- ديوان الخطب (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ٢٥٦- ديوان الشعر (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ٢٥٧- الدوران الفلكى على ابن الكركى (ذكر بالهدية، من مقاماته).
- ٢٥٨- ذم القضاء (ضمن مخطوط قوله).
- ٢٥٩- ذمّ زيارة الأمراء (ذكر بحسن المحاضرة).
- ٢٦٠- الذوق السليم و ضد ذلك المسلوب الذوق اللثيم (ضمن مخطوط بدار الكتب برقم ٣٤٨٧ ج).
- ٢٦١- ذو الوساحين (ذكر بالهدية).
- ٢٦٢- ذيل الإنباه عن قبائل الرواة لابن حجر (ذكر بالهدية).
- ٢٦٣- ذيل طبقات الحفاظ للذهبي (نشر مكتبة القدسى بدمشق ١٣٤٧ هـ).
- ٢٦٤- ذيل اللئالى المصنوعة (القاهرة ١٣١٧ هـ).
- ٢٦٥- الرحمة فى الطب و الحكمة (المطبعة السعيدية بالقاهرة).
- ٢٦٦- الرحلة الفيومية و المكية و الدميافية (ذكر بالكشف و بالهدية).
- ٢٦٧- الرد على من أخلد إلى الأرض و جهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض (طبعة المطبعة الثعالبية بالجزائر ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م).
- ٢٦٨- رساله فى أسماء المدلسين (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ٢٦٩- رساله فى الأحاديث الواردة فى إثم من اغتصب شيئاً من الأرض و طريق المسلمين (بمخطوط قوله ورقة ٢٩٢).
- ٢٧٠- رساله فى سعادة أبوى النبى صلى الله عليه و سلم (بمخطوط قوله ورقة رقم ٣٤٣).
- ٢٧١- رساله فىمن يؤتى أجره مرتين (بمخطوط قوله ورقة ٢٢١).
- ٢٧٢- رساله فى الصلاة على النبى صلى الله عليه و سلم (ذكرت بكشف الظنون و الهدية).
- ٢٧٣- رساله تتعلق بالشمس و إلى أين تذهب بعد غروبها (بمخطوط قوله ورقة

جلال الدين السيوطى عصره و ميّاته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٩٦
(٣٦٤).

٢٧٤- رسالة هل البسملّة فى القرآن أم لا (بمخطوط قوله ورقة ٢٧١).

٢٧٥- رسالة فى الخمر و أوصافها (ذكرت بالهدية).

٢٧٦- رسالة فيمن عاش من الصحابة مائة و عشرين (تسمى ریح النسرین، ضمن مجموعة مخطوطة برقم ٤٣٦٤ ج بدار الكتب).

٢٧٧- رسالة فى أصول الفقه (طبعت ضمن مجموعة، بيروت ١٣٢٤ هـ).

٢٧٨- رسالة فى أصول الكلمات (طبعت ضمن مجموعة، مكتبة القدسي، دمشق ١٣٤٨ هـ).

٢٧٩- رسالة فى بيان مراتب الأرواح بعد الموت (و هى نفس الرسالة المسماة باللمعة فى أجوبة الأسئلة السبعة، ضمن مجموعة مخطوطة برقم ٣٤٨٩ ج).

٢٨٠- رسالة فى علم الخط (طبعت ضمن مجموعة التحفة البهية و الطرفة الشهية، مطبعة الجوائب، القسطنطينية ١٣٠٢ هـ).

٢٨١- رسالة فى موت فرعون على الاسلام (ضمن مجموعة مخطوطة برقم ٣٤٨٩ ج بدار الكتب).

٢٨٢- رسالة فى ذم علم المنطق و تعلمه (ضمن مجموعة مخطوطة برقم ٢١٦٠٦ ب بدار الكتب).

٢٨٣- رشف الزلال من السحر الحلال (يسمى مقامة النساء، القاهرة طبع حجر بدون تاريخ).

٢٨٤- رصف اللاك فى وصف الهلال (طبعت ضمن مجموعة التحفة البهية و الطرفة الشهية، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٣٠٢ هـ).

٢٨٥- رفع الباس عن بنى العباس (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية و الكشف).

٢٨٦- رفع الحذر عن قطع السدر (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ١١٧).

٢٨٧- رفع الصوت بذبح الموت (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ١٨١).

٢٨٨- رفع السنّة فى نصب الزنة (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٤٨٥).

٢٨٩- رفع شأن الحبشان (مخطوط بدار الكتب برقم ٩٨٩٩ ح).

٢٩٠- رفع الخصاصة فى شرح الخلاصة (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و ميّاته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٣٩٧

٢٩١- رفع الباس و كشف الالتباس فى ضرب المثل من القرآن و الاقتباس (طبعت بالحاوى ج ١ ص ٣٩٩).

٢٩٢- رفع منار الدين و هدم بناء المفسدين (ذكرت بالهدية، و قد لخصها فى رسالته هدم الجانى على البانى).

٢٩٣- الروض الأريض فى طهر المحيض (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

٢٩٤- الروض الأنيق فى مسند الصديق (ذكر بالكشف و الهدية).

٢٩٥- الروض المكمل و الورد المعلل (ذكر بالكشف و الهدية).

٢٩٦- الرياض الأنيقة فى شرح أسماء خير الخليفة (مخطوط بدار الكتب برقم ٢٣٣١٦ ب).

٢٩٧- رياض الطالبين (ذكر بالهدية).

٢٩٨- زاد المسير فى الفهرست الصغير (ذكر بالكشف و بالهدية).

٢٩٩- زبدة اللبّق فى النوادر (ذكر بالكشف و الهدية).

٣٠٠- الزجر بالهجر (ضمن مخطوط قوله ورقة رقم ٢٥٥).

٣٠١- الزنجبيل القاطع فى وطء ذات البراقع (منظومة ذكرها صاحب كشف الظنون، و ذكرت بالهدية).

٣٠٢- الزند الورى فى الجواب عن السؤال السكندرى (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٤٨٠).

- ۳۰۳- الزهر الباسم فيما يزوج فيه الحاكم (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ۳۰۴- زهر الخمائل على الشمائل (ذكر بالهدية).
- ۳۰۵- زهر الربى على المجتبى (طبع مع كتاب سنن النسائى، القاهرة ۱۳۱۲ هـ).
- ۳۰۶- زوائد الرجال على تهذيب الكمال (ذكر يحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ۳۰۷- الزوائد على المال فى معرفة الرجال (ذكر بالهدية).
- ۳۰۸- زوائد نواذر الأصول للحكيم الترمذى (ذكر بحسن المحاضرة).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۹۸
- ۳۰۹- ساجعة الحرم (من مقاماته، ذكرت بالهدية).
- ۳۱۰- السبل الجلية فى الآباء العلية (الطبعة الأولى، حيدرآباد ۱۳۱۶ هـ، و هو سادس مؤلف له فى موضوع أبوى النبى صلى الله عليه و سلم).
- ۳۱۱- سبل الهدى فى السير (ذكر بالكشف و الهدية).
- ۳۱۲- السلاف فى التفضيل بين الصلاة و الطواف (ذكر بالكشف و الهدية).
- ۳۱۳- السلالة فى تحقيق المقر و الاستحالة (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ۳۱۴- السلسلة الموشحة فى العربية (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية، و أشار إليها فى كتابه الأشباه و النظائر).
- ۳۱۵- سلوة الفؤاد فى موت الأولاد (لعلها المقامة الولدية و هى مطبوعة مع مقامات السيوطى مطبعة الجوائب- القسطنطينية ۱۲۹۸ هـ).
- ۳۱۶- السماح فى أخبار الرماح (ذكر بالكشف و الهدية).
- ۳۱۷- سهام الاصابة فى الدعوات المستجابة (القاهرة ۱۳۰۷ هـ).
- ۳۱۸- السهم المصيب فى نحر الخطيب (ذكر بالكشف و الهدية).
- ۳۱۹- السيف الصقيل فى حواشى ابن عقيل (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ۳۲۰- السيف النظار فى الفرق بين الثبوت و الانكار (ذكر بالكشف و الهدية).
- ۳۲۱- شافى العيبى على مسند الشافعى (ذكر بالكشف و الهدية).
- ۳۲۲- شدّ الأثواب فى سدّ الأبواب (طبع بالحاوى ج ۲ ص ۵۳).
- ۳۲۳- شدّ الرحال فى ضبط الرجال (ذكر بالكشف و الهدية).
- ۳۲۴- شدّ المطية للفضل بن غياث و عطية (ذكر بالهدية).
- ۳۲۵- شذا العرف فى إثبات المعنى للحرف (ذكر بحسن المحاضرة).
- ۳۲۶- شرح أبيات تلخيص المفتاح (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ۳۲۷- شرح الاستعاذة و البسملة (أول مؤلفاته، ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ۳۲۸- شرح الاضافة فى منصب الخلافة (ذكر بالكشف و الهدية).
- ۳۲۹- شرح ألفية العراقى فى الحديث (مخطوط بدار الكتب برقم
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۹۹
- ۲۳۲۳۴ ب).
- ۳۳۰- شرح حديث الأربعين (ذكر بالكشف و بالهدية).
- ۳۳۱- شرح الحوقلة و الحيعلة (من أوائل مؤلفاته ذكر بالكشف و الهدية).

- ٣٣٢- شرح الروضة للنوى فى الفروع (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٣٣٣- شرح الشاطبية (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٣٣٤- شرح شواهد المغنى (المطبعة البهية القاهرة ١٣٢٢ هـ).
- ٣٣٥- شرح الصدور بشرح أحوال الموتى فى القبور (القاهرة المطبعة الميمنية ١٣٠٩ هـ).
- ٣٣٦- شرح على نظم البديع فى مدح خير شفيح (القاهرة المطبعة الوهية ١٢٩٨ هـ).
- ٣٣٧- شرح عقود الجمان فى علمى المعانى و البيان (القاهرة مطبعة شرف ١٣٠٥ هـ).
- ٣٣٨- شرح ضرورى التصريف لابن مالك (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٣٣٩- شرح فرائض الرحبية (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٣٤٠- شرح قصيدة الكافية (ذكر بالهدية).
- ٣٤١- شرح لمعة الاشراق فى الاشتقاق (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٣٤٢- شرح ملحء الاعراب (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٣٤٣- الشرف المحتم فيما من الله به على وليه سيدى أحمد الرفاعى من تقبيل يد النبى صلى الله عليه و سلم (المطبعة الأميرية القاهرة ١٣٠١ هـ).
- ٣٤٤- شفاء العليل فى ذم الصاحب و الخليل (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف).
- ٣٤٥- شقائق الأترج فى دقائق الغنج (مخطوط بدار الكتب ضمن مجموعة برقم ٣٤٩٠ ج).
- ٣٤٦- الشماريخ فى علم التاريخ (ليدن ١٣١٢ هـ - ١٨٩٤ م).
- ٣٤٧- الشمعة المضية فى علم العربية (مخطوط بدار الكتب بالخزانة التيمورية برقم ١٢٧ نحو).
- ٣٤٨- الشهد فى النحو (منظومة ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٠٠
- ٣٤٩- شوارد الفوائد فى الضوابط و القواعد (ذكر بالهدية).
- ٣٥٠- شواهد الأبيكار فى حاشية الأنوار (ذكر بالهدية).
- ٣٥١- الصارم الهندكى فى عنق ابن الكركى (ذكر بالكشف و الهدية، و هو من مقاماته).
- ٣٥٢- الصواعق على النواعق (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٣٥٣- صون المنطق و الكلام عن فن المنطق و الكلام (تحقيق الدكتور على سامى النشار الطبعة الأولى القاهرة ١٩٤٦ م).
- ٣٥٤- ضرب الأسل فى جواز أن يضرب فى المواعظ و الخطب من الكتاب و السنة و المثل (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).
- ٣٥٥- ضوء البدر فى إحياء ليلة عرفه و العيدين و نصف شعبان و ليلة القدر (ذكر بالهدية).
- ٣٥٦- ضوء الثريا فى مختصر طلوع الثريا (ذكر بالهدية).
- ٣٥٧- ضوء الشمعة فى عدد الجمعة (طبعت بالحاوى ج ١ ص ٩٩).
- ٣٥٨- الطب النبوى (مخطوط بدار الكتب برقم ٣١٥٧ ل).
- ٣٥٩- طبقات الأصوليين (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ٣٦٠- طبقات البيانين (ذكر بالكشف و بالهدية).
- ٣٦١- طبقات التابعين (ذكر بالهدية).
- ٣٦٢- طبقات الحفاظ (جوتجن ١٨٣٨ م، مخطوط بالدار برقم ٢٣٢٦٢ ب).

٣٦٣- طبقات الخطاطين (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

٣٦٤- طبقات الشعراء (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

٣٦٥- طبقات الفرضيين (ذكر بالكشف و الهدية).

٣٦٦- طبقات المفسرين (ليدن ١٨٣٩ م).

٣٦٧- الطرثوث فى فوائد البرغوث (ذكر بالكشف و الهدية).

٣٦٨- طرح السقط فى نظم اللقط (مخطوط بدار الكتب برقم ٤٣٦٤ ج ضمن مجموعة).

٣٦٩- طرز العمامة فى التفرقة بين المقامة و القمامة (ذكر بالكشف و الهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٠١

٣٧٠- الطلعة الشمسية فى تبين الجنسية (ذكر بالهدية).

٣٧١- طلوع الثريا باظهار ما كان خفيا (طبع بالحاوى ج ٢ ص ٣١٦).

٣٧٢- طوق الحمامة (ذكر بالكشف و الهدية).

٣٧٣- طى اللسان عن ذم الطيلسان (مخطوط بدار الكتب برقم ٢٢٥٣٥ ب).

٣٧٤- الظفر بقلم الظفر (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

٣٧٥- العجائب فى تفضيل المشارق على المغارب (ذكر بالكشف و الهدية).

٣٧٦- العجاجة الزرنية فى السلالة الزينية (طبع بالحاوى ج ٢ ص ٨١).

٣٧٧- العذب المسلسل فى تصحيح الخلاف المرسل (ذكر بالكشف و الهدية).

٣٧٨- العرف الوردى فى أخبار المهدي (طبع بالحاوى ج ٢ ص ١٢٣).

٣٧٩- العشاريات (ثلاثة أحاديث عالية الاسناد، مخطوط بدار الكتب برقم ٤٣٦٤ ج ضمن مجموعة).

٣٨٠- عقود الجمان فى علمى المعانى و البيان (مطبوع بولاق ١٢٩٣ ه).

٣٨١- عقود الزبرجد على مسند الامام أحمد (مخطوط برقم ٢٤١٢٥ ب بدار الكتب).

٣٨٢- العناية فى معرفة أحاديث الهداية (ذكر بالكشف).

٣٨٣- العناية فى تخريج أحاديث الكفاية (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

٣٨٤- عين الاصابة فيما استدركته عائشة على الصحابة (ذكر بالكشف و بالهدية).

٣٨٥- عين الاصابة فى مختصر أسد الغابة (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

٣٨٦- غاية الاحسان فى خلق الانسان (ذكر بالكشف و بالهدية).

٣٨٧- غرر الأنساب فى الرمى بالنشاب (ذكر بالكشف و بالهدية).

٣٨٨- الغنية فى مختصر الروضة (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

٣٨٩- الفارق بين المصنف و السارق (ذكر بالكشف و بالهدية).

٣٩٠- الفانيد فى حلاوة الأسانيد (ذكر بالكشف و بالهدية).

٣٩١- الفتاش على القشاش (ذكر بكشف الظنون، و هو فى الأحاديث الموضوعية).

٣٩٢- فائدة سورة الأنعام (ذكر بالهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٠٢

٣٩٣- فتح الجليل للعبد الذليل (فى الأنواع البديعية المستخرجة من قوله تعالى: اللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا .. الآية، ذكر بحسن المحاضرة و

بالكشف و بالهدية).

٣٩٤- فتح الحى القيوم بشرح روضة الفهوم (ذكر بالكشف و بالهدية).

٣٩٥- فتح المطلب المبرور و برد الكبد المحرور فى الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور (طبعت بالحاوى ج ١ ص ٤٥١).

٣٩٦- فتح المغالق من أنت تالق (طبعت بالحاوى ج ١ ص ٣٢٩).

٣٩٧- فجر الشمذ فى إعراب أكمل الحمد (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٤٧٦).

٣٩٨- الفتح القريب على مغنى اللبيب (حاشية له ذكرت بحسن المحاضرة و بالهدية).

٣٩٩- الفتح الكبير فى ضم الزيادات إلى الجامع الصغير (القاهرة ١٣٢٠ هـ).

٤٠٠- الفريدة (الألفية النحوية للسيوطى، طبعت بمطبعة الترقى ١٣٣٢ هـ).

٤٠١- الفرائض الرحبية (ذكر صاحب الكشف أنها أرجوزة شرحها السيوطى شرحا ممزوجا).

٤٠٢- فصل الخطاب فى قتل الكلاب (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

٤٠٣- فصل الكلام فى حكم السلام (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

٤٠٤- فضل الأغوات (مطوع).

٤٠٥- فضائل يوم الجمعة (يسمى اللمعة؛ بالحاوى ج ١ ص ٩٣).

٤٠٦- فضائل ليلة النصف من شعبان (بمخطوط قوله ورقة رقم ٣٣١).

٤٠٧- فضائل المولد الشريف (مخطوط بدار الكتب برقم ٢١٦٣٢ ب).

٤٠٨- فضل الجلد عند فقد الولد (ثالث مؤلف له فى هذا الموضوع، ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

٤٠٩- الفضل العميم فى إقطاع تميم (ذكر بالكشف و بالهدية).

٤١٠- فضل القيام بالسلطنة (ذكر بالكشف و بالهدية).

٤١١- فطام اللسد فى أسماء الأسد (ذكر بالكشف و بالهدية).

٤١٢- الفلك الدوار فى تفضيل الليل على النهار (ذكر بالكشف و بالهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و ميّاته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٠٣

٤١٣- الفلك المشحون فى أنواع الفنون (قال فى كشف الظنون: «هو تذكرته فى خمسين مجلدا ذكره فى مؤلفاته»، و قد أشار

السيوطى إلى الكتب التى أفادها من تذكرته فى مقدمة بغية الوعاة، كما ذكر اسم الكتاب بحسن المحاضرة).

٤١٤- الفوائد البارزة و الكامنة فى النعم الظاهرة و الباطنة (ذكرت بالكشف و بالهدية).

٤١٥- الفوائد الكامنة فى إيمان السيدة آمنة (ذكرت بحسن المحاضرة و الكشف و بالهدية).

٤١٦- الفوائد المتكاثرة فى الأخبار المتواترة (ذكر بالكشف و بالهدية).

٤١٧- الفوائد الممتازة فى صلاة الجنّازة (طبعت بالحاوى ج ١ ص ١٢٩).

٤١٨- الفوز العظيم بلقاء الكريم (ذكرت بالكشف و بالهدية).

٤١٩- الفيض الجارى فى طرق الحديث العشارى (ذكر بالكشف و بالهدية).

٤٢٠- فيض القدير شرح الجامع الصغير (مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة ٦ أجزاء فى ٦ مجلدات).

٤٢١- القذاذة فى تحقيق محل الاستعاذة (طبعت بالحاوى ج ١ ص ٤٦٠، بمخطوط قوله ورقة رقم ٢٧٣).

٤٢٢- قدح الزند فى السلم فى القند (طبعت بالحاوى ج ١ ص ١٤٦).

٤٢٣- قطر النداء فى ورود الهمزة للندا (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

- ٤٢٤- قطع الدابر من الفلك الدائر (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٤٢٥- قطع المجادلة عند تغيير المعاملة (طبع بالحاوى ج ١ ص ١٤٩).
- ٤٢٦- قطف الأزهار فى كشف الأزهار (رسالة فى متشابه القرآن، ذكرت بالكشف).
- ٤٢٧- قطف الثمر فى موافقات عمر (منظومة له، طبع بالحاوى ج ٢ ص ٥).
- ٤٢٨- قطف الزهر فى الرحلة الجامعة بين البر و البحر و النهر (ذكرت بالكشفا و الهدية).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٠٤
- ٤٢٩- قطف الوريد من أمالى ابن دريد (ذكرت بالكشف و الهدية).
- ٤٣٠- قلائد الفوائد (منظومة أودعها بعض الفوائد العلمية و النوادر ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ٤٣١- قمع المعارض فى نصره ابن الفارض (من مقاماته، ذكرت بالكشف و الهدية).
- ٤٣٢- قوت المغتذى على جامع الترمذى (مطبوع).
- ٤٣٣- القول الأشبه فى حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه (طبع بالحاوى ج ٢ ص ٤١٢، بمخطوط قوله ورقة رقم ٣٠٠).
- ٤٣٤- القول الفصيح فى تعيين الذبيح (طبع بالحاوى ج ١ ص ٤٨٠، بمخطوط قوله ورقة رقم ٦).
- ٤٣٥- القول الحسن فى الذب عن السنن (ذكر بحسن المحاضرة).
- ٤٣٦- القول الجلى فى أحاديث الولي (طبع بالحاوى ج ١ ص ٥٦٠، بمخطوط قوله ورقة ٢٩٥، مخطوط برقم ٢٠٦٦٢ ب).
- ٤٣٧- القول المشرق فى تحريم الاشتغال بالمنطق (طبع بالحاوى ج ١ ص ٣٩٣).
- ٤٣٨- القول المجمل فى الرد على المهمل (ذكر بحسن المحاضر و بالهدية).
- ٤٣٩- القول المشيد فى وقف المؤيد (طبع بالحاوى ج ١ ص ٢٥٨).
- ٤٤٠- القول المضى فى الحنث فى المضى (طبع بالحاوى ج ١ ص ٣١٤).
- ٤٤١- الكافى فى زوائد المهذب على الوافى (ذكر بالهدية).
- ٤٤٢- الكاوى فى تاريخ السخاوى (من مقاماته، ذكرت بالكشف و الهدية).
- ٤٤٣- الكر على عبد البر (ذكر بالهدية).
- ٤٤٤- كشف التليس عن قلب أهل التدليس (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٤٤٥- كشف الريب فى الجيب (طبع بالحاوى ج ٢ ص ١٧٩، بمخطوط قوله ورقة رقم ٢٨١).
- ٤٤٦- كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة (ذكرت بحسن المحاضرة و بالهدية).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٠٥
- ٤٤٧- كشف الضبابه فى مسألة الاستنابة (طبع بالحاوى ج ١ ص ٢٤٤، مخطوط بدار الكتب برقم ٣٢ فقه شافعى ضمن مجموعة).
- ٤٤٨- كشف الطامة عن الدعاء بالمغفرة العامة (ذكر بالهدية).
- ٤٤٩- كشف العمى فى مسألة الحمى (ذكر بالهدية).
- ٤٥٠- كشف اللبس فى حديث رد الشمس (ذكر بالهدية).
- ٤٥١- كشف المغطى بشرح الموطا (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية، و لعله نفس كتابه تنوير الحوالك).
- ٤٥٢- كشف النقاب عن الألقاب (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).
- ٤٥٣- الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف (طبع بالحاوى ج ٢ ص ١٦٨، مخطوط بدار الكتب برقم ٢٣٠٣٢ ب).
- ٤٥٤- كفاية المحتاج فى معرفة الاختلاج (مطبوع بالقاهرة طبع حجر).

- ٤٥٥- كفاية المحسن فى وصف المؤمن (بمخطوط قوله ورقة رقم ٣٦٦).
- ٤٥٦- الكلام عن حديث ابن عباس: احفظ الله يحفظك) تصدير ألقاه لما ولى درس الحديث بالشيخونية، ذكر ذلك بحسن المحاضرة).
- ٤٥٧- الكلم الطيب و القول المختار فى المأثور من الدعوات و الأذكار (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ٤٥٨- الكنز المدفون و الفلك المشحون (مطبعة الحلبي بالقاهرة ١٩٣٩ م).
- ٤٥٩- كنه المراد فى شرح بانت سعاد (مخطوط بدار الكتب ١٦٦٥٦ ز، نسخة أخرى برقم ٢٣٩ أدب).
- ٤٦٠- الكواكب الساريات فى الأحاديث العشاريات (سبق ذكر العشاريات).
- ٤٦١- الكوكب الساطع فى نجم جمع الجوامع (ذكر بحسن المحاضرة بين كتب الأصول، و ذكر بالهدية).
- ٤٦٢- الكوكب المنير فى شرح الجامع الصغير (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٤٦٣- اللئالى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعه (الناشر المكتبة الحسينية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٥٢ هـ).
- ٤٦٤- اللئالى المكلمة فى تفضيل الفلاة على المفضلة (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٤٦٥- لباب النقول فى أسباب النزول (احدى طبعاته بهامش تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٠٦ و أخرى منفصلة بمطبعة الحلبي، القاهرة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م).
- ٤٦٦- لباب النقول فيما وقع فى القرآن من المعرب و المنقول (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٤٦٧- لب اللباب فى تحرير الأنساب (مطبوع بأوروبا، هناك طبعة بالأفست بمكتبة المثنى ببغداد).
- ٤٦٨- لبس اليب فى الجواب عن إيراد حلب (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٧٣٠٢ بمخطوط قوله ورقة رقم ٢٣).
- ٤٦٩- اللفظ الجوهري فى رد خباط ابن الجوجرى (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٤٧٠- اللفظ المكرم بخصائص النبي المحترم (ذكر بالهدية).
- ٤٧١- لقط المرجان فى أخبار الجان (اختصار لكتاب آكام المرجان للشبلى مخطوط برقم ٢٢٩٨٩ ب، و بمخطوط قوله ورقة رقم ٩٥).
- ٤٧٢- لم الأطراف و ضم الأطراف (رسالة فى الحديث ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).
- ٤٧٣- اللمع فى أسماء من وضع (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).
- ٤٧٤- لمعة الاشراف فى الاشتقاق (ذكر شرحها بحسن المحاضرة، و ذكرت بالكشف و الهدية).
- ٤٧٥- اللمعة فى أجوبة الأسئلة السبعة (طبعت بالحاوى ج ٢ ص ٣٠٢، بمخطوط قوله ورقة رقم ١٨١).
- ٤٧٦- اللمعة فى تحرير الركعة لادراك الجمعة (طبعت بالحاوى ج ١ ص ٩٣).
- ٤٧٧- اللمعة فى خصائص يوم الجمعة (مخطوط بدار الكتب برقم ٢٣١١٠ ب، نسخة أخرى برقم ٩٥٣ فقه شافعى ضمن مجموعة).
- ٤٧٨- اللوامع المشرقة فى ذم الوحدة المطلقة (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٤٧٩- اللوامع و البوارق فى الجوامع و الفوارق (ذكر بحسن المحاضرة بكتب الفقه، و بالهدية).
- ٤٨٠- ما رواه الأساطين فى عدم الدخول على السلاطين (ذكر بالهدية).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٠٧
- ٤٨١- ما رواه السادة فى الاتكاء على الوسادة (بمخطوط قوله ورقة رقم ٢٨٤).
- ٤٨٢- ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية و الكشف، و قد ألفه بعد طاعون عام ٨٦٤ هـ).
- ٤٨٣- الماهد لمسائل الزاهد (ذكرت بالكشف و الهدية، و هى تعليق على مقدمة من ستين مسألة فى أحكام الدين للزاهد شهاب

الدين أحمد).

- ٤٨٤- المباحث الزكية فى المسألة الدوركية (طبع بالحاوى ج ١ ص ٢٥٣).
- ٤٨٥- مباسم الملاح و مناسم الصباح فى مواسم النكاح (ذكرت بالكشف و الهدية).
- ٤٨٦- المثابة فى آثار الصحابة (ذكر بكشف الظنون).
- ٤٨٧- المتوكلى فيما ورد فى القرآن باللغه الحبشيه و الفارسيه و الهنديه و التركيّه و الزنجيه و النبطيه و القبطيه و السريانيه و العبرانيه و الروميه و البربريه (دمشق ١٣٤٨ هـ مطبعه الترقى).
- ٤٨٨- مجمع البحرين و مطلع البدرين فى التفسير (ذكر بحسن المحاضره و بالكشف و الهدية).
- ٤٨٩- مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن (ذكر بالهدية).
- ٤٩٠- المحاضرات و المحاورات (ذكرت بالكشف و الهدية).
- ٤٩١- مختصر الأحكام السلطانيه للماوردى (ذكر بحسن المحاضره و بالهدية).
- ٤٩٢- مختصر إحياء العلوم للغزالي (ذكر بالهدية).
- ٤٩٣- مختصر معجم البلدان لياقوت (ذكر بحسن المحاضره).
- ٤٩٤- المدرج إلى المدرج (ذكر بحسن المحاضره و بالكشف و الهدية).
- ٤٩٥- مرصد الاطلاع فى أسماء الأمكنه و البقاع (مطبوع فى ٦ مجلدات).
- ٤٩٦- مرصد الطالع فى تناسب المطالع و المقاطع (فى فواتح السور و خواتيمها، ذكر بحسن المحاضره و الكشف و الهدية).
- ٤٩٧- المرّد فى كراهيه السؤال و الردّ (بمخطوط قوله ورقه رقم ٢٧٦).
- ٤٩٨- مرقاة الصعود إلى سنن أبى داود (ذكر بحسن المحاضره و الهدية).
- ٤٩٩- المرقاة العليه فى شرح الأسماء النبويه (مخطوط بدار الكتب برقم ٢٣٩٦٨ ب).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٠٨
- ٥٠٠- مَرّ النسيم إلى ابن عبد الكريم (فى الفقه، ذكرت بالكشف و الهدية).
- ٥٠١- المزهى فى روضه المشتبهى (ذكر بالهدية).
- ٥٠٢- المزهى فى علوم اللغه و أنواعها (تحقيق الجاوى و زميله، القاهره مطبعه دار إحياء الكتب العربيه).
- ٥٠٣- المسارعه إلى المصارعه (رساله فى الحديث ذكرت بكشف الظنون و بالهدية).
- ٥٠٤- مسالك الحنفا فى والدى المصطفى (طبع بالحاوى ج ٢ ص ٣٥٣، طبعت بحيدرآباد ١٣١٦ هـ).
- ٥٠٥- مسامره السموع فى ضوء الشموع (بمخطوط قوله ورقه رقم ٢٣٩).
- ٥٠٦- المستطرفه فى أحكام دخول الحشفه (ذكرت بحسن المحاضره و الكشف و الهدية).
- ٥٠٧- المستظرف فى أخبار الجوارى (ذكرت بالهدية).
- ٥٠٨- المسلسلات الكبرى (٨٥ حديثا، ذكرت بحسن المحاضره و بالكشف و بالهدية).
- ٥٠٩- مسند الصحابه الذين ماتوا فى زمن النبى صلى الله عليه و سلم (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٥١٠- مشتهى العقول فى منتهى النقول (مخطوط بدار الكتب برقم ٤٣٥٠ ج ضمن مجموعته، مطبوع بالقاهره ١٢٧٦ هـ).
- ٥١١- المشنف على ابن المصنف (تعليقه على شرح الألفيه، ذكرت بالهدية).
- ٥١٢- المصاييح فى صلاة التراويح (طبع بالحاوى ج ١ ص ٥٣٧).
- ٥١٣- المصاعد العليه فى القواعد النحويه (أدرجه بكتابه الأشباه و النظائر، و هو يستغرق الجزء الأول من هذا الكتاب من طبعه

حيدرآباد ١٣١٧ هـ).

٥١٤- مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجه (مطبوع بهامش السنن، مخطوط برقم ٣١٠٩٤ بدار الكتب).

٥١٥- المضبوط فى أخبار أسيوط (ذكر بالكشف و الهدية).

٥١٦- المطالع السعيدة فى شرح الفريده (مخطوط ضخيم بدار الكتب بالخزانة التيمورية برقم ٥٨١ نحو).

٥١٧- مطلع البدرين فيمن يؤتى أجره مرتين (ضمن مجموعة مخطوطه برقم

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٠٩

٢٠٥٤٤ ب، بمخطوط قوله ورقه رقم ٢٢١).

٥١٨- المعانى الدقيقة فى إدراك الحقيقه (بمخطوط قوله ورقه رقم ٢٥٨).

٥١٩- معترك الأقران فى مشترك القرآن (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية، طبع أخيرا).

٥٢٠- المعتصر فى تقرير عبارة المختصر (ذكر بكشف الظنون و الهدية، و هو تعليق على عبارات فى مختصر الشيخ خليل لم توجد فى غيره من كتب الفقه).

٥٢١- مفاتيح الغيب (فى التفسير من أول «سبح» إلى آخر القرآن، ذكر بحسن المحاضرة و الكشف و الهدية).

٥٢٢- مفتاح الجنة فى الاعتصام بالسنة (ذكر بالكشف و الهدية و حسن المحاضرة).

٥٢٣- مفحمت الأقران فى مبهمات القرآن (الطبعة الأولى، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م).

٥٢٤- مقاطع الحجاز (ذكر بالكشف و الهدية و حسن المحاضرة).

٥٢٥- مقامات السيوطى (تسع و عشرون مقامة هى: ساجعة الحرم فى مكة و المدينة، و المقامة السندسية فى أبوى النبى - اللازوردية

فى موت الأولاد - الذهبية فى الحمى - الكاوى فى تاريخ السخاوى - الطاعونية - المستنصرية - مقامة أولى الألباب - الحلف - الوردية

فى الزهور - المسكية فى الرياحين - التفاحية فى الفواكه - الزمردية - الفستقية فى النقول - الياقوتية - بلبل الروضة - اللؤلؤية - البحرية -

الدريه - الفتاش على القشاش - الاستنصار بالواحد القهار - الدوران الفلكى على ابن الكركى - ساحب سيف عى صاحب حيف -

الكلاجية فى الأسئلة الناجية - قمع المعارض فى نصره ابن الفارض - الفارق بين المصنف و السارق - طرز العمامة فى التفرقة بين

المقامة و القمامة - رشف الزلال من السحر الحلال - اللفظ الجوهري فى رد خباط ابن الجوجرى، و قد طبع بعض هذه المقامات

بالجوائب، القسطنطينية ١٢٩٨ هـ، و بعضها مخطوطات مفردة أو ضمن مجاميع، و بعضها طبع حجر بالقاهرة

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤١٠

(١٢٧٥ هـ).

٥٢٦- المقامة الأسيوطية و تسمى الأحاجى النحوية (ضمن مجموعة برقم ٣٢ مجاميع بدار الكتب).

٥٢٧- المكنون فى ترجمة ذى النون (ذكر بالكشف و الهدية).

٥٢٨- الملاحن فى معنى المشاحن (بمخطوط قوله ورقه رقم ١٦٨).

٥٢٩- الملتقط من الدرر الكامنة (ذكر بالكشف و الهدية).

٥٣٠- ملححة الاعراب (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف، و هى منظومة).

٥٣١- مناقب السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها (ذكر بكشف الظنون).

٥٣٢- مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا (مطبوع طبع حجر بالقاهرة بدون تاريخ).

٥٣٣- منبع الفوائد فى تركيب الضوابط و القواعد (ذكر بالكشف و الهدية).

٥٣٤- منتهى الآمال فى شرح حديث: إنما الأعمال (مخطوط بدار الكتب برقم ٢٣٢٣٨ ب).

- ۵۳۵- المنجلى فى تطور الولى (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۳۳۵، بمخطوط قوله ورقة ۲۹۶).
- ۵۳۶- المنجم فى المعجم (ذكر بالهدية).
- ۵۳۷- المنحة فى السبحة (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۳۶، مخطوط بدار الكتب برقم ۴۳۶۴ ج).
- ۵۳۸- منع الثوران عن الدوران (ذكرت بالكشف و الهدية).
- ۵۳۹- المنقح الظريف فى الموشح الشريف (ذكر بالكشف و الهدية).
- ۵۴۰- منهاج السنة و مفتاح الجنة (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ۵۴۱- المنهج السوى فى ترجمة النووى (مخطوط برقم ۳۱۵۷ ل بدار الكتب).
- ۵۴۲- منهل اللطائف فى الكنافة و القطائف (ذكر بكشف الظنون).
- ۵۴۳- المنى فى الكنى (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ۵۴۴- موائد الفوائد (ذكر بالكشف و الهدية).
- ۵۴۵- المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب (مخطوط بدار الكتب بالخزانة التيمورية، نسختان برقم ۲۸۵، ۲۸۶ لغة).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۱۱
- ۵۴۶- الموشح فى النحو (مخطوط بدار الكتب بالخزانة التيمورية، نسختان برقم ۱۹۱، ۷۰۷ نحو).
- ۵۴۷- ميدان الفرسان فى شواهد القرآن (ذكر بالهدية).
- ۵۴۸- ميزان المعدلة فى شأن البسملة (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۱۵۰۷، ۱۶۵۰۷ ب، بمخطوط قوله ورقة رقم ۲۷۱).
- ۵۴۹- ناسخ القرآن و منسوخه (ذكر بالهدية، و هو أحد مباحث كتابه الإتقان).
- ۵۵۰- النادريات من العشاريات (بمخطوط قوله ورقة رقم ۳۰۲).
- ۵۵۱- نبذة فى الكلام على حقيقة القرآن (مخطوط برقم ۳۴۹۰ ج ضمن مجموعة).
- ۵۵۲- نتيجة الفكر فى الجهر بالذكر (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۲۳، بمخطوط قوله ورقة رقم ۳۱۳).
- ۵۵۳- نثر الهميان فى وفيات الأعيان (ذكر بالهدية).
- ۵۵۴- نثر الكنان فى الخشكنا (ذكر بالكشف و الهدية).
- ۵۵۵- النجاح فى الاجابة إلى الصلح (ذكر بالكشف و الهدية).
- ۵۵۶- نزول الرحمة فى التحدث بالنعمة (بمخطوط قوله ورقة رقم ۲۷۳).
- ۵۵۷- نزهة الاخوان و تحفة الخلان (ذكر بالكشف الظنون و الهدية).
- ۵۵۸- نزهة جلساء فى أشعار النساء (ذكر بالكشف و الهدية).
- ۵۵۹- نزهة العمر فى التفضيل بين البيض و السمر (دمشق ۱۳۴۹ هـ، بمخطوط قوله ورقة رقم ۲۶۷).
- ۵۶۰- نزهة المتأمل و مرشد المتأهل (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۳۵۲۸ ب).
- ۵۶۱- نزهة النديم (ذكر بالكشف و الهدية).
- ۵۶۲- نشر العبير فى تخريج أحاديث الشرح الكبير (ذكر بالهدية و حسن المحاضرة).
- ۵۶۳- نشر العلمين المنيفين فى إحياء الأبوين الشريفين (حيدرآباد الطبعة الأولى ۱۳۱۶ هـ).
- ۵۶۴- النصيحة فيما ورد من الأدعية الصحيحة (ذكر بالهدية).
- ۵۶۵- نظام البلور فى أسماء السّور (ذكر بكشف الظنون و الهدية).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۱۲

- ٥٦٦- النظم البديع فى مدح خير شفيح (انظر شرح نظم البديع).
- ٥٦٧- نظم الدرر فى علم الأثر (ألفية فى الحديث ذكرها صاحب الكشف، و ذكرت بالهدية، و شرحها بكتابه البحر الذى زخر).
- ٥٦٨- نظم العقيان فى أعيان الأعيان (نشر فيليب حتى، المطبعة السورية الأمريكية ١٩٢٧ م).
- ٥٦٩- نفع الطيب من أسئلة الخطيب (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٥٧٠- النفخة المسكية و التحفة المكية (ألفه بمكة فى يوم واحد (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٥٧١- النقاية فى موضوعات العلوم (مختصر فى أربعة عشر علما، شرحه و سمى الشرح إتمام الدراية).
- ٥٧٢- النقول المشرفة فى مسألة النفقة (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٥٧٣- النكت البديعات على الموضوعات (ذكر بحسن المحاضرة و الهدية).
- ٥٧٤- النكت على الألفية لابن مالك و الكافية و الشافية لابن الحاجب و شذور الذهب و نزهة الطرف لابن هشام (مخطوط بدار الكتب برقم ٥٥٨١٥ هـ).
- ٥٧٥- النكت اللوامع على المختصر و المنهاج و جمع الجوامع (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٥٧٦- النكت على النزهة (ذكر بالهدية).
- ٥٧٧- نواضر الأيك فى ال ... (مخطوط بدار الكتب برقم ٣٨٠٩ ج).
- ٥٧٨- نواهد الأبيكار و شوارد الأفكار على تفسير البيضاوى (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٥٧٩- نور الحديقة (منظومة له، ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ٥٨٠- نور الشقيق فى العقيق (ذكر بالهدية).
- ٥٨١- النهجة السوية فى الأسماء النبوية (مختصر للرياض الأنيقة، ذكره صاحب الكشف و ذكر بالهدية).
- ٥٨٢- النهر لمن برز على شاطئ النهر (منظومة طبعت بالحاوى ج ١ ص ٢٢٦).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤١٣
- ٥٨٣- الوافى فى شرح التنبيه (ذكر بالهدية).
- ٥٨٤- الوجه النضر فى نبوة الخضر (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٥٨٥- الوجه الناضر فيما يقتضيه الناظر فى الوقف (ذكر بالهدية).
- ٥٨٦- الوجيز فى طبقات الفقهاء الشافعية (ذكر بالهدية).
- ٥٨٧- الوديك فى فضل الديك (مخطوط بدار الكتب برقم ٢١٦٢٠ ب).
- ٥٨٨- الورقات فى الوفيات (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٥٨٩- الوسائل إلى معرفة الأوائل (ذكر بالكشف).
- ٥٩٠- الوشاح فى معرفة النكاح (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٥٩١- وصول الأمانى بأصول التهانى (طبعت بالحاوى ج ١ ص ١٢١، بمخطوط قوله ورقة رقم ١٠٩، مخطوط بدار الكتب برقم ٢١٦٠٦ ب).
- ٥٩٢- الوفية فى مختصر الألفية (ذكر بالكشف و الهدية).
- ٥٩٣- وقع الأسل فى ضرب المثل (بمخطوط قوله ورقة رقم ١٥٣).
- ٥٩٤- الهبة السنية فى الهيئة السنية (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ٥٩٥- هدم الجانى على البانى (طبعت بالحاوى ج ١ ص ١٧٧).

- ٥٩٦- همع الهوامع شرح جمع الجوامع فى علم العربية (الطبعة الأولى بمطبعة السعادة القاهرة ١٣٢٧ هـ).
- ٥٩٧- اليد البسطى فى تعيين الصلاة الوسطى (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ٥٩٨- ينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).
- ٥٩٩- اليواقيت الثمينه فى صفات السمينه (مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية برقم ٣٢ ضمن مجموعة).
- ٦٠٠- اليواقيت فى حروف «إذن» فى قولهم لاها الله اذن (ذكر بالكشف و الهدية).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤١٤

ثانيا: المصادر العربية و المترجمة (لغير السيوطى)

إبراهيم أنيس:

- ١- دلالة الألفاظ (مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٨ م).
- ٢- من أسرار اللغة (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م).
- ابن الأنبارى (أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن الأنبارى المتوفى عام ٥٧٧ هـ) ٣- الاغراب فى جدل الاعراب (تحقيق الأستاذ سعيد الأفغانى، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م).
- ٤- الانصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين و الكوفيين (تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، الجزء الأول الطبعة الأولى ١٣٦٤ هـ، الجزء الثانى الطبعة الثانية بمطبعة حجازى ١٩٥٣ م).
- ٥- لمع الأدلة فى أصول النحو (تحقيق الأفغانى، مطبعة الجامعة السورية دمشق ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م).
- ٦- نزهة الألباء فى طبقات الأدباء (تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائى، مطبعة المعارف - بغداد ١٩٥٩ م).
- إبراهيم الباجورى:

- ٧- حاشية الاسعاد على بانت سعاد (طبعت بهامش شرح ابن هشام على بانت سعاد، مطبعة الحلبي - القاهرة ١٣٤٩ هـ).
- ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفى المصرى المتوفى عام ٩٣٠ هـ) ٨- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، المعروف بتاريخ مصر (الأجزاء من

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤١٥

- ١- ٣ الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣١١ هـ، الجزء الرابع: الطبعة الثانية تحقيق محمد مصطفى - القاهرة ١٣٧٩ هـ).
- ابن بطوطه (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن بطوطه، المتوفى عام ٧٧٩ هـ) ٩- رحلة ابن بطوطه المسماة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار و عجائب الأسفار (نشر المكتبة التجارية، القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م).
- ابن جنى (أبو الفتح عثمان بن جنى المتوفى ببغداد سنة ٣٩٢ هـ) ١٠- الخصائص (تحقيق الأستاذ محمد على النجار، طبع دار الكتب، القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م إلى ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م).
- ابن حجر العسقلانى (أحمد بن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ) ١١- شرح نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر (تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر).

١٢- فتح البارى بشرح صحيح البخارى (الناشر عبد الرحمن محمد، طبع المطبعة البهية، القاهرة ١٣٤٨ هـ و ما بعدها).

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون المتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٨ هـ) ١٣- المقدمة (مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة).

ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي المتوفى عام ٣١١ هـ) ١٤- جمهرة اللغة (الطبعة الأولى، حيدرآباد ١٣٤٤ هـ - ١٣٤٥ هـ).

- ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن ايدير العلائى المتوفى عام ٨٠٩هـ) ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن ايدير العلائى المتوفى عام ٨٠٩هـ) ١٥- الانتصار لواسطة عقد الأمصار (الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية عام ١٣٠٩هـ).
- ابن سلام (محمد بن سلام الجمحى عام ٢٣١هـ) ١٦- طبقات فحول الشعراء (تحقيق الأستاذ محمود شاكر، دار المعارف بالقاهرة).
- ابن سيده (أبو الحسن على بن إسماعيل النحوى اللغوى الأندلسى المتوفى عام ٤٥٨هـ).
- ١٧- المخصص (طبع المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣١٦هـ، ١٧ جزء).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤١٦
- ابن الصلاح (أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى المتوفى عام ٦٤٢هـ) ١٨- المقدمة فى علوم الحديث (طبع و نشر شرف الدين الكتبى، بمباى، الهند ١٣٥٧هـ).
- ابن عقيل (بهاء الدين عبد الله بن عقيل المتوفى عام ٧٦٩هـ) ١٩- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، نشر المكتبة التجارية، الطبعة الثانية عشرة، صفر ١٣٨١هـ - يوليئ ١٩٦١م).
- ابن علان (محمد على بن محمد علان بن إبراهيم بن محمد بن علان المتوفى بالقاهرة عام ١٠٥٧هـ) ٢٠- شرح على الاقتراح للسيوطى (مخطوط بدار الكتب المصرية بالخزانة التيمورية برقم ٦٦٦ نحو).
- ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى المتوفى عام ١٠٨٩هـ) ٢١- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (نشر مكتبة القدسى بالقاهرة عام ١٣٥١هـ).
- ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى عام ٣٩٥هـ) ٢٢- الصحاحى فى فقه اللغة و سنن العرب فى كلامها (الناشر: المكتبة السلفية، القاهرة ١٣٢٨هـ - ١٩١٠م).
- ٢٣- معجم مقاييس اللغة (تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٦٦هـ).
- ابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر المتوفى عام ٧٥١هـ) ٢٤- إعلام الموقعين عن رب العالمين (نشر إدارة الطباعة المنيرية).
- ابن مضاء القرطبى (أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد المتوفى عام ٥٩٢هـ) ٢٥- الرد على النحاة (تحقيق الدكتور شوقى ضيف، نشر دار الفكر العربى القاهرة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤١٧
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن المكرم بن منظور المتوفى عام ٧١١هـ) ٢٦- لسان العرب.
- ابن النديم (محمد بن إسحاق المتوفى سنة ٣٨٥هـ) ٣٧- الفهرست (الناشر المكتبة التجارية- المطبعة الرحمانية، القاهرة).
- ابن هشام (أبو محمد جمال الدين عبد الله بن يوسف المتوفى سنة ٧٦١هـ) ٢٨- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (شرح محمد عبد العزيز النجار بعنوان منار السالك إلى أوضح المسالك، مطبعة الفجالة، القاهرة ١٩٥٣م - ١٩٥٤م).
- ٢٩- شرح شذور الذهب (تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الثامنة، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م - نشر المكتبة التجارية).
- ٣٠- شرح على قصيدة بانث سعاد لكعب بن زهير (مطبعة الحلبي- القاهرة ١٣٤٩هـ).
- ٣١- مغنى اللبيب عن كتب الأعراب (تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، نشر المكتبة التجارية، مطبعة السعادة).
- أبو الطيب اللغوى (عبد الواحد بن على الحلبي المتوفى عام ٣٥١هـ) ٣٢- شجر الدر فى تداخل الكلام بالمعاني المختلفة (تحقيق محمد عبد الجواد طبع دار المعارف بالقاهرة).
- ٣٣- مراتب النحويين (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع و نشر مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٥م).
- أبو على القالى (اسماعيل بن القاسم القالى البغدادى المتوفى سنة ٣٥٦هـ) ٣٤- الأمالى (الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢٤

هـ.

٣٥- ذيل الأمالى و النوادر (المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٣٢٤ هـ).

أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى المتوفى عام ٧٧٤ هـ) ٣٦- مختصر تاريخ البشر (طبع القسطنطينية عام ١٢٨٦ هـ).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤١٨

أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى المتوفى عام ٨٧٤ هـ) ٣٧- حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور (طبع جامعة كاليفورنيا ١٩٣٠ م).

٣٨- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م، و ما بعدها).

أحمد تيمور ٣٩- قبر الامام السيوطى و تحقيق موضعه (المطبعة السلفية و مكتبتها، القاهرة ١٣٤٦ هـ).

أحمد أمين ٤٠- ضحى الاسلام (الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م).

الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري المتوفى عام ٣٧٠ هـ) ٤١- تهذيب اللغة (تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة).

إسماعيل البغدادي ٤٢- هديّة العارفين: أسماء المؤلفين و آثار المصنفين (طبع وكالة المعارف المطبعة البهيّة، استامبول ١٩٥١ م).

الأشمونى (أبو الحسين على بن محمد المتوفى عام ٩٢٩ هـ) ٤٣- شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك (طبع و نشر دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة).

أمين الخولى ٤٤- محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية (مطابع دار الكتاب المصرى، ألفت عام ١٩٥٨ م و نشرها معهد الدراسات العربية العالية).

٤٥- مناهج تجديد فى النحو و البلاغة و التفسير و الأدب (دار المعرفة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦١ م).

٤٦- تعليق على مادة «أصول» بدائرة المعارف الاسلامية «الترجمة العربية».

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤١٩

بروكلمان (كارل) ٤٧- تاريخ الأدب العربى (نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار، الناشر جامعة الدول العربية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١ م).

البغدادي (عبد القادر بن عمر البغدادي المتوفى عام ١٠٩٣ هـ) ٤٨- خزائن الأدب و لب لباب لسان العرب (الناشر: المكتبة السلفية، القاهرة ١٣٤٧ هـ - ١٣٥١ هـ).

الثعالبي (أبو منصور عبد الله أو عبد الملك بن محمد المتوفى عام ٤٢٩ هـ) ٤٩- ثمار القلوب فى المضاف و المنسوب (القاهرة، مطبعة الظاهر عام ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م).

٥٠- فقه اللغة و سر العربية (نشر المكتبة التجارية، مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة).

الجرجاني (القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٦ هـ) ٥١- الوساطة بين المتنبي و خصومه (تحقيق أبو الفضل إبراهيم و البجاوى، الطبعة الثالثة، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة).

جورجى زيدان ٥٢- تاريخ آداب اللغة العربية (طبعة دار الهلال، مراجعة الدكتور شوقى ضيف، القاهرة).

الجوالقى (أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد المتوفى عام ٥٣٩ هـ) ٥٣- المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم (تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٣٦١ هـ).

الجوهري (إسماعيل بن حماد المتوفى عام ٣٩٣ هـ أو ٤٠٠ هـ) ٥٤- الصحاح (بتصحیح الشيخ نصر الهورينى).

حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله المتوفى عام ١٠٦٧ هـ) ٥٥- كشف الظنون عن أسامى الكتب و الفنون (طبع وكالة المعارف

(الحليّة).

الحريرى (أبو محمد القاسم بن على المتوفى عام ٤١٦ هـ) ٥٦- درة الغواص فى أوام الخواص (طبع لبيزج ١٨٧١ م).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٢٠

حسين نصار (دكتور) ٥٧- المعجم العربى: نشأته و تطوره (طبع دار الكتاب العربى، القاهرة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م).

الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن على بن ثابت المتوفى عام ٤٦٣ هـ) ٥٨- الكفاية فى علم الرواية (طبع دائرة المعارف العثمانية،

حيدرآباد ١٣٥٧ هـ).

خليل بن شاهين الظاهرى المتوفى عام ٨٧٣ هـ) ٥٩- زبدة كشف الممالك و بيان الطرق و المسالك (طبع باريس ١٨٩٤ م).

الداودى (محمد بن على بن أحمد الداودى المالكى المتوفى عام ٩٤٥ هـ) ٦١- طبقات المفسرين (مخطوط بدار الكتب المصرية برقم

١٦٨ تاريخ، متوسط الحجم يحتوى على ٣٤٤ ورقة، فعدد صفحاته ٦٨٨ صفحة).

الذهبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان المتوفى سنة ٧٤٨ هـ) ٦١- ميزان الاعتدال فى نقد الرجال (تحقيق البجاوى، دار إحياء

الكتب العربية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م).

الزجاجى (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق المتوفى سنة ٣٣٧ هـ) ٦٢- الايضاح فى علل النحو (الناشر مكتبة دار العروبة، القاهرة

١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م).

الزركى (خير الدين) ٦٣- الأعلام (الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ - ١٣٧٨ هـ، مطبعة كوستاتسوماس).

الزمخشري (جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) ٦٤- أساس البلاغة (طبع دار الكتب ١٣٤١ هـ - ١٩٢٢ م بالقاهرة).

٦٥- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل فى وجوه التأويل (الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٤٣ هـ).

٦٦- المفصل فى علم العربية (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة حجازى بالقاهرة).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٢١

السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى المتوفى عام ٩٠٢ هـ) ٦٧- التبر المسبوك فى ذيل السلوك (طبع المطبعة

الأميرية ببولاق سنة ١٨٩٦ م).

٦٨- الذيل على رفع الإصر عن قضاء مصر (الدار المصرية للتأليف و الترجمة، القاهرة ١٩٦٦ م).

٦٩- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (الناشر مكتبة القدسى، القاهرة ١٣٥٣ هـ، ١٣٥٤ هـ و ما بعدها).

سعيد عاشور (دكتور) ٧٠- العصر المماليكى فى مصر و الشام (الطبعة الأولى، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٥ م).

٧١- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (الطبعة الأولى، نشر دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٢ م).

السكاكى (أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على المتوفى عام ٦٢٦ هـ) ٧٢- مفتاح العلوم (مطبعة التقدم العلمية بمصر).

سليمان الجمل ٧٣- حاشية الجمل على الجلالين المسماة بالفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (طبع مع تفسير

الجلالين، مطبعة مصطفى محمد القاهرة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م).

سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المتوفى حوالى ١٨٠ هـ) ٧٤- الكتاب (طبعة باريس ١٨٨١ م - ١٨٨٥ م، طبعة بولاق ١٣١٦ هـ،

طبعة هارون ١٣٨٥ هـ، ١٣٨٨ هـ).

السيد خليل (دكتور) ٧٥- التصور اللغوى عند العرب (مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية المجلد الرابع عشر ١٩٦٠ م).

٧٦- اللغة بين الأدب و التشريع (مقال بمجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية، المجلد الثالث عشر ١٩٥٩ م).

٧٧- مصر فى تاريخ النحو (مقال بمجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية،

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٢٢

المجلد الثالث عشر ١٩٥٩ م).

السيد خليل (دكتور) ٧٨- الليث بن سعيد فقيه مصر (الناشر دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م).

الشافعى (الامام محمد بن إدريس الشافعى المتوفى عام ٢٠٤ هـ).

٧٩- الرسالة (تحقيق الشيخ أحمد شاكر، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٣٥٨ هـ - ١٩٤٠ م).

الشعرانى (أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على المتوفى عام ٩٧٣ هـ) ٨٠- لوائح الأنوار فى طبقات الأخيار أو الطبقات الكبرى (المطبعة العثمانية بالقاهرة سنة ١٣١٦ هـ).

٨١- ذيل الطبقات الكبرى، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٩٣ تاريخ متوسط الحجم، عدد أوراقه ١٣٩ ورقة، فصفحاته ٢٥٨ صفحة).

الشوكانى (القاضى محمد بن على الشوكانى المتوفى عام ١٢٥٠ هـ) ٨٢- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (الطبعة الأولى بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٤٨ هـ).

شوقى ضيق (دكتور) ٨٣- المدارس النحوية (دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م).

الصبان (محمد بن على الصبان المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ) ٨٤- حاشية الصبان على شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك (طبع و نشر دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة).

صبحى الصالح (دكتور) ٨٥- دراسات فى فقه اللغة (مطبعة جامعة دمشق ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م).

عبد اللطيف حمزة (دكتور) ٨٦- الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية (مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة).

٨٧- الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى و المملوكى الأول (الطبعة الأولى، دار الفكر العربى).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٢٣

عبد المتعال الصعدي ٨٨- المجددون فى الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر (مكتبة الآداب بالجمايز).

عبد الوهاب حمودة ٨٩- صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى (الدار المصرية للتأليف و الترجمة القاهرة ١٩٦٥ م).

عبد الوهاب عزام (دكتور) ٩٠- مجالس السلطان الغورى فى القرن العاشر الهجرى (مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة ١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م).

العيدروسى (شمس الشمس محيى الدين عبد القادر بن شيخ المتوفى عام ١٠٣٨ هـ) ٩١- تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر (تحقيق محمد رشيد الصفار المكتبة العربية ببغداد، ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م).

على عبد الواحد وافي (دكتور) ٩٢- علم اللغة (الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٦٣ هـ - ١٩٤٤ م).

الغزالى (أبو حامد محمد بن محمد المتوفى سنة ٥٠٥ هـ) ٩٤- المستصفى من علم الأصول (الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق القاهرة ١٣٢٢ هـ - ١٣٢٤ هـ).

فك (يوهان) ٩٥- العربية: دراسات فى اللغة و اللهجات و الأساليب (ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٧٠ هـ).

قندريس (جوزيف) ٩٦- اللغة (ترجمة د. عبد الحميد الدواخلى - محمد القصاص، نشر الأنجلو المصرية، ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠ م).

الفيروزآبادى (محمد بن يعقوب بن محمد المتوفى سنة ٨١٧ هـ).

٩٧- القاموس المحيط (المطبعة و المكتبة الحسينية بمصر).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٢٤

القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي المتوفى عام ٦٧١ هـ).

- ٩٨- الجامع الأحكام القرآن (الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م).
- القلقشندى (أبو العباس أحمد المتوفى عام ٨٢١ هـ).
- ٩٩- صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء (المطبعة الأميرية ١٣٣١ هـ و ما بعدها).
- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ) ١٠٠- الكامل فى اللغة و الأدب (المكتبة التجارية بالقاهرة).
- مجمع اللغة العربية ١٠١- مجلة مجمع اللغة العربية (الأجزاء من ١- ٢٢).
- ١٠٢- محاضر جلسات مجمع اللغة العربية (أدوار الانعقاد المختلفة).
- ١٠٣- مجموعة القرارات العلمية من الدورة الأولى إلى الدورة الثامنة و العشرين (أخرجها: محمد خلف الله أحمد- محمد شوقى أمين، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م).
- محمد صديق حسن خان ١٠٤- البلغة فى أصول اللغة (مطبعة الجوائب- القسطنطينية ١٢٩٦ هـ).
- محمد الطنطاوى ١٠٥- نشأة النحو تاريخ أشهر النحاة (الطبعة الرابعة- مطبعة وادى الملوك، القاهرة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م).
- محمد بن نظام الدين الأنصارى ١٠٦- فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت (طبع مع كتاب المستصفي للغزالي الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق، ١٣٢٢ هـ - ١٣٢٤ هـ).
- محمود السعران (دكتور) ١٠٧- علم اللغة: مقدمة للقارئ الربى (دار المعارف بمصر، فرع الاسكندرية ١٩٦٢ م).
- ١٠٨- اللغة و المجتمع: رأى و منهج (المطبعة الأهلية، بن غازى ١٩٥٨ م).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٢٥
- محمود رزق سليم ١٠٩- عصر سلاطين المماليك و نتاجه العلمى و الأدبى (الناشر مكتبة الآداب بالجمايز، المجلد الثانى ١٣٦٦ هـ، المجلد الثالث ١٣٦٨ هـ).
- مصطفى الشهابى ١١٠- المصطلحات العلمية فى اللغة العربية فى القديم و الحديث (نشر معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٥ م).
- مصطفى صادق الرافعى ١١١- تاريخ آداب العرب (تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الطبعة الثالثة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م).
- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على المتوفى سنة ٨٤٥ هـ) ١١٢- البيان و الاعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب (تحقيق د. عبد المجيد عابدين، طبع و نشر عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦١ م).
- ١١٣- الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار (مطبعة النيل بالقاهرة عام ١٣٢٦ هـ).
- ١١٤- السلوك لمعرفة دول الملوك (الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٧ م).
- جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٢٦

ثالثا: المصادر الأجنبية

- ١- .1962 B dleifmool (dranoel) «egaugnaL» ,nodnoL
- ٢- .1938 B nnamlekorB ٣ «rutarettiLnehchs ibrAreDethcihceG» ,llirB-
- ٣- .: «scitsiugni LlareneGnIesruoC» ,snarT -nerFehmtorfdetal ,ybhcn :niksiaBedaW ,kroYweN
- ٤- .acinatirBaideapo lcyneEhT dnandedF erussuaSeD
- ٥- .malsIfoaideapoc ycnEhT
- ٦-

nodnoL ,«nig -irOdnatnem poleveDerutaNstI :egaugnaL : (ottO)nesrepseJ, ١٩٥٩.

٥-

hceepS foydutseht otnoitcudortnInA :egaugnaL : (drawdE)ripaS.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٢٧

مسرد محتويات البحث

الموضوع الصفحة تصدير ٣ المقدمة ٥-١٤ الباب الأول عصر السيوطى و حياته و آثاره ١٥-١٧٢ الفصل الأول: الحياة السياسية و الاجتماعية ١٧-٥٤ سقوط بغداد ١٧ انتقال مركز الثقل السياسى و الحضارى للمسلمين إلى القاهرة ٢٠ انتقال الخلافة إلى القاهرة ٢١ مميزات العصر السياسي ٢٢ السلاطين فى عهد السيوطى، و مميزات هذه الفترة ٢٣ الخلافة و الخلفاء المعاصرون له ٢٨ نظم الحكم ٣٠ القضاء ٣١ الحسبة ٣٢ الحياة الاجتماعية ٣٤-٥٤ بناء المجتمع ٣٤ المماليك ٣٤ أرباب القلم ٣٦ طوائف المجتمع الأخرى ٣٨ الحياة فى المدن ٤٣

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٢٨

الموضوع الصفحة القلق الاقتصادى ٤٥ المجاعات و الأوبئة ٤٧ التصوف و المجتمع ٤٩ الفصل الثانى: الحياة الثقافية ٥٥-٩٠ نشاط الحركة العلمية ٥٥ دور العلم ٥٩ المدارس ٥٩ المدرسة الصلاحية و مدرسة السلطان حسن ٦٠ مدرسة صرغتمش ٦٠ خزائن الكتب ٦١ الخواص و الربط و الزوايا ٦١ خانقاه سعيد السعداء ٦٢ خانقاه شيخو ٦٣ الخانقاه البيروية ٦٥ المراكز العلمية الممثلة فى المساجد ٦٦ جامع عمرو ٦٧ جامع ابن طولون ٦٨ الجامع الأزهر ٦٨ عوامل نشاط الحركة العلمية ٦٩ نتائج نشاط الحركة العلمية ٧٣ نشاط التأليف ٧٤ منهج التأليف فى العصر- الاتجاه الموسوعى ٧٥ التقليد ٧٦ المتون و الشروح ٧٧ الاكتمالات و التذييلات ٨٠ تنظيم العلوم و استقرار المصطلحات ٨١

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٢٩

الموضوع الصفحة العناية بتاريخ مصر ٨٢ الحياة الأدبية ٨٤-٩٠ الشعر ٨٤ النثر و أنواعه و خصائصه ٨٦ الخطبة ٨٧ الرسائل ٨٨ المقامة ٨٩ الفصل الثالث: حياته و ثقافته و آثاره ٩١-١٧٢ مولده و نسبه ٩١ نسبه ٩٢ والده ٩٢ نشأته و حياته العلمية و العملية ٩٤-١٢١ نشأته ٩٤ دراسته ٩٥ شيوخه ٩٧ مراحل حياته ١٠٤-١٢١ مشاركته فى الحياة العامة ١٠٤ المرحلة الثانية ١٠٤ المرحلة الثالثة ١٠٥ العزلة الأولى ١٠٦ مشيخة البيروية ١٠٩ ولاية القضاء ١١٠ حادثة الصوفية ١١٢ اختفاء السيوطى ١١٤ العزلة الأخيرة ١١٦ وفاته ١١٩

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٣٠

الموضوع الصفحة قبره ١٢٠ مكانه فى المجتمع ١٢٢-١٤٢ السيوطى بين أنصاره و خصومه ١٢٦ انتقادات السخاوى ١٢٧ هجوم السيوطى على خصومه ١٢٧ دعوى الاجتهاد ١٣٣ الشوكانى ينتصر للسيوطى من بعده ١٣٧ خلقه و شخصيته ١٣٨ منهجه فى التفكير و أصول هذا المنهج ١٤٣-١٦٥ بلوغ درجة الاجتهاد ١٤٤ فكرة المبعوثية و دلالاتها ١٤٥ السيوطى و علوم الحديث ١٤٩ السيوطى و التصوف ١٥٣ السيوطى الفقيه ١٥٧ السيوطى و الأدب ١٥٨ السيوطى و الشعر ١٦٢ آثار السيوطى ١٦٦-١٧٢ الباب الثانى جهوده اللغوية ١٧٣-٣٧٠ تقديم ١٧٥ الفصل الأول: فقه اللغة أو: الدراسات اللغوية غير النحو و الصرف ١٧٩-٣١٠ مراحل حياة الدرس اللغوى و تدرجه قبل السيوطى، و أنواع الدراسات التى اعتمد عليها ١٧٩ آثاره اللغوية و مكانها من حياة الدرس اللغوى ١٩٠-٢٣٣

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٢٣١

الموضوع الصفحة ١- كتاب المتوكلى فيما ورد فى القرآن باللغة الحبشية ... الخ ١٩٠ قضية عربية ألفاظ القرآن بين الآراء المختلفة ١٩١ ملاحظات نقدية على منهج الكتاب و موضوعه ١٩٤ ٢- المذهب فيما ورد فى القرآن من المعرب ٢٠٠-٣ بعض الأبحاث اللغوية

المتصلة بالقرآن الكريم ٢٠٢ غريب القرآن ٢٠٢ ما فى القرآن بغير لغة الحجاز ٢٠٣ الخاص و العام ٢٠٤ ٤- رسالة فى أصول الكلمات ٢٠٥ مكان الرسالة من درس التطور الدلالى ٢٠٥ ملاحظات على الرسالة و موضوعها ٢٠٧ ٥- التبرى من معرة المعرى ٢٠٧ المنظومة و قضية الترادف فى اللغة ٢٠٧ ٦- التهذيب فى أسماء الذيب ٢١١ ٧- فطام اللسد فى أسماء الأسد ٢١١ ٨- الافصاح فى أسماء النكاح ٢١١ ٩- الافصاح فى زوائد القاموس على الصحاح ٢١٢ ١٠- الالماع فى الاتباع ٢١٢ الإلتباع فى اللغة، و درس السيوطى له ٢١٣ ١١- حسن السير فيما فى الفرس من أسماء الطير ٢١٤ صلة الرسالة بالمشترك اللفظى ٢١٤ المشترك اللفظى بين القدماء و المحدثين ٢١٥ ١٢- غاية الاحسان فى خلق الانسان ٢١٥ ١٣- شرح قصيدة بانة سعاد ٢١٦

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٣٢

الموضوع الصفحة مقارنة عمل السيوطى بما قام به ابن هشام و الباجورى ٢١٨ ١٤- الرياض الأنيقة فى شرح أسماء خير الخليفة ٢١٩ ١٥- الشماريخ فى علم التاريخ ٢٢٠ ١٦- المزهر فى علوم اللغة و أنواعها ٢٢٢ منهج السيوطى فى المزهر ٢٢٣ مصادر الكتاب ٢٢٤ نقول السيوطى ٢٢٦ ترتيب النقول ٢٢٧ منهجه فى النقل ٢٢٩ وضع أصول لنقد الرواية اللغوية ٢٣٣- ٢٦٥ نقد رواية الحديث و تدرجها ٢٣٣ رواية اللغة و الأدب ٢٣٦ تدرج نقد الرواية قبل السيوطى ٢٣٦ محاولة السيوطى ٢٣٨ منهج نقد الرواية و دور السيوطى فى تحديده ٢٤٠ المرحلة الأولى: النقد الخارجى ٢٤٠ أ- رواة اللغة ٢٤٠ آداب اللغوى ٢٤٥ كتابة اللغة ٢٤٦ الطبقات و الحفاظ و الثقات و الضعفاء ٢٤٦ الكنى و الألقاب و الأنساب ٢٤٨ المؤلف و المختلف ٢٤٩ تواريخ الرواة ميلادا و وفاة ٢٥٠ ب- الأسانيد ٢٥١ الصحيح ٢٥٣

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٣٣

الموضوع الصفحة المتواتر و الأحاد ٢٥٤ اتصال السند- المرسل- المجهول ٢٥٥ الأفراد ٢٥٦ المجهول ناقله و المجهول قائله ٢٥٧ طرق السماع و الرواية ٢٥٨ صيغ الأخذ و التحمل ٢٥٨ المصنوع من اللغة ٢١٢ المرحلة الثانية: النقد الداخلى أو نقد المتن ٢١٢ مفهوم اللغة عند السيوطى ٢٦٦- ٢٦٩ الألفاظ ٢٧٠- ٢٨٠ الآراء الصوتية للقدماء فى بحث الفصيح و عناية السيوطى بها ٢٧٠ الاعتبار الصوتى فى تصنيف الألفاظ ٢٧١ الاعتبار الصوتى و درس المستعمل و المهمل ٢٧٤ المعزب ٢٧٤ المولد ٢٧٦ الألفاظ الاسلامية و مباحث الدلالة ٢٧٨ اللهجات العربية ٢٧٩ المعنى أو الدلالة اللغوية ٢٨١- ٢٩١ علم الدلالة الحديث ٢٨١ خصائص اللغة ٢٨٢ بعض ما يتصل بمباحث الصوت و وضع بمباحث المعنى عند السيوطى ٢٨٢ الابدال ٢٨٢ القلب و النحت ٢٨٤ الاشتقاق و مباحث الدلالة ٢٨٥

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٣٤

الموضوع الصفحة مباحث متصل بالتغير الدلالى: الحقيقة و المجاز ٢٨٦ الخاص و العام ٢٨٨ المطلق و المقيد ٢٨٩ التضاد فى اللغة ٢٩٠ ضبط اللغة ٢٩٢- ٢٩٣ نشأة اللغة ٢٩٤- ٢٩٦ الصلة بين اللفظ و المعنى ٢٩٧- ٣٠١ الوضع اللغوى ٣٠٢- ٣٠٤ المعاجم اللغوية ٣٠٥- ٣٠٧ إثبات الأسماء بالقياس ٣٠٨- ٣١٠ الفصل الثانى: النحو ٣١١- ٣٧٠ تقديم ٣١١ آثاره النحوية ٣١٣- ٣٣٨ أنواع الآثار شكلا و مضمونا ٣١٣ ١- الأخبار المروية فى سبب وضع علم العربية ٣١٣ ٢- الأشباه و النظائر ٣١٤ ٣- الاقتراح ٣١٦ ٤- الفريدة: الألفية النحوية للسيوطى ٣١٧ ٥- المطالع السعيدة فى شرح الفريدة ٣١٨ ٦- شرح ألفية ابن مالك ٣٢٢ ٧- جمع الجوامع و شرحه همع الهوامع ٣٢٣ ٨- النكت على الألفية لابن مالك و الكافية ٣٢٥ ٩- الفتح القريب على مغنى اللبيب ٣٢٧ ١٠- شرح شواهد المغنى ٣٢٨ ١١- الشمعة المضية فى علم العربية ٣٢٩ ١٢- الموشح فى علم النحو ٣٢٩

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ٤٣٥

الموضوع الصفحة الفتاوى النحوية ٣٣٠ رسائل الحاوى ٣٣٣ ١- فجر الثمد فى إعراب أكمل الحمد ٣٣٣ ٢- ألوية النصر فى «خصيصى» بالقصر ٣٣٤ ٣- الزند الورى فى الجواب عن السؤال السكندرى ٣٣٥ ٤- رفع السنه فى نصب الزنة ٣٣٦ بقية الآثار ٣٣٧ السيوطى و علم أصول النحو ٣٣٩- ٣٥٦ البحث فى الأصول فى العلوم الاسلامية ٣٣٩ ربط أصول النحو بأصول الفقه ٣٤١ الجهود التى

سبقت السيوطي في وضع أصول للنحو ٣٤٢ العلل النحوية و تطور دراستها ٣٤٣ مقارنة الجهود السابقة بعمل السيوطي ٣٤٤ مميزات عمل السيوطي ٣٤٧ موقفه من الاحتجاج بالقراءات القرآنية ٣٥١ موقفه من الاحتجاج بالحديث الشريف ٣٥٢ موقفه من الاحتجاج بكلام العرب ٣٥٣ نقد صنيع السيوطي و سابقه في علم أصول النحو ٣٥٤ مذهبه النحوي ٣٥٧-٣٧٠ المدارس النحوية السابقة و خصائصها و أثرها في المدرسة المصرية ٣٥٨ تأثر السيوطي بالمذاهب السابقة و بالبيئة المصرية ٣٦٣ اختياراته و آراؤه الخاصة و تعليلاته، و خصائص مذهبه ٣٦٥ خاتمة ٣٧١-٣٨٠

جلال الدين السيوطي عصره و حياته و آثاره و جهوده في الدرس اللغوي، ص: ٤٣٦
الموضوع الصفحة مسرد المصادر و المراجع ٣٨١-٤٢٦ أولًا: أسماء مؤلفات السيوطي ٣٨١-٤١٣ ثانيًا: أسماء الكتب العربية و المترجمة لغير السيوطي ٤١٤-٤٢٥ ثالثًا: المصادر الأجنبية ٤٢٦ مسرد الموضوعات ٤٢٧-

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).
قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللهُ عَبْدًا أَحْيَا أُمَّرْنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا(ع)، الشَّيْخُ الصَّدُوقُ، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مُجْتَمَعِ "القائمية" الثَّقَافِي بِأَصْبَهَانَ - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللهُ - كان أحدًا من جَهَابِذَةِ هذه المدينة، الذي قد اشْتَهَرَ بِشَعْفِهِ بِأَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ (صلوات الله عليهم) و لاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)؛ و لهذا سَيَسَّ مع نظره و درايته، في سَنَةِ ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تَتَبَّعَ بِأَقْوَى و أَحْسَنَ مَوْقِفٍ كُلِّ يَوْمٍ.
مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصبهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطته من سَنَةِ ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عَزُّهُ - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافتهم الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأدق للمسائل الدينية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المبتدلة أو الرديئة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامعة ثقافية على أساس معارف القرآن و اهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...
- منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.
- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقية و مكتبيه، قابله للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينية، السياحية و...

(د) إبداع الموقع الانترنتى "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

ه) إنتاج المنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

و) الإطلاق والدعم العلمي لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخري مع عشرات مراكز طبيعية و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الدينية كمسجد جَمكران و...

ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع " ما قبل المدرسة " الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة

ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربي (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" و "مفتق" و فاني/ "بنايه" القائمية

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزات الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينية و العلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكّن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

